الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

المصادر العربية
مؤرخو القرن السابع (٦)

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء التاسع عشر

دمشق
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م

المصادر العربية

مؤرخو القرن السابع

الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

لأبي شامة

الجزء الثالث

دمشق ١٤١٦/ ١٩٩٥

فصل

في ذكر ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل الولايات بين أولاده

قال العماد: وكان السلطان لملازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه، وكان الملك الأفضل نور الدين علي بمصر، وهو ولده الأكبر، وقد بدأ يظهر، وعلى تجويد الخط والأدب وسماع الأحاديث النبوية يتوفر، وقد مالت إليه بمصر جماعة، وله منهم طاعة، وربما نقم تقي الدين النائب هناك من أحد أمراً فوقعت منه فيه شفاعة، فكتب يشكو من اختلال أمره، واشتغال سره، وكان في نفس السلطان أن ينقل ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر ليكون عزيزها، وليحرز مملكتها ويحوزها، وهو مفكر في طريق تدبيره ووجه تقريره، حتى بدا له نقل الأفضل إلى الشام، فكتب إليه يتشوقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته ووالدته وحشمه وأصحابه، فخرج ووصل دمشق يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى، وخرج السلطان لاستقباله وأنزله بالقلعة في دار رضوانه، وكتب إلى تقي الدين أنه استقل أمره، وزال عذره، فابتهج بتفرده وخفي عنه أنه كان في ذمة ولد السلطان وعصمته، وان تمام حرمته بحرمته.

قال: ولما وصلنا إلى دمشق كان بها من أولاد السلطان الملك الظاهر غازي غياث الدين، فزار عمه العادل، وهو صهره، وقد اشتد بمصاهرته، ظهره، فقال له: قد نزلت عن حلب لك، وأنا أقنع من أخي باقطاع أين كان، وألزم الخدمة ولاأفارق السلطان، فأطلبها من أبيك إن كانت ترضيك، وجاء الى السلطان وقال هذه حلب مع رغبتي لتوليها أرى أن أحد أولادك بها أحق، وهذا ولدنا الملك الظاهر أحب أن أوثره بها، فقال السلطان: المهم الآن تدبير ولدي الملك العزيز فإن مصر لابد

أن يكون لي بها ولـد أعتمد عليـه، وأسند ملكهـا إليه، ورحـل إلى الزرقـا، ومعه ولداه العزيز والظاهر وأخـوه العادل، فالتمس العادل عوض حلب بلادا عينهـا، ونواحي بمصر بينهـا وكان قد مـال الملك العزيـز إليه لاشفـــــــــــاقـــــــــــه عليـــــــــــــــه، فسأل أباه أن يسير معه العادل فإنه نعم الكافي الكافل، فأعطاه السلطان بمصر البلاد المعـروفة بالشرقيـة، واعتمد عليـه في نيابته في سـائر الممالك المصرية، ولما سمـع تقي الـدين هـذا الخبر نبا ونفـر، وذم الغير، واستبدل من الصفو الكدر، وغار من تغير الرأي فيـه، وإذا تولى أبو بكر فلا عمر، فعبر إلى الجيزة، مظهرا أنه يمضي إلى بلاد المغـرب ليتملكها، وكتب يسأل السلطان أن لايمنعه من سلوك مسلكها، وسمـت همته إلى مملكة جديدة، وأقاليم ذات ظلال مـديدة، وبلاد واسعة، ومدن شاسعـة، وقد كان أحد مماليكه المعـروف بقراقوش، قد جمع مـن قبل الجيوش وسار إلى بـلاد برقة فملكها، وهـزته الأمنيـة للنفائس مـن بلاد نفـوسة فـأدركها، وتجاوز إلى إفريقيـة وهو يكتب أبـدا إلى مالكه الملك المظفـر يرغبه في تلـك المملكة ويقـول إن البـلاد سائبـة، فلما تجدد لتقـي الـديـن ماتجدد، وتمهـد لعمـه العادل مـاتمهد، عاد لـه ذكر المغرب فعبر بعسكره، ومـالت إليه عسـاكر مصر لبذلـه، وقدم مملوكه بـوزبا في المقدمة، فلما انتهـى الى السلطان خبر عزمه قال: لعمري إن فتح المغرب مهـم، ولكن فتح البيت المقدس أهم، والفائدة بـه أتم، والمصلحـة منه أخـص وأعم، وإذا تـوجه تقـي الديـن، واستصحب معـه رجالنـا المعروفـة، ذهب العمـر في اقتناء الـرجال، وإذا فتحنا القدس والساحل طوينا إلى تلك الممالك المراحل، وعلم لجاج تقي الدين في ركوب تلك اللجة، فكتب إليه يـأمره بالقدوم عليه، وجهز ولده العزيز إلى مصر، وقرر له قوص، وأعمالها، وسـار معه عمه العادل، فدخلا القاهـرة في خامس شهر رمضـان، وأما الملك الظاهـر فسيره السلطان إلى حلب وأنعـم عليه بها، وبسائر قـلاعها وأقـاليمها، وندب معـه الحاجب شجاع الدين عيسى بن بلاشـو، وعاد السلطان ومعه الأفضل، وقدم تقي الديـن في آخر شعبان، وتلقـاه السلطان وخيـم على المصري فوق قصر أم

حكيم، فلما قـرب ركب إلى مـوكبه، ورحـب به ودخـل دمشق، وعـاد إلى ماكان له من البلاد ومنح المعـرة وسائر أعمالها، ثم أضاف إليه ميافارقين، وجميع مافي ذلك الاقليـم من المعاقل، وكتب إلى مصر باستـدعاء رجاله، وإعلامهم بتأخير عزم المغرب بل ابطالـه، فامتثلوا الأمر، وفارقوا إلى الشام مصر، سوى مملـوكه زيـن الدين بوزبا فـإنه رتـب له عسكـر إلى المغرب فمضى واستصحبه وغلـب على بلاد إفريقية، ثم قصده صـاحب المغرب فأخـذه مأسـورا، ثم أغـزاه مع الغز في ثغـر من الثغـور فألفـاه مشهورا مشكورا، فقدمه عليهم.

قلت: وكتـب الفاضل إلى تقـي الدين:« سبـب هذه الخدمة مـااتصل بالمملـوك من تردد رسائل مولانـا في التماس السفر إلى الغرب، والـدستور إليه— يكفي الزمان فما لنا نستعجل— يامـولانا ماهذا الواقع الذي وقع، وماهذا الغريم من الهم الذي ماانـدفع، بالأمس ماكان لكم من الدنيا إلا البلغة، واليوم قد وهـب الله هذه النعمة، وقد كان الشمـل مجموعا، والهم مقطوعا ممنوعا، أفتصبح الآن الدنيـا ضيقة علينا، وقد وسعت، والأسباب بنا مقطوعة، ولا واللـه ماانقطعت، يامولانا إلى أين ومالغـاية وهل نحن في ضـائقة مـن عيش، أو في قلـة مـن عدد، أو في عـدم من بـلاد، أوفي شكوى مـن عدم، كيـف نختار على اللـه، وقد اختـار لنا، وكيـف ندبـر لأنفسنا وهو قـد دبر لنا، وكيف ننتجـع الجدب، ونحن في دار الخصب، وكيف نعـدل إلى حرب الاسلام المنهي عنهـا، ونحن في المدعو إليهـا من حرب أهل الحرب، معاشر الخدام والجيـش، وأرباب العقول والآراء أليس فيكم رجل رشيد:

تعقـــب الـــرأي وانظـــر في أواخـــره
فطـــالما اتهمـــت قـــدمـــا أوائلـــه

لازال مولانـا يمضي الآراء صائبـة، ويلحظها باديـة وعاقبـة، ولاخلت

منه دار إن خلت فهيهات أن تعمر، ولاعدمته أيام إن لم تطلع فيها شمس وجهه دخلت في عداد الليالي فلم تذكر».

وقال القاضي ابن شداد: وفي سابع عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين وصل الملك الأفضل إلى دمشق، ولم يكن رأى الشام قبل ذلك، وكان السلطان رأى رواح الملك العادل إلى مصر، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المظفر، فما زال يفاوضه في ذلك وهو على حران مريض، وحصل ذلك في نفس العادل فإنه كان يحب الديار المصرية، فلما عاد السلطان إلى دمشق ومن الله بعافيته سير يطلب العادل إلى دمشق، فتجهز من حلب جريدة، وأقام بدمشق في خدمة السلطان يجري بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرر إلى جمادى الآخرة، فاستقر عود العادل إلى مصر ويسلم بلاد حلب إلى الظاهر، وسلم السلطان إليه ولده الملك العزيز، وجعله أتابكه.

قال: ولقد قال لي الملك العادل لما استقرت هذه القاعدة: اجتمعت بخدمة الملك العزيز، والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للعزيز: إعلم يامولاي أن السلطان قد أمرنى أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم أن المفسدين كثير وغدا فما نخلوا ممن يقول مالايجوز عني، ويخوفك مني، فإن كان لك عزم تسمع فقل لي حتى لاأجيء، فقال: لاأسمع وكيف يكون ذلك، ثم التفت وقلت للملك الظاهر: وأنا أعرف أن أخاك ربما سمع في أقوال المفسدين، وأنا فمالي إلا أنت وقد قنعت منك بمنبج، متى ضاق صدري من جانبه، فقال: مبارك، وذكر كل خير، ثم إن السلطان سير ولده الظاهر إلى حلب، وأعادها اليه، وكان رحمه الله يعلم أن حلب هي أصل الملك وجرثومته وقاعدته، ولهذا دأب في طلبها ذلك الدأب، ولما حصلت له أعرض عما عداها من بلاد الشرق، وقنع منهم بالطاعة والمعونة على الجهاد، فسلمها إليه علما منه بحذاقته وحزمه، وحفظه، فسار حتى أتى العين المباركة، وسير في خدمته شحنة حسام الدين بشارة، وواليا شجاع الدين عيسى بن بلاشو، ونزل يوم الجمعة

بـالعين المباركـة، وخرج النـاس إلى لقـائه في بكرة السبـت تاسـع جمادى الآخرة، وصعـد القلعة ضاحـي نهاره، وفرح الناس به فـرحا شديـدا، ومد على الناس جناح عدله، وأفاض عليهم وابل فضله.

وأما الملك العـزيز والعادل فإن السلطان قرر حـالهما، وكتب إلى الملك المظفر يخبره بمسيرهما إلى مصر، ويـأمره بـالوصـول الى الشام، فشـق ذلك عليه حتى ظهـر للناس، وعزم على المسير إلى ديار الغرب إلى بـرقة، فقبح ذلك عليـه جماعة من أكـابر الدولة، وعـرفوه أن عمه السلطـان يخرج من يـده في الحال، واللـه يعلـم مـايكون منـه بعـد ذلـك، فـرأى الحق بعين البصيرة، وأجـاب بـالسمع والطـاعـة، وسلـم البلاد، ورحـل واصـلا إلى خـدمة السلطـان، فسار السلطـان الى لقـائه، فلقيه بمـرج الصفر، وفـرح بوصـوله فرحا شـديدا، وذلك في الثـالث والعشرين من شعبـان، وأعطاه حماة وسار اليها، وكان عقد بين الظاهر وبعض بنات العادل عقد نكاح، فتمـم ذلـك،ودخـل بها يـوم الأربعـاء السـادس والعشريـن مـن شهـر رمضان، ودخـل الملك الأفضل على زوجتـه بنت نـاصر الدين محمـد بن شيركوه في شوال من هذه السنة.

ومـن كتـاب فـاضلي إلى السلطـان:« الملــك العـادل والملـك المظفـر المذكـوران مـاهما أخ وابـن أخ بـل هما ولـدان لايعـرفـان إلا المولى والـدا ومنعما، وكل واحد منهما له عش كثير الفراخ، وبيـت كرقعة الشطرنج فيه صغـار وكبار كـالبيـادق والرخـاخ، فلا يقنـع كـل واحد منهما إلا طـرف يملكه، وأقليم يتفرد بـه، فيدبر مولانا في ذلك بما يقتضيـه صدره الواسع، وجوده الذي مانظـر مثله الناظر، ولاسمع السامع، ولاينـس قول عمر بن الخطاب رضي اللـه عنه:« مـروا القرابـة أن يتزاوروا ولايتجـاوروا»، وماعلى مولانا عجلة في تدبير يدبره، ولافي أمـر يبته « وستبدي لك الأيام ماكنت عـارفا»، وفي غـد ماليـس في اليوم، وللـه اقدار، ولها أمـد، وقد رزق اللـه مولانا ذرية تـود لو قدمت أنفسها بين يديه، ولـو اكتحلت اجفانها بغبار

قدميه، مافيها من يشكي منه الا التزايد في الطلب، وهو من باب الثقة بكرم المنعم، ولهم أولاد، والمولى مد الآمال لهم، كما قال مولى الأمة: «تناكحوا تناسلوا فإني مكاثر بكم الأمم»(٣٤) طالما قال لهم المولى لدوا وعلي تجهيز الإناث وغنى الذكور، وسواء على أفق البيت طلوع الشموس والبدور».

قال العماد: ومدحت تقي الدين بقصيدة سينية سنية، قطوفها دانية جنية، تشتمل على مائة وأربعين بيتا، أنشدته إياها في ثالث شهر رمضان من هذه السنة بدمشق، وأوردت بعضها ومطلعها:

عفا الله عنكم عن ذوي الشوق نفسوا
فقد تلفت منا قلوب وأنفس
ألم تعلموا أني من الشوق موسر
ألم تعلموا أني من الصبر مفلس
ظننتم بعيني أنها تألف الكرى
فهلا بعثتم طيفكم يتجسس
وليس لقلبي في السرور تصرف
فقلبي على الأحزان وقف محبس

ومنها:

لفتك محبيه تيقظ طرفه
وتحسبه من سقم عينيه ينعس
له ناظر عند الخلاف مناظر
يقول دليل الدل عندي أقيس
إذا درست ألحاظه السحر أصبحت
رسوم اصطباري درسا حين تدرس
ولم أنس أنسي بالحمى رعى الحمى
عشية لي مجنى ومجلى ومجلس
لحى الله أبناء الزمان فكلهم
صحيفته أودى بها المتلمس

ولــولا ابتســـامــات المظفــر بــالنــدى
لما راق نفسي صبحـــــه المتنفـــــس
جلــت شمــس لقيــاه الحنــادس بعــدمــا
عــرتنــا وهــل يبقى مــع الشمس حنـدس
وصــــار بـــه هـــذا الـــزمـــان جميعــه
نهارًا فما للنــــاس ليــــل معسعـــس
إذا صـــال فـــا المفلـــول ألـــف مــدرع
وإن جــاد فـــا المبـذول ألـــف مكيـس
وليـــس بمغبـــون على فضـــل رأيـــه
ويغبـــن في الأمــــوال منـــه ويبخـــس
إذا أطلـــق الملـــك المظفـــر في الـــوغـــى
اعنتــه فـــالشمــس بـــالنقـــع تحبـس
فــــداك ملــــوك لا يلبــــون داعيـــا
وكلهــــم عــــن دعـــوة الحق يخنـــس
تشكــى إليــك الغــرب جــور ملــوكــه
فــاشكيتــه والجور بــالعــدل يعكــس
سيهـــدى إلى المهـــديـــة النصر والهدى
بهديكــــم فيهـــا وتــــونـــس تـؤنـــس
رددت كـــراديـــس الفـــرنـــج وكلهـــم
لــدى الأسر في غــل الصغــار مكــردس
وبيضــت وجـــه الـــديـــن يــوم لقيتهـــم
وأبيضكـــم مـــن أســـود القصر أشـــوس
أفـــادم الأنجـــاس طهـــر سيـــوفكـــم
ومـــا يستفـــاد الطهــر لــولا التنجـس
شمـــوس ظبـــى تغـــدو لها الهام سجـــدا
فللــــــه نصرانيـــــة تتمجـــــس
وكـــم كفـــى الاســـلام ســوءا بملككـــم
كفيتـم على رغـم المعـاديـن كـل سـو

ولا يفتــح البيــت المقـــدس غيركـــم
وبيتكـم مــن كــل عــاب مقــدس
لهم كـــل يـــوم في جهـــاد مثلـــث
إذا نصروا التـــوحيــــد فيء مخمـــس
إذا مــا تقــي الــديـن صــال تســاقطـت
لأقــدامـــه مــن عصبــة الشرك أرؤس
ومــــا عمـــر إلا شبيـــــه سميـــــه
شــديـد على الأعــداء ثبـت عمـرس

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: كان المنجمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في هذه السنة في شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان بطوفان الريح في سائر البلدان، وخوفوا بذلك من لاوثوق له باليقين ولاإحكام له في الدين، من ملوك الأعاجم والروم، وأشعروهم من تأثيرات النجوم، فشرعوا في حفر مغارات في التخوم، وتعميق بيوت في الأسراب، وتوثيقها، وسد منافسها على الريح وقطع طريقها ونقلوا إليها الماء والأزواد، وانتقلوا إليها وانتظروا الميعاد، وكلما سمعنا بأخبارهم استغربنا في الضحك من عقولهم، وسلطاننا متنمر من أباطيل المنجمين، موقن أن قولهم مبني على الكذب والتخمين، فلما كانت الليلة التي عينها المنجمون لمثل ريح عاد، وقد شارفنا الميعاد، ونحن جلوس عند السلطان في فضاء واسع، وناد للشموع المزهرات جامع، ومايتحرك لنا نسيم ولالسرح الهواء في رعي منابت الأنوار مسيم، فما رأينا ليلة مثلها في ركودها وركونها، وهدوها وهدونها.

قال ابن القادسي: وحكم أصحاب النجوم أن في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السيارة الخمسة، والشمس والقمر في برج الميزان، ويؤثر ذلك هواء عظيما وغيما سموميا، وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين تهلك البلاد، وتحمل الرمل ونسبوا ذلك إلى الخوارزمي، وقالوا:يكون أشد ذلك من ليلة الثلاثاء إلى نصف ليلة الأربعاء، فاستعد لذلك أقوام في البلاد، وجمعوا الكعك وحفروا السراديب، فأهل رجب وماجرى مما قالوا شيء فخزي أهل التنجيم لذلك، ولم يهب في ذلك اليوم هواء البتة، وكان الزمان حارا واشتد الحر في ذلك اليوم وبعده، ولم يظهر مما قالوا شيء، وعمل الشعراء في ذلك

شعرا يزرون عليهم في حكمهم، منهم نجم الدين أبو الغنائم محمد بن علي بن المعلم الهرثي، وفخر الدين عيسى بن مودود دزدار قلعة تكريت، وأبو الفتح سبط ابن التعاويذي. قال أبو الغنائم بن المعلم:

قل لأبي الفضل قول معترف
مضى جمادى وجاءنا رجب
وما جرت زعزعا كما حكموا
ولا بدا كوكب له ذنب
كلا ولا أظلمت ذكاء ولا
أبدت أذى في قرانها الشهب
يقضي عليها من ليس يعلم ما
يقضي عليه هذا هو العجب
فارم بتقويمك الفرات والاصـ
ـطرلاب خير من صفرة الخشب
قد بان كذب المنجمين وفي
أي مقال قالوا فما كذبوا
مدبر الأمر واحد ليس
للسبعة في كل حادث سبب
لا المشتري سالم ولا زحل
باق ولا زهرة ولا قطب
تبارك الله حصحص الحق وانجا
ب التمادي وزالت الريب
فليبطل المدعون ما وضعوا
في كتبهم ولتخزق الكتب

قال عيسى بن مودود:

مزق التقويم والزيج
فقد بان الخفاء
إنما التقويم والز
يج هواء وهباء

قلـــــت للسبعـــــــة ابــــــرا
م ومنـــــــــع وعطـــــــــاء
ومتـــــى ينـــــزلـــــن في المــــــ
ــــــيزان يستـــــولي الهواء
وتثير الـــــــرمـــــــل حتــــــى
يمتلي منـــــــه الفضــــــاء
ويعـــــم الأرض خســـــــف
وخـــــــراب وبــــــلاء
ويصير القـــــــاع كالقــــــــ
ــــف وكـــالطـــود العـــراء
وحكمتـــــم فـــــأبــــى الحا
كـــــم إلا مـــــا يشـــــاء
مــــــا أتــــــى الشرع ولا
جـــــاءت بهذا الأنبيـــــاء
فبقيتــــــم ضحكـــــة تضــــــ
ـــــحك منهـــــا العلماء
حسبكـــــم خـــزيـــا وعـــارا
مــــا تقــــول الشعـــراء
ثـــم مــــا أطمعكـــم إلـــى الــــ
ــــحكم إلا الأمـــــراء
ليـــــت إذ لم يحسنــــوا في الــــ
ـــدين ظنـــا ومـــا أســـاءوا
فعلى اصطـــــرلاب بطـــــــ
ـــليموس والـــزيـــج العفـــاء
وعليـــــه الخزي مـــــا
جـــــــادت على الأرض السماء

ولم يذكر شعر سبط ابن التعاويذي

قال: وفي السابع والعشرين من شوال تـوفي محمد أبو عبد الله بن بري ابن عبـد الجبار النحوي، وكـان آية في النحـو ثقة عالما صـالحا، مبلدا في أمر دنياه حدث عن ابن الخطاب، ومرشد بن صادق وغيرهما.

قال العماد: وفي هذه السنـة جاء نعي أتابـك محمد بن أتابـك إيلدكز المعـروف بالبهلـوان، وهـو الذي كـان نـزل على خلاط في العـام الماضي، وكانت حيـاته متصلة الجد والجدى، واضطربت من بعـده تلك الممالك، واختربت أصفهـان وإلى اليوم مـن سنة أربـع وتسعين ماوضعـت الحرب أوزارها، وتـولى بعده أخوه قـزل أرسلان، فأزال مهـابة الملك السلجـوقي، وسلك نهج السعيد الشقي، إلى أن ذهب،فاتضع الملك، وانقطع السلك، واتسع الهلك، وطمعت خراسان في العراق، وعـدمت الإفاقة من الآفاق، وأظلمت مطالع الإشراق.

قـال:واشتغل السلطـان في بقيـة سنة اثنتين وثمانين بـدمشـق بالصيـد والقنص والانتهـاز فيه لبوادر الفرص، وكـان يركب إلى تل راهـط للصيد بالبـزاة والشواهين مع ممـاليكه الخواص الميـامين، وله شاهين يجري كـأنه بحر، إذ حلق فشرار، وإن أحرق فجمر، فكم صـاد ليوسف يعقوبا، وعقر بإنجـاز وعد صيـده عرقـوبا، فطلبتـه من السلطـان، فقال: أنـت للقلم والـدواويـن، فمالك والبـزاة والشـواهين؟ فقلـت: يكون في ملكـي وكـل مايقنصـه يأمر لي به المولى، وهـذا أربح لي وأنفع وأولى، فقـال: نعم، فلما أصبـح سير لي سبـع عشرة قطعـة مـن طير وحجـل، وقـال: هـذا صيـد شاهينـك في طلق واحد على عجـل، فملكت ذلك الشـاهين خمس ست سنين والسلطان يصطـاد به ولي قنصـه، وله مطلعـه، فما زال لي على هذا الحق محافظا، ولهذه النكتـة ملاحظـا إلى أن أودى الجارح وانقطعت تلـك المنائح، فيالله دره من سلطـان لم ينس ذكر هذه القضية التي أعـاد مزحها جدا، واعتـده لي حقامعدا، فـدون حقه على مثلـه أن يؤسف، ومـن حقنا بعده أن نتلوا(يا أسفي على يوسف)(٣٥) .

قال: ولما دخل شهر رمضان نوع أقسام الإنعام، واتفق أن بعض التجار كانت بضاعته بقلير رفيعه، وماالها نفاق، وهي أكثر من مائة قطعة فحملها إلى الخزانة السلطانية في بضاعات، وقال: خذوها واكتبوا لي بأثمانها في مصر على بعض الجهات، فاشتريت منه بما كان يرجوه من الربح، وكان من كرم شيم السلطان إذا عرف في خزانته موجودا، أنه لايستطيب تلك الليلة حتى يفرقه جودا، فقال لي: قد اجتمعت لنا بقلير وعمائم، وقد تقاضتني نفسي بخلعها على أهل الفضل والمكارم، فنبدأ بأهل الدين والتقوى، ونجعل لهم أوفر حظ من الجدوى، وكان في الوافدين ومن أهل البلد وعاظ وعلماء وحفاظ، فيكون كل يوم بكرة نوبة لمن يتكلم على المنبر، ويذكرنا بالحلال والحرام والبعث والمحشر، ثم يخلع عليهم وعلى القراء فاشتغل مدة اسبوعين بالمواعظ، ووضع المنبر في إيوان القلعة، فقلت: بقي إحضار الفقهاء في المدة الباقية من الشهر، فقال: إنهم يمضي بهم الخلاف إلى التشاجر والتضاغن، فقلت: أنا أضمنهم، ولايحضر إلا أوقرهم وأرزنهم، فاستدل أول يوم برهان الدين مسعود مدرس الحنفية في المدرسة المعمورة النورية، واعترض عليه العماد الكاتب، وفي اليوم الثاني استدل أكبر مشايخ الحنفية بدر الدين عسكر واعترض عليه قاضي القضاة محيي الدين بن الزكي، فكان السلطان يجلس في كل يوم لطائفة، فلما دنا العيد أمر بابتياع العمائم وغيرها وصرفها إليهم.

قال القاضي ابن شداد: وفي شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين وقعت وقعات كثيرة بين التركمان والأكراد بأرض نصيبين وغيرها، وقتل من الفئتين خلق عظيم، وبلغ السلطان أن معين الدين قد عصى بالراوندان، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه، وكان نزولهم عليه في العشر الأول من سنة اثنتين وثمانين، وأعطى برج الرصاص لتميرك في بقية ذلك الشهر، وفي ثاني جمادى الأولى وصل معين الدين من

الـراونداان، وقـد سلمهـا إلى علـم الديـن سليمان، ثـم مضـى إلى خدمـة السلطان.

قـال ابن القـادسي: وقـدم الحاج في عـاشر صفر، فـأخبروا أن سيـف الاسلام أخـا صلاح الديـن ملك مكة وضرب الدنـانير فيها باسـم أخيه، ومنـع مـن قـولهم حـي على خير العمـل، وشرط على العبيـد أن لايـؤذوا الحاج، وأخبر الحاج أن قفل باب الكعبة تعسر حتـى فتح، ولما فتح مات في الدوسة أربعة وثلاثون شخصا من بين رجل وامرأة.

قال: ووصل الخبر أن ريحا هبت بـالبصرة فكسرت نخيلا كثيرا، وماتت بهائم كثيرة، ووصـل الخبر إلى بغـداد بقتـل البهلـوان، وأن القتـال وقـع هناك، واحرقت المحال، ونهبت الأمـوال، واقتتل أهل المذاهب، واحترقت مدارس وبقـي الأمر على ذلك مـن سابـع محرم إلى ربيع الآخر، فـاحصوا من القتلى أربعـة آلاف رجل وسبـع عشرة امرأة بعـد أن احترق أطفال في المهود بالليل،وقـام قزل أخو البهلوان، فكف الناس.وكـان قزل قد رتب شحنة في إصفهان بعـد الفتنة التي وقعت بها، ومعـه ألف فارس، فما زال يهذب البلد والـرساتيق بالقتـل والصلب، وصادرهم وأشير على قـزل بأن يلزم أهـل البلد سبعين ألف دينـار، فقال لـه الشحنة: أهل البلـد فقراء، فقال بعـض المصالحة لقزل: مـانأخذ إلا من الأغنيـاء، فوثب عيـار فقتل المصلحـي، وكان العيـار متعلقا على قـاضي البلـد، فوكـل الشحنة بـدار القاضي، فجاء ابـن الخجندي إلى دار القاضي فحسن لـه إخراج الموكلين بـه وتحالفا على إخـراج الشحنة مـن البلد، وأن يقطعـوا خطبة السلطـان الذي نصـب قزل، ففعـل ذلك في سابـع شوال، ثـم كثر القتـل في البلد فكل من في قلبـه على أحد شر وثب عليه فقتله من رجـل أو امرأة، وكان القتل الكثير في أصحـاب ابن الخجندي، وكـان الحريق والنهـب واحراق الدور في أصحـاب القاضي، وجـرى القتال يوم عـرفة، ويـوم العيد ودام، وبطل الناس من المعـايش، وخربت الأسواق ووقع الغـلاء، ومات الناس

- ٨٤٨٦ -

من الجوع، وبقـي أهل أصفهان على قـدم الخوف، وأخذت ثيـاب الناس فلا يتجاسر أحد ان يلبس ثوبا جديدا، والعيارون يـأخذون أموال الناس مقاواة، وهرب الناس من أصفهان.

فصل

قال العماد: مما قدره الله تعالى مـن أسباب نصرة الاسلام، ووهن الكفر أن قمص طـرابلس رغب في مصافـاة السلطان والالتجاء إليه والمسـاعدة له على أهـل ملته بسبب أنـه كان تزوج بالقمصيـة صاحبة طبريـة، وكان أخوها الملك المجذوم لما هلك أوصى بـالملك لابن أخته هذه وهو صغير فتزوج القمـص أمه وربـاه، فمات الصغير وانتقل الملـك إلى أمه، ثـم أنها مدت عينها إلى بعـض المقدمين من الغرب فتـزوجته وفوضت الملـك إليه فشرع يطلـب حساب البـلاد من القمـص،[٣٦] فـوقع الاختـلاف بينهـم لذلك فالتجأ القمص إلى ظل السلطـان، فصار له من جملة الأتباع فقبله السلطان وقـواه، وشد عضـده بإطـلاق من كـان في الأسر من أصحـابه، فقـويت منـاصحته للمسلمين، حتـى كاد لـولا خوف أهـل ملته يسلـم، وصـار بدولـة السلطـان وملكـه يقسم، ومـال إليـه مـن الفرنـج جماعـة، وظهرت له منهم للطاعـة طاعة، ودخلت إلى بلادهم مـن جانبه السرايا، وخـرجت بـالغنـائم والسبايـا، وأعطـى الـدنية في دينـه بما استـدناه مـن العطايا، فصار الفـرنج يدفعون شره، ويحذرون مكره، فتارة يـدارونه، وآونة يمارونه، وللقمـص قوم صدق يسـاعدونه في كـل حق وباطـل، فبلي منهم أهل الساحل بشغـل شاغل، وهذا الملك المجذوم وهـو ابن الملك أماري إبن فلـك، وهو مـري الذي تقدم ذكـره، وتوفي أمـاري في آخر سنـة تسع وستين سنة مـات نور الـدين رحمه الله تعـالى، وخلف الملعـون هذا الـولد المجـذوم، فبقي بينهـم زهاء عشر سنين ملكـا مطاعـا، فلما حضره الموت أوصى لابن أخته بالملك.

قال: وكـان ابرنـس الكرك أرنـاط أغدر الفـرنجية وأخبثهـا، وأفحصها عن الردى والـرداء، وأبحثها وأنقضها للمواثيـق المحكمة والأيمان المبرمة، وأنكثها وأحنثها، ومعـه شرذمة لها شر ذمة، وهي من شر أمـة، على طريق الحجاز، ومـن نهج الحج على المجاز، وكنـا في كل سنـة نغزوه، وبـالبوائق

نعروه، ويصيبه منا المكروه، فأظهر أنه على الهدنة، وجنح للسلم، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه، وبقي الأمن له شاملا، والقفل من مصر في طريق بلده متواصلا، وهو يمكن الجائي والذاهب، حتى لاحت له فرصة في الغدر، فقطع الطريق وأخاف السبيل، ووقع في قافلة ثقيلة، معها نعم جليلة، فأخذها بأسرها، وكان معها جماعة من الأجناد، فأوقعهم في الشرك، وحملهم إلى الكرك، وأخذ خيلهم والعدة، وسامهم الشد والشدة، فأرسلنا إليه وذممنا فعاله، وقبحنا احتياله واغتياله، فأبى إلا الإصرار والإضرار، فنذر السلطان دمه ووفى في إراقة دمه بما التزمه، وذلك في السنة الآتية، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وأقام السلطان بدمشق بقية هذه السنة، وهو في الإستعداد للجهاد، وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمصرية، فانتظمت أموره على أحسن قضية.

ومن كتاب فاضلي إلى بعض أخوانه: « كتبت هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق، وقد ورد السلطان أعز الله أنصاره للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر إلى أن لايحصله الخاطر، وقد نهضت به همة لايرجى غير الله لإنهاضها ونجحت به عزمة الله المسؤول في حسم عوارض اعتراضها، وباع الله نفسا يستمتع أهل الاسلام بصفقتها، ويذهب الله الشرك بهيبتها، وأرجو أن يتمحص عن زبدة، وتستريح الأيدي بعدها عن المخض، وأن يكون الله قد بعث سفتجة نصرة الاسلام، وسلطانه قد نهض للقبض».

- ٨٤٨٩ -

ثم دخلت

سنة ثلاث وثمانين

وهي سنة كسرة حطين، وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين

قال العماد في كتاب البرق: وهي السنة الحسنة المحسنة، والزمان الذي تقضت على إنتظار إحسانه الأزمنة، وطهر فيه المكان المقدس الذي سلمت لسلامته الأمكنة، وخلصت بمنحة الله من المحنة الأرض المقدسة الممتحنة، وكفى الله شر الشرك، وحكم على دماء الكفرة بالسفك، ونصرت الدولة الناصرية، وخذلت الملة النصرانية، وانتقم التوحيد من التثليث، وشاع في الدنيا بمحاسن الأيام الصلاحية حسن الأحاديث.

ثم ذكر في كتابي الفتح والبرق ماجملته أن قال: فبرز السلطان من دمشق يوم السبت أول المحرم في العسكر العرمرم، ومضى بأهل الجنة لجهاد أهل جهنم، فلما وصل إلى رأس الماء أمر ولده الملك الأفضل بالإقامة هناك يستدني إليه الأمراء الواصلين والأملاك، ويجمع الأعارب والأعاجم والأتراك، وسار السلطان إلى بصرى، وخيم على قصر السلامة، وأقام على إرتقاب إقتراب الحجاج، وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ووالدته أخت السلطان مع جماعة من الخواص، وقد تقدم ذكر غدر ابرنس الكرك وهو على الكرك وأخاف أهله وأخذ ماكان حوله، ورعى زرعهم، وقطع أشجارهم وكرومهم، ثم سار إلى الشوبك وفعل به مثل ذلك، ووصل عسكر مصر فتلقاه بالقريتين، وفرقه على أعمال القلعتين، وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين، والملك

الأفضل ولـــده مقيـم بـرأس الماء في جمع عظيـم مـن العظماء، وعنـده الجحافـل الحافلة والحواصـل الحاصلـة، والعسـاكر الكـاسرة، والقسـاور القاسرة، وهـو ينتظر أمرا مـن أبيه، ويكتـب إليه ويقتضيه، وانقضى من السنـة شهران، وطـال بهم انتظار السلطـان، فأنهض منهـم سرية سريـة، وأمرها بـالغارة على أعمال طبرية، ورتب على خيل الجزيرة ومـن جاء من الشرق وديـار بكر مظفـر الديـن كـوكبري صاحـب حران، وعلى عسكـر حلب والبلاد الشـامية بدر الديـن دلدرم بن ياروق، وعلى عسكـر دمشق وبلادها صـارم الدين قايماز النجمي، فسـاروا مدججين، وسروا مدلجين، وصبحـوا صفـورية، وسـاء صبـاح المنـذريـن، فخـرج إليهم الفـرنـج في حشـدهم فـآتاهـم الله النصر الهنـي، والظفر السنـي، وشفوا منهـم حنين الحنايـا، وأدركوا فيهم منـى المنايـا، وفازوا وظفروا، وقتلـوا وأسروا، وهلك مقدم الإسبتار، وحصل جماعة من فـرسانهم في قبضة الأسار، وأفلت مقدم الداويـة وله حصـاص، ووقع البـاقون ولم يكـن لهم من الهلاك خـلاص، وعـادوا سالمين سـالبين غـانمين غـالبين، فكانـت هذه بـاكورة البركـات، ومقدمة مابعدها من ميامـن الحركات، وجاءتنا البشرى، ونحن في نواحي الكرك والشـوبك، فسار السلطـان ووصل السير بـالسرى، وخيم بعشترا، والقدر يقـول له تعيش وترى، وقـد غصت بخيـل الله الوهـاد والذرى، وامتد العسكر فراسـخ عرضا وطولا، وملأ بالملأ حزونـا وسهولا، ومارأيت عسكـرا أبرك منـه ولاأكبر، ولاأكرث للكفـر ولا أكثـر، وكان يـوم عرضـه مـذكـرا بيوم العـرض، ومـا شـاهـده إلا مـن تلا:(ولله جنـود السمـوات والأرض)(٣٧).

وعرض العسكـر في اثني عشر ألف مدجـج في ليل العجاج مـدلج، ولما تم العـرض، حسم الفـرض، وسالـت بأفـلاك السماء والأرض، وتعين الجهـاد، وتبين الاجتهـاد، ثم رتـب السلطـان للعسكـر أطـلابا، وحـزبـه أحـزابا، وسـار يـوم الجمعة سـابـع عشر ربيع الآخـر عـازما على دخـول السـاحل، فـأنـاخ ليلة السبت على خسفين، ثـم سار في الأردن إلى ثغـر

الأقحوانـة، وأقام هناك خمسـة أيام، وقد عين مـواقف الأمراء وشعـارهم، وأحاط ببحيرة طبرية بحـره المحيط، وضاق ببسائط خيامـه ذلك البسيط، ولما سمـع الفـرنـج بـاجتماع كلمة الاسـلام عليهـم، وسير ذلـك الجيـش إليهم، علمـوا أنه جاءهـم مالا عهـد لهم بمثله، وإن الإيمان كله قـد برز إلى الشرك كله، فـاجتمعوا واصطلحوا وحشـدوا وجمعوا، وانتخـوا و دخل القمـص معهم بعـد أن دخل عليـه الملـك، ورمى بنفسـه عليه، وصفـوا راياتهم بصفـورية، ولـووا الأ لويـة، وحشدوا الفـارس والراجـل والرامـح والنابل، ورفعوا صليب الصلبوت، فاجتمـع إليه عباد الطاغوت، وضلال الناسوت واللاهـوت، ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهـل الأقانيم، وصلبوا للصليب الأعظم بالتعظيم، وماعصاهم مـن له عصا، وخرجوا عن العدد والإحصا، وكانوا عـدد الحصى، وصـاروا في زهاء خمسين ألفـا أويزيـدون، ويكيدون مـايكيدون، قـد توافـوا على صعيد، ووافـوا من قـريب وبعيـد، وهـم هنـاك مقيمـون لايـريمون، والسلطـان في كـل صبـاح يسير إليهـم ويشرف عليهـم ويـراميهم، وينكـي فيهـم، ويتعـرض لهم ليتعرضـوا لـه ويـردوا عن رقـابهم سيوفـه، وعـن شعابهم سيـولـه، فربضـوا ومانبضـوا، وقعدوا ومانهضـوا، فلو برزوا للمصاف لطالت عليهـم يد الانتصاف، فلما رأى السلطان أنهم لايبرحون، ومن قرب صفوريـة لاينزحون أمر أمراءه أن يقيموا في مقـابلتهم، ويديمـوا على عزم مقاتلتهـم، ونزل هو في خـواصه العسسيـة على مدينـة طبرية، وعلـم أنهم إذا علمـوا بنزولـه عليها بـادروا للـوصول إليهـا، فحينئذ يتمكـن مـن قتالهم، ويجهـد في استئصالهم، ثـم أحضر الجـاندارية والنقـابين والخراسانيـة والحجـارين، وأطـاف بسورهـا، وشرع في تخريـب معمـورهـا، وأخـذ النقابـون في النقـب في بـرج فهـدوه وهدموه، وتسلقوا فيه وتسلموه، ودخـل الليل، وصباح الفتح مسفر، وليل الويل على العدو معتكر، وامتنعت القلعـة بمن فيها من القمصية وبنيها، ولما سمع القمص بفتح طبرية وأخذ بلـده سقط في يده، وخرج عن جلد جلده، وسمح للفرنج بسبده ولبده، وقال لهم: لاقعود بعد اليوم ولابد لنا

من لقاء القوم، وإذا أخذت طبرية أخذت البلاد، وذهبت الطراف والتلاد، ومابقي لي صبر، ومابعد هذا الكسر لي جبر.

وكان الملك قد خلفه، ووافقه فما نافقه، ورحل بجمعه وأتباعه وشياطينه وأشياعه فمادت الأرض بحركته ، وغامت السماء من غيرته، ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا ففرح السلطان وقال: جاءنا مانريد، ونحن أولو بأس شديد، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مانع، ولاعن فتحه وازع، واستخار الله تعالى وسار، وعدم القرار، وذلك يوم الخميس ثالث عشري ربيع الآخر، والفرنج سائرون إلى طبرية بقضهم وقضيضهم، وهم كالجبال السائرة، والبحار الزاخرة، أمواجها ملتطمة وأفواجها مزدحمة، فرتب السلطان في مقابلتهم أطلابه، وحصل بعسكره قدامهم، وحجز بينهم وبين الماء، واليوم قيظ وللقوم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطريقين، وهيئت دركات النيران، وهنئت درجات الجنان وانتظر مالك واستبشر رضوان، فهي (ليلة القدر .خير من ألف شهر. تنزل الملائكة والروح فيها)[٣٨] وفي سحرها نشر الظفر يفوح، وفي صباحها الفتوح، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم (فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة)[٣٩] وبتنا والجنة معروضة،والسنة مفروضة، والكوثر واقفة سقاته والخلد قاطفة جناته، والسلسبيل واضح سبيله، والإقبال ظاهر قبيله، والظهور قائم دليله، والله ناصر الاسلام ومديله، وسهر السلطان تلك الليلة حتى عين الجاليشية من كل طلب، وملأ جعابها وكنائنها بالنبال، وكان مافرقه من النشاب أربعمائة حمل، ووقف سبعين جمازة في حومة الوغى يأخذ منها من خلت جعابه، وفرغ نشابه، حتى إذا أسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار، ورنت القسي وغنت الأوتار، إذ ذاك، واليوم ذاك، والجيش شاك، وللقيظ عليهم فيض، وماللغيظ منهم غيض، وقد وقد الحر، واستشرى الشر، ووقع الكر والفر، والسراب طافح، والظماء لافح، والجو محرق، والجوى مقلق،

ولأولئك الكلاب من اللهب لهث، وبالعيث عبث، في ظنهم انهم يريدون الماء فاستقبلتهم جهنم بشرارها، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها، وذلك في يوم الجمعة بجموع أهلها المجتمعة ووراء عسكرنا بحيرة طبرية، والورد عد، ومامنه بعد، وقد قطعت على الفرنج طريق الورود، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود، فوقفوا صابرين مصابرين مكابرين مضابرين، فكلبوا على ضراوتهم، وشربوا مافي أداوتهم، وشفهوا ماحولهم من موارد المصانع، واستنزفوا حتى ماء المدامع، وأشرفوا على المصير إلى المصارع، ودخل الليل وسكن السيل، وباتوا حيارى، ومن العطش سكارى، وهم على شغف البحيرة بحيرة، وقووا أنفسهم على الشدة، واستعدوا بالعزائم المحتدة، وقالوا: غدا نصب عليهم ماء المواضي، ونقاضيهم إلى القواضي، فأجدوا عزم البلاء، وطلبوا البقاء بالتورط في الفناء، وأما عساكرنا فإنها اجترأت، ومن كل مايعوقها برئت، فهذا لسنانه شاحذ، وهذا لعنانه آخذ، وهذا سهم مفوق، وهذا شهم موفق، وهذا مكثر للتكبير، ومنتظر للتبكير، وهذا ناج للسعادة، وهذا راج للشهادة فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة، ومن سحر أنفاسها ألطاف الله المتداركة، والسلطان رحمه الله قد وثق بنصر الله فهو يمضي نفسه على الصفوف، ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف، ويغري المئين بالألوف، وهم بمشاهدته إياهم يجيدون ويجدون، ويصدون العدو ويردون.

وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس حمل في أول الناس، وكان حصانه قوي الراس، فأبعد عن أخوانه، ولم يتابعه أحد من أقرانه، فانفرد به الفرنج فاثبث في مستنقع الموت رجله، وقاتل إلى أن بلغوا قتله، فلما أخذوا رأسه ظنوا أنه أحد أولاد السلطان، وانتقل الشهيد إلى جوار الرحمن، ولما شاهد المسلمون استشهاده وجلده وجلاده، حميت حميتهم، وخلصت لله نيتهم، وأصبح الجيش على تعبيته، والنصر على تلبيته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر، وهو يوم النصرة،

ووقوع الكسرة، وبرح بالفرنج العطش وأ بت عثرتها أن تنتعش، وكان النسيم من أمامها والحشيش تحت أقدامها، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش، فتأجج عليهم استعارها، وتوهج أوارها فبلوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام: في الاصطلاء، والاصطلام نار الضرام، ونار الأوام، ونار السهام، فرجا الفرنج فرجا، وطلب طلبهم المخرج مخرجا، فكلما خرجوا جرحوا وبرح بهم حر الحرب فما برحوا، وهم ظماءى وما لهم ماء سوى ما بأيديهم من ماء الفرند، فشوتهم نار السهام وأشوتهم، وصممت عليهم قلوب القسي القاسية، وأصممتهم وأعجز وا وأزعجوا، وأحرجوا وأخرجوا، وكلما حملوا ردوا وأردوا، وكلما ساروا او شدوا أسروا وشدوا، وما دبت منهم نملة، ولاذبت عنهم حملة، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبهم النشاب، فعادت أسودهم قنافذ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ، فأووا إلى جبل حطين ليعصمهم من طوفان الدمار، فأحاطت بحطين بوارق البوار، ورشقتهم الظبى، وفرشتهم على الربى، ووسقتهم الحنايا، وقسرتهم المنايا، وقرشتهم البلايا، ورقشتهم الرزايا، ولما أحس القمص بالكسرة حسر عن ذراع الحسرة، وأقتال من العزيمة، واحتال في الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجمع واضطرام الجمر، فخرج بطلبه يطلب الخروج، وأعوج إلى الوادي وماود أن يعوج، ومضى كومض البرق، ووسع خطا خرقه قبل اتساع الخرق، وأفلت في عدة معدودة، ولم يلتفت إلى ردة مردودة، وكان قال لأصحابه: أنا أسبقكم بالحملة، وأفضلكم في الجملة، فاجتمع هو ومؤازروه، وجماعة من المقدمين مظافروه، وصحبه صاحب صيدا وباليان بن بارزان، وتوامروا على أنهم يحملون، ويبلغون الطعان، فحمل القمص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المظفر تقي الدين وهو مؤيد من الله بالتوفيق والتمكين، ففتح لهم طريقا، ورمى من أتباعهم فريقا، فمضوا على رؤوسهم ونجوا بنفوسهم، ولما عرف الفرنج أن القمص أخذ بالعزيمة، ونفذ في الهزيمة، وهنوا وهانوا، ثم اشتدوا

ومـالانوا، وثبتـوا على مـاكانـوا واستقبلـوا واستقتلـوا واستحلموا وحملـوا، ووقعنا عليهم وقوع النار في الحلفاء، وصببنـا ماء الحديد للإطفاء، فزاد في الإذكـاء، فحطـوا خيـامهـم على غـارب حطين، حين رأونـا بهم محيطين، فأعجلنـاهم عـن ضرب الخيام بضرب الهام، ثـم استحر الحرب، واستمـر الطعن والضرب، وأحيـط بالفرنج مـن حواليهم، ودارت الـدوائر عليهـم، وترجـوا خيرا فترجلوا عـن الخيل وجـرفهم السيـف جرف السيـل، وملك عليهم الصليـب الأعظم، وذاك مصابهم الأعظـم، ولما شاهـدوا الصليب سليبا، ورقيب الـردى قريبا، أيقنوا بالهلاك، وأثخنـوا بالضرب الدراك، فما برحـوا يؤسرون ويقتلون، ويخمدون ويخملـون، وللوثوب يخفـون، وبالجراح يثقلـون، ومــن مصـارع القتـل إلى معـاصر الأسر ينقلــون، ووصلنـا إلى مقدمهم وملكهم وإبرنسهم، فتم أسر الملك وإبرنس الكرك وأخي الملك جفـري، وأوك صـاحب جبيـل، وهنفـري، وابـن صـاحب اسكنـدرونـة، وصاحـب مرقية، وأسر مـن نجا من القتـل من الـداوية ومقدمهـا، ومن الإسبتارية معظمها ومن البارونية من أخطـأه البوار، فأصابه وساءه الأسار، وأسر الشيطـان وجنوده، وملـك الملك وكنـوده، وجبر الاسلام بكسرهـم، وقتلوا وأسروا بأسرهـم، فمن شاهد القتلى قـال: ماهناك أسير، ومن عـاين الأسرى قـال: مـاهناك قتيـل، ومـذ استـولى الفـرنـج على ساحـل الشـام مـاشفي للمسلمين كيـوم حطين غليـل، فالله عـز وجـل سلط السلطـان وأقدره على مـاأعجز عنـه الملوك وهـداه من التـوفيق لامتثـال أمره، ومـن إقامة فرضـه للنهج المسلوك، ونظم له في حتوف أعـدائه والفتوح لأوليائه السلـوك، وخصه بهذا اليـوم الأغر، والنصر الأبـر، واليمن الأسر، والنجـح الأدر، ولـو لم يكـن لـه إلا فضيلـة هـذا اليـوم لكـان متفـردا على الملـوك السـالفة، فكيـف ملـوك العصر في السمو والسـوم، غير أن هـذه النوبـة المبـاركة كـانت للفتـح القدسي مقـدمه، ولمعـاقد النصر وقـواعده مبرمـة محكمة.

ومن عجـائب هذه الوقعـة، وغرائب هذه الـدفعة، أن فارسهـم مادام

فرسه سالما لم يذل للصرعة، فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد، ودارك الضرب إليه غير مفيد، لكن فرسه إذا هلك، فرس وملك، فلم يغنم من خيلهم ودوابهم، وكانت ألوفا، ماهو سالم، وماترجل فارس إلا والطعن والرمي لمركوبه كالم، وغنمنا مالا يحصر من بيض مكنون، وزغف موضون، وبلاد وحصون، وسهول وحزون، وابتذلنا منهم لهذا الفتح كل إقليم مصون، وذلك سوى ماستبيح من مال مخزون، واستخرج من كنز مدفون، وصحت هذه الكسرة، وتمت هذه النصرة يوم السبت، وضربت ذلة أهل السبت على أهل الأحد، وكانوا أسودا فعادوا من النقد، فما أفلت من تلك الآلاف إلا آحاد، ومانجا من أولئك الأعداء إلا أعداد، وامتلأ الملأ بالأسرى والقتلى، وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلى، وقيدت الأسارى في الحبال، واجبة القلوب، وفرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب، وحطت حطين تلك الجيف عن متنها، وطاب نشر النصر بنتنها، وعبرت بها فألفيتها محل الإعتبار، وشاهدت مافعل أهل الإقبال بأهل الإدبار، وعاينت أعيانهم خبرا من الأخبار، ورأيت الرؤوس طائرة، والنفوس بائرة، والعيون غائرة، والجسوم رسمتها السوافي، والرسوم درستها العوافي، وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعراء عراة ممزقة بالمازق، مفصلة المفاصل، مفرقة المرافق، مفلقة المفارق، محذوفة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطعة الهام، موزعة الأقدام مجدوعة الآناف، منزعة الأطراف، مفقوءة العيون، مبعوجة البطون، منصفة الأجساد، مقصفة الأعضاد، مقلصة الشفاه، مخلصة الجباه، سائلة الأحداق، مائلة الأعناق، عديمة الأرواح، هشيمة الأشباح، كالأحجار بين الأحجار عبرة لأولي الأبصار، ولما أبصرت خدودهم ملصقة بالتراب، وقد قطعوا آرابا تلوت قول الله تعالى:(ويقول الكافر ياليتني كنت ترابا)(٤٠).

فما أطيب نفحات الظفر من ذلك الخبث، وماألهب عذبات العذاب في تلك الجثث، وماأحسن عمارات القلوب بقبيح ذلك الشعث، وما أجزأ

صلوات البشائر بوقوع ذلك الحدث، هذا حساب من قتل، فقد حصرت ألسنة الأمم عن حصره وعده، وأما من أسر فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشده، ولقد رأيت في الحبل الواحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مائة ومائتين يحميهم حارس، وهناك العتاة عناة، والعداة عراة، وذوو الأسرة أسرى، وأولوا الأثرة عثرى، والقوامص قنائص، والفوارس فرائس، وغوالي الأرواح رخائص، ووجوه الداوية عوابس، والرؤوس تحت الأخامص، فكم أصيد صيد، وقائد قيد وقيد، وملك مملوك، وهاتك مهتوك،وحر في الرق ومبطل في يد المحق.

ولم يؤسر الملك حتى أخذ صليب الصلبوت، وأهلك دونه الطاغوت، وهو الذي إذا انصب وأقيم ورفع سجد له كل نصراني وركع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم، وقد غلفوه بالذهب الأحمر، وكللوه بالدر والجوهر، وأعدوه ليوم الروع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولايسع أحدهم عنه التخلف، وللمتخلف عن أتباعه في نفسه التصرف، وأخذه عندهم أعظم من أسر الملك، وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك، فإن الصليب السليب ماله عوض، ولالهم في سواه غرض، والتأله له عليهم مفترض، فهو إلههم، تعفر له جباههم، وتسبح له أفواههم، يتغاشون عند إحضاره، ويتعاشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه، ويبذلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج، بل صاغوا على مثله صلبانا يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم، ويشهدونها، فلما أخذ هذا الصليب عظم مصابهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيما، والموقف المنصور كريما، فكأنهم لما عرفوا إخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد عن يومهم العصيب، فهلكوا قتلا وأسرا، وملكوا قهرا وقسرا.

ولما صح الكسر، وقضي الأمر، وتمكن النصر، وسكن البحر، ضرب

السلطـان في تلك الحومـة دهليـز السرادق، وتـوافت إليـه حماة الحقـائق، ونزل السلطـان وصلى للشكر وسجد، وجدد الإستبشـار بها وجد، وأحضر عنده من الأسارى الملك والبرنس وأجلس الملك بجنبه.

وقال في كتـاب الفتح: وجلس السلطان لعـرض أكابر الأسـارى، وهم يتهادون في القيـود تهادي السكارى، فقـدم بدايـة مقدم الـداوية، وعـدة كثيرة منهـم ومـن الإسبتـارية، وأحضر الملـك كـي وأخـوه جفـري، وأوك صاحـب جبيل وهنفري والإبـرنس أرناط صـاحب الكرك، وهـو أول من وقـع في الشرك، وكان السلطـان نذر دمـه، وقـال لأعجلن عنـد وجدانـه عدمه، فلما حضر بين يـديه أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبـه، وقرعه على غدره، وذكـره بذنبـه، وقال لـه: كم تحلـف وتحنث، وتعهـد وتنكث، وتبرم الميثاق وتنقض، وتقبل على الوفـاق ثم تعرض؟! فقال الترجمان عنه: إنـه يقـول : قـد جـرت بـذلـك عـادة الملـوك، ومـاسلكـت غير السنـن المسلـوك، وكان الملـك يلهث ظمـأ، ويميل مـن سكرة الـرعب منتشيـا، فآنسـه السلطان وحـاوره، وفثأ سورة الـوجل الـذي ساوره، وسكـن رعبه وأمـن قلبه، وأمـر له بماء مثلـوج فشربه، وأطفـأ بـه لهبه، ثـم ناول الملـك الإبرنس القـدح فاستشفه وبرد بـه لهفه، فقال السلطان للملـك: لم تأخذ في سقيه مني إذنا، فلا يوجب ذلك له مني أمنا، ثم ركب وخلاهما وبنار الوهل أصـلاهما، ولم ينزل إلى أن ضرب سرادقه، وركزت أعلامـه وبيارقه، وعـادت إلى الحمـى عـن الحومـة فيـالقـه، فلما دخـل سرادقـه استحضر الإبرنـس فقام إليه وتلقـاه بالسيف فحل عـاتقه، وحين صرع أمر بـرأسه فقطع، وجر برجله قدام الملك حتى أخـرج، فارتاع الملك وانزعج، فعرف السلطـان أنه خـامـره الفزع، وسـاوره الهلـع، وسامـره الجزع، فـاستدعـاه واستدنـاه، وأمنه وطمنـه، ومكنه من قـربه وسكنـه، وقال لـه: ذاك رداءته أردته، وغدرتـه كما تراه غادرته، وقـد هلك بغيه وبغيه، ثـم جمع الأسارى

المعـروفين، وسلمهـم إلى والي قلعـة دمشق النـاصـح الغيدي، فقـال لهم: انتم تحت قيدي، وسلمهم الى أصحابـه فتسلمتهم الأيدي ، وأمرهم أن يأخذوا خط الصفـي بن القابض في دمشق بوصـولهم، ويحتاط عليهم في أغلالهم وكبولهم، فتفرق العسكر بمن ضمتـه أيدي السبي أيدي سبأ، وهادتهم الوهاد والربى.

قـال: ولما أصبح السلطـان يـوم الأحـد استقام على الجدد وخيـم على طبريـة، وراسـل القمصيـة وأخـرجهـا مـن حصنهـا بـالأمـان، ووفى لها وللفرسان بنيهـا بشروط الأيمان، فخرجت بمالها ورحالها ونسـائها ورجالها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجهـا القمص بمالها وحالها، وولى طبرية قايماز النجمي، وكـانت طبرية في عهـد الفرنج تقـاسم على نصف مغـل البلاد من الصلـت والبلقاء وجبل عوف والحيـانية والسواد، وتنـاصف الجولان، ومـايقـربها إلى بلـد حـوران، فخلصت المنـاصفـات، وصفـت الصفـات وأمنـت الآفات، هـذا والسلطان نـازلٌ ظاهـر طبرية، وقـد طب البريـة، وعسكره قد طبـق البرية، فلما أصبح يوم الإثنين بعد الفتـح بيومين طلب الأسارى مـن الداويـة والإسبتاريـة، وقال: أنـا أطهر الأرض مـن هذيـن الجنسين النجسين، فما جـرت عادتهما بـالمفاداة، ولايقلعـان عن المعـاداة، ولايخدمان في الأسر، وهما أخبـث أهل الكفـر، فتقدم بـإحضار كـل أسير داوي واسبتـاري ليمضي فيــه حكـم السيــف، ورأى البقيـا عليــه عين الحيف، ثـم علم أن كل من عنـده أسير لايسمح به، وأنه يضـن بعطبه، فجعل لكـل من يأتيـه بأسير منهما من الـدنانير الحمر خمسين، فـأتوه في الحال بمئين، فـأمـر بـإعطــابهم، وضرب رقـابهم، ومحو حسـابهم، وكـان بحضرته جماعـة من المتطـوعة المتـورعة، والمتصـونة المتصـوفة، والمتعممـة المتصرفة، ومـن تمت له المعرفة بـالزهد والمعـرفة، فسأل كل واحـد في قتل واحد، وسـل سيفه وحسر عن سـاعد، والسلطـان جالس، ووجهـه باشر والكفر عـابس، والعساكـر صفوف، والأمراء في السماطين وقـوف، فمنهم من فـرى وبرى، فشكـر ومنهم من أبـى ونبا وعـذر، ومنهم مـن يضحك

منه، وينوب سواه عنه، وشاهدت هناك الضحوك القتال، ورأيت منه القوال الفعال، فكم وعداً أنجزه، وحمداً أحرزه، وأجراً استدامه بدم أجراه، وبرا عنق إليه بعنق براه وسير ملك الفرنج وأخاه وهنفري وصاحب جبيل ومقدم الداوية وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق ليودعهم السجون، وتستبدل حركاتهم بالسكون، وتفرقت العساكر بما حوت أيديهم من السبى وسبق بهم إلى البلاد الناس ولم يقع على عددهم القياس،[1] فكتب إلى الصفي بن القابض نائبه بدمشق أن يضرب عنق من يجده من الداوية والإسبتارية، فامتثل الأمر في إرهاقهم، وضرب أعناقهم، فما قتل إلا من عرض عليه الاسلام فأبى أن يسلم، وما أسلم إلا آحاد حسن إسلامهم، وتأكد بالدين عزامهم.

قال العماد: ومازلت أبحث عن سبب نذر السلطان إراقة دم الإبرنس، حتى حدثني الأمير العزيز عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس، وهو ذو البيت الكبير، والحسب الجليل، وكان جده صاحب إفريقية والقيروان، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريب من هذا الزمان، ذكر أن الأجل الفاضل حدثه أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حران بعد المرضة التي صار بها كل قلب عليه حران، وذلك في سنة اثنتين وثمانين، وهو من عقابيل سقمه لايفارق الأنين، فقلت له: مامعناه قد أيقظك الله ومايعيذك من هذا السوء سواه، فأنذر أنك إذا أبللت من هذا المرض، تقوم بكل ماالله من المفترض، وأنك لاتقاتل من المسلمين أحدا أبدا، وتكون في جهاد أعداء الله مجتهدا، وأنك إذا نصرك الله في المعترك وظفرت بالقومص وإبرنس الكرك تتقرب إلى الله بإراقة دمهما، فما يتم وجود النصر إلا بعدمهما، فأعطاه يده على هذا النذر، ونجاه الله ببركة هذا العذر من الذعر، وخلصه إخلاصه في مرضاة الله، فأبل من مرضته، واستقل بنهضته، واستقبل السنة القابلة بسنة الغزو وفريضته، ثم جرى من مقدمات الجهاد ونتائجها ماجرى، وخيم السلطان في جمع الاسلام بعشترا، وركب يوما في عسكره وعزم على نشر القساطل، وطي

-٨٥٠١-

المراحل، ودخول الساحل والقذف بـالحق على الباطل، فبدأ بلقاء الطلعة المباركـة من الأجـل الفاضـل، فقال لـه ليكن نـذرك على ذكرك، واسـتـزد نعمة الله عنـده بمزيـد شكرك، ولاتحط غير قمـع أهل الكفـر بفكرك، فما أنقذك الله من تلك الورطة، وأنعشك مـن تلك السقطة، إلا ليوفر حظك مـن هذه الغبطـة، فتوكـل على الله عازمـا، وجاز الأردن جـازما، وأرعـب جأش الكفـر وكسر جيوشه، وثل عـروشه، ووقع في الشرك أبرنـس الكرك فـوفى بضرب عنقه نـذره، وأما القـومص فـإنـه أخذ في الملتقـى بالهزيمـة حذره، ولما وصـل إلى طرابلـس أخافـه في منامـه القدر، وفجـأة في صفوه الكدر، وتسلمه مالك إلى سقر.

فصل

هذا الذي تقدم من وصف كسرة حطين، هو عين ماذكره عماد الدين رحمه الله في كتابيه الفتح والبرق، اختصرته منهما، وهو مطول فيهما، وقد وقفت على كلام لغيره في ذلك فأحببت إيراده على وجهه لما فيه من شرح ماتقدم وتقويته، وربما اشتمل على زيادات من فوائد تتعلق بذلك لم يتعرض العماد لها، أو مخالفة لبعض ماذكره.

قال القاضي أبو المحاسن بن شداد: لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين عزم السلطان على قصد الكرك، فسير إلى حلب من يستحضر العسكر، وبرز من دمشق في منتصف المحرم، فسار حتى نزل بأرض الكرك منتظرا لإجتماع العساكر المصرية والشامية، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارة على مافي طريقهم من البلاد الساحلية، ففعلوا ذلك، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامي إلى الشام، وأمنوا غائلة العدو، ووصل قفل مصر، ومعه بنت الملك المظفر، وماكان له بالديار المصرية، وتأخرت عنه العساكر الحلبية، بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض انطاكية وبلاد ابن لاون، وذلك أنه كان قد مات ووصى لابن أخيه لاون بالملك، وكان الملك المظفر بحماة، وبلغ الخبر السلطان فأمره بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد نائرته، فوصل تقي الدين حلب، ونزل في دار العفيف بن زريق، وانتقل إلى دار طمان، وفي تاسع صفر خرج بعسكر حلب إلى حارم ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل، وعاد السلطان فوصل إلى السواد ونزل بعشترا سابع عشر ربيع الأول، ولقيه ولده الأفضل، ومظفر الدين، وجميع العساكر، وكان تقدم إلى الملك المظفر بمصالحة الجانب الحلبي من الفرنج ليتفرغ البال مع العدو في جانب واحد، فصالحهم وتوجه إلى حماة يطلب خدمة السلطان للغزاة، فسارت العساكر الشرقية في خدمته، وهم عسكر الموصل يقدمه مسعود ابن الزعفراني، وعسكر ماردين إلى أن أتوا عشترا، فلقيهم السلطان

وأكرمهم، ثم عرض السلطان العساكر منتصف ربيع الآخر على تل يعرف بتل تسيل، ورتبهم واندفع قاصدا بلاد العدو في وسط نهار الجمعة، وكان أبداً يقصد بوقعاته الجمع لاسيما أوقات صلاة الجمعة، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة، وبلغه أن الفرنج اجتمعوا في مرج صفورية بأرض عكا فقصد نحوهم للمصاف معهم، فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة، ورحل من هناك ونزل غربي طبرية على سطح الجبل لتعبية الحرب منتظرا أن الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه فلم يتحركوا من منزلهم، فنزل جريدة على طبرية وترك الأطلاب على حالها قبالة وجه العدو، ونازل طبرية وزحف عليها، فهجمها وأخذها في ساعة من نهار، وامتدت الأيدي إليها بالنهب والأسر والحريق والقتل، وامتنعت القلعة وحدها، فرحل الفرنج وقصدوا طبرية للدفع عنها، فأخبرت الطلائع الاسلامية الأمراء بحركة الفرنج، فسيروا إلى السلطان من عرفه ذلك، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها، ولقي العسكر هو و من معه، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وحال الليل بين الفئتين، فباتتا على مصاف شاكيتين في السلاح إلى صبيحة الجمعة، فركب العسكران وتصادما، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهم الظلام، وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة والأمور الجسيمة مالم يحك عن من تقدم، وبات كل فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كل ساعة،وقد أقعده التعب عن النهوض، حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه، فطلب كل من الفئتين مقامه، وعلمت كل طائفة أن المكسورة منهما مدحورة الجنس، معدومة النفس، وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد القوم ولاينجيهم إلا الله، وكان الله قد قدر نصر المسلمين فيسره، وأجراه على وفق ماقدره، فحملت الأطلاب الاسلامية من الجوانب، وحمل القلب وصاحوا صيحة الرجل الواحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين(وكان حقا علينا نصر المؤمنين)[٤١]، وكان القمص ذكي القوم

وألمعهم،فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه، ولم يشغله ظن مخاشنة جنسه عن يقينه، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو صور، وتبعه جماعة من المسلمين فنجا وحده، وأمن الاسلام كيده، واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب، فانهزمت منهم طائفة فتبعها أبطال المسلمين فلم ينج منها واحد، واعتصمت الطائفة الأخرى بتل حطين، وهي قرية عنده، وعندها قبر النبي شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون على التل، وأشعلوا حولهم النيران، وقتلهم العطش، وضاق بهم الأمر حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفا من القتل، فأسر مقدومهم، وقتل الباقون وأسروا، وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفا على نفسه.

ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا ومعه طنب. خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا يجرهم وحده بخذلان وقع عليهم، وأما القمص الذي هرب فإنه وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب فأهلكه الله بها، وأما مقدمو الاسبتارية والداوية فإن السلطان اختار قتلهم، فقتلوا عن بكرة أبيهم، وأما البرنس أرناط، فكان السلطان قد نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبر به بالشوبك قفل من الديار المصرية في حالة الصلح فنزلوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين، فقال : مايتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم، وقال: قولوا لمحمدكم يخلصكم، وبلغ ذلك السلطان فحمله الدين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله، فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس في دهليز الخيمة فإنها لم تكن نصبت، والناس يتقربون إليه بالأسارى، وبمن وجدوه من المقدمين، ونصبت الخيمة وجلس فرحا مسرورا شاكرا لما أنعم الله به عليه، ثم استحضر الملك كي وأخاه جفري والبرنس أرناط، وناول الملك شربة من جلاب بثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش، ثم ناول بعضها البرنس أرناط، فقال السلطان للترجمان: قل للملك أنت

الـذي تسقيه، وإلا أنا مـاسقيته، وكـان على جميـل عادة العـرب وكريـم أخـلاقهـم أن الأسير إذا أكـل أو شرب من مـاء مـن أسره أمـن، فقصـد بـذلك الجري على مكـارم الأخـلاق، ثم أمـر بمسيرهـم إلى موضـع عين لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئا ثم عـاد استحضرهم ولم يبق عنده أحد سوى بعض الخدم، فأقعـد الملك في الدهليز واستحضر البرنـس أرناط، وأوقفه على ماقـال، وقال: ها أنا انتصر لمحمـد صلى الله عليه وسلم، ثـم عرض عليه الاسـلام فلم يفعـل، ثم سل النمجـاة وضربه بها فحـل كتفه، وتمم عليه من حضر وعجل الله بروحه إلى النـار، فأخذ ورمى على باب الخيمة، فلما رآه الملـك قـد أخـرج على تلـك الصورة لم يشـك في أنـه يثنـي بـه، فاستحضره وطيـب قلبه، وقال: لم تجر عـادة الملوك أن يقتلوا الملـوك، وأما هذا فـإنه جاوز حـده فجرى ماجـرى، وبات الناس في تلـك الليلة على أتم سرور، وأكمـل حبور، ترتفع أصـواتهم بالحمد لله والشكـر له والتكبير والتهليـل، حتى طلـع الصبح في يـوم الأحـد، فنزل رحمه الله على طبريـة، وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء.

قلت: وذكـر محمد بن القادسي في تـاريخه أنه ورد في هذه السنـة كتب إلى بغـداد في وصـف هـذه الـوقعة، منهـا كتـاب مـن عبـد الله بـن أحمد المقدسي يقول فيـه:« كتبت هذا الكتاب مـن عسقلان يوم الثلاثـاء ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة»وفيـه :«ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ماوفينا بعشر نعمته التـي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم، فإنا خرجنا إلى عسكر صلاح الـدين، وتلاحق الأجناد حتى جاء الناس من الموصل وديار بكر وإربل، فجمـع صلاح الدين الأمراء وقال: هذا اليـوم الذي كنـت أنتظره، وقـد جمع الله لنا العسـاكر، وأنـا رجل قـد كبرت، ومـاأدري متـى أجلي، فاغتنمـوا هذا اليـوم وقاتلـوا لله تعالى لامـن أجلي فاختلفوا في الجواب، وكـان رأي أكثرهم لقاء الكفـار، فعرض جنده ورتبهم وجعـل تقي الدين في الميمنـة ومظفر الدين في الميسرة، وكـان هو في القلـب، وجعل بقيـة العسكـر في الجناحين، ثـم سـاروا على مراتبهـم

حتى نزلـوا الأقحوانة، فتركوا بها أثقـالهم، وساروا حتى نزلـوا بكفر سبت فـأقـاموا يـومين ينتظـرون أن يبرز لهم الكفـار، وكان عسكـر الكفـار على صفـورية، فلـم يبرزوا فعاد صـلاح الديـن حتى نـزل على طبرية، فتقـدم فرسانـه وحماته ورماته والنقـابون فدخلوا تحت الحصـن، فلما تمكن النقب منـه انهال من غير وقـود نـار، ودخل المسلمـون فـانتهبـوا يوم الخميـس، وأصبحوا يـوم الجمعة فشرعوا في نقب القلعـة فلما كان وقت الصـلاةجاء الخبر أن الكفـار قد تـوجهـوا إلينا، فـارتحل صلاح الـديـن على صفوفـه فلقيهم، ثـم لم يزالـوا يتقدمون حتـى صار المسلمـون محيطين بهم، وصار قلب المسلمين خلفهم، فتراموا ساعة، وبات كل فريق على مصافهم، ثم أصبحوا فسـار الكفار يقصدون طبريـة والمسلمون حولهم يلحـون عليهم بالـرمي، فـاقتلع المسلمـون منه فـوارس، وقتلوا خيـالة ورجـالة، فـانحاز المشركون إلى تـل حطين فنزلـوا عنده ونصبوا الخيـام، وأقام النـاس حولهم إلى أن انتصف النهـار، وهبت الـرياح فهجم المسلمـون عليهم، فـانهزموا لايلوون على شيء، ولم يفلـت منهم إلا نحو مـن مائتين، وكانـوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفـا، وقيل ثـلاثة وعشريـن ألفا، لم يتركـوا في بلادهـم من يقدر على القتـال إلا قليلا، وكان الـذي أسر الملك هو دربـاس الكردي وغلام الأمير إبراهيم المهراني أسر الإبرنـس، وقتل صلاح الدين الإبرنس بيده لأنـه كان قـد غدر، وأخـذ قافلـة من طـريق مصر، ثـم عاد صـلاح الدين إلى طبرية فـأخذ قلعتها بالأمان، ثم ضرب أعنـاق الأسارى الذين كانوا في العسكر، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم».

قال: وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح التـي ماسمع بها قط،وهذه ذكر بعضها مختصرا مع أنه لايقدر أحد يصـف ذلك لأن الأمر أكبر من ذلك الـذي يبشر به المسلمـون:« إن مدينـة طبريـة فتحت بـالسيف وأخـذت قلعتها بـالأمان، واجتمع عسكر الأفـرنج جميعهم والتقوا بـالمسلمين عند

قبر شعيب النبي صلى الله عليه وسلم، وقتل من الأفرنج ثلاثون ألفا، وكان عدد الأفرنج ثلاثة وستين ألفا بين فارس وراجل، وأسر منهم ثلاثون ألفا، وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير، واستغنى عسكر الاسلام من الأسرى والأموال والغنائم، بحيث لايقدر أحد يصف ذلك، وماسلم من عسكر الفرنج سوى قمص اطرابلس مع أربعة نفر، وهو مجروح ثلاث جراحات، وأخذ جميع أمراء الفرنج، وكم قد سبي من النساء والأطفال يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة، ولقد بيع بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابنتان بثمانين دينارا، وأخذ صليب الصلبوت فعلق على قنطارية منكسا، ودخل به القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق، وكل يوم يرى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ، وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال مالم يجيء من يشتريها من كثرة السبي والغنائم.

قال: وفي كتاب آخر:« وكان الفرنج خمسة وأربعين ألفا فلم يسلم منهم سوى ألف، وقتل الباقون واستأسروهم، وكذلك الملوك».

قلت: وبلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير، وكان محتاجا إلى نعل فباعه بها، فقيل له في ذلك فقال: أردت أن يذكر ذلك، ويقال بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم واحد بنعل ولله الحمد، وماأحسن ماقال أبو الحسن ابن الذروي من قصيدة:

شرحت صلاح الدين بالسمر والظبى
من المجد معنى كان من قبل يغمض
وماكاد جيش الروم يبرم كيده
إلى أن سرت منك المهابة تنقض
حميت ثغور المسلمين فأصبحت
ثغورا بأمواه الحديد تمضمض

أسرت ملـــوك الكفـــر حتـــى تـــركتـــه
ومـــافيـــه عـــرق عـــن قـــوى النفـــس ينبـــض

وكان القاضي الفاضل غائبا عن هذه الكسرة بدمشق، فلما بلغته كتب إلى السلطان:« ليهـن المولى إن الله قد أقام به الـدين القيم، وإنـه كما قيل أصبحت مولاي ومـولى كل مسلم، وإنه قد أسبغ عليـه النعمتين: الباطنة والظاهرة، وأورثه الملكين: ملك الدنيـا وملك الآخرة، كتب المملوك هذه الخدمة والـرؤوس إلى الآن لم ترفع مـن سجودهـا، والدموع، لم تمسـح من خدودها، وكلما فكـر الخادم أن البيع تعود وهي مساجـد، والمكان الذي كان يقـال فيه إن الله ثالـث ثلاثة يقـال اليوم فيـه: إنه الواحـد، جدد لله شكرا تارة يفيـض من لسانه، وتـارة يفيض من جفنه، وجـزا يوسف خيرا عن إخـراجه من سجنه، والمماليـك ينتظرون أمر المولى، فكـل من أراد أن يدخـل الحمام بدمشـق قد عـول على دخول حمام طبريـة:« تلك المكـارم لاقعبان مـن لبن» وذلـك الفتح لاعمان واليمـن، وذلك السيـف لاسيف ابن ذي يزن، وللألسنة بعد في هذا الفتح شرح طويل وقول جليل».

وللعماد رحمه الله قصائد يذكر فيها وقعة حطين، لم يـذكر منها شيئا هنا بل ذكر بعضها عند ذكر فتح نـابلس، وبعضها عند فتح القدس، فنقلت إلى هذا المكان منها مايتعلق به والباقي يذكر في مكانه قال:

يـــا يـــوم حطين والأبطـــال عـــابســـة
وبـــالعجـــاجـــة وجـــه الشمـــس قـــد عبســـا
رأيـــت فيـــه عظيـــم الكفـــر محتقـــرا
معفـــرا خـــده والأنـــف قـــد تعـــس
يـــاظهـــر سيـــف بـــرى رأس البرنـــس فقـــد
أصـــاب أعظـــم مـــن بـــالشرك قـــد نجســـا
وغـــاص إذ طـــار ذاك الـــرأس في دمـــه
كـــأنـــه ضفـــدع في الماء قـــد غطســـا

مـــازال يعطـــس مـــزكـــومـــا بغـــدرتـــه
والقتـــل تشميـــت مـــن بـــالغـــدر قـــد عطســـا
عـــرى ظبـــاه مـــن الأغـماد مهـــرقـــة
دمـــا مـــن الشرك رد إهـــابـــه وكســـا
مـــن سيفـــه في دمـــاء القـــوم منغمـــس
مـــن كـــل مـــن لـــم يـــزل فـــي الكفـــر منغمســـا
أفنـــاهـــم قتلهـــم والأسر فـــانتكســـوا
وبيـــت كفـــرهـــم مـــن خبثهـــم كنســـا

وقال أيضا يخاطب صلاح الدين رحمه الله:

سحبـــت على الأردن ردنـــا مـــن القنـــا
ردينيـــة ملـــدا وخطيـــة ملســـا
حططـــت على حطين قـــدر ملـــوكهـــم
ولم تبـــق مـــن أجناس كفـــرهـــم جنســـا
ونعـــم مجال الخيـــل حطين لم تكـــن
معـــاركهـــا للجـــرد ضرســـا ولادهســـا
غـــداة أســـود الحرب تعتقـــل القنـــا
أســـاود تبغـــي مـــن نحـــور العـــدا نهســـا
أتـــوا شكـــس الأخـــلاق خشنـــا فلينـــت حـــ
ـــدود الـــرقـــاق الخشـــن أخـــلاقهـــا الشكســـا
طـــردتهم في الملتقـــى وعكستهـــم
مجيـــدا بحكـــم العـــزم طـــردك والعكســـا
فكيـــف مكســـت المشركين رؤوسهـــم
ودأبـــك في الإحســـان أن تطلـــق المكســـا
كسرتهم إذ صـــح عـــزمـــك فيهـــم
ونكستهـــم إذ صـــار سهمهـــم نكســـا
بـــواقعـــة رجـــت بها الأرض جيشهـــم
دمـــاراكما بســـت جبـــالهم بســـا

بطـــون ذئاب الأرض صـــارت قبـــورهـــم
ولم تـــرض أرض ان تكـــون لهم رمســـا
وطـــارت على نـــار المواضي فـــراشهـــم
صـــلالا فـــزادت مـــن خمودهـــم قبســـا
وقـــد خشعـــت أصـــوات أبطـــالها فما
يعـي السمـع إلا مـن صليـل الظبـي همسـا
تقـــاد بـــد أمـــاء الـــدمـــاء ملـــوكهـــم
أســـارى كسفـــن اليـــم نطـــت بها القلســـا
سبـــايـــا بـــلاد الله مملـــوءة بها
وقـــد شريـــت بخســـا وقـــد عـــرضـــت نخســـا
يطـــاف بها الأســـواق لا راغـــب لها
لكثـــرتها كـــم كثـــرة تـــوجـــب الـــوكســـا
شكـــا يبســـا رأس البرنـــس الـــذي بـــه
تنـــدى حســـام حـــاســـم ذلـــك اليبســـا
حســـا دمـــه مـــاض الغـــرار لغـــدره
ومـــا كـــان لـــولا غـــدره دمـــه يحســـى
فللـــه ممـــا أهـــدى يـــدا فتكـــت بـــه
وأطهـــر سيفـــا معـــد مـــا رجســـه النجســـا
نسفـــت بـــه رأس البرنـــس بضربـــة
فـــأشبـــه رأسي رأســـه العهـــن والبرســـا
تبـــوغ فـــي أوداجـــه دم بغيـــه
فصـــال عليـــه السيـــف يلحســـه لحســـا
بعثـــت أمـــام أمـــة النـــار نحـــوهـــا
أمـــامهـــم أرنـــاطهـــا ذلـــك الجبســـا
ولله نـــص النصر جـــاء لنصلـــه
فـــلا قـــونســـا أبقـــى لـــرأس ولا قنســـا
حكـــى عنـــق الـــداوي صـــل بضربـــة
طـــريـــر الشبـــا عـــودا بمضرابـــه حســـا
أيـــوم وغـــى تـــدعـــوه أم يـــوم نـــائل
وأنـــت وهبـــت الغـــانمين بـــه الخمســـا

وقــــد طـــاب ريـــانـــا على طبريـــة
فيـــا طيبهـــا ريـــا و يـــا حسنهـــا مـرســى

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة سيأتي بعضها في مدح صلاح الدين رحمه الله:

جـــاشـــت جيـــوش الشرك يـــوم لقيتهـــم
يتـــــذامـــــرون على متـــــون الضـمـــــر
أوردت أطـــراف الـــــرمــــاح صـــــدورهـــم
فـــــولغــــن في علــــق النجيـــــع الأحمر
فهنــــــاك لم يـــــر غير نجـــــم مقبـــــل
في أثــــر عفـــــريـــــت رجيـــم مـــــدبـــــر
فمــــن الــــذي مـــــن جيشهـــــم لم يخترم
ومـــن الـــــذي مــــن جمعهـــم لم يـــــؤسر
حتـــى لقــــد بيعـــت عقـــائل أرهقـــت
بـــالسبـــي بـــالثمـــن الأخـــس الأحقـــر
سقـــت المماليـــك الكـــرام ملـــوكهـــم
كـــأســـا بـــه سقـــت اللئيـــم الهنفـــري
وعجمـــت عــــود صليبهـــم فكسرتـــه
وســـــواك ألفـــــــاه صليـــــــب المكسر
أغلـــى الأداهـــم مـــن أســـرت وأرخصـــت
بيـــض الصـــوارم مــــن نهاب العسكـــــر
وجعلـــــت شرق الأرض يحســــــد غـــــربها
بــــك فهــــــو داع دعــــــوة المستنصر
لا يعــــد منــــك المسلمــــون فكـــم يـــــدا
أوليتهــــم معــــــروفهــــــا لم تنكــــــر
آمنـــت سربهم وصنـــت حـــريمهـــم
ودرأت عنهـــم قـــــاصمات الأظهـــــر
مـــــــا أن رآك الله إلا آمــــــــرا
فيهـــم بمعـــروف ومنكـــر منكـــر

متـــــواضعـــــا لله جـــــل جـــــلالــــــه
وبـــــك اضمحلـــــت سطـــــوة المتكبر
لم يخل سمـــــع مـــــن هنـــــاء مهنـــــىء
للمسلمين ومـــــــــن سماع مبشر
واستعظـــــم الأخبـــــار عنـــــك معـــــاشر
فـــــاستصغـــــروا مـــــا استعظمـــــوا بـــــالمخبر
مضـــــت الملـــــوك ولم تنـــــل عشر الـــــذي
أوتيتـــــه مـــــن منجـــــح أو مفخـــــر

وقال أبو الحسن علي بن الساعاتي في فتح طبرية :

جلـــــت عـــــزمـــــاتـــــك الفتـــــح المبينـــــا
فقـــــد قـــــرت عيـــــون المؤمنينـــــا
رددت أخيـــــــذة الاســـــــلام لما
غـــــدا صرف القضـــــاء بها ضمينـــــا
وهـــــان بـــــك الصليـــــب وكـــــان قـــــدمـــــا
يعـــــز على العـــــوالي أن يهونـــــا
يقـــــاتـــــل كـــــل ذي ملـــــك ريـــــاء
وأنـــــت تقـــــاتـــــل الأعـــــداء دينـــــا
غـــــدت في وجنـــــة الأيـــــام خـــــالا
وفي جيـــــد العـــــلا عقـــــدا ثمينـــــا
فيـــــا اللـــــه كـــــم ســـــرت قلـــــوبـــــا
ويـــــا لله كـــــم أبكـــــت عيـــــونـــــا
ومـــــا طبريـــــة إلا هـــــدي
تـــــرفـــــع عـــــن أكـــــف اللامسينـــــا
حصـــــان الـــــذيـــــل لم تقـــــذف بســـــوء
وســـــل عنهـــــا الليـــــالي والسنينـــــا
فضضـــــت ختـــــامهـــــا قسرا ومـــــن ذا
يصـــــد الليـــــث أن يلـــــج العـــــرينـــــا

لقد أنكحتها صم العوالي
فكان نتاجها الحرب الزبونا
هناك ندى أهل الأرض طرا
سواك ومعقل أعيا القرونا
قست حتى رأت كفؤا فلانت
وغاية كل قاس ان يلينا
قضيت فريضة الاسلام منها
وصدقت الأماني والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا
وترضى عنك مكة والحجونا
فلو أن الجماد يطيق نطقا
لنادتك أدخلوها آمنينا
جعلت صباح آهلها ظلاما
وأبدلتك الزئير بها أنينا
تخال حماة حوزتها نساء
لموضون الحديد مقنعينا
لبيضك في جماجمهم غناء
لذيذ علم الطير الحنينا

تميل إلى المثقفة العوالي
فهل أمست رماحا أم غصونا
يكاد النقع يذهلها فلولا
بروق القاضبات لما هدينا
فكم حازت قدود قناك منها
قدودا كالقنا لونا ولينا
وغيد كالجآذر آنسات
كغيد نداك ابكارا وعونا
ولما باكرتها منك نعمى
بنان تفضح الغيث الهتونا

أعـــدت بها الليـــالي وهـــي بيـــض
وقـــد كـــانـــت بها الأيـــام جـــونـــا
فليـــس بعـــادم مـــرعـــى خصيبـــا
أخـــو سغـــب ولا مـــاء معينـــا
فـــلا عـــدم الشـــآم وســـاكنـــوه
ظبـــى تشفـــي بها الـــداء الـــدفينـــا
سهـــاد جفـــونها في كـــل فتـــح
سهـــاد يمنـــح الغمـــض الجفـــونـــا
فـــالمم بـــالســـواحـــل فهـــي صـــور
إليـــك وألحق الهام المتـــونـــا
فقلـــب القـــدس مسرور ولـــولا
سطـــاك لكـــان مكتئبـــا حـــزينـــا
أدرت على الفـــرنـــج وقـــد تـــلاقـــت
جموعهـــم عليـــك رحـــى طحـــونـــا
ففـــي بيســـان ذاقـــوا منـــك بـــؤســـا
وفي صفـــد أتـــوك مصفـــدينـــا
لقـــد جـــاءتهم الأحـــداث جمعـــا
كـــأن صروفهـــا كـــانـــت كمينـــا
وخـــانهم الـــزمـــان ولا مـــلام
فلســـت بمبغـــض زمنـــا خـــؤونـــا
لقـــد جـــردت عـــزمـــا نـــاصريـــا
يحدث عـــن سنـــاه طـــور سنيـــا
فكنـــت كيـــوســـف الصـــديـــق حقـــا
لـــه هـــوت الكـــواكـــب ســـاجـــدينـــا
لقـــد أتعبـــت مـــن طلـــب المعـــالي
وحـــاول أن يســـوس المسلمينـــا
وأن تـــك آخـــراً وخـــلاك ذم
فـــإن محمـــداً في الآخـــرينـــا

- ٨٥١٥ -

قال ابن أبي طي: حدثني والدي عن أحد التجار قال: كنت بالموصل في سنة خمس وخمسين وخمسمائة، فزرت الشيخ عمر الملا. فدخل إليه رجل فقال: أيها الشيخ رأيت البارحة في النوم كأني بأرض غريبة لاأعرفها، وكأنها مملوءة بالخنازير، وكأن رجلا في يده سيف، وهو يقتل الخنازير، والناس ينظرون إليه، فقلت لرجل: هذا عيسى بن مريم، هذا المهدي، قال: لا، فقلت: من هذا؟ قال: هذا يوسف مازادني على ذلك، قال: فتعجب الجماعة من هذه الرؤيا، وقالوا: إنه سيقتل النصارى رجل يقال له يوسف، وحدست الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن صاحب الغرب، وكان المستنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة فحدس بعض الجماعة عليه، قال: وأنسيت أنا هذه الوقعة، فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتها، فكان يوسف الملك الناصر رحمه الله.

قال: وحدثني ظئر لي من نساء الحلبيين، كانت تداخل أخت السلطان الملك الناصر، قالت: كانت والدة السلطان تخبر أنها أتيت في نومها وفي حامل بالسلطان، فقيل لها: إن في بطنك سيفا من سيوف الله تعالى.

فصل

في فتح عكا وغيرها

وهي بالألف الممدودة،ويدل على ذلك أنه يقال في النسبة إليها عكاوي، وقد وجدت ذلك في شعر قديم، ومنهم من يقول عكة بالهاء ومثل ذلك حصن عرقة، وبعضهم يقول عرقا بالألف ونهر تورا، وبعضهم يقول: نهر توره بالهاء.

قال القاضي ابن شداد: ثم رحل السلطان طالبا عكا، وكان نزوله عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر وقاتلها بكرة الخميس مستهل جمادى الأولى، فأخذها واستنقذ من كان فيها من الأسارى، وكانوا زهاء أربعة آلاف نفر، واستولى على مافيها من الأموال والذخائر، والبضائع والتجائر، فإنها كانت مظنة التجار.

وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس وحيفا، وقيسارية وصفورية، والناصرة، وكان ذلك لخلو الرجال بالقتل والأسر.

قال العماد: ورحل السلطان ظهر يوم الثلاثاء، والتوحيد ظاهر على التثليث، والطيب قد امتاز من الخبيث، ونزل بأرض لوبية عشية، وأعادها بأزهار بنوده، وأنوار جنوده، روضة موشية، ثم أصبح سائرا إلى عكا، فاشيا سره، بارا بأهل الدين بره، وكان أمير المدينة النبويةصلوات الله على ساكنها في موكبه، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سير إلى نصرته من يثري به من يثربه، وهذا الأمير عز الدين أبو فليته القاسم بن المهنا الحسني، قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج، وهو ذو شيبة تقد كالسراج، ومابرح مع السلطان مأثور المآثر ميمون الصحبة، مأمون

المحبة، مبارك الطلعة، مشاركا في الوقعة، فما تم فتح في تلك السنين إلا بحضوره، ولاأشرق مطلع من النصر إلا بنوره، فرأيته في ذلك اليوم للسلطان مسايرا، ورأيت السلطان له مشاورا محاورا، وأنا أسير معهما، وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما، ولاحت أعلام عكا، وكأن بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنة من الخوف تتشكى، وكأن عذبات النيران تصاعدت لعذاب أهلها، وقد توافرت عساكر الاسلام إليها من وعرها وسهلها، ولما أشرفنا عليها مستظهرين أيقنا بفتحها مستبشرين، فما كان فيها من يحميها، فما صدقنا كيف نملكها ونحويها، وظهر على السور أهلها لأجل الممانعة، والثبات على المدافعة، وخفقان ألويتها يشعر بقلوبها الخافقة، وأرواح جلدهم الزاهقة، ووقفنا نتأمل طلولها، ونؤمل حصولها، وخيم السلطان بقربها وراء التل، وانبثت عساكره في الوعر والسهل، وبتنا تلك الليلة وقد هزتنا الإطراب، نقول متى يجتمع الأصباح والأصحاب، فما هجدنا ولاغرارا، ولاوجدنا من الفرح قرارا، والسلطان جالس ونحن عنده، وهو يحض جنده، ويقدح معهم في اقتباس الآراء زنده، ومنا من يستنجز وعده، ومنا من يستميح رفده، ومنا من يواصله بالدعاء، ومنا من يشافهه بالهناء، وأصبح يوم الخميس فركب في خميسه، ووقف كالأسد في عريسه، ووقفنا بإزاء البلد صفوفا، وأطللنا على أطلاله وقوفا، فخرج أهل البلد يطلبون الأمان، ويبذلون الإذعان، فأمنهم وخيرهم بين المقام والانتقال، ووهب لهم عصمة الأنفس والأموال، وكان في ظنهم أنه يستبيح دماءهم، ويسبي ذريتهم ونساءهم، وأمهلهم أياما حتى ينتقل من يختار النقلة، فاغتنموا تلك المهلة، وفتح الباب للخاصة، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعة من ذوي الخصاصة، فإن القوم ماصدقوا من الخوف المزعج، والفرق المحرج، كيف يتركون دورهم بما فيها ويسلمون، وعندهم أنهم إذا نجو بأنفسهم أنهم يغنمون، فلما دخل الجند ركز كل واحد منهم على دار رمحه، وأسام فيها سرحه، فحصلوا على دور أخلاها أربابها، وأموال خلاها أصحابها، وكنا لأجل

الأمـان نهابها، فطـاب لأولئـك نهابها، وجعــل السلطـان للفقيـه عيسـى الهكاري كل مـاكان للداوية من منـازل وضياع ومواضع ورباع، فـأخذها بما فيها مـن غلال ومتـاع، واستخرجـوا الدفـائن، وولجوا المخازن، وداروا الأماكن، وكـذلك مماليك الملك الأفضـل وأصحابه، وولاته ونـوابه نبشوا المحـارز، وفتشـوا المراكز، واستبـاحـوا الإهـراء واجتـاحوا الأشيـاء، وكـان السلطـان قد فـوض عكـا وضياعهـا ومعاقلهـا وقـلاعها إلى ولـده الأكبر الملك الأفضل نور الدين علي.

ثم ذكر العماد أنـواع مااستولوا عليـه من الأموال، ثم قـال: ومن جملة ذلـك أنهم احتاطـوا بغير علمـي على دار بـاسمي، فبـاعـوا منهـا متاعـا بسبعمائة دينـار، وأخلـوها ممـا كـان فيهـاآلات وأذخار، وقلـدوني المنـة في تحصيل تلـك الدار، فـإنها كانت مـن أنفس العقـار، وسلموهـا إلى غلام صديق لي يصونها، ويقوم بحفظها والـذب عنها، والدفاع دونها، فذكر أن الغلام انتفـع من آلاتها بعـد خلوهـا بها قيمته سبعـون دينارا، وأن الأولين نقلوا منها من الذخر أوقارا.

قال: وإنما وصفت هذا ليعلم ماغنمـوه، والتهبوا على حيازته والتهموه، وتصرف الملك المظفر تقي الدين في دار السكر فـأفنى قنودها، واستوعب موجودها، ونقل قدورها وأنقاضها، وحوى جواهرها وأعراضها.

وقال في كتاب الفتح:وخلى سكان البلـد دورهم، ومخزونهم ومدخولهم، وتركـوها لمن أخـذها، ونبـذوا ماحـووه لمن حواهـا ومانبـذها، وافتقـر من الفرنج أغنيـاء، واستغنى من أجنادنـا فقراء، ولو ذخرت تلـك الحواصل، وحصلـت تلك الـذخائر، وجمع لبيـت المال ذلك المال المجمـوع الوافـر، لكان عـدة ليوم الشدائد، وعمدة لنجـح المقاصد، فرتعـت في خضرائها، بل في صفـرائها وبيضـائها سروح الأطماع، وطـال لمستحلبها ومستحيلهـا الأمتاع بذلك المتاع.

وقال في البرق: وقرىء على السلطان ليلة من كتاب الفتح ونحن بالقدس، يعني هذا المكان، وذلك سنة ثمان وثمانين، فقال السلطان: هذه رفيعة على ثلاثة، اثنان منهم في جوار الرحمة، والآخر باق في مقر العصمة،يعني بالاثنين، الفقيه عيسى، وتقي الدين، وبالآخر الباقي ولده نور الدين.

قال: ولعمري هو كما ذكره، لكن الأفضل ماحصل له ولخواصه بل لذوي اختصاصه واستخلاصه، وفتحوا البلد يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى، فجئنا إلى كنيستها العظمى، فأزحنا عنها البؤسى بالنعمى، وحضر الأجل الفاضل فرتب بها المنبر، والقبلة وهي أول جمعة أقيمت بالساحل بعد يوم الفتح، وكان الخطيب والإمام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النجيب السهروردي، وولاه السلطان مناصب الشريعة بعكا، تولى الخطابة والقضاء والحسبة والوقف.

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد بعد فتح عكا يصف كسرة حطين:« صبح الخادم طبرية فافتض عذرتها السيف، وهجم عليها هجوم الطيف، وتفرق أهلها بين الأسر والقتل وعاجلهم الأمر، فلم يقدوا على الخداع والختل، وجاء الملك ومن كان معه من كفاره، ولم يشعر أن ليل الكفر قد آن وقت إسفاره، فأضرم الخادم عليها نارا ذات شرار، أذكرت بما أعد الله لهم في دار القرار، فترجل هو ومن معه عن صهوات الجياد، وتسنموا هضبة رجاء أن تنجيهم من حر السيوف الحداد، ونصبوا للملك خيمة حمراء، وضعوا على الشرك عمادها، وتولت الرجال حفظ أطنابها، فكانوا أوتادها، فأخذ الملك أسيرا(وكان يوما على الكافرين عسيرا)(٤٢) وأسر الإبرنس لعنه الله فحصد بذره، وقتله الخادم بيده ووفى بذلك نذره، وأسر جماعة من مقدمي دولته وكبراء ضلالته، وكانت القتلى تزيد على أربعين ألفا، ولم يبق أحد من الديوية، فلله هو من يوم تصاحب فيه الذئب والنسر، وتداول فيه القتل والأسر، أصدر الخادم هذه الخدمة من

ثغر عكا والاسلام قد اتسع مجاله، وتصرف أنصاره ورجاله والكفر قد ثبتت أوجاله، ودنت آجاله».

قال العماد: ومن جملة البشائر بكسرة حطين:« ولما أحيط بالقوم أوى ملكهم إلى جبل يعصمه من العوم، فأسمعه السيف(لاعاصم اليوم)(٤٣) واستولى الخذلان عليهم بأسرهم،وبردت أيدي المؤمنين بحر قتلهم وأسرهم، ولم يبق لهم باقية، وغصت بقتلاهم في الدنيا والآخرة أرض الله الواسعة، ونار الله الحامية، فما يطأ من يصل إلى مخيمنا إلا على رممهم البالية وأسر الملك وأخوه وبارونيته ومقدموه ولم يفلت منهم إلا القومص وهو مسلوب، ولابد أن ندركه فهو مطلوب، وقد كنا نذرنا ضرب رقبة الإبرنس صاحب الكرك الغدار، كافر الكفار، ونشيدة النار، فلما رأيناه ضربنا عنقه سريعا، وسرنا إلى عكا وهي بيضة ملكهم، وواسطة سلكهم، ومركز دائرة كفرهم، ومجمع جمع برهم وبحرهم، فتسلمناها بالأمان، والصخرة المقدسة الآن بنا تصرخ وتستغيث، وعباد الله الصالحون قد وصلت إليهم بوعد الله الصادق المواريث، والبشارة بفتح القدس لاتتأخر، والهمم بعد هذا الفتح السني على ذلك تتوفر، والحمد لله الذي تتم الصالحات بحمده(مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ومايمسك فلا مرسل له من بعده)(٤٤)».

فصل

في فتح نابلس وجملة من البلاد الساحلية بعد فتح عكا و طبرية وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك

قال العماد: وأقام السلطان أياما بعد فتح عكا على التل مخيما، وعلى سائر بلاد الساحل مصمما، وكان قد كتب إلى أخيه العادل بمصر بما فتحه الله عليه، فوصل بعسكره وفتح في طريقه حصن مجدل يابا، ومدينة يافا عنوة، فقصده من عسكرنا القصاد، ووفد إليه الوفاد، وأمره السلطان بأن يقيم في ذلك الجانب، جامعا للكتائب ليجتمع به الواصلون من مصر الآملون معه بالنصر.

قال: وتوجه عدة من الأمراء والعسكرية إلى الناصرة وقيسارية، والبلاد المجاورة لعكا وطبرية، ومضى كل فريق في صوب، وآبوا بالغنيمة والسبى خير أوب.

قال: فأما الفولة فهي قلعة للداوية حصينة، وفيها ذخائرهم وأموالهم، فلما خرج الداوية منها وقتلوا لم يبق فيها إلا اتباع وغلمان فسلموها وجميع مايجاورها، كدبورية وجينين وزرعين والطور وزاد في كتاب الفتح: واللجون وبيسان والقيمون، وجميع مالعكا وطبرية من الولايات، والزيب ومعليا والبعنة واسكندورنة ومنوات.

قال: وتوجه مظفر الدين كوكبري إلى الناصرة فاستباحها، وصفرت صفورية من سكانها، وتوجه بدر الدين دلدرم وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء إلى قيسارية فافتتحوها بالسيف، وتسلمت بعدها حيفا وأرسوف، واستولى على تلك الشموس والأقمار الكسوف والخسوف، وحيفا بين عكا وقيسارية على البحر.

قال: وأما نابلس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها، كانوا مسلمين، وفي سلك الرعية مع الفرنج منتظمين، وهم يجبون كل عام منهم قرارا، ولايغيرون لهم شرعا ولاشعارا، فلما عرفوا كسرهم، وأنهم لايرجون جبرهم، خافوا من مساكنة المسلمين فتفرقوا، وكبسهم أهل الضياع في الدور والرباع، وغنموا ماوجدوه من الذخائر والمتاع، وأوقعوا بضعفائهم، وضايقوا الحصون على أقويائهم، وطلبها من السلطان ابن أخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو عزيز عند خاله، ملء بفضله وأفضاله، فأقطعه السلطان نابلس وأعمالها وضياعها، ونواحيها وقلاعها، فتوجه إليها بعسكره، فأول ما أناخ على سبسطية وفيها مشهد زكريا عليه السلام، وقد اتخذه الأقساء كنيسة منذ فارقه الاسلام، وهو متعبدهم المعظم، والمشهد المكرم، وقد حجبوه بالأستار، وحلوه بالفضة والنضار، وعينوا له مواسم الزوار، وقومته من الرهابين فيه مقيمة، ولايؤذن في الزيارة إلا لمن معه هدية لها قيمة، فدخله وحوى مافيه، وأبقى مالايحسن أن يخلو من مثله المسجد، وفتح للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلين محرابه، ثم سار إلى نابلس ففتحها بالأمان، واستمال من سكانها من ضرب عليه الجزية بعد زمان، وأجراهم على مالهم من العمارة والبنيان وبقيت بيده الى آخر عهده، وعمرت بعدله ورفده.

قال العماد: وأنشدته يوم فتح القدس قصيدة أولها:

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا
وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا
ماطبت نفسا ولااستحسنت بعدكم
شيئا نفيسا ولااستعذبت لي نفسا
قلبي وصبري وغمضي والشباب وما
الفتم من نشاطي كله خلسا

وكيف يصبح أو يمسي محبكم
وشوقكم يتولاه صباح مسا
عادت معاهدكم بالجزع دارسة
وإن معهدكم في القلب ما درسا
وكنت أحدس منكم كل داهية
وما دهانا من الهجران ما حدسا
لما هدت نار شوقي ضيف طيفكم
قريته بالكرى زار مقتبسا
ورمت تأنيسه حتى وهبت له
إنسان عيني أفديه فما أنسا
أنا الخيال نحو لا فالخيال إذا
ما زارني كيف يلقى من به التبسا
لهفي على زمن قضيته طربا
إذ لم أكن من صروف الدهر محترسا
عسى يعود شبابي ناضرا ومتى
أرجو نضارة عود للشباب عسا
وشادن يفرس الآساد ناظره
فديته شادنا للأسد مفترسا
في العطف لين وفي أخلاقه شوس
يا لين عطفيه جنب خلقه الشوسا

ومنها في المديح:

إن بان لبس مضينا لاجئين إلى الـ
ـفتى الحسام بن لاجين بنابلسا
يميت أعداءه بأسا ونائله
يحيي رجاء الذي من نجحه أيسا
ممزق المازق المنسوج عثيره
وقد محا اليوم ليل النقع فانطمسا

لازلت مستويا فوق الحصان وفي
حصن الحفاظ ومن عاداك منتكسا

وهي طويلة وقد تقدمت منها أبيات في وصف كسرة حطين، وسيأتي منها أيضا أبيات عند فتح القدس في مدح السلطان صلاح الدين رحمه الله.

ومن كتاب عن السلطان إلى سيف الاسلام أخيه:« كاتبنا أخانا العادل أن يدخل بالعساكر المصرية من ذلك الجانب، فلما بشر بكسر الفرنج وفتح عكا وطبرية،كان قد وصل إلى السواد، فحاز العريش، وزار الداروم، وأجفلت قدامه البلاد، ووصل إلى يافا ففتحها عنوة، ثم حصر مجدل يابا، فطلبت منه الأمان، وقد اشتمل الفتح على البلاد المعينة بعد وهي:

طبرية. عكا. الزيب. معليا. اسكندرونة. تبنين. هونين. الناصرة. الطور. صفورية. الفولة. جينين. زرعين. دبورية. عفربلا. بيسان. سبسطية. نابلس. اللجون. أريحا. سنجل. البيرة. يافا. أرسوف. قيسارية. حيفا. صرفند. صيدا. بيروت. قلعة أبي الحسن. جبيل. مجدل يابا. جبل الجليل. مجدل حباب. الداروم. غزة. عسقلان. تل الصافية. التل الأحمر. الأطرون. بيت جبريل. جبل الخليل. بيت لحم. لد. الرملة. قرتيا. القدس. صوبا. هرمز. سلع. عفرا. الشقيف.

قال: ولم يذكر ماتخللها من القرى والضياع والأبراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع ولكل واحدة من هذه البلاد التي ذكرناها أعمال وقرى ومزارع وأماكن ومواضع قد جاسوا خلالها واستوعبوا ثمارها وغلالها.

قال العماد: ومما أنشأته من شرح الفتوح وكتبت به إلى الديوان

وبدأت بقـوله تعـالى:«(ولقـدكتبنـا في الزبـور من بعـد الذكـر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)(٤٥) الحمد لله على ماأنجز مـن هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبـل ومن بعد، وجعل بعد عسر يسرا، وقد أحـدث الله بعد ذلـك أمرا، وهـون الأمر الـذي ماكـان الاسلام يستطيـع عليه صبرا، وخـوطب الـدين بقولـه:(ولقد مننـا عليك مـرة أخرى)(٤٦) فالأولى في عصر النبـي صلى الله عليه وسلـم والصحابـة، والأخرى هـذه التي عتـق فيها مـن رق الكآبة، فهـو قد أصبـح حرا، ريـان الكبد الحرا، والزمـان كهيئته استـدار، والحق ببهجته قـد استنار، والكفـر قد رد مـاكان عنده من المتاع المستعار، فالحمد لله الذي أعـاد الاسلام جديدا ثوبه، بعد أن كان جـذيذا حبلـه، مبيضا نصره، مخضرا نصلـه، متسعا فضلـه، مجتمعا شملـه، والخادم يشرح مـن نبأ هـذا الفتـح العظيـم، والنصر الكـريـم، مايشرح صـدور المؤمنين، ويمنح الحبـور لكافـة المسلمين، ويورد البشرى بما أنعم الله به مـن يوم الخميس الثالـث والعشرين من شهر ربيـع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه ، وتلك سبع ليال وثمانيـة أيام حسوما، سخرها الله على الكفار فترى القوم فيهـا صرعى كأنهم أعجاز نخـل خاوية، وإذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خـالية، ورأيتها إلى الاسلام ضاحكة، كما كـانت مـن الكفر بـاكية، فيـوم الخميس الأول فتحـت طبرية، ويـوم الجمعة والسبـت نوزل الفرنـج فكسروا الكسرة التي مـالهم بعدها قـائمة، وأخذ الله أعداءه بـأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظـالمة، وفي يوم الخميس منسلخ الشهـر فتحت عكـا بالأمـان، ورفعت بها أعـلام الإيمان، وهي أم البـلاد، وأخـت إرم ذات العماد، وقـد أصـدر هـذه المطـالعـة وصليـب الصلبـوت مأسـور، وقلب ملـك الكفر الأسير بجيشـه المكسور مكسـور، والحديد الكـافر الذي كـان في يد الكفـر يضرب وجه الاسلام، قـد صار حـديـدا مسلما يعـوق خطـوات الكفر عـن الإقـدام، وأنصـار الصليـب وكباره، وكل من المعمودية عمدته والـدير داره قد أحاطت به يد القبضة، وغلق رهنه فـلا تقبل فيه القناطير المقنطـرة من الذهب والفضـة، وطبرية

قد رفعت أعلام الاسلام عليها، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها، وعمرت إلى أن شهدت يوم الاسلام وهو خير يوميها، وقد صارت البيع مساجد يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر، وصارت المذابح مواقف لخطباء المنابر، واهتزت أرضها لموقف المسلم فيها، وطالما ارتجت لموقف الكافر، فأما القتلى والأسرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا، وأما فرسان الداوية والاسبتارية فقد أمضى حكم الله فيهم وقطع بهم سوق نار الجحيم، ورحل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم، وقتل الإبرنس كافر الكفار، ونشيدة النار، من يده في الاسلام كما كانت يد الكليم، والبلاد والمعاقل التي فتحت هي: طبرية. عكا. الناصرة. صفورية. قيساريه. نابلس. حيفا. معليا. الفولة. الطور. الشقيف. وقلاع بين هذه كبيرة، والملك المظفر تقي الدين ظفره الله مضايق لصور، وحصن تبنين، والأخ العادل سيف الدين نصره الله قد كوتب بالوصول بمن عنده من العساكر لينزل في طريقه على غزة وعسقلان ويجهز مراكب الاسطول المنصورة إلى عكا، ومايتأخر النهوض إلى القدس، فهذا هو أوان فتحه، ولقد دام عليه ليل الضلال، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه».

-٨٥٢٧-

فصل

في فتح تبنين وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها ومجيء المركيس إلى صور

قال العماد: أرسل السلطان إلى تبنين ابن أخيه تقي الدين فضايقها، وكتب إلى السلطان أن يأتيه بنفسه فوصل إليها في ثلاث مراحل، ونزل عليها يوم الأحد الحادي عشر من جمادى الأولى، فراسلوا السلطان، وسألوا الأمان، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا، وبذلوا رهائن من مقدميهم، ووفوا بما بذلوا، وتقربوا بإطلاق الأسارى المسلمين، فخرج الأسارى مسرورين، فسر بهم السلطان وسر بهم، وأقرهم وقربهم، وكساهم وحباهم، وأتاهم بعد ردهم إلى مغانيهم غناهم، وهذا دأبه في كل بلد يفتحه، وملك يربحه، أنه يبدأ بالأسارى فيفك قيودها، ويعيد بعد عدمها وجودها، فخلص تلك السنة من الأسر أكثر من عشرين ألف أسير، ووقع في أسره من الكفار مائة ألف، ولما خلوا القلعة، وأخلوا البقعة سيرهم، ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور، وتسلمها يوم الأحد الثامن عشر من جمادي الأولى، وكان شرط عليهم تسليم العدد والدواب والخزائن.

وقال القاضي ابن شداد: فتحها السلطان عنوة، وكان بها رجال أبطال، شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة، ونصر الله عليهم، وأسر من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا، فنزل عليها، ومن الغد تسلمها وهو يوم الأربعاء الحادي و العشرون.

قال العماد: سنحت له صيدا فتصدى لصيدها، وكانت همته في

قيدهـا، وبادرهـا اشفاقا مـن مكر العداة وكيـدها، ووصلنـا في يومين إلى صيـدا إلى منهـل فتحها صـاديـن، وعـن حمى الحق دونها لأهل البـاطـل صاديـن، ولما نزلنا مـن الوعر إلى السهـل سهل ماتـوعر، وصفا مـن الأمر مـاظن أنـه تكـدر، فصرفنـا الأعنة إلى صرفنـد، وهـي مـدينة لطيفـة على السـاحـل، مـورودة المنـاهل، ذات بسـاتين وأشجـار وريـاحين وأزهـار، فأخـذناهـا، وخيمنا على صيـدا وقد جـاءت رسل صـاحبها بمفـاتيحها، وطلعـت الـرايـة الصفـراء على سـورهـا وأقيمـت بها الجمعـة والجماعـة، واستديمت بها بعد العصيان لله الطاعة.

ثـم سـار في يـومـه على سمـــت بيروت، فنـزل عليهـا يـوم الخميـس، وضايقهـا وحاصرهـا ثمانية أيـام، ثم طلبـوا الأمان فـأمنهم وتسلمهـا يوم الخميس التاسع والعشرين من جمادى الأولى.

ومرض العماد فـأملى كتاب صلـح بيروت، ورجع إلى دمشـق للمداواة، ثم وجد الشفاء، وعاد إلى السلطان يوم فتح القدس كما سيأتي.

قـال: وسلمـت بيروت بحضـوري، فكـان مـن سبـب ابـلالي سروري بفتحها وحبـوري، وخرج منهـا ومن قلعتها الفـرنج وامتـلأ بهم إلى صور النهج، وعاد الاسـلام الغريب فيها إلى وطنـه، وتوطن الديـن بها في مأمنه وسكن في مسكنه، وأما جبيل فإن صـاحبها أوك كان في جملة من نقل إلى دمشق مع الملـك الأسير، فضاق ذرعا بسجنه الذي تعجل لـه فيه عذاب السعير، فتحدث مع الصفي بن القابـض في أمره، وباح إليه بسره، وقال: مالكم في أسري فائدة ولاغنيمة على فتـح جبيل زائدة، وأنا أسلمها بشرط سلامتي، فخذوهـا ولاتفقدوني، فقد قامت قيامتي، فـأنهى الصفي حاله، واستصوب ماقالـه، فأمر باحضاره في قيده والإحتراز من كيـده، فوصل به ونحن على بيروت فسلـم جبيل وسلـم وربح نجاتـه وغنم، ومضـى إليها من تـولاها، وانسـل منها صاحبهـا وسلاها، وتبعهـا فتح بيروت وتـلاها،

فانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالساحل في سلك من الفتوح متسق، وأمر من الاستقامة متفق، وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين، مساكين لمساكنة الفرنج مستسلمين، فذاقوا العزة بعد الذلة، وفاقوا الكثرة بعد القلة، وصدقت البشائر، وصدحت المنابر، وظهر عيب البيع، وشهر جمع الجمع، وقرىء القرآن، واستشاط الشيطان، وخرست النواقيس، وبطلت النواميس، ورفع المسلمون رؤوسهم، وعرفوا نفوسهم، وكان كل من استأمن من الكفار يمضي إلى صور محمي الذمار، فصارت صور عش غشهم، ووكر مكرهم، وملجأ طريدهم، ومنجا شريدهم، وهي التي فر القومص إليها يوم كسرتهم بل يوم حسرتهم، ولما عرف القومص قرب السلطان منها أخلاها وخلاها، وآوى إلى طرابلس وثواها فما متع بها ملك وكان كما قيل:« راح يبغي نجوة من هلاك فهلك»، وتعوضت صور عن القومص بالمركيس كما يتعوض عن الشيطان بإبليس، فأدرك ذماء الكفر بعدما أشفى، وأيقظ روع الروع بعدما أغفى، وضبط صور بمن فيها، من مهزومي الفرنج ومنفيها، وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر وأغول شياطينه، وأضرى سراحينه، وأخبث ذئابه، وانجس كلابه، وهو الطاغية الداهية، الذي خلقت له ولأمثاله الهاوية، ولم يكن وصل إلى الساحل قبل هذا العام، واتفق وصوله إلى مينا عكا وهو بفتحها جاهل، وعمن فيها من المسلمين ذاهل، فعزم على إرساء الشينى بالمينا،ثم تعجب وقال: مانرى أحدا من أهليها يلتقينا، ورأى زي الناس غير الزي الذي يعرفه، فارتاب وارتاع، وحدث عن الدخول توقفه، وبان تندمه، وتأخر تقدمه، وسأل عن الحال فأخبر بها ففكر في النجاة والهواء راكد، والقضاء عنه راقد، فإنه لو خرج إليه مركب لأخذه، ولو وقف له قاصد لوقذه، فاحتال كيف يخرج بسفينته، ولا يدخل مع فقد سكينته، فسأله عن متولي البلد، وقال:خذوا لي منه أما نا حتى أدخل وأرفع ما معي من المتاع، وأنقل ما عندي من الثقل، فجيء إليه من الأفضل بالأمان، فقال: ما أثق إلا بخط يده، ولاأنزل

إلا بعهده إلى بلده، وهو ينتظر هبوب الريح الموافقة، فما زال يردد الرسل، ويدبر الحيل، حتى وافقته الريح فأقلع وأفلت من الشرك بعدما وقع، وصار في صور فرم الأمور وجرأ الكفر بعد خوره، وبصر الشيطان بعد عماه وعوره، وأرسل رسله إلى الجزائر وذوي الجرائر يستعدي ويستدعي، ويستودع ملة الصليب عباده ويسترعي، ويستشير ويستزير، ويستنفر ويستنصر، وثبت في صور ونبت، وجمع إليه من الفرنج من تشتت، ومافتح بلد بالأمان إلا سار أهله في حفظ السلطان حتى يصيروا بصور ويأمنوا المحذور، فاجتمع إليها أهل البلاد المفتوحة بالقلوب المقفلة المغلوبة المقروحة، فامتلأت وكانت خالية، وانتاشت وكانت بالية، وتعللت وكانت معتلة، وتعقدت وكانت منحلة، ولم يحتفل بها فأخر فتحها فاستجدت رمقا بالمهلة، وتصعبت بعد مقادتها السهلة، وألهى عن طلبها طلب ماهو أشرف وهو البيت المقدس، فإن فتحه من كل فتح أنفس والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخندق ويحكمه ويعقد الموثق ويبرمه، ويجمع المتفرق وينظمه.

فصل

فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها

قال العماد: لما فرغ السلطان من فتح بيروت وجبيل ثنى عنانه عائدا على صيدا وصرفند، وجاء إلى صور ناظرا إليها، وعابرا عليها غير مكترث بأمرها، ولامتحدث في حصرها، ودلته الفراسة على أن محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب، وليس بالساحل بلد منها أحصن، فعطف الأعنة إلى ماهو منها أهون، وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدم الداوية في قيودهما، وشرط معهما واستوثق منهما أنه يطلقهما من الأسر والبلية، متى تمكن بإعانتهما من البلاد البقية، وعبر والعيون صور إلى صور، وماشك المركيس أنه محصور محسور، فلما أرخي من وثاقه، واتسع ضيق خناقه، حلق في مطار أوطاره، وحرك لغواته أوتار أوتاره، واجتمع السلطان بأخيه العادل واتفقا على طي المراحل، ونشر القساطل، فنزل على عسقلان يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة، وشديدها قد لان، فتجلد من بها على الحصار وتربصوا وتصبروا، فنصب السلطان عليها مجانيق ورماهم بها، وجسر النقاب فحسر النقاب، وباشر الباشورة، فرفع الحجاب، واشتد القتال واحتد المصال، وراسلهم عند ذلك الملك المأسور وقال: قد بان عذركم حين نقب السور، وجرت حالات، وتكررت حوالات، وترددت رسالات، وقال لهم الملك الأسير: لاتخالفوا مابه أشير، واحفظوا رأسي فهو رأس مالكم، ولاتخطروا غيري ببالكم فإني إذا تخلصت خلصت، وإذا استنقذت استنقذت، وخرج مقدمون وشاوروا الملك، ونهجوا في التسليم نهجه الذي سلك، وسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، واستوفوا بذلك الميثاق واليمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة، وخرجوا بنسائهم وأموالهم، وممن استشهد على عسقلان من الأمراء الأكابر حسام الدين ابراهيم بن حسين المهراني، وهو أول أمير

افتتح بالشهادة واختتم بالسعادة، وكـان السلطان قد أخذ في طريقه إليها الـرملـة، وتبنين، وبيـت لحم، والخليـل، وأقـام بها حتـى تسلـم حصـون الداويـة: غزة والنطرون، وبيـت جبريل، وكـان قد استصحب معـه مقدم الداوية، وشرط معـه أنه متى سلم معـاقلهم أطلقه، فسلم هـذه المواضع الوثيقة، كما أخذ مواثيقه.

كـذا قـال العماد في كتـاب الفتـح، وقـال في كتـاب البرق: ومـابـرح السلطان مقيما بظـاهر عسقلان حتى تسلـم المعاقل المجـاورة لها، والبلاد المتخللـة فيما بينهـا، فـذكـر الداروم، وغـزة والـرملـة وتبنين، وبيـت لحم ومشهد الخليل عليه السلام، ولد، وبيت جبريل، والنطرون.

قال ابـن شداد: لما فـرغ بال السلطـان من هـذا الجانب يعنـي ناحيـة بيروت رأى قصـد عسقلان، ولم يـر الإشتغال بصـور بعـد أن نزل عليهـا ومـارسها، لأن العسكـر كان قـد تفرق في السـاحل، وذهـب كل انسـان يأخـذ لنفسه شيئـا، وكانـوا قد ضرسـوا من القتـال، ومن مـلازمة الحرب والنـزال، وكان قـد اجتمع في صـور — يسر الله فتحها— كـل فرنجـي بقي في السـاحل فـرأى قصد عسقـلان لأن أمرهـا كان أيسر، وتسلـم في طريقه مواضـع كثيرة: كالرملة، وتبنين، والداروم. فأقـام عليها المنجنيقات وقاتلهـا قتالا شديدا، وتسلمهـا سلخ جمادى الآخرة، وأقـام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة، وبيت جبريل، والنطرون بغير قتال.

قـال: وكان بين فتـح عسقلان وأخـذ الفـرنج لها مـن المسلمين خمس وثلاثـون سنة، فإن العدو ملكهـا في السابع والعشرين مـن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وذكر ابن القادسي نسخة كتاب كتبـه السلطان إلى بعض أهله وفيه:« انتقلنـا إلى الجانب الـذي فيـه القدس، وعسقـلان ففتحنـا قـلاعه كلهـا

وحصونه جميعها ومعاقله بجملتها ومدنه بأسرها وهي: حيفا، وقيسارية، وأرسوف، ويافا، والرملة، ولد، وتل الصافية، وبيت جبريل، والدير، والخليل، ونازلنا عسقلان، وهي المعقل المنيع، والحصن الحصين، والتل الرفيع، وفيهم من القوة والعدة والعدد ماتتقاصر الآمال عن نيل مثله، فافتتحناها سلما لتمام أربعة عشر يوما من يوم نزولنا عليها، ونصبت أعلام التوحيد على أبراجها وأسوارها، وعمرت بالمسلمين، وخلت من مشركيها وكفارها، وكبر المؤذنون في أقطارها، ولم يبق في الساحل من جبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القدس، وصور، والعزم مصمم على قصد القدس، فالله يسهله ويعجله، فإذا يسر الله تعالى فتح القدس ملنا إلى صور، والسلام».

وفي كتاب آخر تقدم ذكر بعضه قال:« وقد تفرق العسكر، وتوجه قوم إلى القدس وابن زين الدين وتقي الدين نازلان على صور، وفتحت هونين بالسيف وتبنين، بالسيف وإسكندرونه بالسيف».

وفي كتاب آخر:« ونزلوا على صور وكاتبهم ملك بيت المقدس يطلب الأمان، فقال له صلاح الدين: أنا أجيء إليكم، فقال له المنجمون: على نجمك أن تدخل بيت المقدس وتذهب عين واحدة منك، فقال: قد رضيت بأن أعمى وآخذ البلد».

قال:« ولم يمنعه من ذلك إلا فتح صور، وماهي شيء يقف عليه، وقد خطب لأمير المؤمنين الناصر لدين الله على ثلاثين منبرا من بلاد الفرنج».

قال العماد: وفوض السلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع الأمور الدينية بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين أبي محمد عبد الله بن عمر الدمشقي، المعروف بقاضي اليمن.

قال: ووصل إلى السلطان من مصر ولده الملك العزيز عثمان، واجتمع

به على عسقلان، فقرت عينـه بولده، واعتضد بعضده، ووضع يـده بتأييد الله في يـده، وكان قـد استدعـى بـالأساطيـل المنصـورة فوافـت كالفتـخ الكواسر بـالفلك المواخـر، وجاءت كأنها أمـواج تلاطـم أمواجـا، وأفواج تزاحـم أفواجا، تدب على البحـر عقاربها، وتخب كقطع الليل سحـائبها، لؤلؤ مقـدمها ومقدامها، وضرغام غابها وهمامهـا، فطفق يكسر ويكسب، ويسل ويسلب، ويقطـع الطريق على سفن العدو ومراكبـه، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

- ٨٥٣٥ -

فصل

فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى

قال القاضي ابن شداد: لما تسلم السلطان عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس، شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد قضاء لبانتها من النهب والغارة، فسار نحوه معتمداً على الله، مفوضا أمره إلى الله، منتهزا فرصة فتح باب الخير الذي حث على انتهازه إذا فتح بقوله عليه السلام:« من فتح له باب خير لينتهزه، فإنه لايعلم متى يغلق دونه» وكان نزوله عليه قدس الله روحه يوم الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بالجانب الغربي، وكان مشحونا بالمقاتلة من الخيالة والرجالة، ولقد تجاوز أهل الخبرة عدة من كان فيه المقاتلة بما يزيد على ستين ألفا ماعدا النساء والصبيان، ثم انتقل رحمه الله تعالى لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي.

وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب عليه المنجنيقات وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية، ولما رأى أعداء الله مانزل بهم من الأمر الذي لايندفع، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل، وكان قد ألقى الله في قلوبهم مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر وماجرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ماصاروا إليه صائرون، وبالسيف الذي قتل به أخوانهم يقتلون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين، وكان تسلمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب، كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل

زمان الأسراء بنبيهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وهـذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى.

قلت: هـذا أحد الأقوال في ليلة المعراج، وفي ذلك اختلاف كثير ذكرناه في موضع غير هذا والله أعلم.

ثم قال القاضي: وكان فتوحا عظيما شهده من أهل العلم خلق عظيم، ومن أرباب الخرق والحرف، وذلك أن الناس لما بلغهم مامن الله به على يده من فتوح الساحل، شاع قصده للقدس، فقصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف عن الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير، وخطب فيه وصليت فيه الجمعة يوم فتحه، وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلا عظيما، ونصر الله الاسلام نصر عزيز مقتدر، وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرة دنانير،وعن كل امرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير ذكر أو أنثى دينارا واحدا.

قلت: كذا قال، وسيأتي في كلام العماد أن على كل صغير دينارين، وكذا قال: ان الجمعة صليت ببيت المقدس يوم فتحه، وسيأتي في كلام العماد التصريح بأن يوم الفتح ضاق عن ذلك، فصليت في يوم الجمعة الآتي.

ثم قال القاضي: فمن أحضر القطيعة سلم بنفسه، وإلا أخذ أسيرا، وفرج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانوا خلقا عظيما زهاء ثلاثة آلاف نفس، وأقام عليه رحمه الله يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو صور.

قال: ولقد بلغني أنه رحمه الله رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال

شيء، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألفـا، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين، كما سيأتي.

- ٨٥٣٨ -

فصل

هذا الذي ذكره القاضي في أمر فتح بيت المقدس مختصرا مجموعاً، وقد بسطه العماد فقال: رحل السلطان من عسقلان للقدس طالبا، وبالعزم غالبا، وللنصر مصاحبا ولذيل العز ساحبا، والاسلام يخطب من القدس عروساً، ويبذل لها في المهر نفوساً، ويحمل إليها نعمى ليحمل عنها بوسى، ويهدي بشرى ليذهب عبوساً، ويسمع صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لإعدائها على أعدائها، وإجابة دعائها، وتلبية ندائها، واطلاع زهر المصابيح في سمائها، وإعادة الايمان الغريب منها إلى وطنه، وردّه إلى سكونه وسكنه،وإقصاء أعداء الدين أقصاهم الله تعالى بلعنته من الأقصى، وجذب قياد فتحه الذي استعصى، واسكات الناقوس منه بانطاق الأذان، وكف كف الكفرعنه بأيمان الإيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الاجناس، وأدناس أدنى الناس، وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعبا واطاشت، وخفقت أفئدتهم خوفاً من جيش الاسلام وجاشت، وتمنت الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ماعاشت، وكان به من مقدّمي الفرنج باليان بن بارزان، وهو وملكهم في التسلط شيئان بارزان، والبطرك الأعظم وهو الثاني العظيم الشان، والذين أعظمتهم حياطة حطين به من الفرسان الداوية والاسبتاربة و البارونية من ذوي الكفر والشنآن، وقد حشروا وحشدوا، ونشروا ونشدوا، وحميت حميتهم وأبت الضيم أبيتهم، وحارت غيرتهم، وغارت حيرتهم، وتبلدوا وتلدّدوا، وقاموا وقعدوا، وصوّبوا وصعدوا، فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنيران، وخمدت نار بطر البطرك، وضاقت بالقوم منازلهم، فكانت كل دار منها شركا للمشرك، وقاموا للتدبير في مقام الإدبار، وتقسمت أفكار الكفار، وايس الفرنج من الفرج، وأجمعوا على بذل المهج، وقالوا: هاهنا نطرح الرؤوس، ونسلو النفوس، ونسفك الدماء، ونهلك الدهماء، ونصبر على اقتراح القروح، واجتراح الجروح، ونسمح بالأرواح شحا بمحل الروح، فهذه

الأماكن فيها قمامتنـا، ومنها تقوم قيامتنا، وتصيح هامتنـا، وتصح ندامتنا، وتسيح عـلامتنا، وتسح غمامتنـا وبها غرامنا، وعليها غـرامتنا، وباكـرامها كـرامتنا، وبسـلامتها سـلامتنا، وبـاستقامتهـا استقامتنـا، وفي استدامتهـا استدامتنا، وإذا تخلينا عنها لزمت لامتنا، ووجبت ملامتنا، ففيها المصلب والمطلب، والمذبح والمقـرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعـد، والمرقى والمرقـب، والمشرب والملعب، والمحـق والمذهب والمطلـع والمقطع والمربـى والمربع، والمرخم والمخرّم، والمحلل والمحـرّم، والصور والاشكـال، والانظار والأمثال،والأشباه والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجساد والأرواح، وفيها صـور الحواريين في حـوارهـم، والأحبـار في أخبـارهـم والـراهبين في صوامعهـم، والاقساء في مجامعهـم، والسحرة وحبـالها، والكهنة وخيـالها، ومثـال السيـدة والسيـد، والهيكـل والمولـد، والمائدة والحوت، والمنعـوت والمنحـوت والتلميـذ والمعلـم، والمهد والصبـي المتكلـم،وصـورة الكبـش والحمار، والجنة والنار والنـواقيس والنواميس، قالوا: وفيهـا صلب المسيح، وقرب الذبيح، وتجسد اللاهوت، وتـأله الناسوت، واستقام التركيب، وقام الصليب، ونـزل النور، وزال الديجور، وازدوجـت الطبيعة بالاقنـوم، وامتزج الموجـود بالمعـدوم، وعمدت معمـودية المعبـود ومخضت البتـول بالمولـود، وأضافوا إلى متعبـدهم من هذه الضـلالات ماضلوا فيه بـالشبه عن نهج الـدلالات، وقـالـوا: دون مقبرة ربنـا نمـوت، وعلى خـوف فـوتها منـا نفـوت،وعنها نـدافـع، وعليهـا نقارع، ومـالنـا لانقـاتل، وكيـف لاننـازع ولانناـزل،ولأي معنى نتركهـم حتى يـأخـذوا وندعهـم حتى يستخلصـوا مااستخلصنـا منهم ويستنقـذوا، وتأهبـوا وتناهـوا، ومانتهـوا بل تنـاهوا، ونصبـوا المجـانيـق على الأسوار، وستروا بظلمات الستـائر وجـوه الأنـوار، واستشـاطـت شيـاطينهـم، وسرحـت سراحينهـم، وطغـت طـواغيتهـم، وأصلتـت مصـاليتهـم، وهـاج هـائجهـم، ومـاج مـائجهـم، وحضهـم قسـوسهم، وحـرضتهم رؤوسهـم، وحركتهـم نفوسهـم، وجاءتهم بنجـوى السـوء جواسيسهـم، ونصبـوا على كل نيـق منجنيقـا، وحفروا في الخنـدق

حفراً عميقا، وشادوا في كل جانب ركنا وثيقـا، وفرقوا على كل برج فريقا، وجعلوا إلى كـل طارق بـالردى للـرّد طريقـا، وأعادوا كـل نهج واسع بها وعروه وعوروّه بـه مضيقا، وتحمل كل منهـم مالم يكن له مـن قبل مطيقا، وخـرج جماعة منهـم على سبيل اليـزك فـأدلجوا ليلا، واعترضـوا عدّة مـن أصحـابنا غـارة، على طريـق السلامـة مـاره، وكان قـد شذ مـن المقدمـة المنصورة أمير تقـدم، وماتحرز، ولاتحزم، ومـاظن أن قـدامه مـن له جـراءة الإقـدام، ومن يعتقـد أن ربـح كفـره خسارة الاسـلام، وهـوالأمير جمال الدين شروين حسـن الزرزاري، فوقعوا عليه في موضـع يعرف بالقبيبات، فاستشهـد رحمه الله، ولما بلغ السلطـان خبره ساءه وغمه ثـم أقبل بـاقبال سلطـانه وأبطـال شجعـانـه، واقيال أولاده، وأخـوانـه، وأشبـال مماليكـه وغلمانه، وكرام أمـرائه وعظام أوليائه، وأصبح يسأل عن الأقصـى وطريقة الأدنـى، وفريقـه الأسنـى، ويذكـر مـايفتح الله عليـه بحسـن فتحه مـن الحسنـى، وقال إن أسعـدنا الله على إخـراج أعدائه مـن بيته المقـدس فما أسعدنا، وأي يـد له عندنا إذا أيـدنا، وإنه مكث في أيـدي الكفر احدى وتسعين سنة، ولم يتقبل الله فيه من عابـد حسنه، ودامت همم الملوك دونه متوسنة، وخلت القـرون عنه متخليه، وخلت الفرنج بـه متوليه، فما ادخر الله فضيلة فتحـه إلا لآل إيوب ليجمع الله لهم بـالقبول القلـوب، كيف لايهتـم بفتح البيـت الأقوى، والمسجـد الأقصـى المؤسس على ا لتقـوى، وهو مقام الأنبياء، وموقف الأوليـاء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض، وملائكة السماء، ومنـه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه مـن أولياء الله المعشر بعد المعشر، وفيه الصخرة التي صينـت جدة ابهاجها من الانهاج، ومنهاج المعراج، لها القبة الشماء التي هي على رأسها كـالتاج، وفيه ومض البارق، ومضـى البراق، وأضـاءت ليلـة الاسراء بحلـول السراج المنير في الآفـاق، ومن أبـوابه بـاب الرحمة، الذي يستـوجب داخله إلى الجنـة بالـدخول إلى الخلـود، وفيـه كـرسي سليمان ومحراب دواد، وفيه عين سلـوان التـي تمثـل لـواردهـا مـن الكـوثـر الحوض المورود، وهـو أوّل القبلتين،وثـاني البيتين،

وثالث الحرمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبوي أنها تشد إليها الرحال وتعقد الرجاء بها الرجال، ولعل الله يعيده بنا إلى أحسن صوره، كما شرفه بذكره مع أشرف خلقه في أول سوره، فقال عز من قائل:(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى)(٤٧) وله فضائل ومناقب لاتحصى، ومنه كان الاسراء، ولأرضه فتحت السماء، وعنه تؤثر أنباء الانبياء، وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء، وفيه مبارك المبار، ومسارح المسار، وصخرته الطولى، والقبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبوية، وتوالت البركة العلوية، وعندها صلى نبينا بالنبيين، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عليين، وفيه محراب مريم عليها السلام، الذي قال فيه: (كلما دخل عليها زكريا المحراب)(٤٨) ولنهاره التعبد، ولليله المحيا، وهو الذي أسسه داود وأوصى ببنائه سليمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه « سبحان»، وهو الذي افتتحه الفاروق وافتتحت به سورة من الفرقان، فما أجله وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأسناه وأكرمه، وأيمن بركاته، وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته، وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه، وأبهج مزاينه، وقد أظهر الله طوله وطوله بقوله:(الذي باركنا حوله) وكم فيه من الآيات التي أراها الله نبيه، وجعل مسموعاتنا من فضائله مرويه، ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه ماوثق على استعادة آلائه مواثيقه وألاياه، وأقسم لايبرح حتى يبر قسمه، ويرفع بأعلاه علمه، وتخطر إلى زيارة موضع القدم النبوية قدمه، وتصغي إلى صرخة الصخرة أذنه، وسار واثقا بكمال النصره.

فصل

في نزول السلطان على البيت المقدس وحصره وما كان من أمره

قال العماد: نـزل السلطان على غربي القـدس يوم الأحد خـامس عشر رجب، وكان في القدس حينئذ من الفرنـج ستون ألف مقاتل من فارس وراجل، وسـائف ونابـل، فاستهدفـوا للسهام، واستـوقفوا للحمام، وقـالوا كل واحـد منا بعشريـن، وكل عشرة بمئتين، ودون القمامـة تقوم القيـامة، وبحب سـلامتها تقلى السـلامة، وأقـام السلطان خمسـة أيام يـدور حول البلـد، ويقسم على حصـاره أهل الجلـد، وأبصر في شماليـه أرضاً رضيهـا للحصار، متسعة المجـال للاسماع والابصار، وممكنة للدنـو منه للنقب إن صار مـن حيز الانصـار، فانتقل إلى المنـزل الشمالي يوم الجمعـة العشرين من شهر رجب، فلما أصبح يوم السبـت إلاّ على منجنيقات قد نصبت بلا نصب، فدام القتال والنزال، وفرسـانهم في كل يوم يباشرون دون الباشورة، أمـام جموعهـم المحسـورة المحشـورة، ويبرزون ويبـارزون،ويطـاعنـون ويحاجزون ، والمطيعـون لله عليهم يحملون، ومـن دمائهم ينهلـون ويُنهلون كما قال الله تعالى فيهم(يقاتلـون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون)[٤٩] وممن استشهد مبارزا ولم يشهـد بينه وبين الجنة حاجزا الامير عز الـدين عيسى ابن مـالك كان أبـوه صاحب قلعة جعبر، فـانه حاز لشهـادته في المحشر المفخـر وأكثر ورود الموت إلى أن ورد الكـوثـر، وكـان في كل يـوم يفـرس فوارس، ويلقى ببشر وجهـه وجوه المنون العوابس ، فاغتـم المسلمون من صرعته، وهـان عليهم اتـلاف المهج بعـد اتلاف مهجتـه، فركبـوا أكتاف الرهج، حتى وصلـوا إلى الخندق فخرقوه وبددوا جمعهم وفـرقوه، والتصقوا بـالسور فنقبـوه وعلقـوه وحشـوه وأحرقـوه، وصـدقـوا وعد الله في القتـال لأعـدائه وصـدقـوه ، ولما عضتهـم الحرب، وقـع السـور واتسـع النقـب، فصعب عليهم الهين وهـان لنا الصعب، وعقدوا مابينهـم مشورة، وقعدوا

مابينهم ضرورة، وقالوا: مالنا إلاّ الإستئمان ، فقد أخذ لنا بخطة الخذلان والحرمان، وأخرجوا كبراءهم ليؤخذ لهم الأمان، فأبى السلطان إلا قتالهم، وتدميرهم واستئصالهم ،وقال: لاآخذ القدس إلاّ كما أخذوه من المسلمين منذ احدى وتسعين سنة، فإنهم استباحوا القتل ولم يتركوا طرفا يستزير سنة، فأنا أفني رجالهم قتلا، وأحوي نساءهم سبيا، فبرز ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه ، وطلب الأمان لقومه، وتمنع السلطان وتسامى في سومه، وقال: لاأمن لكم ولاأمان، وماهوانا إلاّ أن نديم لكم الهوان، وغدا نملككم قسرا، ونوسعكم قتلاً وأسرا، ونسفك من الرجال الدماء، ونسلط على الذرية والنساء السباء، وأبى في تأمينهم إلاّ الإباء ، فتعرضوا للتضرع وخوّفوه عاقبة التسرع، وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم وخفنا من سلطانكم، وخبنا من احسانكم، وأيقنا أنه لانجاة ولانجاح، ولاصلح ولا صلاح، ولاسلم ولاسلامه، ولا نعمة ولاكرامة، فانا نستقتل فنقاتل قتال الدم والندم، ونقابل الوجود بالعدم، ونلقي أنفسنا على النار، ولانلقي بأيدينا إلى التهلكة والعار، ولايجرح منا واحد حتى يجرح عشره، وإنا نحرق الدور، ونخرب القبه، ونترك عليكم في سبينا السبه، ونقلع الصخرة، ونوجدكم عليها الحسره، وقبة الصخرة نرميها، وعين سلوان نعميها، والمصانع نخسفها ، والمطالع نكسفها، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير مابين غني وفقير وكبير وصغير، فنبدأ بقتلهم، وشت شملهم، وأما الأموال فإنا نعطبها ولانعطيها، وإما الذراري فإنا نسارع إلى اعدامها ولانستبطيها، فلا يحصل لكم سبي، ولايقبل لكم سعي، ولايسلم عمر ولاعماره، ولانضار ولانضاره، ولانساء ولاصبيان، ولاجماد ولاحيوان، فأي فائدة لكم في هذا الشح، وكل خسر لكم في هذا الربح، ورب خيبة جاءت من بعد رجاء النجح، ولايصلح السوء سوى الصلح، فشاور السلطان أصحابه فقيل له الصواب إن نحسبهم أسارانا فنبيعهم نفوسهم، ونعمم لصغار الجزية رؤوسهم، ويدخل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهم، واستقرّ الحال بعد مروادات ومعاودات ومفاوضات

وتفـويضـات وضراعـات مـن القوم وشفـاعـات، على قطيعـة تكمـل بها الغبطة، ويحصل منهـا الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهـم وأمـوالهم، وخلصوا بها رجالهم ونسـاءهم وأطفـالهم، على أنه من عجـز بعد أربعين يـوما عما لزمه أو امتنـع منه وماسلمه، ضرب عليه الرق، وثبـت في تملكه لنا الحق، وهـو: عن كـل رجـل عشرة دنانير، وعـن كـل امـرأة خمسة، وكـل صغيرة أوصغير ديناران، الـذكر والأنثى فيهما سيـان، ودخل ابن بـارزان والبطرك ومقدّمو الداوية والاسبتار في هـذا الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقـام بالاداء ولم ينكل عن الوفاء، فمـن سلم خرج عن بيته آمنا، ولم يعد إليه ساكنا، وسلمـوا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردّوه بالرغـم والغصب لاالوديعة، وكان فيه أكثـر من مـائة ألف انسـان من رجـال ونساء وصبيـان، فأغلقـت دونهم الأبواب، ورتب لعرضهـم واستخراج مايلزمهم النواب، ووكـل بكل باب أمير ، ومقدّم كبير، يحصر الخارجين، ويحسر الوالجين، فمـن استخرج منه خرج، ومن لم يقـم بما عليه قعد في الحبس وعدم الفرج، ولـو حفظ ذلك المال حق حفظه لفاز منـه بيت المال بأوفر حـظه، لكن تـم التفريط وعم التخليط، فكل من رشـا مشى، وتنكب مناهج الرشد بالـرشا، فمنهم من أدلي مـن السور بـالحبال، ومنهـم من حمل مخفيـا في الرحـال، ومنهم مـن غيرت لبستـه، فخرج مخفيـا بـزي الجند، ومنهـم من وقعـت فيـه شفاعـة مطاعـة لم تقابـل بالـرد، والنقاب الأكـابر استنـابوا أصـاغر، فـأقامـوا في تقصيرهم المعاذر، وقنـوا لأنفسهم الذخائر، وادّعى مظفر الـدين كوكبري أن منهم جماعة مـن أرمن الرها، وعددهـا ألف نسمة، فجعل إليـه أمرها، وكذلـك صاحب البيرة ادّعى بها لعـدته الكثيرة زهاء خمسمائة أرمنـي ذكر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القـدس لأجل متعبده، وكذلك كل من استوهـب عدة استطلقها، وحصل لـه مرفقها، ثم تـولى الملك العادل استخـراجهم، وقـوّم على الأداء منهـاجهـم، وسهل على السلطـان لفـرط جوده الاستخراج والإخراج، وتـوفر لعامة الناس وخاصتهـم بهجة سماحة

الابتهاج، وما فينا من فاز بأوفى نصيب، ورعى منه في مرعى خصيب، وكان السلطان قد رتب عدّة دواوين في كل ديوان منها عدّة من النواب المصريين،وفيهم من الشاميين، فمن أخذ من أحد الدواوين خطاً بالأداء انطلق مع الطلقاء، بعد عرض خطه على من بالباب من الأمناء والوكلاء، فذكر لي من لاأشك في مقاله أنه كان يحضر في الديوان ويطلع على حاله، فربما كتبوا خطا لمن نقده في كيسهم، وتلبس أمر تلبيسهم ، فكانوا شركاء بيت المال لاأمناءه، وخانوه على ماحصل لكل من الغنى والنفع وماأضر غناءه، ومع ذلك حصل لبيت المال مايقارب مائة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رق إسار ينتظر انقضاء المدّة المضروبه، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة، وكانت بالقدس ملكة رومية متعبدة مترهبة في عبادة الصليب متصلبه، وعلى مصابها متلهبة، وفي التمسك بملتها متصعبة متعصبة، أنفاسها متصاعدة للحزن وعبراتها منحدرة تحدّر القطرات من المزن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشياع وأتباع، فاستعاذت بالسلطان فأعاذها، ومنّ عليها وعلى كل من معها بالافراج، وأذن في اخراج كل مالها في الأكياس والأخراج، وأبقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها، ونسائها ورجالها، واسفاطها وأعدالها، والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فراحت فرحى، وإن كانت من سجنها قرحى، وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كى، وهى ابنة الملك امارى، وكانت مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخول والخدم والجواري، فاستأذنت في الالمام بزوجها، وكان بقيده مقيما في برج نابلس، موكلاً به ليوم وعد تسريحه، فأذن لها ، فخلصت هي ومن تبعها، وأقامت عند زوجها، وكذلك خرجت الابرنسة أم هنفري وهي ابنة فليب وزوجة الابرنس الذي سفك دمه يوم حطين، وهي صاحبة الكرك والشوبك، وهي بنوّابها محوطة وبرأيها منوطه، فجاءت سائلة في ولدها العاني، فوعدت أنها إن سمحت بحصنها سمح لها بابنها، ثم

- ٨٥٤٦ -

أعفيت وأطلقت وعصمت، واستحضر ابنها هنفري بن هنفري من دمشق إليها وأقر برؤيته عينها، وسار معها من الأمراء الأمناء من يتسلم منهم تلك المعاقل، فخرجت فمضت إلى حصونها لتسلمها فمانعها أهلها ودافعوها وردّوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدها باطلاقه إذا تسلم تلك الحصون.

فصل

في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد

قال العماد: تسلم المسلمـون المدينة يوم الجمعة أوان وجـوب صلاتها، وطلعت الرايات الناصرية على شرفـاتها، وأغلقت أبوابها، لحفظ ناسها في طلب القطيعة والتماسهـا، وضاق وقت الفريضة وتعـذر أداؤها، وللجمعة مقـدّمـات وشروط لم يمكـن استيفـاؤهـا، وكـان الأقصى لاسيما محرابـه مشغولا بالخنازيـر والخناء، مملوءا بما أحدثوا من البناء، مسكـونا بمن كفر وغـوى، وضل وظلـم وجنـى، مغمورا بـالنجاسـات التـي حرم علينـا في تطهيره منا الونا، فـوقع الاشتغال بالأهم الأنفع، والأتـم الأنجح الأنجع، وهو حفظهـم وضبطهم، إلى أن يـوجد شرطهم،ويـؤخذ قسطهـم، واتفق فتح البيـت المقدس في يوم كان في مثـل ليلته منه المعراج، وتـم بها وضح مـن منهاج النصر الابتهـاج، وجلس السلطـان بـالمخيم ظـاهر القـدس للهناء، وللقاء الأكابر والأمراء،والمتصـوفة والعلماء ، وهو جالس على هيئة التواضع، وهيبـة الوقار بين الفقهاء وأهل العلم جلسـائه الابرار، ووجهه بنور البشر سـافر، وأهلـه بعز النجح ظـافر، وبابـه مفتوح، ورفـده ممنوح، وحجابه مـرفوع، وخطابه مسموع، ونشـاطه مقبل، وبساطـه مقبل، ومحياه يلوح، ورياه يفوح، قد حلت له حالـة الظفر، وكأن دسته به هالة القمر، والقراء جلـوس يقرأون ويـرشدون، والشعـراء وقوف ينشـدون، وينشدون، والاعلام تبرز لتنشر، والأقـلام تزبر لتبشر، والعيـون من فرط المسرة تـدمع، والقلوب للفـرح بالنصرة تخشع، والألسنة بـالابتهال إلى الله تضرع، وبشر المسجد الحرام بخـلاص المسجد الأقصى، وتلي:(شرع لكم مـن الديـن ماوصـى)(٥٠)وهنئـي الحجر الأسـود بالصخـرة البيضاء، ومنـزل الوحـي بمحل الاسراء، ومقر سيـد المرسلين وخاتم النبيين بمقر الـرسل والانبياء، ومقام ابـراهيم، بمـوضع قـدم المصطفى ﷺ وعليهـم أجمعين، وأدام أهل

الاسلام بشرف بنيته مستمتعين، وتسامع الناس بهذا النصر الكريم، والفتح العظيم، فوفدوا للزيارة من كل فج عميق، وسلكوا إليه في كل طريق، وأحرموا من البيت المقدّس إلى البيت العتيق، وتنزهوا من زهر كراماته في الروض الأنيق.

وقد سبق أن العماد كان توجه إلى دمشق، والسلطان على بيروت للألم الذي ألم به، فلما سمع بنزول السلطان على القدس أبل من مرضه، وتوجه إليه، فوصل يوم السبت ثاني يوم الفتح، قال: وطلعت عليه صبحا عند طلوع الصبح، فاستبشر بقدومي، وخلع على البشير قبل رؤيتي، وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغرّبوا بها.ويشرّقوا، وهو يقول لهم: لهذه القوس بار ولهذه المأدبة قار، قال فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتاب بشاره، كل كتاب بمعنى بديع وعباره، فمنها الكتاب إلى الديوان العزيز ببغداد افتتحته بهذه الآية(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا)(٥١).

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكن دينه المرتضى، وبدّل الأمن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى، والنصر الأهنى للعصرالامامي النبوي الناصري على يد الخادم أخلص أوليائه، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه، وهذا الفتح العظيم، والنجح الكريم، قد انقرضت الملوك الماضية، والقرون الخالية، على حسرة تمنيه، وحيرة ترجيه ووحشة اليأس من تسنيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الامم، فالحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس، وأعاذه من الرجس، وحقق من فتحه ماكان في النفس، وبدّل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس،

وجعل عـز يومه مـاحياً ذل أمـس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعـد الجهال والضلال مـن البطرك والقس، وعبـدة الصليب، ومستقبلي الشمـس، وقد أظهـر الله على المشركين الضـالين جنـوده المؤمنين العـالمين، وقطـع دابـر القوم الظـالمين والحمد لله رب العالمين، فكـأن الله شرف هذه الامـة وقال لهم: اعزمـوا على اقتناء هذه الفضيلـة التي بها فضلكم وحقـق في حقهم امتثـال أمره في قـولـه الكريـم:(ادخلوا الارض المقـدّسـة التي كتـب الله لكم)[٥٢]وهذا الفتـح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان، وجعل ملائكتـه المسوّمـة له مـن أعز الانصـار وأظهر الاعـوان، واخرج مـن بيته المقدس يوم الجمعة أهـل الأحد، وقمع من كان يقول إن الله ثـالث ثلاثة بمن يقـول: هو الله أحـد، وأعان الله بـانزال الملائكـة والروح، وأتـى بهذا النصر الممنوح، الـذي هو فتـح الفتوح، وقـد تعالى أن يحيـط به وصـف البليغ نظماً ونثـراً، وعبد الله في البيـت المقدّس سراً وجهـراً، وملكت بـلاد الأردن وفلسطين غوراً ونجـداً وبراً وبحـراً، وملئت اسلامـا وكانـت قد ملئت كفراً، وتقاضى الخادم دين الدين الذي غلق رهنه دهرا، والحمد لله شكرا، حمدا يجددّ للاسلام كل يوم نصرا، ويزيد وجوه أهله بشرى، فتوجه بشرا، وأبى الخادم إلا استبـاحة أموالهم وأرواحهم، وحسـم داء اجتراحهم باجتياحهـم، وانه لابد من تطهير الأرض المقـدّسة برجس دمـائهم، وقتل رجـالهم وسبي ذراريهم ونسـائهم، ولما أيسـوا من النجـاة، وفتحوا أبـوابها المرتجة من أسبـابها المرتجاه، خوّفـوا بقتل الأسـاري المسلمين، وهم أكثـر من ثـلاثة آلاف، وأنهم يفسـدون جميع مـا في البلد مـن مال وبنـاء بهدم واحراق واتـلاف، وعرف ان جهلهم يحملهـم على كل مكـر شنيع، وأنهم تدعـوهم فظـاظتهم إلى كل أمـر فظيع، وبـذلوا اطـلاق الاسرى، وشرطوا حمل مال الفـداء ومازالـوا يبتهلون ويضرعون، ويـذلون ويخشعـون، حتى استقرّ الأمـر أنهم يفادون، وأجيبت الصخـرة المقدّسة عنـد استصراخها، وبركت البركة النـاهضة اليها في مناخها، وغسلت مـن أوضارها وأوزارها بعبرات العيـون، ورجع اضطـرابها إلى السكـون، وفديـت بنـواظر أهـل

الايمان، وصوفحت للوفاء بعهدها المجدد بالايمان، وذكرت في يوم خلاصها من رجب بليلة المعراج، وتجلى اظلامها بإنارة سناء السراج، واعيدت الكنائس مدارس، وأضحت باحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية دوارس، وزالت ضجرة الصخرة، ونعشها الله من العثرة، وبدّل بالأنس فيها ماكان من الوحشة والحسرة، والحمد لله على هذه النصرة، والمنة له على هذه المبرة، وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المعاقل من حد الداروم إلى حد طرابلس، وكل ماكان جاريا في مملكة ملك القدس ونابلس، ولم يبق إلاّ صور فإنها قد تأخر انتزاعها، وتقدّم امتناعها، والفرنج فيها قد ضربت بآمالها وأطماعها، وهي بتأييد الله مستفتحة، والقلوب بتذليل جامحها منشرحة».

ومن كتاب آخر: « فتح بيت الله المقدس الذي عجز الملوك عن تمنيه، فكيف تسنيه، وماتت الأطماع دونه فلم تطمع فيه، فمنّ الله علينا بتذليل صعبه، وإعذاب شربه، وتسهيل وعره، وتحصيل فخره، وقضى الملوك في ليله، وجئنا نحن عليه بأسفار فجره، وقد كانت الصخرة مستصرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوخة، فأجيبت دعوتها، وأصيبت خطوتها، وتناثرت على صخرتها يواقيت الشفاء، وقوبلت قبلتها بقبل الافواه، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والداني، وزال رين العائن وقرّت عين الراني.

هذا فتح عظيم قدره، جسيم فخره، فاضل عصره، كامل نصره، غير منسي إلى يوم الحشر ذكره، وقد افتض بنا بكره، واقتضى بسيفنا وتره، وزهر زهره، وظهر قهره، وهلك الكافر وكفره، وجاء من الله مالزم على الأبد شكره، أبينا إلا إحراقهم بنيران الصوارم، واغراقهم في أمواه الطلى والجماجم، وتسلمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المعراج، وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى في ظلمة ليلها إلى ذلك

السراج الوهاج، والحمد لله على سلوك ماوضح من المنهاج، ونضوب ماكان نبع من الاجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاج، وصدق الحاج.

مبشرة بما فضل الله به عصرنا، وعجل به نصرنا، ونظم به سلكنا، وطرز به ملكنا، وهو فتح بيت الله المقدس الذي غلق رهنه دهراً، واغتصب من الاسلام قهراً، وارتد كفراً، وامتدت به الأيام عمراً فعمرا، وتقاصرت الهمم عن استفتاحه، وأصلد زند الملوك فيه فعجزوا عن اقتداحه، ونزلوا بالرغم على التماس الكفر واقتراحه، واحتملوا لحفظ مواضعهم نكاية اجتراحه، فلا جرم أعده الله لأيامنا وذخره لمواسم اعتزامنا، وفتحه بنا اظهاراً لفضل هذه الأيام، وايثاراً لما نحن نؤثره من إعلاء كلمة الاسلام، فأصرخنا الصخرة، وأهدينا إليها النصرة، ومكنا من قلبها — وإن كان من الحجر — المسرة.

تسلمنا القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وقضينا من حق هذا البيت ماوجب، وجاء القدس إلى القدس، وزال الرجس وذهب، وتولى فيه الاسلام، وتولى عنه الكفر، وعظم الأجر وفخم الفخر، وطاب النشر، وزاد البشر، ومحي الرجس، وثبت الطهر، وهلك المشرك وذل البطرك، وأقصي من المسجد الاقصى الساجد إلى الشمس، وتجلى الحق بنوره الكاشف للبس.

عاد بيت الله المقدس إلى طهارته، ونطق منه لسان التقديس بعبادته، وتهلل وجه السعد بنضارته، وخصنا القدر في اتمام أمره بخطابه واشارته، وزادت الوجوه بشراً ببشارته، وقد أعاد الله إلى الاسلام المسجد الأقصى، وملكنا أدناه وأقصاه، وأسنى دولتنا بها سناه، من فتحه وهناه، وعلموا أنهم هالكون، وأنا لهم بالقهر مالكون، وفي سبيل القتل والاسر والسبي سالكون، فخرجوا يطلبون الأمان ، ويبذلون الاذعان،حتى يسلموا المكان، فقيل لهم: الآن وقد عصيتم ورضيتم بما فيه هلاككم

وأبيتم، فروّعوا بقتل أسـارى المسلمين، وهـم ألوف، وعرفنا انهم لايقصرون في الشرّ فإن جهلهـم معروف، فتضرعـوا وتشفعوا وتعفـروا في تراب الـذل وتـوقعوا، وتقـرر عليهـم مال اشتروا بـه أنفسهم، فنـزعـوا به مـن الخوف ملبسهم، وسلمـوا القدس، فأعـدناه إلى القدس، وطهـرناه من ا لـرجس، وأجبنا دعوة الصخرة، وغسلنا عنها وضر الكفر بعبرات العبرة.

فتـح بيـت الله المقدّس الـذي غلـق رهنـه، وطال في يـد الكفـر أسره وسجنه، واستهـل بغرّ أيـامنا مـزنه، وأنار يمنـه، وعاد بـاحساننـا حسنه، وزال بنا خـوفه وزاد أمنه، وبقـي قريب مائة سنـة في يد الكفر مسجـونا وبرجـس الشرك مشحونا، حتى أعـاد الله بنا رونقه، وأذهب قلقـه، وأعدم فرقه.

وهذا فتـح لم يكن منـذ عصر الصحابـة رضي الله عنهم لـه نظير، وأفق الدين بـه منيف منير، وشرف أيامنا بـه كثير، وهو إمام فتوحنـا المدّخرة لنا ومالها بتأييد الله تأخير.

فتـح البيت المقـدس الذي لم يخطـر تمنيه بخـاطر الملـوك، وتوعـر على عزائمهم نهج طريقه المسلوك، وحالت دونـه قنطاريات الفرنج وطوارقها، وجنت على الاسلام فيـه حوادث الليالي وطوارقها، حتى دعـانا الله لفتحه فـأجبناه، ووعـدنا بـالفوز فـأصبناه، وأوردنـا مشرع صفائه فـاستعذبنـاه، وعرفنا طيب عرفه فاستطبناه، وذخر لعصرنا هذا الفخر فاستقبلناه.

رأوا أحجار المنجنيقات قـد أنزلت الأسواء بالاسـوار، وغارت الصخور للصخرة المبـاركة فجدّت في انقـاذها من الاسـار، وهتمت ثنايـا الأبراج، وأعضل بهافي العلاج داء الاعلاج، فعاينوا الحمام، وشاهدوا الموت الزؤام.

أقامـت المنجنيقات على عصـابته حـد الرجـم، وواقعت ثنـايا شرفـاته

بالهتم، وتطايرت الصخور في نصرة الصخرة المباركة، وحجرت على حكم السور بشفة الأحجار المتداركة، وحسرت النقوب عن عروس البلد بنقب الاسوار، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار.

نهضت لاصراخ الصخرة المقدّسة الصخور، وطارت من أوكار المجانيق كأنها الصقور، فما أسرّ البيت الحرام، بفكاك أخيه من الأسر، واجراء الاسلام فيه لغسل أوضار الكفر، وانقاذ الصخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشدّ قسوه، والحافها من البهاء والرونق والعزّ الاسلامي بكسوه، ولقد غسلت من أدران الكفر وأدناسه، وطهرت من أرجاس نجاسه، بمياه العيون التي بها قذيت، وصقلت بشفاه المؤمنين وطالما بأيدي الشرك صديت، وأعيد إليها ذكر الله تعالى بعد طول الغربة، وتذكرت بصحبة الأولياء ماسلف لها في عهد الصحابة رضي الله عنهم من حسن الصحبة، ودنا المسجد الأقصى فأقصي منه الساجد للشمس، وسكن العلماء والفقهاء في مواطن البطرك والقس، وأبدل الناقوس بالأذان، بل الكفر بالايمان، وصلى محراب الاسلام في المحراب الذي أسلم، وقدسنى الله تعالى هذا الفتح الأعظم، والنجح الأفخم، وقد ندب فلان في الرسالة القدسية والبشارة العرسية، التي تم به مأتم الكفر وعرس الاسلام، وعادبها المسجد الأقصى إلى مداناة المسجد الحرام.

وتجلت عروس الصخرة لعيون الناظرين، وفاضت عليها مياه أحداق الأولياء، فرحضت عنها أوضار الكافرين، وكان الاسلام منه غريبا، فرجع إلى وطنه، وسكن منه إلى التوطن في مسكنه، وزالت مخاوفه وعاد إلى مأمنه ، وفاض العرف من منبعه، وأنار التوحيد من مطلعه، وعلا سنا السنه، وحلا جنا الجنه، وخلصت مواضع المخلصين من أولياء الأمة، وخرج البطاركة والقسيسون من مساجد الائمة، وعادت الكنائس مدارس، وآيات التثليث بها دوارس، ووجوه الايمان باشرة، ووجوه أهل

-٨٥٥٤-

الصليب عوابس، ومحت من هذه الأيام تلك الليالي الدوامس، وقد أقيمت الجمع والجماعات ونظفت بل طهرت تلك الساحات، وصلى في محرابه المحرب، ودرس فيه الخلاف والمذهب، والحمد لله الذي تسنى بفضله هذا المطلب، وتيسر بتأييده الأمر الاصعب».

فصل

قال ا لعماد: وكان المولى الأجل الفاضل متـأخرا بدمشق لعارض مرض منّ الله بشفـائه فمن جملـة ماكتب السلطـان إليه:«أمـا الفتح فمـن جملة بركـات همته، وآثـار جذبـات عزمته، فـإن الله تعالى سهـل ماسجـل أهل الدهر بانه صعب، واهب نسيـم النصر إبان يقال ليس له مهب، وخصنا بهذا الشرف، وألحقنـا بهذه الفضيلة بصـالحي السلـف، وقـد بدّل الكفـر بالايمان، والناقـوس بالأذان، وجلس العلماء والفقهاء في مجالـس الرهبان، وفتحـت بهذا الفتـح مـن بيـت الله المقـدس أبـواب الجنـان، وتـزاحـم الخارجون من البلد من الفـرنج والنصارى في دخول أبواب النيران، وصلى محارب الدين في المحـراب، ورفع الملائكة ماكـان تكاثف بأنفـاس الكفر من الحجاب، وغسلت الصخرة المباركـة من أوضارها بماء العيون الفائض الفائق غـزارة الأمواه، وقبلت بـالشفاه وبوشرت بـالأفواه، وطهرت بـأهل العلم والحلـم من أدناس أهل الجهـل والسفاه، والحمد لله، ثـم الحمدلله، وماكـان يعوزنـا ويعوزه إلاّ حضـور المجلس السـامي أسماه الله، فما لهذا الأمر رواء إلا بـروائه، ولا للانـس لقاء إلاّ بـأنس لقـائه، وكاد يتصحـف الفتـح لولا صـالح دعـائه، وحسن آلائه، والحمـد لله الذي خصنـا بهذه الخاصية، وفضلنـا بالنصرة القدسيـة، وذخر لنـا هذا البر الذي عجـز بل قصر عنـه ملوك البريـة، والحمد لله على هـذه النعمة السنيـة، فما أشوقنـا وأشـوق القدس إلى قـدومـه، وماأظمـأنا وأظمـأه إلى خصـوص الري بـه وعمومـه، وماحـظ هذا البيت الـذي هو أخو البيـت الحرام من زيـارته، وماآنق روضـه وأوفق رضاه إذا فاز بنظـره ونضارته، ونحن نعـرف أن همته العاليـة تحدوه، وأن دينه إلى إجـابة دعـوته تـدعوه، ونسـأل الله أن يكمل صحته، وينعـش قوّته، ويقـوّي نهضته، وما أقمنـا بهذا البلد إلاّ لتطهيره، وترتيب أمره وتدبيره».

ومـن كتاب آخـر: «نصرنـا الله بمـلائكته المسّـومين، وأوليـائه المؤمنين،

واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها ، وافتضضنا بالبيض الذكور من الحرب العوان أبكار الفتوح وافترعناها، وهذه موهبة مذهبة ومنقبة لايبلغ الى وصفها بلاغة موجزة ولا مسهبة، ونوبة مابعدها للاسلام نبوه، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوه، وبشرى تجلو الوجوه ببشرها وتضوع مهاب المحاب بنشرها، ويعرف أهل الشرق والغرب سجال غربها، وتقر عين المؤمنين في البعد والقرب بأنوار قربها.

عاد التقديس إلى الأرض التي به وصفت، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى(باركنا حوله) عرفت ، وظهرت الصخرة المقدسة وطهرت، وزهيت أيامن هذه الأيام وزهرت، وقمعت الطائفة الطاغية من أهل التثليث بجهل التوحيد وقهرت، واستبشر المنبر والمحراب بخطيبه وإمامه، وافتخر الزمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه، وقد تملكنا البلاد الساحلية وتسلمناها حصنا حصنا، ونقضنا من الكفر ركناً ركنا، واجلينا الكفار منها فاجتلينا بها من الحسنى حسنى.

فتح شرف الله به هذه الأمة، وجلا به الغمه، وكشف الملمة بل شرفنا بفخره، وأعدّنا لذخره، وخصنا بفضيلته في عصره، وأجرى لنا ماكان قد أبطأ من عادة نصره، وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كفره، وقامت بواترنا بوتره، وغرق البلاد الساحلية من دم الكفار ببحره، واصرخت الصخرة، وحفت بها النصره، وزالت عنها المضره، وعادت إليها المبره، ونعشت منها العثرة، وفاضت لها من عين المؤمنين العبره، وزفت عروسها البكر محصنة لم تفتض منها العذره، وحالت العره ولاحت الغره، وظهرت من صدف قبتها الدره، وصوفحت آثار القدم النبوية بالايمان، وجددت بعهدها صفقة الايمان، وبطل الناقوس بحق الأذان، وفتحت أبواب الجنان لأهلها وأخرج منها أهل النيران، والحمدلله على هذا الاحسان، حمدا مستمرا على مر الزمان».

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن:«فتح بيت الله المقدس الذي غلق نيفا وتسعين سنة مع الكفر رهنه، وطال في أسره سجنه، واستحكم وهنه، وقوي سكره وضعف ركنه، وزاد حزنه، وزال حسنه، وأجدبت من الهدى أرضه وأخلف مزنه، وواصله خوفه وفارقه أمنه، واشتغل خاطر الاسلام بسببه وساء ظنه، وذكر فيه الواحد الأحد الذي تعالى عن الولد أن المسيح ابنه، وربع فيه التثليث فعز صليبه وصلبه، وافرد عنه التوحيد فكاد يهي متنه، ودرج الملوك المتقدمين على تمني استنقاذه، فأبى الشيطان غير استيلائه واستحواذه، وكان في الغيب الالهي أن معاده في الآخرة إلى معاذه، وطنت أوطانه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدروس، وجليت الصخرة المقدسة جلوة العروس، وزارها شهر رمضان مضيفا لها نهار صومها بالتسبيح، وليل فطرها بالتراويح».

ومن كتاب آخر:«البيت المقدّس صار مقدساً ، وأصبح للاسلام معرّسا، ورجع الاذى بالأذان، وصوفحت الصخرة المقدسة بأيمان أهل الإيمان، وماصلت في محراب البيت المقدس الثقاة حتى صلت في محاريب رقاب الكفر المشرفيات، وماتم الرضى بفتح المسجد الأقصى حتى أقصي منه من أقصاه الله عن رضاه، وماتبوأ المسلم المصلى فيه مثواه من الجنة حتى تبوأ الكافر المصلى بالنار مثواه، صوفح موضع القدم المباركة ليلة المعراج بالأيدي ، وقال لأولياء الله أهل الاخلاص أهلا بكم فما أحسن الخلاص من ولاية أهل التعدي، وعاد المسجد الأقصى للمصلين المقربين جنة ومنارا، بعد أن كان للمقصين المصلين ناراً دارا، وتسلم محرب الاسلام محرابه، وأصحب لآلافه لما ألفى أصحابه، وترنح المنبر لترنم الخطيب، وانجبر الدين بانكسار صلب عابد الصليب السليب.

خلا باله من أمر القدس بإعادته إلى قدسه، وإخلائه من رجز الشرك

ورجسه، وإجلاء داويه واسبتاره وبطركه وقسه، وتعويضه من وحشة الضلال من الهدى بأنسه، ورد الاسلام الغريب إلى بيته المقدس، ونفي الكافر منه كاسف البال راغم المعطس، ونصب المنبر للمسجد الاقصى لاقامة الخطبة الإمامية، ورفع مارفع قدره من الأعلام العباسية، والافراج عن محرابه بهدم مابني دونه من مباني الشرك، وكشف استار الكفرة التي حجبت بالهتك والفتك، وإقامة الجمع فيه والجماعات، وادامة أوراد العبادات به ووظائف الطاعات، وغسل الصخرة المقدسة بدم الكافر ودمع المؤمن، ونزع لباس بأس المسيء عنها بافاضة ثوب المحسن، وتنزيه تلك الجنة من دنس أهل النار، واعلاء ماكان درس من معالم الأبرار، ومطالع الأنوار، وقد رجع الاسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قمر الهدى به من سراره، وذهبت ظلم الضلالة بأنواره، وعادت الأرض المقدسة إلى ماكانت موصوفة به من التقديس، وأمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السرى، ومناخ التعريس، وقد أقصي عن المسجد الأقصون من الله الأبعدون، وتوافد إليه المصطفون الأقربون، والملائكة المقربون، وخرس الناقوس بزجل المسبحين، وخرج المفسدون بدخول المصلحين، وقال المحراب لأهله مرحبا وأهلاً، وشمل جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ماجمع الاسلام فيه شملاً، ورفعت الاعلام العباسية على منبره فأخذت من بره أوفى نصيب، وتلت بألسنة عذبها(نصر من الله وفتح قريب)، وغسلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دنس المشركين، وبعد أهل الأحد من قربها بقرب الموحدين، فذكر بها ماكاد ينسى من عهد المعراج النبوي، وأقامت بدلائلها براهين الاعجاز المحمدي.

عاد الاسلام باسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بنيانه من التقوى إلى تأسيسه، وزال ناموس ناقوسه، وبطل بنص النصر قياس قسيسه، وفتح باب الرحمة لأهلها، ودخلت فيه الصخرة لفضلها، وباشرت الجباه بها مواضع سجودها، وصافحت أيدي الأولياء آثار القدم

النبويـة بتجديد عهودهـا، وشهد مقام المعـراج وموطىء براقـه، ورأى نور الاسراء ومطلع إشراقـه، ودنا المسجـد الأقصى للراكـع والساجـد، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد:«تقلص ظـل الكافر المبسوط، وصدق الله أهـل دينـه، فلما وقـع الشرط وقع المشروط، وجـاء أمـر الله وأنـوف أهـل الشرك راغمه، وادلجت السيـوف والآجال نـائمة، واسترد المسلمـون تراثـا كـان عنهم آبقـا، وظفروا يقظـة بما لم يصـدقوا انهم يظفـرون به طيفـا على النائم طارقا».

ومنه في وصف نقـب السور:« فأخلي السور مـن السيارة، والحرب من النظاره، وأمكـن النقاب أن يسفـر للحرب النقـاب، وأن يعيد الحجـر إلى سيرته من التراب، فتقـدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معـوله، وحل عقده بضربـه الأخرق الدّال على لطافـة أنمله، واسمع الصخـرة الشريفة حنينـه فـاستغاثتـه إلى أن كـادت تـرق لمقتلـه، وتبرأ بعض الحجـارة مـن بعض، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الأرض.

ثـم قـال: واستقـرّت على الأعلى أقـدامهـم، وخفقـت على الأقصـى أعلامهم ، وتـلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كـانـت صخرة كما يشفى بالماء غللهم، وملك الاسلام خطـة كان عهده بها دمنة سكان، فخدمهـا الكفر إلى أن صارت روضة جنـان، لاجرم أن الله أخرجهـم منها وأهبطهم، وأرضـى أهل الحق وأسخطهـم، وأوعز الخادم بـرد الأقصى إلى عهده المعهود وأقـام له من الائمة من توفيـه ورده المورود، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابـع شعبان، فكادت السموات للنجوم ينفطـرن، والكواكب منهـا للطرب ينتثـرن، ورفعـت إلى الله كلمـة التوحيـد، وكـانـت طريقهـا مسدودة، وظهـرت قبور الأنبياء وكـانت بـالنجاسات مكـدودة، وأقيمت الخمس، وكـان التثليث يقعدها، وجهـرت الالسنة بالله أكبر وكـان سحر

الكفـر يقعدهـا، وجهـر بـاسم أمير المؤمنين في وطنـه الأشرف مـن المنبر فرحب بـه ترحيب من بـر، وخفق علماه في حفافيه، فلـو طار سروراً لطار بجناحيه، وكان الخادم لايسعى سعيـه إلا لهذه المنقبة العظمى، ولايقاسي تلك البـؤسى إلاّ رجاء هـذه النعمى، ولايحارب من يستظلمـه إلا لتكون الكلمـة مجموعـة فتكون كلمـة الله هي العليـا، وليفوز بجـوهر الآخـرة لا بالعـرض الأدنى مـن الدنيا، وكـانت الألسنة ربما سلقتـه فانضـج قلوبها بالاكتفـاء والاقتصار، وكانـت الخواطر ربما غلت عليه مـراجلها فأطفـأها بالاحتمال والاصطبـار، ومن طلـب خطيراً خاطـر، ومن رام صفقـة رائجة جاسر، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر».

ووصف فيـه يوم حطين فقـال:«وكان اليوم مشهـوداً، وكانـت الملائكة شهودا، وكـان الضلال صارخا وكـان الاسلام مولوداً، وأسر الملـك وبيده أوثق وثائقه، وأكد وصله بالديـن وعلائقه، وهو صليب الصلبوت، وقائد أهل الجبروت، مـادهموا قط بـأمر إلاّ وقـام بين دهمائهم يحرّضهـم، يبسط لهم باعه، وكان مد اليدين في هذه الـدفعة وداعه، لاجرم أنه يتهافت على ناره فـراشهم، ويجتمـع في ظل ظلامـه خشاشهـم، ويقاتلـون تحت ذلك الصليـب أصلب قتـال وأصدقـه، ويرونـه ميثاقـا يبنون عليـه أشد عقـد وأوثقه، ويعدونه سوراً تحفر حوافـر الخيل خندقه، ولم يفلت منهم معروف إلاّ القمص، وكـان لعنه الله مليـا يوم الظفر بـالقتال، ومليئـا يوم الخذلان بـالاحتيال فنجـا ولكن كيـف، وطار خـوفـا من أن يلحقـه منسر الرمـح وجنـاح السيـف، ثـم أخـذه الله بعـد أيـام بيـده، وأهلكه لموعـده، وكـان لعدتهم فذلك وانتقل من ملك الموت إلى مالك، وبعد الكسرة مرّ الخادم على البلاد فطواهـا بما نشر عليها من الراية السوداء صبغـاً للبيضاء صنعاً الخافقة هي وقلوب أعدائها، العالية هي وعزائم أوليائها».

- ٥٦١هـ -

فصل

قال العماد ومن قصائدي التي هنأت بها السلطان بفتح القدس وهو مخيم عليه:

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا
وتعتاض من ذكراكم وحشتي أنسا

وأسأل عنكم عافيات دوارس
غدت بلسان الحال ناطقة خرسا

معاهدكم ما بالها كعهودكم
وقد كررت من درس آثارها درسا

وقد كان في حدسي لكم كل طارق
وما جئتم من هجركم خالف الحدسا

أرى حدثان الدهر ينسي حديثه
وأما حديث الغدر منكم فلا ينسى

تزول الجبال الراسيات وثابت
رسيس غرام في فؤادي لكم أرسى

حسبت حبيبي قاسي القلب وحده
وقلب الذي يهوى بحمل الهوى أقسى

أما لكم يا مالكي الرق رقة
يطيب بها مملوككم منكم نفسا

وإن سروري كنت أسمع حسه
فمذ سرت عنكم ما سمعت له حسا

وإن نهاري صار ليلاً لبعدكم
فما أبصرت عيني صباحا ولا شمسا

بكيت على مستودعات قلوبكم
كما قد بكت قدما على صخرها الخنسا

فلا تحبسوا عني الجميل فإنني
جعلت على حبي لكم مهجتي حبسا

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا
وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى

وقيل لنا في الأرض سبعة أبحر
ولسنا نرى إلاّ أنامله الخمسا

سجيته الحسنى وشيمته الرضى
وبطشته الكبرى وعزمته القعسى

فلا عدمت أيامنا منه مشرقا
ينير بها يولي لياليا الدمسا

جنودك أملاك السماء وظنهم
عداتك جن الأرض في الفتك لا الانسا

فلا يستحق القدس غيرك في الورى
فأنت الذي من دونهم فتح القدسا

ومن قبل فتح القدس كنت مقدّسا
فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا

وطهرته من رجسهم بدمائهم
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا

نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها
وألبستها الدين الذي كشف اللبسا

وعادت ببيت الله أحكام دينه
فلا بطركاً أبقيت فيها ولا قسا

وقد شاع في الآفاق عنك بشارة
بأن أذان القدس قد بطل النقسا

جرى بالذي تهوى القضاء وظاهرت
ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا

وكم لبني أيوب عبد كعنتر
فإن ذكروا بالباس لا يذكر عبسا

وقد طاب ريانا على طبرية
فيا طيبها مغنى ويا حسنها مرسى

وعكا وما عكا فقد كان فتحها
لاجلائهم عن مدن ساحلهم كنسا
وصيدا و بيروت وتبنين كلها
بسيفك ألفى أنفه الرغم والتعسا
ويافا وأرسوف ويبنى وغزة
تخذت بها بين الطلى والظبى عرسا
وفي عسقلان الكفر ذل بملككم
فمنظره بل أمره أربد وأرجسا
وصار بصور عصبة يرقبونكم
فلا تبطئوا عنها وحسوهم حسا
توكل على الله الذي لك أصبحت
كلاءته درعا وعصمته ترسا
ودمر على الباقين واجتث أصلهم
فإنك قد صيرت دينارهم فلسا
ولا تنس شرك الشرق غربك مرويا
خراسان والنهرين والترك والفرسا
وبعد الفرنج الكرج فاقصد بلادهم
بعزمك واملا من دمائهم الرمسا
أقامت بغاب الساحلين جنودكم
وقد طردت عنه ذئابها الطلسا

وهي طويلة وقد تقدّم بعضها في ذكر كسرة حطين، وللعماد أيضا من جملة القصيدة التي مدح بها حسام الدين بن لاجين وقد تقدّم بعضها:

قل للمليك صلاح الدين أكرم من
يمشي على الأرض أومن يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى
صور فإن فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذا لجب
وابعث إلى ليل انطاكية العسسا

وأخــل ســاحــل هــذا الشــام أجمعــه
مــن العــداة ومــن في دينــه وكســا
ولا تــدع منــه نفســا ولا نفســا
فــإنهم يــأخــذون النفــس والنفســا
نــزلــت بــالقــدس فــاستفتحتــه ومتــى
تقصــد طــرابلســا فــانــزل على قــدســا

ومن قصيدة أخرى له أنفذها الى الخليفة الناصر:

أبشــر بفتــح أميــر المــؤمنيــن أتــى
وصيتــه في جميــع الأرض جــواب
مــا كــان يخطــر في بــال تصّــوره
واستصعــب الفتــح لما أغلــق البــاب
وخــام عنــه الملــوك الأقــدمــون وقــد
مضــت على النــاس مــن بلــواه أحقــاب
وجــاء عصرك والأيــام مقبلــة
فكــان فيــه لفيــض الكفــر انضــاب
نصراً أعــاد صــلاح الــديــن رونقــه
إيجازه ببليــغ القــول اسهــاب
قــرع الظبــى بــالظبــى في الحرب يطــربــه
لا قينــة صنــع بــاللحــن مطــراب
أحيــا الهدى وأمــات الشرك صــارمــه
لقــد تجلى الهدى والشرك منجــاب
بفتحــه القــدس لــلاســلام قــد فتحــت
في قمــع طــاغيــة الاشراك أبــواب
ففــي مــوافقــه البيــت المقــدس للــ
ـبيت الحرام لنــاتيــه وإعجــاب
والصخــر والحجــر الملثــوم جــانبــه
كــلاهما لاعتمار الخلــق محراب

نفـى مـن القـدس صلبـانـا كما نفيـت
مـن بيـت مكـة أزلام وأنصـاب

وكثر مدح الفضلاء للسلطان عند فتح القدس، وقد ذكر العماد من ذلك جملة في أواخر كتاب البرق، فرأيت تقديم ما اخترته منها هنا، وزدت عليه مالم يذكره، فمن ذلك قصيدة الحكيم أبي الفضل عبد المنعم ابن عمر بن حسان الاندلسي الجلياني منها

أبـا المظفـر أنـت المجتبـى لهدى
أخـرى الـزمـان على خبر بخبرتـه
فلـو رآك وقـد حـزت العلى عمـر
في قلـة التـل قضـى كنـه عبرتـه
ولـو رآك وأهـل القـدس في ولـه
أبـو عبيـدة فـدى مـن مسرتـه
غـداة جـزوا النـواصي في قمامتـه
وأعـولـوا بـالتباكـي حـول صخـرتـه
دارت بـك الملـة الحسنـى فنحـن على
عهـد الصحـابـة في استمـرار مـرتـه
وأنـت كـاسمـك صـديـق وصـاحبـه
الملـك المظفـر سـام في مبرتـه
وفي السـلالـة عثمان يـؤيـده
عـلا عليّ على ايثـار نصرتـه
وكـم لـديـك ذوو قـربـى رقـوا شرفـا
وكـم بعيـد رأى الـزلفـى بهجـرتـه
يشبـه الفتـخ(٥٣) مـا بين البـزاة لقـى
ملـك الفـرنـج أخيـذا بين عترتـه
أمـا رأيـت معـالي يـوسـف بسقـت
حتـى رمـت كـل ذي ملـك بحسرتـه

أضحى لنشر الهدى في فتح منهجه
وبات يطوي العدى في سدّ ثغرته

واستقبح الرجس ممنوًّا بمشهده
فاستفتح القدس محشوًّا بزمرته

لكن بأس صلاح الدين أذهلهم
بوقعة التل واستشراء سورته

يعمي الجوارح والفرسان وهو على
بدء النشاط عشيا مثل بكرته

يا فاتح المسجد الأقصى عليّ بهم
وقانص الجيش لا يحصى بقفزته

أبشر بملك كظهر الشمس مطلع
على البسيطة فتاح بنشرته

حتى يكون لهذا الدين ملحمة
تحكي النبوّة في أيام فترته

قال: وأنفذ من مصر نجم الدين يوسف بن الحسن بن المجاور، الوزير العزيزي، قصيدة، وعرضتها على السلطان بالقدس، وفيها ذكر الانكلتيز، وفتح يافا، وذكر الهدنة التي يأتي ذكرها في آخر الكتاب، فمنها وسيأتي الباقي المختار أيضا:

الوقت أضيق من سماع قصيدة
موسومة لصفات أغيد أهيف

الجدّ في هذا الزمان مبين
والهزل فيه مع الغواية مختف

بالناصر المهدي والهادي إلى
سبل الجهاد أبي المظفر يوسف

المستعين بربه والواثق الـ
ـمنصور والمستظهر البر الوفي

شدّت قوى أركان ملة أحمد
وتجملت بجهاده في الموقف

ملـــك إذا أم الملـــوك جنـــابـــه
لاذو بـــأكـــرم مـــن يـــؤم وأشـــرف
واذا أتـــوا أسرى إلى أبـــوابـــه
وقفـــوا بـــأعظـــم مـــن يصـــول وأرأف
مـــولى غـــدا اللـــذيـــن أكـــرم والـــد
حـــدب على أبنـــائه مترفـــرف
عـــزل الفـــرنجـــة ثـــم ولى جيشـــه
أعظـــم بـــه مـــن صـــارف ومصرف
قـــد أنصـــف التـــوحيـــد مـــن تثليثهـــم
وأقـــام في الانجيـــل حـــد المصحـــف
مغـــرى بتجـــريـــح الـــرجـــال لأنـــه
يـــروي أحـــاديـــث العـــوالي الـــرعـــف
ملـــك لـــه فـــي الحـــرب بحـــر تفقـــه
ولـــه غـــداة السلـــم زهـــد تصـــوّف
وعليـــه أنـــزل في الجهـــاد مفصـــل
فلـــذاك يقـــرأوه بسبعـــة أحـــرف
عـــزم وحلـــم انسيـــا مـــا كـــان مـــن
عـــزم ابـــن مـــرداس وحلـــم الأحنـــف

يـــا أيها الملـــك الـــذي لطبـــاعـــه
وسيـــوفـــه خلقـــا رضـــى وتعســـف
لله يـــوم عـــروبـــة إذا عـــربـــت
ســـاعـــاتـــه عـــن نصرك المتعـــرف
سنـــت سيـــوفـــك في الـــرؤوس ختـــانـــة
ذهبـــت بمهجـــة كـــل علـــج أقلـــف
آفـــاتهم وافـــت بـــأخـــذك منهـــم
يـــافـــا فكـــم مـــن حسرة وتـــأســـف
أو مـــا رأى الأعـــلاج حين دعـــوتها
بلســـان سيـــف في الكـــريهة ملحـــف

لم تستطـــع عصيـــان أمـــرك بـــل أتـــت
منقـــادة طـــوعـــا ولم تتخلـــف
فـــاستـــدع جـــارتها وثـــن بـــأختهـــا
وكـــــذاك حتـــــى الأربعين ونيـــــف
مـــا للســـواحـــل غير بحـــرك حـــافـــظ
بشبـــا سنـــان أو بصفحـــة مـــرهـــف
هـــذا الطـــراز الأخضر استفتحتـــه
فـــزهـــى بثـــوب مـــن عـــلاك مسجـــف
أحييـــت ديـــن محمـــد وأقمتـــه
وسترتـــه مـــن بعـــد طـــول تكشـــف
وضبطـــت ديـــوان الجهـــاد بعـــامـــل
مـــن عـــامـــل وبمشرف مـــن مشرفي
وبجهبـــذ العـــزم الـــذي لا ينثنـــي
وبنـــاظـــر الـــرأي الـــذي لم يطـــرف
فخـــذ الخراج مـــن البسيطـــة كلهـــا
واستـــأد فـــرضي جـــزيـــة ومـــوظـــف
واقبـــض على الـــدنيـــا بكـــف زهـــادة
وابســـط لـــرحمتهـــا جنـــاح تعطـــف
جـــاءت جنـــود الله تطلـــب ثـــارهـــا
وصـــدورهـــا بـــل عـــن قليـــل تشتفـــي
فـــانهض بها وتقـــاض حقـــك مـــوقنـــا
أن الإلـــــه بها تـــــؤملـــــه حفـــــي
هـــم فتيـــة الاتـــراك كـــل مجفجـــف
يغشـــى الكـــريهة فـــوق كـــل مجفجـــف
قـــوم يخوضـــون الحمام شجـــاعـــة
لا ينظـــرون إليـــه مـــن طـــرف خفـــي
إن صبحـــوا الأعـــداء في أوطـــانهم
تـــركـــوا ديـــارهـــم كقـــاع صفصـــف

أنـــت اصطفيتهـــم لنصرة ديننـــا
لله در المصطفـــــى والمصطفـــــي

قلت:وذكـرت بقولـه «هذا الطـراز الأخضر استفتحته» حكـايـة حسنـة لائقة بالحال، حدثني به شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي قال: قرأت بخـط شيخنا أبي افضـائل بن رشيـق بمصر عقيب مـوته في سنـة ثلاث وسبعين وخمسمائة، نـال:رأى انسان كـأن شخصا ذا جهـامة واقفـاً على حائط بجامع دمشق يسمى النسر، وهو يقول:

ملـــك الصيـــاصي والصـــواصي نـــاصر
للـــديـــن بعـــد إيـــاســـه أن ينصرا
وسيفتـــح البيـــت المقـــدّس بعـــدمـــا
يطـــوى الطـــراز لـــه ويقتـــل قيصرا

قلت :وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين

وقرأت بخـط بعض أصحابنا قال :وجـدت على حاشية كتـاب يروى عن خطيـب كان بـالرقـة، أنه رأى مـن ينشده هـذا الشعر في النـوم سنة احدى وثلاثين وخمسمائة، فـذكر لبيتين وهذا قبل الفتـح باثنتين وخمسين سنـة، وقبل مـولـد صلاح الـديـن بسنة ،والمعنـي بـالطراز الأخضر بـلاد الساحـل المصطفة على بلاد البحر مـن الداروم، وغزة، وعسقـلان، وعكا وصيدا، وبيروت، وجبيـل، وغير ذلك، ولم يبق مـن الطراز في أثنـاء ذلك سوى صور بين صيـدا و عكا، وهكذا كان الأمـر على ماسبق بيانـه فتح هذا الطراز أولاً ثم فتح البيت المقـدس، وكنى بقيصر عن الأبرنس الذي قتلـه بيـده لأنـه كـان من رؤس الكفـر وملـوكهـم وغـلاتهم في معـاداة الإسلام والله أعلم.

قال العماد: وكان فخر الكتاب أبو علي الحسن بن علي الجويني المقيم بمصر من أهـل بغداد ينفذ إلي قصائده لأعـرضها، فـرأيت أن أثبـت له

هذه القصيدة في الفتح و هي مشتملة على ذكر ملوك الاسلام واهمالهم له تسعين عاماً، حتى تجرد له سلطاننا فذكرها منه:

جند السماء لهذا الملك أعوان
من شك فيهم لهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه في زمن
وقد مضت قبل أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الأنبياء وما
له سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يده
صيدا وما ضعفوا يوماً وما هانوا
كم من فحول ملوك غودروا وهم
خوف الفرنجة ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس
فخام منها وصمت منه آذان
هذا وكم ملك من بعده نظر الاسـ
ـلام يطوى ويحوى وهو سكران
تسعون عاما بلاد الله تصرّخ والـ
إسلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم
بأمر من هو للمعوان معوان
للناصر ادّخرت هذي الفتوح وما
سمت لها هم الاملاك مذ كانوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا
ل الناس داود هذا أم سليمان
في نصف شهر غدا للشرك مصطلما
فطهرت منه أقطار وبلدان
فأين مسلمة عنها وأخوته
بل أين والدهم بل أين مروان

- ٨٥٧١ -

وعـــدّ عما ســـواه فـــالفـــرنجـــة لم
يبـــدهـــم مـــن ملـــوك الارض انســـان
لـــو أن ذا الفتـــح في عصر النبـــي لقـــد
تنـــزلـــت فيـــه آيـــات وقـــرآن
يـــاقبـــح أوجـــه عبـــاد الصليـــب وقـــد
غدا يبرقعها شؤم وخذلان
خـــزنـــت عنـــد إلـــه العـــرش ســـائر مـــا
ملكتـــه وملـــوك الأرض خـــزان
فـــالله يبقيـــك لـــلاســـلام تحرســـه
مـــن أن يضـــام ويلفـــى وهـــو حيران
وهـــذه سنـــة أكـــرم بها سنـــة
فـــالكفـــر في سنـــة والنصر يقظـــان
يـــا جـــامعـــا كلمـــة الايمان قـــامـــع مـــن
معبـــوده دون رب العـــرش صلبـــان
إذا طـــوى الله ديـــوان العبـــاد فما
يطـــوى لأجـــر صـــلاح الـــديـــن ديـــوان

وللشريف النسابـة المصري محمد بن أسعد بن علي بـن معمر الحلبي المعروف بالجواني نقيب الأشراف بالديار المصرية، من قصيدة:

أتـــرى منـــامـــا مـــا بعينـــي أبصر
القـــدس يفتـــح والفـــرنجـــة تكسر
وقيامـــة قمـــت مـــن الـــرجـــس الـــذي
بـــزوالـــه وزوالها يتطهـــر
ومليكهـــم في القيـــد مصفـــود ولم
يـــر قبـــل ذاك لهم مليـــك يـــؤسر
قـــد جـــاء نصر الله والفتـــح الـــذي
وعـــد الـــرســـول فسبحـــوا واستغفـــروا

فتح الشآم وطهر القدس الذي
هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد
ماذا يقال له وماذا يذكر
يا يوسف الصدّيق أنت لفتحها
فاروقها عمر الإمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده
ولأنت في نصر النبوّة حيدر
ملك غدا الاسلام من عجب به
يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه
فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع حيث العيون
خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جمع فان خطبت له
فيها السيوف فكل هام منبر
إذ لا ترى إلاّ طلى بسنابك
تحذى نعالا أو دماء تهدر
وصوافنا تختار إن تطأ الثرى
فيصدها عنه طلى وسنور
تمشي على جثث العدا عرجا ولا
عرج بها لكنها تتعثر

وقال أبو الحسن بن جبير الاندلسي:
أطلت على أفقك الزاهر
سعود من الفلك الدائر
فابشر فان رقاب العدا
تمدّ الى سيفك الباتر

وكـم لـك مـن فتكـة فيهـم
حكـت فتكـة الأسـد الخادر
وكسرت صليبهـم عنـوة
فـلله درك مـن كـاسر
وغيرت آثـارهـم كلهـا
فليس لها الـدهـر مـن جـابـر
وأمضيـت جـدك في غـزوهـم
فتعسـا لجدّهـم لعـاثـر
وأدبـر ملكهـم بـالشـآم
وولى كـأمسهـم الـدابـر

جنـودك بـالـرعـب منصـورة
فنـاجـز متـى شئت أو صـابـر
فكلهـم غـرق هـالـك
بتيـار عسكـرك الـزاخـر
ثـأرت لـديـن الهدى في العـدا
فـاثـأر لله مـن ثـائر
وقمـت بنصر إلـه الـورى
فسماك بـالملـك النـاصر
وجـاهـدت مجتهـداً صـابـراً
فـلله أجـرك مـن صـابـر

تبيـت الملـوك على فـرشهـم
وتـرفـل في الـزرد السـابـر
وتـؤثـر جـاهـد عيـش الجهـاد
على طيـب عيشهـم النـاضر
وتسهـر ليلـك في حـق مـن
سيرضيـك في جفنـك السـاهـر
فتحـت المقـدّس مـن أرضـه
فعـادت إلى وصفهـا الطـاهـر

وجئـت إلى قـدسـه المرتضـى
فخلصتـه مـن يـد الكـافـر
وأعليـت فيـه منـار الهدى
وأحييـت مـن رسمـه الـداثـر
لكـم ذخـر الله هـذا الفتـو
ح مـن الـزمـن الأول الغـابـر
وخصـك مـن بعـد فـاروقـه
بها لاصطنـاعـك في الآخـر
محبتكـم ألقيـت في النفـوس
بـذكـر لكـم في الـورى طـائر
فكـم لهم عنـد ذكـر الملـوك
لمثلـك مـن مثـل سـائر

وباقي القصيدة تقدم في أخبار سنة أربع وسبعين، وقال أبو الحسن علي بن محمد الساعاتي:

أعيّـا وقـد عـاينتـا الآيـة العظمـى
لأيـة حـال تـدّخـروا النثـر والنظما
وقـد شـاع فتـح القـدس في كـل منطـق
وشـاع إلى أن أسمـع الأسـل الصما
حمـامـكـة الحسنـى وشـى بيثـرب
وأطـرب ذيـاك الضريـح ومـا ضما
فليـت فتـى الخطـاب شـاهـد فتحهـا
فيشهـد أن السيف مـن يـوسـف أصمـى
ومـاكـان إلا الـداء أعيـا دواؤه
بغير الحسـام العضـب لايحسـن الحسما
وأصبـح ثغـر الـديـن جذلان بـاسما
وأسنـة الاغماد تـوسعـه لثما

سلـوا الساحـل المخشي عـن سطـواتـه
فما كـان إلا سـاحـلا صـادف اليما

وله من قصيدة أخرى في السلطان:

عصفت بـه ريح الخطـوب زعـازعـا
فلقين طـودا لا تخاف أنـاتـه

هـو منقـذ البيت المقـدّس بعـدمـا
طـالـت فما وجـد الشفـاء شكـاتـه

بيـت تـأسـس بـالسكـون وإنما
عنـد الـزحـاف تحركـت سكنـاتـه

أمشتت الأعـداء هـي جحـافـل
عـن شمـل ديـن جمعـت اشتـاتـه

أوتيـت عـزمـا في الحروب مسـددا
لا زيغـه يخشـى ولا هفـواتـه

أحسنـت بـالبيت العتيـق ويشـرب
ولـك الفعـال كثيرة حسنـاتـه

هـذه سيـوفـك برمـات دونـه
لبكـائهـن تبسمـت حجـراتـه

له فيه من قصيدة أخرى:

هـو الفـاتـح البيت المقـدّس بعـدمـا
تحامتـه سـادات الـدنـا ومسـودهـا

فضيلـة فتـح كـان ثـاني خليفـة
مـن القـوم مبـديها وأنـت معيـدهـا

وله من قصيدة في بعض أارب السلطان:

السـت مـن القـوم الأولى بسيـوفهـم
نـواصخـرة البيـت المقـدّس مسجـدا

وللعماد الكاتب من قصيدة يمدح بها الملك الأفضل:

والقدس أعضل داؤه من قبلكم
فوفيتم بشفاء ذاك المعضل
درج الملوك على تمني فتحه
زمنا وغلتهم به لم تبلل
وأتى زمانكم فأمكن آخرا
ما قد تعذر في الزمان الأول
ما كان قط ولا يكون كفتحكم
للقدس في الماضي ولا المستقبل
أوجدتم منه الذي عدم الورى
وفعلتم في الفتح ما لم يفعل
أيدي الملوك تقاصرت عن مفخر
طلتم به فبلو البعض الأنمل
أحييتم شرع الكرام ولم يزل
نصر المحق بكم وقهر المبطل

وله قصيدة في مدح الملك المؤيد:
وكم لبني صلاح الدين فينا
على الاسلام من حق تأكد
وإن لهم على الأملاك طرا
بفتح القدس فضلا ليس يجحد

وله من أخرى في مدح الملك الظاهر غازي:
هم الملوك ذوو بأس ومكرمة
إن سالموا أمنوا أو حاربوا خيفوا
أغناهم القدس عن قول الورى فتحت
عكا وصيدا وبيروت وأرسوف

جيش الفرنج إذا لاقى سوابقهم
كأنه جبل بالريح منسوف

وقرأت على شيخنا أبي الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله من جملة قصيدة مدح بها بعض ولد السلطان أظنه الملك المحسن ظهير الدين أحمد بن صلاح الدين رحمهما الله

ملك به وأبيه يفتخر العلا
ويفوق فخرهما السها والفرقدا

ما يوسف ممن يقاس بحاتم
أنى وقد وهب الحصون وأصفدا

او ان يقال كأنه يوم الوغى
والروع كالاسد الهصور إذا عدا

أو من يشبه جوده بغمامة
أو من يقال لمثله عمر الردى

بل مالك الدنيا ومالىء رحبها
خيلا ورجلا ناصر دين الهدى

ومخلص البيت المقدس بعدما
رفع الصليب على ذراه ومجدا

ومن الملوك الصيد يلقاهم إذا
رفع السرادق راكعين وسجدا

وبه أتى البيت الحرام وفوده
من كل فج آمنين المردا

من بعد ما درست معالم سبله
دهرا وء ـر حـ؛ مها أن يقصدا

فصل

في صفة إقامة الجمعة بالأقصى شرفه الله تعالى في رابع شعبان ثامن يوم الفتح

وقد وهم محمد بن القادسي في تاريخه فيما قرأته بخطه، فإنه قال: فتح صلاح الدين بيت المقدس وخطب على المنبر فيه بنفسه وصلى فيه، ولبس خلعة سوداء ، ولم يكن السطان هو الذي باشر الخطبة على ماسنذكره، وقد تقدم أن يوم الفتح وإن كان يوم الجمعة ، إلا أن الوقت ضاق عن إقامة فرض صلاة الجمعة فيه

قال العماد : لما تسلم السلطان القدس أمر بإظهار المحراب، وكان الداوية قد بنوا في وجهه جدارا، وتركوه للغلة هرياً، وقيل كانوا اتخذوه مستراحاً عدواناً وبغيا،وكانوا قد بنوا من غربي القبلة داراً وسيعة وكنيسة رفيعة، فأوعز بكشف ذلك الحجاب، وكشف النقاب عن عروس المحراب، وهدم ماقدّامه من الأبنية وتنظيف ماحوله من الأفنية، بحيث يجتمع الناس للجمعة في العرصة المتسعة، ونصب المنبر وأظهر المحراب المطهر، ونقض ماأحدثوه بين السواري، وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الحصر والبواري، وعلقت القناديل، وتلي التنزيل،و حق الحق، وبطلت الأباطيل، وتولى الفرقان وعزل الإنجيل، وصفت السجادات، وصفت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت الدعوات، وتجلت البركات، وانجلت الكربات، وانجابت الغيابات، وانثابت الهدايات، وتليت الآيات، وأعليت الرايات، ونطق الأذان ، وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وزال العبوس والبؤس، وطابت الانفاس والنفوس،وأقبلت السعادات، وأدبرت النحوس ،وعاد الإيمان الغريب منه إلى موطنه وطلب الفضل من معدنه، وورد القرّاء وقرأوا الأوراد، واجتمع الزهاد والعباد والابدال والاوتاد، وعبد الواحد،

ووحد العابد، وتوافد الراكع والساجد والخاشع والواجد، والزاهي والزاهد،والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتجهد والساهد، والزائر والوافد، وصدح المنبر، وصدع المذكر، وانبعث المعشر، وذكر البعث والمحشر ، وأملى الحفاظ، وأبكى الوعاظ، وتذاكر العلماء، وتناظر الفقهاء، وتحدّثت الرواة، وروى المحدّثون وتحنف الهداة، وهدى المتحنفون، وأخلص الداعون، ودعا المخلصون، وأخذ بالعزيمة المترخصون، ولخص المفسرون، وفسر الملخصون، وانتدى الفضلاء، وانتدب الخطباء، وكثر المترشحون للخطابة، المتوشحون بالاصابة، المعروفون بالفصاحة، الموصوفون بالحصافة، فما فيهم إلا من خطب الرتبة، ورتب الخطبة، وانشأ معنى شائقاً، ووشى لفظا رائقاً ،وسوى كلاماً بالموضع لائقاً،و روى مبتكراً من البلاغة فائقاً، وفيهم من عرض عليّ خطبته، وطلب مني نصبته، وتمنى أن ترجح فضيلته، وتنجح وسيلته، وتسبق بمنيته فيها أمنيته، وكلهم طال إلى الإنتهاء بها عنقه، وسال من الإلتهاب عليها عرقه، ومامنهم إلا من يتأهب ويترقب، ويتوسل ويتقرب، وفيهم من يتعرض ويتضرع ، ويتشوف ويتشفع، وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه، وضرب في أخماسه أسداسه، ورفع لهذه الرياسة رأسه، والسلطان لا يعين ولايبين، ولايخص ولاينص، ومنهم من يقول ليتني خطبت في الجمعة الأولى وفزت باليد الطولى،وإذا ظفرت

بطالع سعدي، فما أبالي بمن خطب بعدي، فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح الناس يسألون في تعيين الخطيب السلطان، وامتلأ الجامع، واحتفلت المجامع، وتوجست الأبصار والمسامع، وفاضت لرقة القلوب المدامع، ووراعت لجليه تلك الحالة وبهاء تلك البهجة الروائع، وغصت بالسابقين إليها المواضع، وتوسمت العيون،وتقسمت الظنون، وقال الناس: هذا يوم كريم، وفضل عميم، وموسم عظيم، هذا يوم تجاب فيه الدعوات، وتصب البركات، وتسال العبرات، وتقال العثرات، ويتيقظ الغافلون، ويتعظ العاملون، وطوبى لمن عاش حتى حضر هذا اليوم

الـذي فيه انتعـش الإسلام وانتـاش، ومـا أفضل هـذه الطائفـة الحاضرة، والعصبـة الطاهـرة، والامـة الظـاهرة، ومـا أكـرم هـذه النصرة الناصريـة، والاسرة الإمـاميـة، والـدولـة العبـاسيـة، والمملكـة الأيـوبيـة، والـدولـة الصلاحيـة، وهل في بلد الإسلام أشرف مـن هذه الجماعة التـي شرفها الله بـالتـوفيق لهذه الطـاعـة، وتكلمـوا فيمـن يخطب، ولمن يكـون المنصـب، وتفاوضـوا في التفويـض، وتحدّثوا بالتصريـح والتعريـض، والأعلام تعلى، والمنبر يكسـى ويجلى، والأصـوات تـرتفع، والجماعـات تجتمـع، والأفـواج تزدحم، والأمواج تلتطم، وللعارفين مـن الضجيج مافي عرفات للحجيج، حتى حـان الزوال، وزال الإعتـدال، وحيعل الداعـي، وأعجل السـاعي، فنصب السلطان الخطيـب بنصه، وأبان عن اختياره بعـد فحصه، وأوعز إلى القاضي محيي الديـن أبي المعالي محمد بن زكي الديـن علي القرشي بأن يرقى ذلـك المرقى، وترك جباه الباقين بتقديمـه عرقى، فأعرتـه من عندي أهبة سوداء من تشريف الخلافة حتى يكمـل له شرف الإفاضة والإضافة، فـرقـى العـود، ولقـي السعود، واهتـزت أعطـاف المنبر، واعتـزت أطـراف المعشر، وخطب وانصتوا، ونطـق وسكتوا وأفصح وأعرب، وأبـدع وأغرب، وأعجز وأعجـب، وأوجز وأسهـب، ووعظ في خطبتيـه وخطب بمـوعظتيه وأبـان عن فضـل البيت المقـدّس وتقـديسه، والمسجـد الأقصى مـن أول تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه،و إخراس نـاقوسه، وإخراج قسيسه، ودعا للخليفـة والسلطـان، وختـم بقـولـه تعـالى:(إن الله يـأمـر بـالعـدل والإحسان)[٥٤]ونزل وصلى في المحراب وافتتح ببسم الله الـرحمن الرحيم من أم الكتاب، فأم بتلك الأمة، وتم نـزول الرحمة، وكمل وصول النعمة، ولما قضيت الصـلاة انتشر الناس، واشتهر الإيناس، وانعقـد الإجماع، واطرد القياس، وكـان قد نصب للوعـظ تجاه القبلة سرير ليفرعـه كبير، فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجـا، فذكر من خاف ومن رجا ومن سعد ومن شقـى، ومن هلك ومن نجا، وخوّف بـذي الحجة ذوي الحجا، وجلا بنـور عظاته من ظلـم الشبهات مادجا، وأتـى بكل عظة للراقـدين

موقظـة، وللظالمين محفظـة، ولأولياء الله مرققـة ولأعداء الله مغلظـة، وضج المتباكون وعـج المتشاكون، ورقت القلوب، وخفت الكـروب، وتصاعدت النعـرات، وتحدرت العبرات، وتاب المذنبـون وأنـاب المتحـوبون، وصـاح التـوابـون، ونـاح الأوابـون، وجــرت حـالات جلـت، وجلـوات حلـت، ودعـوات علت، وضراعـات قبلت، وفـرص مـن الولايـة الالهية انتهـزت، وحصص مـن العناية الربـانية أحرزت، وصلى السلطان في قبـة الصخرة، والأيدي إلى الله مـرفوعـة، والدعوات لـه مسموعـة، ثم رتـب في المسجد الاقصى خطيباً استمرت خطبته، واستقرت نصبته.

قلت: هـذه الفاظ العماد في هـذا الفصل مـن كتاب الفتـح، وذكره في كتاب البرق بعبـارة أخرى، تشتمل على فـوائد زائدة، وفي تكرار مـاتقدم أيضـاً بغير تلك العبـارة فـائدة، فإنها معـان جليلـة، كلما ذكرت جلـت، وكلما تكررت حلت.

فصل

قال العماد في كتاب البرق: لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح، تقدم السلطان في المسجد الاقصى ببسط العراص، واخلائها لأهل الاخلاص، وتنظيفها من الأدناس ، وكنس مافي أرجائها من الأنجاس ، وقد كان سبق أمره من مبدأ الامر بهدم ما هناك من أبنية الكفر، وإبراز المحراب القديم، وإعادة موضعه إلى الوضع الكريم، فقد كان الداويه بنوا غربيه داراً وأدخلوه فيها وخلطوه بمبانيها، واتخذوا منه جانباً مستراحاً للاعلال، وجانباً هريا للغلال، فأمر في ا لعاجل بكشف قناعه، ورفع الوضيع من أوضاعه، ونقل ماوقع من انقاضه، ونقض مااعتور ذلك الجوهر النفيس من اعراضه، حتى ظهر موضع المنبر والمحراب، واستظهر بإزالة ماقدّامه من الحجاب، واجتمع الخلق في ذلك الاسبوع على تفريق ذلك الهدم المجموع، وتعاونوا وتعانوا حتى كشفوه، ونظفوه ورشوه وفرشوه، وكان قد أمر باتخاذ منبر في تلك الأيام فنجروه وركبوه، ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العلل مزاحه، والهمم مراحه، والخواطر إلى وردها ملتاحة مرتاحة، وهناك فضلاء بلغاء، وعلماء أتقياء، وكل منهم قد سبق بخطبة الخطبة، وأمل الفوز بفضيلة تلك الرتبة، وأعد لذلك المقام مقالاً، ونشط بشقشقة فصاحته من قرم حصافته عقالاً، حتى إذا حيعل الداعي، وتعين الفرض على الساعي، حضر السلطان للصلاة من قبة الصخرة ، بادية على أساريره أسرار سروره بالأسرة، وامتلأت تلك العراض والصحون، واستعبرت للفرح بما يسره الله العيون، وآن لدين الله أن تقضى له الديون وتفك الرهون، ووجلت القلوب وخشعت الأصوات ، وحسنت الظنون ،و عين السلطان القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن علي القرشي، الزكي بن الزكي، للصلاة والخطبة، وفرع تلك الرتبة، فصعد وسعد، وحمد و أحمد، وأدت المعاني الشريفة ألفاظه، ونبه الأقاصي والأداني إيقاظه، وجلا المسامع ، وجلب المدامع، وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوجه المشروع

والنهج المتبوع، والشرط الموضوع، وذكر في الفتح البكر ماافتض به ابكار الاستعارات بأبدع البراعات ، وأبرع العبارات ، وصدح بالصدق، ونطق بالحق ، وفاز بالسبق، وحاز على فضلاء الغرب والشرق، فهو لنشر المعاني أضم خطيب، له بنشر المعالي أضمخ طيب، فأين قس في عكاظه، من قياس ألفاظه، وأين سحبان من سجعاته، وأين ابن نباتة من نباته، ولو عاشا لافتقرا إلى فقره واحتقرا أعراضهما عند جوهره، ودعا لأمير المؤمنين، ثم لسلطان المسلمين، ونزل وقام إماماً أكمل بصلاته الفرض، وأرضى بسمت دعواته والطمأنينة في ركعاته وسجداته أهل السماء والأرض، وسر السلطان بنصبه ورفعه ، وامتلأ صدره حبوراً منه بجلاء بصره وسمعه، فقد أخذت بالأبصار أشعة أنوار الخطبة، في سواد الأهبة ، وعظمت أخطار المهابة في خواطر المحبة، وكرمت سرائر الزلفى إلى الله والقربة، ثم رتب السلطان بعده خطيباً يستمر إقامته للجمع والجماعات، وتستقر ملازمته لأداء الصلوات، ولما قضيت الصلاة تلك الجمعة، نصب سرير للوعظ أبقى تلك الأمة المجتمعة، وتقدم السلطان إلى زين الدين الواعظ ليفرع السرير، وينفع بعظاته الصغير والكبير، وحضر المجلس بمرأى منه ومسمع، فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمع، فحقق ورقق وأشهد وأشهق، وخلب بعباراته الحلوة العبرات، وشار العسل بمعسول الإشارات، وبشر البشر بشارة البشارات، وذكر الفتح وبكارته، والقدس وطهارته، والدين وجسارته، والكفر وخسارته، والقدر وإعانته، والظفر وإبانته، والصخرة وإصراخها، والروعة وإفراخها، والنار وصراطها، والقيامة وأشراطها، والرحمة وبابها من باب الرحمة، والجنة وجناها لهذه الأمة، وماأعده الله لهذه الطائفة، وماأنزله من الأمن على القلوب الخائفة، ووصف ببلاغته مالايبلغ إليه نطق الالسنة الواصفة، ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله والخير ودلائله، والنجح ووسائله، والشرع ومسائله، والذنب وغوائله، وإحسان السلطان وفواضله، والبحر وساحله، والدين وحقه، والكفر وباطله، وكان يوماً راجحاً وسوماً رابحاً.

فصل

في إيراد ماخطب به القاضي محيي الدين رحمه الله

قال العماد وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدين أربع خطب في أربع جمع كلها من إنشائه، وأودعها سر بلاغة عنيت بافشائه، وذكرت الخطبة الأولى ويد الفصاحة فيها طولى، افتتحها بهذه الآيات:

(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)[٥٥](الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين)[٥٦] (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور)[٥٧] (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً)[٨٥] الآية (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب)[٥٩] (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى)[٦٠](الحمد لله الذي له مافي السموات وما في الأرض)[٦١] و(الحمد لله فاطر السموات والأرض)[٦٢]

والخطبة هي:

«الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الامور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما يشاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على اظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لاشريك له الأحد (الصمد) الذي (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) شهادة من طهر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله رافع الشك وداحض الشرك. وراحض الأفك.

الذي أسرى بـه من المسجـد الحرام إلى هذا المسجـد الأقصى. وعـرج به منه إلى السموات العلى إلى (سدرة المنتهى. عنـدها جنة المأوى. إذ يغشى السـدرة مـايغشـى. مـازاغ البصر ومـا طغـى) (٦٣) صلى الله عليـه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السـابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفـع عن هذا البيت شعـار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النوريـن جامع القـرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طـالب مزلزل الشرك، ومكسر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان.

أيها الناس أبشروا بـرضوان الله الـذي هو الغـاية القصـوى، والدرجـة العليـا، ولما يسره الله على أيديكـم مـن استرداد هذه الضـالـة من الأمـة الضالة، وردّها إلى مقرها من الإسـلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مـائة عام، وتطهير هذا البيـت الذي أذن الله أن يـرفع وأن يذكـر فيه اسمه(٦٤) وإماطـة الشرك عن طرقه، بعـد أن امتد عليها رواقـه، واستقر فيها رسمه، ورفـع قواعده بالتوحيد، فـإنه بني عليه وبالتقوى فـإنه أسس على التقوى من خلفه ومـن بين يديه، فهو موطن أبيكـم ابراهيم، ومعراج نبيكـم محمد عليـه السلام، وقبلتكـم التـي كنتم تصلـون إليها في ابتـداء الإسلام، وهو مقر الأنبيـاء ومقصد الأولياء ومقر الرسل، ومهبـط الوحي، ومنزل تنـزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر، وصعيـد المنشر، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها الله في كتـابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسـول الله صلى الله عليه وسلـم بالملائكة المقـربين، وهو البلـد الذي بعث الله إليه عبده ورسـوله، وكلمته التي ألقاها إلى مـريم وروحه عيسى الذي شرفه الله برسالتـه وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عـن رتبة عبوديته، فقال تعالى: (لـن يستنكف المسيـح أن يكون عبـداً لله) (٦٥) وقال :(لقـد كفر الذيـن قالـوا إن الله هو المسيـح بن مـريم) (٦٦) وهو أول القبلتين وثاني المسجـدين وثـالـث الحرمين، لاتشـد الرحـال بعـد المسجـدين إلا إليـه، ولاتعقد الخنـاصر بعد الموطنين إلا عليه، ولـولا أنكم ممن اختـاره الله من عبـاده واصطفـاه مـن سكـان بـلاده، لما خصكـم بهذه الفضيلـة التـي

لايجاريكم فيها مجار، ولايباريكم في شرفها مبار، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية. والوقعات البدرية، والعزمات الصديقية. و الفتوح العمرية، والجيوش العثمانية. والفتكات العلوية. جددتم للإسلام أيام القادسية . والوقعات اليرموكية. والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية. فجازاكم الله عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء، وشكر لكم مابذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء . وتقبل منكم ماتقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء فأقدروا رحمكم الله هذه النعمة حق قدرها. وقوموا لله تعالى بواجب شكرها. فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة وترشيحكم لهذه الخدمة. فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون وقرّ به عينا الأنبياء والمرسلون، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان. والجند الذي تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء. أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه. ونص عليه في خطابه. فقال تعالى: (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله) الآية. أليس هو البيت الذي عظمته الملوك و أثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من الهكم عز وجل ، أليس هو البيت الذي أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب، أليس هو البيت الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان وغضب عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة العصيان، فأحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنوا اسرائيل، وقد فضلهم على العالمين ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين. وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى. وأغناكم بما أمضته كان وقد عن سوف وحتى، فليهنكم إن الله قد ذكركم به فيمن

عنده. وجعلكم بعد أن كنتم جنوداً لاهويتكم جنده. وشكركم الملائكة المنزلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طيب التوحيد ونشر التقديس والتحميد، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث. والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن يستغفر لكم أملاك السموات. وتصلي عليكم الصلوات المباركات. فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم. وأحرسوا هذه النعمة عندكم بتقوى الله التي من تمسك بها سلم، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم. واحذروا من اتباع الهوى. وموافقة الردى. ورجوع القهقرى. والنكول عن العدا، وخذوا في انتهاز الفرصة وإزالة ما بقي من الغصة. وجاهدوا في الله حق جهاده. وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه إذ جعلكم من خير عباده. وإياكم أن يستزلكم الشيطان. وأن يتداخلكم الطغيان، فيخيل لكم إن هذا النصر بسيوفكم الحداد. وبخيولكم الجياد. وبجلادكم في مواطن الجلاد. لا والله (ما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) (٦٧). واحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل. والمنح الجزيل. وخصكم بهذا الفتح المبين. وأعلق أيديكم بحبله المتين. أن تقترفوا كبيراً من مناهيه. وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا (كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً)(٦٨) (والذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين)(٦٩) والجهاد الجهاد، فهو من أفضل عباداتكم. وأشرف عاداتكم انصروا الله ينصركم. اذكروا أيام الله يذكركم، اشكروا الله يزدكم ويشكركم. جدوا في حسم الداء. وقطع شافة الأعداء. وتطهير بقية الأرض التي أغضبت الله ورسوله. وأقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله. فقد نادت الأيام: بالثارات الإسلامية والملة المحمدية. الله أكبر فتح الله ونصر . وغلب الله وقهر، أذل الله من كفر. واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها. وفريسة فناجزوها، ومهمة فأخرجوا لها هممكم وأبرزوها. وسيروا إليها عزماتكم وجهزوها. فالأمور بأواخرها. والمكاسب بذخائرها. فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول. وهم مثلكم أو يزيدون. فكيف وقد أضحى في

قبالة الواحد منهم منكم عشرون. وقد قال الله تعالى:(إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين)[٧٠] أعاننا الله وإياكم على اتباع أوامره والازدجار بزواجره، وأيدنا معشر المسلمين بنصر من عنده (لأن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده)[٧١].

وتمام الخطبة الثانية قريب مما جرت به العادة، وقال بعد الدعاء للخليفة:

اللهم وأدم سلطاننا عبدك الخاضع لهيبتك، الشاكر لنعمتك المعترف بموهبتك، وسيفك القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المدافع، والذابّ عن حرمك الممانع، السيد الأجل الملك الناصر، جامع كلمة الإيمان، وقامع عبدة الصلبان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مطهر البيت المقدس، أبا المظفر يوسف بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين، اللهم عم بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسن عن الدين الحنيفي جزاءه، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه، اللهم أبق للإسلام مهجته، ووق للايمان حوزته، وانشر في المغارب والمشارق دعوته. اللهم فكما فتحت على يده البيت المقدّس بعد أن ظنت الظنون، وابتلي المؤمنون. فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيها، وملكه صياصي الكفرة ونواصيها، فلاتلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ولاجماعة إلا فرقها، ولاطائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها، اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونهيه، اللهم أصلح به أوساط البلاد وأطرافها وأرجاء الممالك وأكنافها، اللهم ذلل به معاطس الكفار، وأرغم به أنوف الفجار، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار، وأثب سرايا جنوده في سبل الأقطار، اللهم ثبت الملك فيه وفي عقبه إلى يوم الدين واحفظه في بنيه. وبني أيوب الملوك الميامين، واشدد عضده ببقائهم، واقض باعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحسنة التي

تبقى على الأيام وتتخلد على مر الشهور والأعوام، فارزقه الملك الأبدي الذي لاينفد في دار المتقين، وأجب دعاءه في قوله: (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه)[٧٢](وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين)[٧٣] ثم ماجرت العادة به

فصل

في المنبر

قال العماد: لما فتحنا القدس أمر بتعمير المحراب وترخيمه، وتكميل حسنه وتتميمه، ووضع منبر رسمي في أول يوم قضي به الفرض، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حسن رائق بحسنه لائق، وبجماله شائق، وبكماله فائق، فذكر السلطان المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فتحه بنيف وعشرين سنة، وأودعه له من ذخائره عند الله حسنه، فأمر أن يكتب إلى حلب ويطلب فحمل وعمل على ماأمره به وامتثل، فجاء كالروض النضير، والوشي الحبير، عديم النظير، وكان من حديث احداثه ما أ لهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره إليه وانبعاثه، وقد أوقع في روعه من النور الفائض من ينبوع ضلوعه، أن البيت المقدس بعده سيفتح، وأن صدور المسلمين الحرجة لأجله ستشرح، وهو من أولياء الله الملهمين، وعباده المحدثين المكرمين، وكان بحلب نجار يعرف بالاخترينى، من ضيعة تعرف باخترين، لم يلف له في براعته وصنعته قرين، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدس، وقال له: اجتهد أن تأتي به على النعت المهندم والنحت المهندس ، فجمع الصناع، وأحسن الإبداع وأتمه في سنين، واستحق بحق إحسانه التحسين، والناس يقولون هذا أمر مستحيل وحكم ماله دليل ،و ذكر جميل وأجر جزيل، لو كان إليه سبيل، وهيهات أن يعود القدس إلى الإسلام، ويقضي الإصباح فيه على الإظلام، فإن الفرنج عليه مستولون مستعلون، وهم يكثرون على الأيام ولايقلون، أما ناصفونا على أكثر أعمال حوران، وقابلوا بالكفر الإيمان؟ وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم، فما أصعب واتعب وقم القوم، ويقول من له قوّة اليقين وعرف أن الله كافل بنصرة الدين: اصبروا فلسر هذه الامة نبأ، وهو كما قال الله تعالى: (ويصنع الفلك وكلما مر عليه

ملأ) (٧٤) ولم يزل لنور الـدين في قلبه من الدين نـور، وأثر تقواه للمتقين مـأثور، أزهـد العباد، وأعبـد الزهـاد، وهـو من الأولياء الأبرار والاتقيـاء الأخيار، وقد نظر بنور الفراسة أن الفتـح قريب، وأن الله لدعائه ولو بعد فتحه مجيـب، ويزيده قوة عـزمه جداً، ويمدّه بحيـاء الحياة الربانيـة مداً، وقد طهـره الله من العيب، وأطلعـه على سر الغيب، ونـزهه من الـريب، لنقاء الجيب، وشملت الإسلام بعده بركتـه، وختمت بافتتاح ملك صلاح الدين مملكته، وهو الذي رباه ولبـاه وأحبه وحباه ،و هو الذي سن الفتح وسنى النجـح، واتفق أن جامـع حلب في الأيـام النورية احترق فـاحتيج إلى منبر ينصب فنصـب ذلك المنبر، وحسـن المنظر وتـولى حينئذ النجـار عمـل المحراب على الـرقم، وشـابـه المحراب المنبر في الـرسم، ومـن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القدسي الاحسان

ولما فتح السلطان القـدس تقدم بحمله، وصح بـه في محراب الأقصى تفريـق شمله، وظهـر سر الكرامة في فـوز الإسلام بـالسلامـة، وتناصرت الألسن بالدعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنصرة والنعمة

وقال العماد في موضع آخر من كتـاب البرق : وكان الملك العادل نور الديـن محمود بن زنكـي رحمه الله في عهده عرف بنـور فراسته فتـح البيت المقدس مـن بعده، فأمر في حلـب باتخاذ منبر للقدس، وتعـب النجارون والصناع والمهنـدسون فيـه سنين، وابدعـوا في تركيبـه الأحكام والتـزيين، وأنفق في إبداع محاسنـه وإبداء مزاينه ألـوفاً ، وكان لترديد النظـر فيه على الأيام ألـوفاً، وبقي ذلـك المنبر بجامع حلـب منصوباً ، سيفـاً في صوان الحفظ مقروباً، حتـى أمر السلطان في هذا الوقت بالوفـاء بالنذر النوري، ونقل المنبر إلى موضعـه القدسي، فعرفت بذلـك كرامات نور الـدين التي أشرق نورها بعده بسنين، وكان من المحسنين الـذين قال الله تعالى فيهـم : (والله يحب المحسنين).(٧٥)

قلت : وهذا الذي نسبه إلى نور الدين رحمه الله من أنه كرامة من كراماته لائق بمحله ومنزلته من الدين، وليس بالبعيد من مثل ذلك ،و كان رحمه الله قد بدت له مخايل ذلك بما تسنى له من فتح البلاد الشامية والمصرية، وقهر العدوّ بين يديه مراراً، وكان فتح القدس في همته من أول ملكه، فإن لم يكن حصل له مباشرة فقد حصل له تسبباً، فإن الفاتحين له رحمهم الله بنوا على ماأسسه لهم من الملك والتدبير، وهم أمراؤه وأتباعه وأجناده وأشياعه، ثم يحتمل أن يكون رحمه الله وقف على ماذكره أبو الحكم بن برجان الأندلسي في تفسيره فإنه أخبر عن فتح القدس في السنة التي فتح فيها ،و عمر نور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد رأيت أنا ذلك في كتابه ذكر في تفسير أول سورة الروم أن البيت المقدس استولت عليه الروم عام سبع وثمانين وأربعمائة، وأشار أنه يبقى بأيديهم إلى تمام خمسمائة وثلاث وثمانين سنة، قال : ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمسمائة، فلم يستبعد نور الدين رحمه الله لما وقف عليه أن يمتد عمره إليه فهيأ أسبابه حتى منبر الخطابة فيه تقرباً إلى الله تعالى بما يبديه من طاعته ويخفيه ، وهذا الذي ذكره أبو الحكم الأندلسي في تفسيره من عجائب مااتفق لهذه الأمة المرحومة، وقد تكلم عليه شيخنا أبو الحسن علي بن محمد في تفسيره الأول فقال: وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي في أول سورة الروم إخبار عن فتح البيت المقدس وأنه ينزع من أيدي النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. قال: وقال لي بعض الفقهاء: إنه استخرج ذلك من فاتحة السورة. قال: فأخذت السورة وكشفت عن ذلك، فلم أره أخذ ذلك من الحروف وإنما أخذه فيما زعم من قوله تعالى (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) فبنى الأمر على التاريخ كما يفعل المنجمون، ثم ذكر أنهم يغلبون في سنة كذا، ويغلبون في سنة كذا على ماتقتضيه دوائر التقدير، قال وهذه نجامة وافقت إصابة إن صح أنه قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه وليس ذلك بمأخوذ من الحروف ولاهو من قبيل

- ٨٥٩٣ -.

الكرامـات، أيضاً فإن الكرامـة لاتكتسب بحساب، ولاتفتقر إلى تـاريخ، ولـذلك لم يـوافق الصـواب لما أدار الحساب على القـراءة الأخرى الشـاذة التي هي بفتح الغين مـن (غلبت الروم) ويوضح ذلك أنـه قال في سورة القدر : لو علم الوقت الذي أنزل فيه القرآن لعلم الوقت الذي يرفع فيه.

فصل

قال العماد: وأما الصخرة المقدسة فإن الفرنج كانوا بنوا عليها كنيسة ، وأعادوا رسومها القديمة دريسه، وستروها بالأبنية، وعوّجوا أوضاعها بزعم التسوية، وكسوها صوراً هي أشنع من التعريه، وملؤوها بتصاريف التصاوير، ونبتوا في ترخيمها اشباه الخنازير، وجعلوا المذبح لها مذبحاً، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة، ولا للعيون المدركة ملمساً ، ولامطمحاً، وقد زينوها بالصور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ، وافردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبه بأعمدة الرخام منصبه، وقالوا محل قدم المسيح، وهو مقام التقديس والتسبيح، وكان فيها صور الأنعام منبتة في الرخام، والصخرة المقصودة المزورة بما عليها من الأبنية مستوره، وبتلك الكنيسة المعمورة مغمورة، فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها ،و حسر لثامها ، وقشر رخامها ورحض وضرها، ونقض أبنيتها، ونقل حجرها، وإبرازها للزائرين، وإظهارها للناظرين، فبانت من الشين، وبانت للعين،وحبيت بالقبل،و فديت بالمقل، فعادت كما كانت في الزمن القديم، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم، وما كان يظهر منها قبل الفتح إلا قطعة من تحتها، قد أساء الكفر في نحتها، فظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت أيمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نوراً على نور، وعملت عليها حظيرة من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى كل يوم في مزيد

قال: وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة قطعاً وحملوا منها إلى قسطنطينية، ونقلوا منها إلى صقليه، وقيل باعوها بوزنها ذهباً ، واتخذوا ذلك مكتسباً، ولما طهرت ظهرت مواضعها، وقطعت القلوب لما بانت مقاطعها، فهي الآن مبرزة للعيون بحزها، باقية على الأيام بعزها، مصونة للإسلام.في خدرها وحرزها.

وقال في البرق: ولما ظهـرت الصخرة وجدنـاها وقد أبقـت لها النوائب حزوزاء، وأودعـت ضميرها من شر أهل الكفـر شراً مرموزاً، فإن الفـرنج نقلوا منهـا إلى بلادهـم قطعاً، وأبدعـوا فيها بدعـاً حتى قيـل إنها بيعت بوزنها ذهبـاً، وأفضى الأمر بها أن يكـون حجرهـا منتهباً، فغطاهـا بعض ملـوكهم إشفـاقاً عليهـا لئلا تمتـد يـد ضيم إليهـا ، فأبقـت حزوزهـا في القلوب حـزازات، وسار حديـث حادثهـا في الآفاق بروايـات وإجازات، وتولاها بعد ذلك الفقيه ضياء الديـن عيسى فصانها بشبابيك من حديد، وثبت أركانها بكل تسديد.

وقال في الفتـح: ورتب السلطان في قبة الصخـرة إماماً حسنـاً، ووقف عليهـا داراً وأرضـاً وبستـاناً، وحمل إليهـا وإلى محراب المسجـد الأقصـى مصـاحف وختمات، وربعـات معظمات، لاتزال بين أيـدي الزائريـن على كرسيها مرفـوعة، وعلى أسرتها موضوعة، ورتب لهذه القبـة خاصة وللبيت المقدس عامة قومة من العـارفين العاكفين القائمين بالعبادة الواقفين ، فما أبهج ليلها وقـد حضرت الجموع، وزهـرت الشموع، وبـان الخشوع ، ودان الخضـوع، ودرت من المتقين الـدموع، واقشعـرت مـن العارفين الضلـوع، فهنـاك كل ولي يعبـد ربـه، ويأمـل بـره، وكل أشعـث أغبر لايـؤبه لـه، لوأقسـم على الله لأبره، وهنـاك كمل مـن يحيي الليـل ويقومـه، ويسمو بـالحق ويسومـه، وهناك كـل من يختـم القـرآن ويرتلـه، ويطرد الشيطـان ويبطله ومن عرفته لمعرفتـه الأسحار، ومن ألفته لتهجده الأوراد والأفكار، وماأسعد نهارهـا حين يستقبل الملائكة زوارها، وتلحق الشمـسأنـوارها، وتحمل القلوب إليها سرارها.

قال : وتنـافس ملوك بنـي أيوب فيها يؤثـرونه بها من الآثـار الحسنة، وفيها يجمع لهم ودّ القلوب وشكر الألسنـة، فما منهم إلا من أجمل وأحسن وفعل ماأمكن،وجلى وبين، وحلى وزين، وأتى العـادل أبو بكر بكل صنع بكر، وتقـي الديـن عمر بكـل ماعم وعمـر، ومن جملـة أفعالـه المشكورة،

ومكرمـاته المشهورة أنـه حضر يوماً في قبة الصخـرة ومعه من مـاء الورد أحمال، ولأجل الصـدقة والـرفد مـال، فانتهـز فرصـة هذه الفضيلـة التي ابتكرها ، وتـولى بيده كنس تلك الساحات والعـراص، وغسل جدرانها، ثم أتـى بمجامـر الطيب فتبخرت وتضـوعت، ثـم فرق ذلـك المال فيها على ذوي الاستحقـاق، وافتخر أن فـاق الكـرام بـالإنفاق، وجـاء الملـك الأفضل نـور الدين علي، بكـل نور جلي، وكرم ملي، وبسـط بها الصنيعة، وفرش فيها البسط الـرفيعة، وسيأتي ذكر مااعتمده مـن بناء أسوار القدس وحفر خنادقه، وأعجز بها أعجب من سوابـق معروفه ولواحقه، وأما الملك العزيز عثمان فإنه لما عاد إلى مصر ترك خـزانة سلاحه بالقدس كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها، وكانـت أحمالاً بأموال ،وأثقالاً كجبال، وذخائر وافيـة، وعدداً واقيـه ، وكان مـن جملة مـاشرط على الفرنـج أن يتركوا لنـا خيلهم وعدتهم، فتـوفرت بذلك عـدد البلد، واستغنى به عما يصـل من المدد.

قال وأمـا محراب داود عليه السلارم خـارج المسجد الأقصى، فـإنه في حصن عنـد باب المدينـة منيع، وموضـع عال رفيـع، وهو الحصـن الذي يقيم بـه الوالي، فـرتب السلطان لـه إمامـاً، ومؤذنين وقوامـاً،و هو مشـابة الصالحين، ومـزار الغادين والـرائحيـن، فأحيـاه وجدّده، ونهج لقاصـديه جدده، وأمـر بعمارة جميع المساجـد، وصون المشـاهد ، وانجاح المقـاصد، واصفـاء الموارد للقـاصـد والـوارد، وكان مـوضـع هـذه القلعـة دار داود وسليمان عليهما السـلام، وكان ينتـابها فيهما الأنام، وكـان الملك العـادل نـازلاً في كنيسة صهيـون وأجنـاده على بـابها مخيمون، وفـاوض السلطـان جلساؤه من العلماء والأكابر الأبرار والأتقيـاء الأخيار في أن يبنى مدرسة للفقهاء الشـافعية، ورباطـاً للصلحـاء الصوفيـة فعين للمدرسـة الكنيسة المعروفة بصندحنه عند بـاب أسباط، وعين دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقـف عليهما وقوفاً، وأسدى بذلك إلى الطـائفتين معروفاً، وارتاد أيضاً مدارس للطوائف ليضيفها إلى ماأولاه من العوارف.

فصل

قال البرق: وشرع الفرنج في إخلاء البيوت، وبيع ماأدخروه من الأثاث والقوت، وأمهلوا حتى باعوا بأرخص الاثمان، وكان خروجهم شبيها بالمجان، لاسيما ماتعذر لثقله نقله، وصعب حمله، وكانوا كما قال الله تعالى: (كم تركوا من جنات وعيون*وزرع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين* كذلك وأورثناها قوما آخرين)[٧٦] ،فباعوا ماتهيأ لهم على البيع إخراجه رخيصاً، وأبقوا مالم يجدوا من تركه محيصاً ، وغلبوا على مافي الدور من الماعون والمذخور، أما الصناديق والأخشاب والرخام ومايجري مجراها مما توفرت منه الأنواع والأقسام، فإنها بقيت بحالها متروكه، ولمن يسكن تلك الأماكن مملوكه، وكانت قمامة وهي كنيستهم العظمى ومتعبدهم الذي يجمعون به الدين والدنيا، مفروشة بالبسط الرفاع مكسوة بالستور النسيج والحرير الممزوج من سائر الأنواع، والذي يذكرون أنه قبر عيسى عليه السلام محلى بصفائح الفضة والعين، ومصوغات الذهب واللجين، مصفح بالنضار، مثقل من نفائس الحلي بالأوقار، فأعاده البطرك منه عاطلاً، وتركه طللاً ماثلاً، فقلت للسلطان : هؤلاء إنما أخذوا الأمان على أموالهم فما بال هذا المال وهو بألوف يحملونه في أثقالهم ؟ فقال : هم مايعرفون هذا التأويل وينسبون إلينا لما حرمناه التحليل، ويقولون إنهم لم يحفظوا العهد، ولم يلحظوا العقد، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بذكر محاسن الإيمان، وكانت المهلة أنه من عجز بعد أربعين يوماً عن أداء ماعليه من القطيعة ضرب عليه الرق بحكم الشريطة، ووفق الشريعة، فتولاهم النواب، بعد خروجنا من القدس، وبقي منهم ممن ضرب عليه الرق خمسة عشر ألفاً في الحبس، ففرقهم السلطان، وتناهبتهم البلدان، وحصل لي منهم سبايا نسوان وصبيان، وذلك بعد أن وفى ابن بارزان بالضمان وأدى ثلاثين ألف دينار، وأخرج من ذكر أنه فقير بحسب الإمكان، وكانوا تقدير

ثمانية عشر ألفا واعتقد أنه لم يبق غير فقير، وبقـي بعد أدائه على ماذكرناه كثير، وأما النصـارى الساكنون بـالقدس فإنهم بـذلوا مع القطيعـة الجزية ليسكنوا ولايزعجوا، ويؤمنوا ولايخرجوا، فأقروا بوساطة الفقيه عيسى وأقر من قسـوس النصارى أربعة قـوام لقمامة، فأعفـاهم ولم يكلفهم الغـرامة، وأقـام بمـدينـة القـدس وأعمالها منهـم ألـوف فشمـروا وعمـروا وعـرّشـوا وغـرّسوا، فلهـم منها مجان وقطـوف، وكانـت لأمـراء الفرنـج ومقدّميهـم مجاورة للصخرة، وعند باب الرحمة، مقبرة وقباب معمرة، فعفينا آثارها، و رحضنا أوضارها.

وقـال في الفتـح: وأمـر السلطـان بإغـلاق كنيسـة قمامـة، وحـرّم على النصارى زيارتها ولا إلمامه، وتفاوض الناس عنـده فيها، فمنهم من أشار بهدم مبـانيها وتعفيـة آثـارها، وتعميـة نهج مـزارها، وقـالـوا:إذا هدمـت، ونبشت المقبرة وعفيـت وخربـت أرضها، ودمر طـولها وعرضهـا انقطعت عنها امـداد الزوار، وانحسمت عن قصـدها مواد اطماع أهـل النار، ومهما استمرت العمارة، استمـرت الزيارة، وقال أكثـر الناس لافائدة في هـدمها وهدهـا ، فإن متعبـدهم موضـع الصليب والقبر لامايشـاهد مـن البناء، ولاينقطع عنها قصـد أجناس النصرانية ولو نسفـت أرضها في السماء، ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صـدر الإسلام أقرّهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البنيان.

قال : وأقام السلطـان على القدس حتى تسلم مابقـربها من حصون، واستبـاح كل ماللكفـر بها مـن مصون، ثـم عمـد إلى مـاجمعه ففـرقـه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثـروا عذله على بذله، واستكثروا ماأفاضه بفضله، فقال: كيف أمنع الحق مستحقيه، وهذا الذي أنفقه هو الذي أتقيه، وإذا قبله منـي المستحق فالمنة له علي فيه، فـإنه يخلصني من الأمانـة ويطلقني من وثـاقها فإن الـذي في يدي وديعة أحفظهـا لذوي استحقاقها، وقيـل له: لو أدخرت هذا المال للمآل، فقـال: أملي قوي من

الله الكـافـل بنجـح الآمـال، وجمع الأسراء المطلقين، وكانـوا الـوفـا مـن المسلمين فكساهـم ، وأساهم وواسـاهم، وأذهب أسـاهم، فانطلـق كل منهم إلى وطنه ووطره، ناجياً من ضره وضرره.

وقال في البرق: سمعـت الملك العادل يـوماً في أثنـاء حديثه في نـاديه، وهـو يجري ذكر إفـراط السلطان في أيـاديـه، يقول : إني تـوليت استيفـاء قطيعة القدس، فـأنفذت له ليلة سبعين ألـف دينار، فجاءني خازنـه بكرة وقال: نـريد اليوم مانخـرجه في الإنفاق، فما عنـدنا مما كان بـالأمس شيء باق، فنفـذت له ثـلاثين ألف دينار أخـرى في الحال، ففرقتهـا على رجال الرجاء يد النوال.

فصل

قال العماد : وللحكيم أبي الفضل قصائد قدسيات طوال كثيرة الفوائد

قلت: قد وقفت على بعضها وتقدم قبل ذلك أن قال: لم أزل من أول ماولي الملك الناصر الأمر في مصر أعلم أنه مؤيد بعناية من الله سبحانه، فامتدحته في سنة خمس وستين بقصيدة تنيف على مائة بيت منها في التباشير:

لتظفــــرنّ بما لم يحوه ملــــك
أبــا المظفــر حظــا خطــه الأزل
دليــل ذلــك آراء لــك اقترنــت
بــالحزم والعــزم لم يخصــص بها الأول

وفيها

قــد ســاد اسكنــدر أهــل الــزمــان معــا
في ســن عشريــن وامتــدت لــه الحيــل
وافى الثــلاثين والاقطــار أجمعهــا
طــوعــالــه وملــوك الأرض والملــل

قال: ومدحته سنة سبع وستين عند قفوله من غزاة غزة بقصيدة منها:

أبــا المظفــر فــاهنــأ حــظ منتخــب
أخــرى الــزمــان لــديــن كــاد يتبتر
زهــدت فيما سبــى الأمــلاك منكــدرا
علما بملــك نعيــم مــا بــه كــدر
وطبــت نفســا عــن الــدنيــا وزخرفهــا
وجئــت تقــدم حيــث الهول والخطــر

قال، ومدحته سنة ثمان وستين بقصيدة تنيف أيضاً على مائة بيت منها في التباشير:

أرى الـرايـة الصفـراء يـرمـى اصطفـاقهـا
بنـــي أصفـــر بـــالـــراعفـــات اللهـــاذم
فتسبـــي فلسطينـــا وتجبـــي جـــزائرا
وتملــك مـــن يـونـــان أرض الأســـاحـــم
وتعنـــوا لها الأمـــلاك شر قـــا ومغـــربـــا
بـــذا حكمـــت حـــذاق أهـــل الملاحـــم

قال: وبعثت إليه في غـزة سنة اثنتين وثمانين وهـو على حمص بقصيدة هنأته فيها بالعافية منها:

فيـــا ملكـــا لم يبـــق للـــديـــن غيره
وهـــت عمـــد الاسـلام فـــاشـــد دلها دعما
فشـــؤم فـــريـــق الشرك في الشـــام طـــائر
فقـص جنـــاحيـه بـأقصـــى القـوى قصما
خصصـــت بتمكين فعـــم العـــدا ردى
فـــإنهم يـــأجـــوج أفـــرغ بها ردمـــا
إذا صفـرت مـــن آل الأصفـر ســاحـــة الـــ
ـــمقدّس ضـاهـت فتـح أم القرى قـدمـا
فـــذا المسجـــد الأقصـــى وهمتـــك العلى
وعـــزمتك القصـــوى ورميتـك الصمـــى
فما هـــــو إلاّ أن تهم وقـــــد أتـــــت
فتـــوح كما فـــاض الخضـــم الـــذي طما
وإن أنـــت لم تـــرد الفـــرنـــج بـــوقعـــة
فمـــن ذا الـــذي يقـوى لبنيـــانها هـــدمـــا
ومـــا كـــل حين تمكـــن المرء فـــرصـــة
ولا كـــل حـــال أمكنـــت تقتضي غنما
وليـــس كفتـــح القـــدس منيـــة قـــادر
ومـا أن تلقـــاهـا سوى يـوسـف جـزمـا

قال: وأنشأت قصيدة أخرى في سنة اثنتين وثمانين، وحضرت بها بين يديه منها:

الله أكبر أرض القدس قد صفرت
من آل الاصفر ذ احين به حانوا
أسباط يوسف من مصر أتواولهم
من غيرتيه بها سلوى وامنان
لهم فلسطين إن يخرج عداتهم
عنها وإلا عدت بيض وخرصان
حتى بنيت رتاج القدس منفرجا
ويصعد الصخرة الغراء عثمان
واستقبل الناصر المحراب يعبد من
قد تم من وعده فتح وامكان
وجاز بعض بنيه البحر تجفل من
غاراته الروم والصقلاب والـلان
حتى يوحد أهل الشرك قاطبة
ويرهب القول بالثالوث رهبان
ولابن أيوب في الافرنج ملحمة
دلت عليها أساطير وحسبان
ومن أحق بملك الارض من ملك
كأنه ملك في الخلق حنان

ثم قال : وأما القصيدة الفتحية الناصرية فأولها:

في باطن الغيب مالا تدرك الفكر
فذو البصيرة في الاحداث يعتبر
مالي أرى ملك الأفرنج في قفص
أين القواضب والعسالة السمر

والاسبتار إلى الداوية التأموا
كأنهم سد يأجوج اذا اشتجروا
والنفس مولعة عجبا بسيرتها
وفي المقادير ما تسلى به السير
ياوقعة التل ما أبقيت من عجب
جحافل لم يفت من جمعها بشر
ويا ضحى السبت ما للقوم قد سبتوا
تهوّدوا أم بكأس الطعن قد سكروا
ويا ضريح شعيب ما لهم جثموا
كمدين أم لقو ارجفا بها كفروا
حطوا بحطين ملكا كافيا عجبا
في ساعة زال ذاك الملك والقدر
أهوى اليهم صلاح الدين مفترسا
وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر
أملى عليهم فصاروا وسط كفته
كسرب طير حواها القانص الذكر
وأنجز الله للسلطان موعده
ونذره في كفور دينه البطر
وعاين الملك الابرنس في دمه
فمات حيا وحيي وهو يعتذر
رأى مليكا ملوك الارض تتبعه
والنجم يخدمه والشمس والقمر
إذا بدا تبهر الأعيان هيبته
يختفي وهو في الأذهان مشتهر

تقدّم الجيل في أخرى الزمان به
على صدور علا من قبلنا صدروا

أمـــا رأيتهــم فتــوح القــادسيـــة في
أكنـــاف لـــوبيـــة تجلى وذا عمـــر
والحق يعـــرس والطغيـــان منتحـــب
والكفـــر يطمـــس والايمان مـــزدهـــر
هـــذا المليـــك الـــذي بشرى النبـــي بـــه
في فتنـــة البغـــي لـــلاســـلام ينتصر
أنســـى مـــلاحـــم ذي القـــرنين واعترفـــت
لـــه الـــرواة بما لم ينمـــه اثـــر
أعين اسكنـــدر بـــا لخضر وهـــولـــه
عـــون مـــن الله يستغنـــي بـــه الخضر
وصنـــع ذي العـــرش ابـــداع بـــلا سبـــب
فـــلا تقـــل كيـــف هـــذا الحادث الخطـــر
بينـــا سبـــا يـــاه تجلى في دمشـــق إذا
ملـــك الفـــرنـــج مـــع الاتـــراك محتجـــر
ازاءه زعماء الســـــاحلين معـــــا
مصفـــديـــن بحبـــل القهـــر قـــد أسروا
يتلـــوهـــم صلبـــوت سيـــق منتكســـا
وحـــولـــه كـــل قسيـــس لـــه زبـــر
ونحـــن في بـــذا وذا طير صحيفتـــه
بفتـــح عكـــا التـــي ســـدت بها الثغـــر
تغـــزو أســـاطيلنـــا منهـــا صقليـــة
فتـــذعـــر الـــروم والصقـــلاب والخزر
مـــن ذا يقـــول لعـــل القـــدس منفتـــح
إليـــك بـــل سفـــر يعقـــوب لـــه السفـــر
أبـــو المظفـــر ينـــويها فخـــذ سفنـــا
مـــن بـــاب عكـــا الى طـــرطـــوس تنتشر

يسبـي فـرنجـة مـن أقطـار هـا ولـه
مـع المجـوس حـروب قـد حهـا سعـر
وبعـض أبنـائه بـالقـدس منتـدب
وبعضهـم رومـة الكبرى لـه وطـر
بـرايـة تخرق الأرض الكبيرة في
جمع تقـول لـه الاجسـام لاوزر
قـالـوا أطلـت مـديحا فيـه قلـت كما
بـدأت فـالصب للمحبـوب مـذّكـر

وأما القصائد التي له فمنها التائية له، وقد تقدم ذكرها، ومنها القدسية الكبرى عددها مائة واثنان وخمسون بيتا أولها

تصـاريـف دهـر أعـربـت لمن اهتـدى
وبسطـه أمـر أغـربـت مـن تمردا
لسرعـة فتـح القـدس سر مغيـب
وفي صرعـة الافـرنـج معتبر بـدا
أتـوا كجبـال أبـرمـت لأسـارنـا
فسقنـاهـم فيهـا قطينـا مجددا
وسـامـوا تجارا تشترينـا غـواليـا
فبعنـاهـم بـالـرخص جهـرا على النـدا
وجـروا جيـوشـا كـالسيول على الصـوا
فـاضـت غثـاء في البطـاح ممـددا
وقـالـوا ملـوك الأرض طـوع قيـادنـا
إذا الكـل منهـم في القيـود معبـدا
وقـد أقطـع الكنـد العـراق مـوقعـا
فـأودع سجنـا وسـط جلـق مـؤصـدا
وأقسـم أن يسقـي بـدجلـة خيلـه
فما ورد الاردنّ إلا مصفـدا

فكـم واثـق خجـلان قهقـه خصمـه
وكـم سـائق عجـلان قهقـر مقعـدا
أتـى الكنـد مـن اسبـان يحمـي قمامـة
فكـان تقضـى ملكـه قبـل يبتـدى
فما عقـد الـرايـات إلا محلـلا
ولا حلـل الـرايـات إلا معقـدا
ووقعـة يـوم التـل إذ قبضـت بـه
جبـابـرة الافـرنـج حيرى وشردا
عليهـم مـن البلـوى سرادق ذلـة
ومـن ذل مـاتـت نفسـه فتقيـدا
تـرى المنسر الـديـوى يلقـي سـلاحـه
وينسـاق مـابين السبـايـا ملهـدا
يبـاعـون أسرابـا شرائح أحبـل
كشكـة عصفـور مـن الـريـش جـردا
فتلقـى نصـارى جلـق في مـأتـم
يسرونها إلا شجـى وتنهـدا
ألم تـر للسلطـان صـدق نـذره
دم الغـادر الابـرنـس فـاقتيـد اربـدا
وبـاشر بـالقتـل وسـط خبـائه
وعـاينـه الكنـد المليـك فـارعـدا
وضاقـت بنفس القمص الأرض مهـربا
فـأدركـه الموت المفـاجـيء مكمـدا
ومـاطـرق الاسماع مـن عهـد آدم
كملحمـة التـل التـي ثلـت العـدا
آتـوا واديـا مـازال ينفـي خبـائثـا
ويصفـي بعقبـى الـدار طـائفـة الهدى

به جشمت أصحاب ليكة وهي في
ذراه ذا فيه شعيب تأيدا
أرى الله فيه معجز النصر مخلصا
لأمر صلاح الدين في الناس مخلدا
واعدى جنود الرعب تردي عداته
وسلم جميع المسلمين مجندا
ومن عجب خمسون ألف مقاتل
سبتهم جيوش ليس فيها من ارتدتى

وللرشيد بدر النابلسي:
هذا الذي كانت الآمال تنتظر
فليوف لله أقوام بها نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت
في سالف الدهر أخبار ولا سير
حين به حان هلك المشركين فيا
لله طيب العشايا منه والبكر
الآن قرت جنوب في مضاجعها
ونام من لم يزل حافاله السهر
يابهجة القدس إذ أضحى به علم الـ
ـلاسلام من بعد طيّ وهو منتشر
يانور مسجده الأقصى وقد وقعت
بعد الصليب به الآيات والسور
شتان مابين ناقوس يدان به
وبين ذي منطق يصغي له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له
شم الذرى وتكاد الأرض تنفطر

يـــا مـــالـــك الأرض مهـــدهـــا فما أحـــد
سواك مــن قــائم للمهـــد ينتظـــر
مـــا اخضر هـــذا الطـراز الســاحلي ثمـــرا
الا لتعلـــو بـــه أعـــلامـــك الصفـــر
أضحى بنـو الأصفـر الانكـاس مـوعظـة
فيهـــا لأعـــدائك الآيـــات والنـــذر
صــاروا حــديثــا وكــانــوا قبــل حــادثــة
على الـــورى يتقيهـــا البـــدو والحضر
سلبتهـــم دولـــة الــدنيـــا وعيشتهـــا
حتـى لقـــد ضجـرت مـن وفـدهـم سقـر
هـــذا الـــذي سلـب الأفـــرنـــج دولتهـــم
وملكهـــم يـــا ملـــوك الارض فـــاعتبروا
مـراكـــز مـــا اختطـــاهـــا الخوف مـــذ مـــائة
عـــامـــا ولا ريـــع أهلـــوهـــا ولا ذعـــروا
ولا أصرح بـــأسماء البـــلاد فقـــد
أسهبـــت والقـــائل المنطيـــق يختصر
يغنيـــك مجمـــل قـــولي عـــن مفصلـــة
في لفظـــة البحـــر معنـــى تحتـــه الـــدرر

وهي طويلة وله من قصيدة أخرى:

الـمم بـــدار النـــاصر الملـــك الـــذي
في كفـــه للجـــود سبعـــة أبحـــر
فـــإذا مــــررت بملكـــه وفتـــوحـــه
فـــاسخـــر بما يـــروى عـــن الاسكنـــدر
وإذا بصرت بجـــاشـــه وجيـــوشـــه
فـــاحـــث التراب على ذؤابـــة سنجـــر

وللشهاب فتيان الشاغوري من قصيدة:

كسرت على كسرى لعدلك دولة
قصرت مهابتها تطاول قيصر

أهدى صلاح الدين للاسلام اذ
أردى قبيل الكفر مالم يكفر

رب الملاحم لم يؤرخ مثلها
العلماء قدما في قديم الاعصر

خلعت عليه خلعة الملك التي
زيدت بهاء بالطراز الاخضر

راياته صفر يردن وتنثني
حمرا تمج نجيع آل الأصفر

لم لم تدن شوس الملوك له وقد
ملك السواحل في ثلاثة أشهر

واستنقذ البيت المقدّس عنوة
من كان ذي نجس بكل مطهر

وأريتهم لما التقى الجمعان بالـ
ـبيت المقدس هول يوم المحشر

ورددت دين الله بعد قطوبه
بالمسجد الأقصى بوجه مسفر

واعدت ما أبداه قبلك فاتحا
عمر فأنت شريكه في المتجر

حتى جمعت لمعشر الاسلام بيـ
ـن الصخرة العظمى وبين المشعر

فلصخرة البيت المقدس كفؤها الـ
ـحجر المفضل عند أفضل معشر

فكأنه انسان عين صورة
يلقاك اسوده بمعنى أنور

فصل

في حصار صور وفتح هونين وغير ذلك

قال العماد: ثم إن السلطان مازال مقيما بظاهر القدس يحقق الآمال، ويفرق الأموال، حتى وردت كتب سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، وكان نائب السلطان بصيدا وبيروت. وهما مجاورتان لصور، فكتب يحرض السلطان على حصار صور، فرحل السلطان عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان، وأخذ صوب عكا وسبقه إليها الأفضل وتقي الدين، وودع السلطان ولده العزيز ورده إلى مصر، فكان آخر عهده به، واستصحب السلطان أخاه العادل، فوصلا إلى عكا مستهل رمضان فأصلح من شأنها، ثم رحل فنزل على صور يوم الجمعة تاسع رمضان وخيم بإزاء السور بعيداً منه على النهر، ومعظم البلد في البحر وهي مدينة حصينة متوسطة في البحر كأنها سفينة، وكان المركيس الذي في صور قد حفر لها خندقاً من البحر إلى البحر، وبنى بواشيره وأحكم في التعمير تدبيره، واستظهر بتكثير العدد والعدد، واغتنم اشتغال السلطان بفتح القدس، فأقام السلطان بتلك المنزلة على صور ثلاثة عشر يوماً حتى تلاحقت الأمداد، وكثرت العدد وآلات الجهاد، ورتبت المنجنيقات، ثم حول السلطان مضاربه إلى تل قريب من السور يشرف منه، ثم حاصرهم وقابل كلا من الملوك بجانب يكفيه منهم الافضل والعادل وتقي الدين فحاصروهم وضايقوهم، ووصل في تلك الأيام من حلب الملك الظاهر غازي ولد السلطان بعسكره الحلبي، فاستظهر السلطان به واستدعى الاسطول المصري، وكان بعكا فجاء منه عشرة شواني، وكان للفرنج في البحر مراكب وحراريق، وفيها رماة الجروخ والزنبوركات يرمون من دنا من البحر، فلما جاء اسطول السلطان استطال عليها وأبعدها، فأحاط بهم المسلمون وقاتلوهم براً وبحراً، فبينما هم في أحلى ظفر واهنأ ورد وصدر، إذ ملك الفرنج خمسة من شواني

المسلمين وأسروا مقدميها ورئيسها عبد السلام المغربي ومتوليه بدران الفاسي، وألقى جماعة أنفسهم في البحر من ناج وهالك، وذلك أنهم سهروا تلك الليلة بازاء مينا صور إلى السحر، ثم غلبهم النوم فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهم ونكبتهم، فأصبح المسلمون وقد انثلموا، وأتاهم من الأمر مالم يعلموا، ونفذ السلطان إلى المراكب الباقية أن يسيروا إلى بيروت، وخاف عليها لقلتها أن يستولي عليها عبدة الطاغوت، فنجا منها شيني رئيس جبيل والباقون نظروا إلى الفرنج وراءهم، فألقوا أنفسهم في الماء وخرجوا إلى البر على وجوههم، ثم إن الفرنج بعد هذا طمعت فخرجت يوماً وقت العصر مستعدة للقتال، فالتقاهم المسلمون فكانت الدائرة على ا لكافرين ، وأسر مقدم كبير لهم، وظن أنه المركيس فسلمه السلطان إلى ولده الظاهر ليحفظه فضرب عنقه، وكان الليل قد دخل فلما أصبحوا تبين لهم أن المركيس بعد في الحياة، فطال حصاره حتى ضجر كثير من أمراء المسلمين لأنهم رأوا مالم يألفوه من تعسر الفتح عليهم، فاشاروا على السطان بالرحيل لئلا تفنى الرجال، وتقل الأموال، وكان البرد قد اشتد عليهم، وكان رأي السلطان والاتقياء من الأمراء كالفقيه عيسى،و حسام الدين طمان، وعز الدين جرديك النوري الثابت الجنان الثبات إلى الفتح لئلا يضيع ماتقدم من الأعمال وإنفاق الأموال، وقال السلطان قد هدمنا السور، وقاربنا الأمور فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا، ولاتعجلوا فاظهروا الموافقة وفي أنفسهم مافيها، فلم يصدقوا القتال، وتعللوا بأن الرجال جرحى والعلوفات قد قلت، فلم يسع السلطان بعد ذلك إلا الرحيل. فأمر بنقل الأثقال فحمل بعضها إلى صيدا وبيروت وأحرق الباقي لئلا يناله العدو، ورحل في آخر شوّال وهو أوّل يوم من كانون الأول. وسار تقي الدين إلى دمشق على طريق هونين. واستصحب معه عساكر الشرق وديار بكر والموصل والجزيرة وسنجار وماردين، ورحل السلطان إلى عكا فوصلها في ثلاث مراحل لأنه سلك طريق الناقورة وهي طريق ضيقة مطلة على البحر بها يضرب

المثل، لا يعبر بها إلا جمل جمل، فعبرت بها الاثقال والاجمال في اسبوع، وكان عين يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها إلى أن يعرفوا عبور الثقل، وخيم السلطان عند التل، وسار العادل إلى مصر، والظاهر إلى حلب وبدر الدين دلدرم الياروقي إلى بلاده.

قال: وفي مدّة رحيل السلطان عن صور جاءه خبر سيف الدين محمود أخي عز الدين جاولي أنه استشهد في عفر بلا تحت حصن كوكب، كبسه الفرنج فيها ليلاً، وذلك أنه كان قد بقي على السلطان بعدما فتح من بلاد العدو من جملة أعمال طبرية والغور حصنا صفد وكوكب، وكان في صفد جمهرة الداوية، وفي كوكب جمهرة الاسبتارية، فاحتاج السلطان في فتحها إلى المطاولة، فوكل بصفد جماعة يعرفون بالناصرية مقدمهم مسعود الصلتي، ووكل بكوكب هذا الامير سيف الدين محموداً، فأقام في حصن عفربلا، وهو قريب من حصن كوكب، ونغص على المقيمن فيها المطعم والمشرب، وضيق عليهم المذهب، إلى أن دخل الشتاء فاختلت الحراسة، واعتلت السياسة، فلما كانت ليلة آخر شوال، وكانت ليلة باردة ماطرة حرس أصحاب سيف الدين حتى ضجروا، فغلبهم النعاس فما استيقظوا إلا وفرنج كوكب عليهم باركة، فدافعوا عن أنفسهم حتى استشهدوا، وأخذ الفرنج غنيمة المسلمين، ودخلوا بها كوكب، وكان هذا الأمير محمود ذا دين متين ومكان من النسك مكين، وهو يسهر أكثر ليله متهجداً، وقد جعل منزله مسجداً، فجمع بين التهجد والجهاد، وكان كثير الاجتهاد، فاغتم السلطان بمصابه، وزاد تألماً إلى مابه.

وتقدّم إلى صارم الدين قايماز النجمي أن يرابط كوكب في خسمائة فارس، ففعل ولم يزل بها إلى أن فتحت كما سيأتي.

قال: وفتحت هونين والسلطان محاصر صور، وكان لما فتح تبنين قد

امتنعت عليه هـونين، فوكل بها من رابطهـا وضايقها حتى طلبـوا الأمان، وجاء خبرها إلى السلطان وهو على صور، فنفـذ الأمير بدر الدين دلدرم، ففتحتها وخـرج الفرنـج منها سـالمين آمنين، وكان بقـي أيضاً مـن عمل صيدا قلعة أبي الحسن وشقيـف أرنون، وأقام السلطان بظاهر عكـا ناظراً في أمـور رعيتــه، ثـم دخلهـا وسكـن بـالقلعـة وسكـن الأفضـل بـرج الداوية،وولى عكـا عز الدين جرديك، ووقـف دار الاسبتار نصفين نصفاً على الفقهـاء، ونصفـاً على الصـوفية، ووقـف دار الاسقـف بيمارستـانـا، ووقف على كل من ذلـك كفايته، وأظهر به عنايتـه، وسلم جميع ذلك إلى قاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب وهو في ذلك مصيب.

- ٨٦١٤ -

فصل

في ورود رسل التهاني من الآفاق وقدوم الرسول العاتب من العراق

قال العماد: ووردت رسل الآفاق من الروم وخراسان والعراق وكلهم يهنىء السلطان بما أفرده الله به من الفضيلة، وأقدره عليه من تجح الوسيلة، وهو فتح القدس الذي درجت على حسرته القرون الأولى، وتقاصرت عنه أيديهم المتطاولة وتمكنت منه يده الطولى، فما منهم إلّا من يعترف بيمنه ويغترف من يمه، ويقر بحكم التنزيل له وينزل على حكمه، ويخطب بصداقته، ويتقرب بالوفاء والوفاق، ويتباعد عن الشقاء والشقاق، فمن جملتهم رسول صاحب الري، ورسول المستولي على ممالك همذان، وأذربيجان، وارّان، فما من يوم يمضي وشهر ينقضي إلا ويصل منهم رسول، ويتصل به رسول.

وذكر العماد في البرق أنه وصل إلى السلطان وهو بعكا رسول أتابك مظفر الدين قزل أرسلان وهو عثمان بن أتابك ايلدكز المستولي على بلاد العجم بعد أخيه البهلوان، ثم ذكر من خرقه في كرمه شيئاً كثيراً، ثم قال: وهذا كله لايكون في بحر سلطاننا جدولاً ، وكان السلطان مذهب المذهب، ظاهر المحفل والموكب، قد خصه الله بالصدر الأرحب والنصر الأغلب، عزمه إلى الجهاد مصروف، وخلقه بالمعروف معروف، وهمه بالسماح مشغوف، مايفتح بالسيف في البلاد يهبه لمن يضرب معه بالسيف في الجهاد، وللخالق تقواه، وللمخلوقين جدواه، وإنما يريد للآخرة دنياه، فلاجرم ختم الله بالحسنى عقباه.

قال: ولم يكن في الملوك السالفة أمضى منه عزماً، وأجدى فضلاً، وأنعم جدوى، وأكمل جهدا في الجهاد، واملك جلدا على الجلاد، فإنه

باشر بنفسه الحرب، ومارس الصعب، وقذف بالحق حين حققه على الباطل فأزهقه، ولاحد ولاعد لما في سبيل الله من نفائس والأموال أنفقه، ومن أول هذا العام إلى منتهاه لم يجف لورده لبد، ولم ينضب من ورده عد ولم يقر له جنب بل لقي في فصلي القيظ والقر مضض الحر وعض البرد، بحر وجهه الكريم، وقضى حق الدين موفيا بصدق غرامه حق الغريم، وكل ماتم من النصر يوم حطين وفتح القدس وتسلم بلاد الساحل، إنما تسنى بشهر سيفه في فصل الصيف وشهوره واستظهاره بظهور الإسلام وشد ظهوره، وأنشد العماد للقاضي الفاضل في وصف أسيافه:

ماضيات على الدوام دوامي
هي في النصر نجدة الاسلام

في يمين السلطان ان جردتها
أشبهها صواعق في غمام

تنثر الهام كالحروف فما أشـ
ـبه هذي السيوف بالاقلام

في محاريب حربه البيض صلت
وركوع الظبى سجود الهام

وذكر من كلامه في التوسط بين الأصدقاء: «ما ادخل بينكم إلا كدخول المرود في الاجفان، يرد إليها ماذهب منها من النور والغمض، أو كالنسيم بين الأغصان يعطف بعضها على بعض».

قال العماد: ووصل أخي تاج الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة برسالة في العتب على أحداث ثقلت، وأحاديث نقلت، ووشايات أثرت، وسعايات في السلطان شعثت، وذلك في شوّال ونحن على حصار صور، وسبب ذلك أنه لما تم الفتح الأكبر، وخص وعم النجح الأظهر، وقطع دابر المشركين، وحط اقبال المسلمين أوزار إدبار الكفر بحطين أمرني السلطان بإفشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البشرى به إلى العراق، فقلت هذا فتح كريم، ومنح من الله عظيم، فلا ينبغي أن يكون

مبشر دار الخلافة بما أنزلـه الله علينا من الرحمة والـرأفة إلا من هو عنـدنا أجل وأجلى، وأعلم وأعلى، وأجمع لفنـون الفضائل، وأعرف بأداء الـرسائل فلا يـرفع العظيم الا بالعظيـم الرفيع، فـإن الشريف يتضع شرفه بمقـارنة الوضيـع، فقال هـذه نصرة مبتكرة، وموهبـة مبشرة، بدرت ونـدرت فنحن نعجـل بها بشيراً، ونؤخـر لـلاجـلال كما ذكر ت سفيراً وكـان في الخدمـة شاب بغـدادي من الأجناد، وقـد هاجر لـلاستزفاد، وتـوجه بعد وصـوله، وتنبـه بعـد خموله، فسـأل في البشـارة إلى بغـداذ، وزعـم أنه يـداوم إليهـا الاغذاذ، وشفع له جماعة من الأكابـر، حتى حظي بأشرف البشائر، فقلت: هذا لايحصل لـه وقع، ولايصل إليه نفع، والواجـب أن يسير في مثل هذا الخطير خطير، ويسفـر في هـذه النصرة الكبرى كبير، ثـم سـار المنـدوب وشغلـت عن ارسـال سـواه الفتـوح والحروب، ولما فتح البيـت المقـدس أرسـل ببشارتـه نجـاب ونفذ بها كتـاب، ووصـل البشير الجندي فحقـروه وماوقـروه، فإنه كان عنـدهم منظوراً بعين الاحتقار، فنظـروه بتلك العين ، وحبـوه بما يليق بـه من الـرقـة والعين، ونقم على السلطـان إرسال مثلـه، وتسمج المنـدوب بكلام أخـذ عليه، وبـدرت منه أحـاديث نسبـت إليه، وقال في سكره وحالـة نكره مانعرض عن ذكره، فخيـل وموّه، وتنكر وتكره وظـن أن لكلامـه أصلاً وللفظـه منا وصـل، وانهيت إلى العـرض الأشرف مقالاته، وعلمت جهـالاته، وتجني على السلطان بإرسالـه، وطرق إلى هداه ماانكروه مـن مقال المذكور وضلالـه، ووجد الاعداء حينئذ إلى السعـاية طريقـاً ، وطلبوا الشمـل استسعادة بالخدمـة تفريقـاً، واختلقوا أضـاليل، ولفقوا أباطيل، وقالوا هذا يزعم أنـه يقلب الدولة، ويغلب الصولة، وأنه ينعـت بـالملك النـاصر، نعـت الإمـام النـاصر، ويـدل بماله مـن القـوة والعساكر، فـاشفق الـديوان العـزيز على السلطـان من هـذه، وبرز الامـر المطاع بارسال أخي وانفاذه، وقالوا: هـذا تاج الدين أخو العماد تكفل لنا في كشـف سر الأمـر بـالمراد، فإن أخـاه هنـاك مطلـع على الاسرار، وهـو منتظـم في سلك الاوليـاء الأبرار، وعـوّل عليه الـديوان في السفـارة ، وورد

معه جواب البشارة، وكتب له يذكره بموجبات مقاصد العتب، ومكدرات موارد القرب، والمخاطبة فيها وإن كانت حسنة خشنة، والمعاتبة مع شدتها للعواطف الامامية لينة، فسار الأخ إلى دمشق، وكان قد عاد المندوب نادباً عادياً، جاحداً للنعمة شاكياً ، وقال: أخو العماد قد وصل بكل عتب وغضب، ولفظ فظ ومعه الملامات المؤلمات، فقلت له: اسكت واصمت، وقلت للسلطان: سمعاً وطاعة لأمر الديوان، فإن اظهار سر العتب لك من غاية الإحسان، فقال: نعم ماقلت، ولما قرب أخي أصبحت لقدومه انتخي فأمر السلطان الامراء على مراتبهم باستقباله، وتقدم الجلالة قدومه بإجلاله، وتلقاه الملوك الحاضرون: العادل.والمظفر. والافضل.والظاهر،ثم ركب وتلقاه بنفسه، وخصه من تقريبه بأنسه، ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار، ومصارع الكفار، ثم نزل وأنزله بالقرب، ثم أحضره وقد أخلى مجلسه لي وله وحده، فأدى الأمانة في مشافهته، ووجه مقاصده في مواجهته، وأحضر التذكرة، وقد جمعت المعرفة والنكرة، فقرأتها عليه وكانت في الكتب غلظة عدت من الكاتب غلطة، وخيلت سقطه، وجلبت سخطه، وقال: إن الإمام أجل من أن يأمر بهذه الالفاظ الفظاظ والاسجاع الغلاظ، فقد أمكن إيداع هذه المعاني في أرق منها لفظاً وأرفق، وأوفى منها فضلاً وأوفق، معاذ الله أن يحبط عملي، ويهبط أملي، وامتعض وارتمض، ثم أعرض عما عرض، ورجع إلى الاستعطاف وانتجع بارق الاستسعاف،و قال : أماما تمحله الأعداء، وعدا به المتمحلون، فما عرف مني إلا الاعتراف بالعارفة، وذكر السلطان أياديه السالفة في الفتوحات، وإقامة الدعوة العباسية بمصر واليمن، وإزالة الادعية وإبادة الأعداء، وفتح البيت المقدس، قال: وأما النعت الذي أفكر ونبه على موضع الخطأ فيه وذكر، فهذا من عهد الإمام المستضيء، والآن كل مايشرّفني به أمير المؤمنين من السمة فإنه اسمى لي من الذي هو اسمي وأشرف، وأرفع وأعرف، وماعزمي إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين، وقطع دابر المنافقين والمشركين، ثم ندب مع أخي

من سار في خدمته لزيارة القدس، ثم ودعه وأودعه من شفاهه كل مافي النفس، وظهرت بعد ذلك بالقبول آثار الرضى، ومضى مامضى، وكان جماعة من الملوك والأمراء كالعادل ومظفر الدين قد وبخوه لما قيل في حقه وأرادوا أن يغضبوه فما غضب بل غاض غيظه ونضب، وتلقى ذلك بصدر رحيب، ولفظ مصيب.

قلت: ووقفت على كتاب كتبه الصاحب قوام الدين بن زيادة من الديوان العزيز ببغداد إلى السلطان صلاح الدين، وكان قوام الدين يومئذ استاذ الدار العزيزة، يقول فيه: «لولا مكان صلاح الدين من الخدمة والشح به، والمنافسة فيه، لما جوهر بالعتاب، ولارفع دونه الحجاب، بل كان يترك معه الأمر على اختلاله، ويدمل الجرح على اعتلاله، وقد ذكرت الأسباب التي أخذها الديوان العزيز عليه واستغرب وقوعها من كماله ليرعيها سمعه الكريم، ويستوري فيها رأيه الأصيل، وينصف في استماعها، والاجابة عنها غير عارج على الجدل ولامؤتم بالمراء المذمومين عقلا وشرعا بل يحمل قولي هذا على سبيل المماحضة والانتصاح وصدق النية في رأب التنائي والاصلاح، فان إيجار الدواء المقر لايتهم فيه الطبيب المجتلب للعافية»

ثم ذكر من تلك الأمور: «أن من انتفى من العراق بسبب من الأسباب، لجأ إلى صلاح الدين فوجد عنده الاقبال عليه، وكان الأدب يوجب إبعاد من أبعد عنه، وتقريب من قرّبه إليه» ثم قال: «وإن مما أضحك بثغر الاستعبار ماانتهى عن العوام وأشباه الانعام وطغام الشام، من الخوض في المذاهب، والانتهاء في التشنيع إلى اختلاف كل كاذب.

ومنها: ماجرى من سيف الاسلام بالحجاز من ازعاج الحجاج، وارهاج تلك الفجاج، والاقدام على مناسك الله وشعائره، وإيقاد سعير الفتنة فيها ونوائره، واحتذاء السيرة القاسطة، واحياء بدع القرامطة،

ومانفر منه كل طبع ، ومجه كل سمع، فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عنان أخيه فيما يقرّض سوابقه وأواخيه.

ومنها: ماقضى الناس منه العجب وفورق فيه الحزم والأدب، وهو ماأوجب التلقب الذي استأثر به أمير المؤمنين»

ثم قال: «وقد ساوق زمان الدولة العباسية ثبتها الله خوارج دوخوا البلاد، وأسرفوا في العناد، وجاسوا خلال الديار، وأخافوا المسالك واستضاموا الممالك، واقتحموا من الشقاق أشق المهالك، فما انتهى أحدهم فيما احتقب وارتكب إلى المشاركة في اللقب، ومن الحكم الذائعة في وجيز الكلام، الذي يصلح للمولى على العبد حرام ومنها مكاتبة كل طرف يتاخم أعمال الديوان من مواطن التركمان والأكراد ومراسلتهم ، ومهاداتهم، وقرع أسماعهم بما يعود باستزلال أقدامهم، وفل عزائمهم، وهم لايعرفون إلا أنهم رعية للعراق، وخول للديوان يرثون الطاعة خالفاً عن سالف»

ثما قال في آخر الكتاب: «وهذا كله لاأقوله انكاراً لجلائل مقامات صلاح الدين، ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المؤمنين، فإنه أدام الله علوه رجل وقته ونسيج وحده، والمربى على من سلف من صنائع الدولة، وعلى من يأتي من بعده، وهو الولي المخلص الذي عهد فوفى، واستكفي فكفى، وطب فشفى، فكيف يجوز له بسعادته أن يهجن مساعيه الغرّ المحجله، ويخرج من مكانته المكرمة المبجلة ويبطل حقوقه الثابتة المسجلة»

ثم قال: «فقد علم كل من نظر في التواريخ والآثار، ونصحته بصيرته في التبصر والاعتبار، أن هذا البيت العظيم مازال يرفع الأقدار الخاملة، فينزون عليه بطراً فيغار الله له منتصراً، ويعقبه عليهم اظفاراً، وظفرا،

كدأب آل طولون، وآل سامان، وآل بويه، وآل سجلوق، (وقروناً بين ذلك كثيراً)(٧٧) ،فمن الـذي زلزلوه فثبـت، ومن الذي حصـدوه فنبت، وأي نار أوقدوها فما خبت » .

ثم قال في آخره: «اللهم قد بلغت، وللـرأي الصلاحي مايزيد علوّه إن شاء الله تعالى».

وذكر ابـن القادسي أن الجنـدي الذي أرسلـه صلاح الـدين بـالبشارة يعرف بـالرشيد بـن البوشنجي، قـال: وكان صبياً كثير الادبـار، مشمراً في دروب بغداد، ثم تـوجه إلى الشام هارباً من الفقـر، فحين وصل إلى بغداد رسولاً قامت القيـامة بمراسلته، وكتب إلى صلاح الديـن بالانكار عليه، وقيل له: أما كـان في أصحابك أميز من هذا ترسله إلى الـديوان، فاعتذر صلاح الديـن، ووصلت كتبه بالاعتـذار، وقبل عذره، وأما ابـن البوشنجي فإنه حين وصولـه إلى الشام أكثر الكلام عند صلاح الديـن، فأنكر عليه، فلما مضى الاسبوع جاءته نشابة فذبحته.

فصل

في باقي حوادث سنة ثلاث وثمانين

فيها قتل الأمير شمس الدين بن المقدّم، وهو محمد بن عبد الملك يوم عرفة بها، قال العماد: وكـان السلطان لما فرغ من فتح القدس ودنـا موسم الحج قال الموفقون: نحرم من المسجـد الأقصى إلى المسجد الحرام، ونفوز بالحج مع إدراك فضيلـة فتح بيت المقدس في هذا العـام، فالحج والجهاد ركنـا الاسلام، فـاجتمع جمع جـم من أهـل ديار بكـر والجزيرة والشـام، وسـار بهم الأمير شمس الـدين بـن المقـدم شيخ أمـراء الاسلام الكـرام، فودّعه السلطان على كره من مفـارقته، واستمهله ليحج في السنة الأخرى على مرافقته، فقال مـامعناه: إن العمر قد فرغ والأمر قـد بلغ والشيب قد أنذر، والفـرض قد أعـذر فاغتنم فـرصة الإمكـان قبل أن يتعـذر، فمضى والسعـادة تقـوده، والشهادة تـروده، حتـى وصـل إلى عـرفات، ومـا عـرف الآفـات، وشاع وصـوله، وذاع قفـوله، وضربـت طبولـه وسالـت سيولـه، وجالـت خيوله، وضربـت خيامه، وخفقـت أعلامه، فلما أصبحـوا نقرت كالعادة نقـاراته، ونعرت بوقاتـه، فغاظ ذلك أمير الحاج العراقـي، فركب إليه في أحزابه فأوقـع به وبأصحابه وأبلاهـم بجراحـه ونهابه، وجرى حكم الله الذي كان الطبل أوكـد اسبابه، وقتل جماعة من حـاج الشام وجرحوا، وهتكت أستـارهم وافتضحوا، ونقـل أمير الحاج طاشتكين شمس الـدين ابن المقدم إلى خيمتـه، وهو مجروح وفيه روح، وحمله معـه إلى منى فقضى ودفن بالمعلى، وتم ذلك بقضاء الله وقـدره في تقلب حوادث الدهر وغيره، وارتاع أمير الحاج بما اجترمـه، وكيف لم يـراقب الله وأحـل حرمـه، وكيف عـدا على الحاج العائذ بـالله وسفـك دمـه، فكتب محضراً على مـااقترحـه بعذره فيما اجترحـه، وألزم اعيان الحاج من سـائر البلاد بوضع خطـوطهم على ماعينه من المراد، فكتبوا مكـرهين غير مشتهين، وكان عذره أنه أنكر عليـه ضرب الطبل فـأبى، فلما انتهـت الحالـة إلى الخليفة أنكـرها انكـاراً

شـديداً، ونسبهـا إلى طيش طـاشتكين، ولم يجد له رأيـاً سديـداً فلا جـرم اتضع عنده قدره، واتضح له وزره، ووهى أمره، وادخرهاله حتى نكبه بها بعـد سنين، وحبسه بها وأطـال سجنه ، ثـم عفا عنـه بعد مـدّة مديـدة، وشدّة شـديدة، وولاه حـرب بلاد خوزستـان وخراجهـا، وولى امارة الحاج غيره، ولما وصل إلى السلطان خبر استشهاد ابـن المقدم وجماعته، لامه على ترك الحزم واضـاعته، فـاحتسبه عند الله غـازياً شهيـداً، ساعيـاً إلى الجنة بقدمه سعيـداً، وأقام ابنه عز الديـن ابراهيم في بلاده، مقامـه، وأقر عليه انعامه.

وقال محمـد بن القادسي في تـاريخه، ونقلته مـن خطه: أراد أمير الحاج بـالشام وهـو ابـن المقدم أن يـرفع علماً على الجبـل بـالموقف فمنعـه أمير الحاج طاشتكين، وجرت بينهما مراجعات أفضت إلى الخصومة، بين حاج العراق وحـاج الشام، ونهب البعـض البعض، وجـرت جراحـات، فجرح ابـن المقدم ولم يغير العـادة في ذلـك، ومات ابـن المقـدم بمنى في اليـوم الثـاني، ووصلت النجـابة مـن مكة فـأخبروا بما جرى مـن أصحاب ابـن المقدم، وقد شهد الشهود بذلك من الحجاج، فقرىء ذلك بجامع القصر الشريف.

قال: وفي ثاني شوّال من هذه السنة تـوفي أبو الفتح محمد بن عبيد الله ابن عبد الله سبط ابن التعاويذي الشاعـر، وكان كاتبا بديوان المقاطعات، وخدم بيت ابن رئيـس الرؤساء وأضر في آخر عمره، ومولـده عاشر رجب سنة تسع عشرة وخمسمائه.

قال: وفي :خامس رمضان توفي الفقيه الحنبلي أبو الفتح نصر بن فتيان ابن مطر المعروف بـابن المنى، وكان فقيها زاهداً صالحاً عـالماً، مولده سنة احـدى وخمسمائة، وتفقه عليـه جماعة مـن أئمة الحنـابلة، كـالحافظ عبـد الغني بن عبد الـواحد بن سرور وأخيه ابراهيم، والشيـخ الموفق عبد الله

- ٨٦٢٣ -

ابن أحمد بن قدامـة، ومحمد بن خلف بن راجح، والنـاصح عبد الرحمن ابن نجـم بن عبد الـوهاب، وعبد الـرزاق بن الشيخ عبـد القادر الجيلي وغيرهم.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين

قال العماد: خرج السلطان من عكا فنزل على كوكب في العشر الأوسط من المحرم، فحاصرها وصابرها أياماً فلم يتمكن منها لمنعتها وحصانتها، ورآها تحتاج إلى طول مصابرة ومرابطة، ولم يكن معه جميع أمرائه وأوليائه، وإنما كان في خواصه، فوكل بها قايماز النجمي، ووكل بصفد طغرل الجاندار، كل واحد منهما في خمسمائة، وسير إلى الكرك والشوبك سعد الدين كمشبه الأسدي، وكانت هذه الحصون الأربعة ضيقة المسلك صعبة المدرك

قال: ثم إن السلطان اشتغل بلقاء الرسل الواصلين، من جملتهم رسول صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين محمد بن قزل أرسلان، وكانوا خائفين على آمد أن يسترجعها منهم السلطان، لأنها كانت لهم من مواهبه كما سبق، فاستوثقوا بالوصلة باحدى بنات العادل، وكان العادل قد وكل أخاه السلطان في ذلك لما سار إلى مصر، وقدم رسولهم في ذلك، فتمت الوصلة بينهما.

قال: وأوّل من وصل والسلطان بكوكب اختيار الدين حسن بن غفراس مدبر دولة قليج أرسلان بالروم، وكان هذا الرسول مغرى بلبس الحلي والديباج والوشي، في يديه زنود، وخواتم مرصعة بزينة ثقيلة بجواهر ويواقيت ثمينة، وفي عقودها درة يتيمة، وفي يده عمود من العسجد، وكل عدّته تبرها مجوهر، وكان إذا شاهده السلطان تبسم وعامله بخلعه، وقال: هذا سافر بنضاره لينظر، وبديناره ليبصر.

وقال القاضي ابن شدّاد: لما دخلت سنة أربع وثمانين، رأى السلطان الاشتغال بأخذ هذه الحصون الباقية التي لهم مما يضعف قلوب من في صور ويهيىء أمرها ، فاشتغل بذلك، ونزل رحمه الله على كوكب في أوائل

المحرم، وكان سبب بداءته بكوكب أنه كان قد جعل حولها جماعة يحفظونها من أن يدخل إليهم قوة أو حماة، فخرج الفرنج ليلاً وأخذوا غرّتهم وكبسوهم بعفربلا، وقتلوا مقدّمهم، وكان من الأمراء يعرف بسيف الدين أخي جاولي، وأخذوا أسلحتهم، فسار رحمه الله من عكا ونزل عليها بمن كان معه من خواصه بعكا، فإنه كان قد أعطى العساكر دستورا، ولقي في طريقه شدّة من الثلج والبرد، فحملت السلطان مع ذلك الحمية على النزول عليها، وأقام يقاتلها مدّة.

قال: وفي تلك المنزلة وصلت إلى خدمته، فإني كنت قد حججت سنة ثلاث وثمانين، وكانت وقعة ابن المقدم، وجرح يوم عرفة على عرفة لخلف جرى بينه وبين أمير الحاج طاشكتين على ضرب الطبول والدبدبة، فان أمير الحاج نهاه عن ذلك فلم ينته ابن المقدّم ، وكان من أكابر أمراء الشام، وكان كثير الغزاة فقدّر الله أنه جرح بعرفة يوم عرفة، ثم حمل إلى منى مجروحا فمات بمنى يوم الخميس يوم عيد الله الأكبر، وصلى عليه في مسجد الخيف في بقية ذلك اليوم، ودفن بالمعلى، وهذا من أتم السعادات، وبلغ ذلك السلطان قدّس الله روحه فشق عليه.

قال: ثم اتفق لي العود من الحج على الشام لقصد القدس وزيارته، والجمع بين زيارة النبي ﷺ وزيارة ابراهيم عليهما الصلاة السلام، فوصلت إلى دمشق، ثم خرجت إلى القدس، فبلغه خبر وصولي فظن أني وصلت من جانب الموصل في حديث فاستحضرني عنده، وبالغ في الاكرام والاحترام، ولما ودعته ذاهبا إلى القدس خرج إليّ بعض خواصه وأبلغني تقدّمه إليّ بأن أعود أمثل في خدمته عند العود من القدس، فظننت أنه يوصيني بمهم إلى الموصل، وانصرفت إلى القدس الشريف يوم رحيله عن كوكب، ورحل رحمه الله لأنه علم أن هذا الحصن لايؤخذ إلا بجمع العساكر عليه، وكان حصنا قوياً، وفيه رجال شداد من بقايا السيف، وميزة عظيمة، فرحل إلى دمشق، وكان دخوله إليها في سادس

ربيع الأوّل ، وفي ذلـك اليوم اتفق دخـولي إلى دمشق عائداً مـن القدس، فـأقام رحمه الله في دمشـق خمسة أيـام، وكان لـه غائبـا عنها أربعـة عشر شهرا.

قال: وفي ذلـك اليوم الخامـس بلغه خبر الفـرنج أنهم قصـدوا جبيل، واغتالـوها فخـرج منزعجا سـاعة بلوغ الخبر، وكـان قد سير إلى العسـاكر ليستدعيهـا من سـائر الجوانب، وسـار يطلب جبيـل، فلما عرف الفـرنج بخروجه كفـوا عن ذلك، وكان بلغـه وصول عماد الدين وعسكـر الموصل ومظفـر الديـن إلى حلب قـاصديـن الخدمـة للغزاة، فسـار نحو حصـن الأكراد في طلـب السـاحـل الفوقـاني ، ولما كان مستهـل ربيع الآخـر نزل على تل قبـالة حصـن الأكراد ، ثـم سير إلى الملك الظـاهر ولـده والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا بتيزين قبالـة انطاكية لحفظ ذلك الجانب، ففعلا وسارت عسـاكر الشرق حتى اجتمعت بخـدمة السلطان في هذه المنـزلة، ووصلت إليـه رحمه الله في هذه المنـزلة فـإنه كـان قد سير إليّ إلى دمشـق يقول تلحقنـا نحو حمص، فخرجـت على عزم المسير الى الموصـل متجهزاً لذلك، فـوصلت إليه امتثالاً لأمره، فلما حضرت عنده فـرح بي وأكرمني ، وكنت قد جمعت لـه كتاباًفي الجهاد بدمشق مدّة مقامـي فيها بجميع آدابه وأحكامه ، فقدّمته بين يديه فأعجبه وكان يلازم مطالعته، ومازلت أطلب دستوراً في كـل وقت وهو يـدافعني عـن ذلك ويستدعينـي للحضور في خـدمته في كـل وقـت، ويبلغني على ألسنـة الحاضريـن ثناؤه عليّ وذكـره إياي بالجميـل ، فأقام في منزلتـه تلك شهر ربيع الآخـر أجمع، وصعد في أثنائه الى حصـن الأكراد وحاصره يـوماً يجسـه به، فما رأى الوقـت يحتمل حصاره ، واجتمعت العسـاكر من الجوانب ، وأغار على بلـد طرابلس في هـذا الشهـر دفعتين ، ودخـل البلاد مغيراً ومختبراً لمن بها مـن العسـاكـر، وتقوية للعساكر بالغنائم، ثم نادى في الناس في أواخر الشهر إنّا داخلون إلى السـاحـل ، وهـو قليـل الأزواد، وهو محيـط بنـا في بـلاده مـن سـائر الجوانب فاحملـوا زاد شهر ، ثم سير إليّ مع الفقيه عيسـى، وكشف لي أنه

ليس في عـزمه أن يمكنني من العـود إلى بلادي، وكان الله تعالى قـد أوقع في قلبي محبته منذ رأيته وحب الجهاد فأجبته إلى ذلك وخدمته من تاريـخ مستهل جمادى الأولى، وهـو يوم دخولـه السـاحـل الأعلى، وجميع ماحكيتـه من قبل إنما هو روايتـي عمن أثق بـه ممن شاهدوه ، ومـن هذا التاريـخ ماأسطر إلاّ ماشـاهدتـه ، أوأخبرني به مـن أثق بـه خبراً يقارب العيان، والله الموفق.

فصل

قال العماد: كان جماعة من أهل الحزم وأولي العزم قد أشاروا على السلطان لما فتح عكا بتخريبها وتعفيه آثارها، وأن يبقى المرابطون المحامون مكانها فلا نأمن عود الفرنج إليها، وتملكها وأن تبنى قلعة القيمون، فكاد يجيب فقيل له هذه مدينة كبيرة، وعمارة كثيرة، وأشير عليه بتبقيتها وأن تعمر وتحصن، فولى أمر عمارتها وتدبيرها الأمير بهاء الدين قراقوش،و هو الذي أدار السور على مصر والقاهرة، فاستدعاه من مصر وأمره أن يستنيب في تلك العمارة، فقدم عليه وهو بكوكب ففوض إليه عمارة عكا، فشرع في تجديد سورها وتعلية أبراجها، وكان قدم من مصر ومعه أساتيذ العمل وأنفاره ودوابه وأبقاره.

قال: ولما رتب السلطان على كوكب رحل مستهل ربيع الأول، ودخل دمشق في سادسه، وكان العسكر الغائب على مواعدة المعاودة في الربيع، وأنه يجتمع على حمص بالجميع، وكان طريق السلطان على بحيرة طبرية من شرقيها، وتجنب عقبه فيق لاستصعاب رقيها، ولما قارب السلطان دمشق تلقاه الناس أحسن لقاء، فقد كانوا متعطشين إلى رؤيته ومتشوقين إلى طلعته، لأنه غاب عنهم سنة وشهرين وخمسة أيام، فكسر فيها الكفر ونصر الإسلام وفتح فيها الأرض المقدسة وأشباهها من البلاد التي كانت بأوضار الكفر منجسه، فأصبحت بالإيمان مؤسسه، فلما استقر قر اره أمر بانشاء الكتب لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد من سائر البلاد، وابتدأ بالجلوس في دار العدل، وبحضرته القضاة والعلماء من أهل الفضل.

قال: وكان السلطان قد ولى دمشق بدر الدين مودود المعروف بالشحنة ، وهو أخو عز الدين فرخشاه لأمه، وفوض إليه في هذه الأيام ولاية الديوان، وكان مع الصفي بن القابض، فبقيت معه الخزانة

وحدهـا، وكان الصفي قدبنـى للسلطان داراً مطلة على الشرفين بـالقلعة، وأنفق عليهـا أموالاً كثيرة، وبالغ في تحبيرهـا وتحسينها، وظن أنها تقـع من السلطان بمكان، فما أعارها طرفاً ولا استحسنهـا، وكانت من جملة ذنوبه عند السلطان التـي أوجبت عزله عن الـديوان، وقال مايصنع بـالدار من يتوقـع الموت، وماخلقنـا إلا للعبادة والسعـي للسعادة، ومـاجئنا دمشـق لنقيم، ومانروم أن لانريم.

قال:ثم هم بـالغزاة فبدأ بزيارة القاضي الفاضـل، وكان مقيماً بجوسق ابن الفـراش بالشرف الأعلى في بستانـه، فاستضاء بـرأيه فيما يريـد فعله، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه، فأقام عنده إلى الظهر، ثم ودعه ورحل.

قلت: ومـا أحسن ماقـال ابن الـذروي في الآراء الفاضلية مـن قصيدة مدحه بها:

لـرأيـك هـذا النصر للـديـن ينتمـي
فـلا ينتحلـه كـل عضـب ولهذم

وإن كـان فيـه لـلأسنـة والظبـى
مسـاعـدة فـالفضـل للمتقـدّم

تشير على الاسـلام منـك فـراسـة
لها حـزم طـب واحتراز منجـم

وتحميـه ألفـاظ لـديـك كـأنها
قـواطـع بتراًونـوافـذ أسهـم

ألا حبـذا فتـح نشرت لـواءه
وقلـت لخيـل الله يـاخيـل أقـدمـي

وقمـت وقـد نـام الأنـام منـاجيـا
بمـولاي نـجّ المسلمين وسلـم

فصل

في دخول السلطان رحمه الله الساحل الآخر وفتح مايسره الله تعالى من بلاده

قال العماد: ثـم رحل السلطان فسلك في جبـل يبوس إلى عين الجر إلى الدلهميـة على البقاع واتـى بعلبك، وخيـم بمرج عـدّوسة، ثـم رحل على سمت اللبوة ثم أتـى الزراعة، ووصل الخبر بوصول عماد الـدين صاحب سنجـار في جموعه وجنـوده ونـزولـه على قدس مـن عمـل حمص على نهر العاصي، ولما تراآى موكبه لموكب السلطـان تقابل القمران وتقارن النيران، واجتمع السعدان وسعـد الجمعان، فخيم السلطان عنـد مخيمه، وسأل أن يزوره السلطان بموكبـه، فأجاب دعوته، ثم رتب السلطـان يوماً لحضوره عنده وتهاديا وتصافيا، وكان أيام المشمـش، وقد وصل من دمشق فأفرح قـدومه، وطلعـت في ابـراج الاطبـاق نجومـه، كـأنها مـن التبر مصوغـه، وبالورس مصبوغـه، صفركأنها ثمر الرايات الناصريـة، حلا منظرا وذوقاً، ولو نظم جوهـره لكان طوقاً كأنما هو خرط من الصنـدل، وخلط با لمندل، وجمد من الثلج والعسـل، وتصاحب هو والسلطان في الـركوب والجلوس والتنـاجـي بما في النفـوس، وتكـرررت المشـاورة في الموضـع الـذي يبتـدأ بقصـده، واتفقـوا على عرقـا وعقـرهـا والنـزول بعقرهـا، وانها إذا ملكـت ملكت طرابلـس فأقاموا بقـدس إلى آخر الشهر حتى اجتمعـت الجموع، ووصلت قبائل العـربان، ثم سار السلطان أوّل ربيع الآخـر، وخيم بقرب حصن الأكراد على البقيعـة، ثم شن الاغارة على نواحي الحصـن وصافيتا والعريمـة وتلك الحصـون، فاستخرج مـافيها مـن المخزون، وفتـح حصن يحمور وسامه الـدمور، ولم تزل الاغارات والغنائم وهم في تلـك المنزلة إلى آخر الشهر، فوصـل قاضي جبلة منصور بن نبيل وجماعـة معه فأشار على السلطـان بقصـدها، وتكفـل بفتحهـا، وفتـح الـلاذقية، وتلـك الحصـون والمعاقـل الشماليـة، وكـانت تلـك البلاد قد سلمهـا إليه ابـرنس أنطـاكية

- ٨٦٣١ -
وعـوّل عليه فيهـا، وقال: إن الاشتغـال بطرابلـس مع احتراسهـا يذهـب الزمان، ويفوّت الامكان، والمسلمون بجبلة مجبولون على التسليم، مؤملون أن يتبدل شقاؤهم منـك بالنعيم، فأصغى السلطان إلى قـوله، وأصفى له ورد طـوله، وكـان قـد وصل إليـه مقـدمو جبـل بهراء، فـوفر لهم رواتبـه وأجرى، فندبوا إلى أتباعهم وكتبوا إلى أشياعهم.

فصل

في فتح انطرطوس

قال العماد: وأجمع السلطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل، فرحل يوم الجمعة رابع جمادى الأولى، فسرنا في أجام مؤتشبه، وآكام معشبه، وحزون وسهول وشعاب وتلول، حتى خرجنا إلى ساحة الساحل، ونزلنا بها وسرنا الساحل الساحل في ثلاث مراحل، حتى وصلنا إلى انطرطوس سادس الشهر فأحدقنا بها من البحر إلى البحر، فأخلى الفرنج البلد وما خرجوا إلى الحصر، واجتمعوا في برجين عظيمين هما لأنطرطوس كالقلعتين، ونقلوا إليهما من الأموال ماقدروا عليه، فحصر مظفر الدين كوكبري أحد البرجين حتى أنزلهم بالأمان، ثم نقبه من أساسه، وألقاه على أم راسه وعجل دماره، ورمى في البحر أحجاره، وملك جميع مافيه، وامتنع البرج الآخر وفيه الداوية وشوكتهم ومقدّمهم الذي أسر يوم حطين، وأطلق لما سلم ماشترط عليه من البلاد، ثم اجتمع بأصحابه في هذا البرج وقوّاه بآلات الحصر، فامتنع فتحه فاشتغل المسلمون بتعفية البلد وإخفائه.

وقال القاضي ابن شدّاد: دخل السلطان الساحل على تعبية لقاء العدوّ، ورتب الأطلاب، وسارت الميمنة أوّلاً ومقدّمها عماد الدين زنكي والقلب في الوسط، والميسرة في الآخر، ومقدّمها مظفر الدين بن زين الدين، وسار على الثقل في وسط العسكر حتى أتى المنزل فبتنا تلك الليلة في بلد العدوّ، ثم رحل في صبيحة السبت. ونزل على العريمة، فلم يقابلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يومه، ورحل يوم الأحد ووصل إلى انطرطوس فوقف قبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاجتياز إلى جبلة، فاستهان بأمرها، فسير من رد الميمنة وأمرها بالنزول على جانب البحر، وأمر الميسرة بالنزول على البحر من الجانب الآخر، فما استتم

نصب الخيم حتى صعد الناس السور، وغنم العسكر جميع من بها ومابها، وخرج الناس والأسرى بأيديهم وأموالهم، وترك الغلمان نصب الخيم، واشتغلوا بالكسب والنهب، ووفى بقوله رحمه الله فإنه كان قد عرض عليه الغداء فقال: نتغدى بأنطرطوس إن شاء الله تعالى. وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً وحضرنا عنده للهنا بما جرى ومد الطعام وحضر الناس وأكلوا على عادتهم ورتب على البرجين الباقيين الحصار فسلم أحدهما إلى مظفر الدين فما زال يحاصره حتى أخربه، وأخذ من كان فيه، وأمر السلطان باخراب سور البلد، وقسمه على الامراء وكان البرج الآخر حصيناً منيعاً مبنياً بالحجر النحيت، وقد اجتمع من كان فيها من الخيالة والمقاتلة فيه، وخندقه فيه الماء، وفيه جروخ كثيرة تجرح الناس عن بعد، فرأى السلطان تأخير حصره والاشتغال بما هو أهم منه، فاشتد في خراب السور حتى أتى عليه، وخرّب البيعة وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج إليها من أقطار بلادهم وأمر بوضع النار في البلد فانحرق جميعه، والأصوات مرتفعة بالتهليل والتكبير، وأقام عليها يخربها إلى رابع عشر الشهر، وسار يريد جبلة، وعرض له ولده الظاهر في اثناء طريق جبلة ومعه العساكر التي كانت بتيزين.

فصل

في فتح جبلة وغيره.

قال القاضي ابن شدّاد: وكان وصول السلطان إلى جبلة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، ومااستتم نزول العسكر حتى أخذ البلد وكان فيه مسلمون مقيمون فيه وقاض يحكم بينهم، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع، وبقيت القلعة ممتنعة ونزل العسكر محدقاً بالبلد وقد دخله المسلمون واشتغل بقتال القلعة، فقوتلت قتالاً يقيم عذراً لمن كان فيها، وسلمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين وسار عنها يطلب اللاذقية.

وقال العماد: بعد فتح انطرطوس وصل إلينا رجال حماة، فرحل السلطان يوم الاثنين رابع عشر الشهر ونزل على مرقيه، وقد أخلاها سكانها فخيم فيها أهل الاسلام وطاب لهم فيها المقام، وكانت الطريق إلى جبلة على الساحل ضيقة المسالك صعبة المراحل، وهناك للفرنج الاسبتار حصن يقال له المرقب، مأهول معمور ولاطريق له إلا تحت تله، واتفق أن طاغية صقلية لما أشجاه ماتم على الفرنج في الساحل جهز أسطولاً يشتمل من الشواني على ستين قطعة يحسب كل واحدة منها قلعة أو تلعه، وقدّم عليها طاغية يقال له المرعريط، فوصل وماضر ولا نفع، فإن فرنج الساحل مارفعوا به رأساً وتضجروا منه وكان في عشرة آلاف رجل يحتاجون إلى ميرة وكلف كبيرة، فسار إلى صور، ثم رجع إلى طرابلس، وتردد في البحر وتلدّد وأبلس، واضطرب أشهراً لايظهر له رأي ولايرى له مظهراً، فلما سمع بعبور عساكر المسلمين على الساحل إلى جبلة جاء بالشواني وصفها على موازاة الطريق، ومباراة المضيق، وفيها الرماة، فأمر السلطان بنقل الجفاني إلى هناك وتصفيفها وتكثير ستائرها، وأجلس الرماة من ورائها فمازال الأمر على ذلك والرماة ترمي وتصمي،

وعامة المسلمين في سلوك ذلك المضيق حتى خفت الأثقال، وعبرت الأحمال، وخلص المسلمون من ذلك الشق بغير مشقة، وجازوا على مدينة يقال لها بانياس، وقد انجلى عنها الناس، فخيم المسلمون فيها، ثم أصبحوا على الرحيل فاعترضهم نهر عريض عميق مافيه طريق، وهو مطرد من الجبل إلى البحر وفيه قنطرة واحدة فتنكبها السلطان بالجحفل، ومضى يميناً إلى الجبل وأبعد حتى عبر فوق رأس العين، واختلطت العساكر بالنهر من الجانبين، وتزاحمت الاثقال على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها، ونزل السلطان قبل وصول الأثقال على بلدة وهي بلدة كاسمها بلدة وهي بليدة من غربي النهر على شاطىء البحر، وجانباها الآخران بخندق فيه البحران، وقد أخلاها أيضاً أهلها، وتفرق شملها، وأصبح السلطان يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى على جبلة فتسلمها المسلمون في الوقت وذلك أن قاضيها كان قد سبق ودخلها، وقرن بالنجح للمسلمين أملها، فلما وصلوها أعلى الأعلام الناصرية على سورها، وخلص المسلمون بها من مساكنة الكفرة، وتحصن الفرنج بحصنيها، واحتموا بقلعتيها، فما زال قاضي جبلة يخوفهم ويرعبهم حتى استنزلهم بشرط أن يسترهنهم إلى أن يردوا من انطاكية رهائن جبلة من المسلمين، فضبط عنده جماعة من رؤوس الفرنج والمقدمين، حتى أعاد صاحب انطاكية الرهائن التي عنده ففك بها رهائنه، وتولى قاضي جبلة الأمر فاستخرج ذخائر الكفر ودفائنه، واستنظفهم من كل سلاح وعدة وخيل وقوّة، وجاء مقدمو الجبل سامعين مطيعين، وفي الجبل على سمت طريق حماة حصن يعرف ببكسرائيل، وكان أهل الجبل استعادوه من الفرنج منذ سنين، فتسلمه السلطان أيضاً منهم، ثم سلم جبلة إلى سابق الدين عثمان صاحب شيزر، وبجل قاضي جبلة وشرفه، وحبس عليه ملكاً نفيساً ووقفه، وصرفه في املاك آبائه وحكمه في ولاية حكمه وقضائه.

فصل

في فتح اللاذقية

قال القاضي ابن شدّاد :وهي بلد مليح خفيف على القلب غير مسوّر، وله مينا مشهور، وله قلعتان متصلتان على تل يشرف على البلد، فنزل السلطان رحمه الله يوم الخميس رابع عشر جمادى الأولى محدقاً بالبلد، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيهما إلا من ناحية البلد، واشتد القتال وعظم الزحف والنزال وارتفعت الأصوات وقوي الضجيج إلى آخر النهار، وأخذ البلد دون القلعتين، وغنم الناس منه غنيمة عظيمة فإنه كان بلد التجار، وفرق بين الناس الليل وهجومه، وأصبح يوم الجمعة مقاتلا مجتهداً في أخذ النقوب من شمالي القلاع، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله على ماحكي لي من ذرعه عشرين ذراعاً عرضه أربعة أذرع، فاشتد الزحف عليه حتى صعد الناس الجبل وقاربوا السور، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بحجارة اليد، فلما رأى عدوّ الله ماحل به من الصغار والبوار استغاثوا بطلب الأمان، وطلبوا قاضي جبلة يدخل إليهم ليقرّر لهم قاعدة الأمان، فأجيبوا إلى ذلك وكان السلطان رحمه الله متى طلب منه الأمان لايبخل به، فعاد الناس عنهم إلى خيامهم وقد أخذ منهم التعب، فباتوا إلى صبيحة السبت، ودخل قاضي جبلة إليهم واستقر الحال معهم على أنهم يطلقون بأنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم، خلا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب، وأطلق لهم دواب يركبونها إلى مأمنهم، ورقى عليهم العلم الإسلامي المنصور في بقية يوم السبت، وأقمنا عليها يوم الأحد سابع عشر جمادى الأولى.

وقال العماد:رحل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الأولى، فبات بالقرب منها، وصبحناها يوم الخميس وقد لاذ

أهلها بقلاعها، وهي ثلاث قلاع متلاصقات، على طول التل متناسقات، كأنهن على رأس جبل راسخ وذروة أشم شامخ، فسهل لنا فرعها، وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها، فطلبوا السنجق الناصري ونصبوه على السور عشية يوم الجمعة، فلما أصبحوا صعد إليهم قاضي جبلة وأنزلهم بالامان، وتسلمت تلك القلاع بما فيها من عدّة وذخيره وأسلحة وميره، وخيل ودواب كثيرة، وامنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم وذريتهم وأطفالهم، وخفوا من أثقالهم، ودخل جماعة منهم في عقد الذمة، وتمسكوا بحبل العصمة، وانتقل الباقون إلى أنطاكية، ثم ولى السلطان بها مملوكه سنقر الخلاطي، وركب السلطان إلى البلد وطافه، وهز إلى إحسانه أعطافه وأمنه بعد ماأخافه.

قال: ورأيته بلدة واسعة الأفنية، جامعة الأبنية متناسقة المغاني ومتناسبة المعاني في كل دار بستان، وفي كل قطر بنيان، أمكنتها مخرّمة، وأروقتها مرخمة، وعقودها محكمة، ومساكنها مهندسة مهندمة وصفوفها عالية وقطوفها دانية، وأسواقها قصية، وآفاقها مضية، وارجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة، لكن العسكر شعث عمارتها، واذهب نضارتها، ووقع من عدّة من الأمراء الزحام على الرخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام، فشوهوا وجوه الأماكن، ومحوا سنا المحاسن.

قال: وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نفيسة قديمة، باجزاء الأجزاع مرصعة، وبألوان الرخام مجزعه، وأجناس تصاويرها متنوعة، وأصول تماثيلها متفرعة، وهي متوازية الزوايا متوازنة البنايا، قد تحيرت بها أشباح الأشباه، وصوّرت فيها أمواج الأمواه، وزينت لأخوان الشيطان، وعينت لعبدة الأوثان والصلبان،و لما دخلها الناس أخرجوا رخامها، وشوّهوا أعلامها، وجروا لثامها وكسروا أجرامها، وأهدوا الأسى لهد أساسها، وأفاضوا عليها لباس إبلاسها، وحكموا بعد الغنى بإفلاسها، فافتقرت وأقفرت، وخربت وتربت، ثم لما طابت النفوس، وتجلى عن البلد بفتحه

البؤس، عـاد إلى هذه الكنيسة بالأمـان القسوس،، وهي متشوهـة متشعثه متمسكة بأركانها وبقواعدها متشبثة.

قـال: ولقد كثـر أسفـي على تلـك العمارات كيف زالـت، وعلى تلـك الحالات الحاليات كيف حـالت، ولكنما زاد سروري بأنها عادت لـلاسلام مرابـع، ولشموسـه مطالـع، فلو بقيـت بحليتها وحبالتها بعـدما تبـدلت رشدهـا من ضـلالتها لشاقـت وراقت، وكما أفاقـت فاقـت، ورغب في أعطاء الجزيـة سكان البلـد من النصـارى والأرمن حبـاً للوطـن، ولما أراد السلطـان الرحيـل دخـل المدينـة ورد إلى سكانها السكينـة، ودار خـلال ديارهـا، وخرق أسـواقها في سـائر أقطارهـا، ووقف على البحـر للنظر إلى موانيهـا وشوانيها، وأقـاصيها وأدانيهـا، وشكر الله على تمكينه مـن ملكها وتخصيصه بملكها.

وفي كتاب عمادي إلى سيف الاسلام باليمن عن السلطان قال: «وهذه الـلاذقيـة مدينـة واسعـة، وخطـة جامعـة، معـاقلهـا لاترام، واعـلاقهـا لاتستام، وهـي أحسن بلاد السـاحل وأحصنهـا، وأزيدها أعمالاً وضيـاعاً وأزينها، ومـافي البحر مثـل ميناهـا، ولا للمراكـب الواردة مثـل مرسـاها، وهي جنـة كان يسكنها أهل الجحيـم، وطالما مكثت بالكفـر دار بؤس، فعادت بالاسلام دار نعيم»

قال: وكـانت شـواني صقلية قد قـابلت في البحـر اللاذقيـة، طمعاً في امتناعها، فلما خابت خبت نارهـا، وقصدت لجهلها أخذ مركب من يخرج من أهلهـا حنقاً عليهم كيف سلمـوا البلدة وسمحوا ببذلها، فكـان ذلك مقتضياً لبقـاء ساكنيها بالجزيـة تؤديها، ولما وقف السلطان على شـاطىء البحر بعساكره، طلب مقدم تلك الشواني أمانه ليصعد ويشاهد سلطانه، فـأمنه فصعـد وعفر وكفـر، وتـروى ساعـة وتفكـر، وقال مـامعناه :أنـت سلطـان عظيـم، وملك رحيـم، وقـد شـاع عـدلك وذاع فضلـك، وقهـر

سلطـانك، وظهـر احسـانك، فلـو مننـت على هذه الطـائفـة الساحليـة الخائفـة، لملكت قيـادهـا إذا أعـدت إليها بـلادهـا، وصـاروا لك عبيـداً وأطاعـوك قريبـاً وبعيداً ، وإلا جـاءك من وراء البحـار في عدد الأمـواج أفواج بعـد أفواج، وسار إليـك ملوك ذوي الاقاليـم من سائر الاقـانيم، وهؤلاء أهون منهـم فاتركهم واصفح عنهـم، فقال له السلطان: قـد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قـائمون في طاعته بالفـرض، وعلينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يقدرنا على فتـح البلاد، ولو اجتمع علينا أهل الأرض ذات الطول والعرض، لتوكلنا على الله في اللقـاء، ولم نبال باعداد الأعداء، فصلب على وجهه وركب بكربه، ولم يغن خطابه عن خطبه.

فصل

في فتح صهيون وغيرها

قال القاضي ابن شداد: رحل السلطان عن اللاذقية ظهيرة الأحد السابع والعشرين من جمادى الأولى طالباً صهيون، فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع ، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بكرة الأربعاء، ونصب عليها ستة مجانيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل خنادقها أودية هائلة واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً ولايبلغ. وهو نقر في حجر ولها ثلاثة أسوار سوران دون ربضها وسور دون القلعة، وسور القلعة وكان على قلعتها علم طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدته وقد وقع فاستبشر بذلك المسلمون، وعلموا أنه النصر والفتح المبين، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضر بها منجنيق ولده الملك الظاهر، وكان نصبه قبالة جهة قريبة من سورها قاطع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة جيدة عظيمة تمكن الصاعدَ في السور من الترقي إليه منها.

ولما كان يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، عزم السلطان على الزحف، وركب وتقدّم وتواترت المنجنيقات بالضرب، وارتفعت الاصوات وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل، وماكان إلا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الربض، واشتدّ الزحف وعظم الأمر وهجم المسلمون الربض، ولقد كنت أشاهد الناس وهم يأخذون القدر وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها، وهم يقاتلون القلعة، وانضم من كان في الربض إلى القلعة بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم، ونهب الباقي، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان، فأمنهم

السلطان على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم، ويأخذ عن الرجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير ديناران، فسلمت القلعة و أقام السلطان حتى تسلم عدة قلاع كالعيد وبلاطنس وغيرهما من القلاع والحصون، تسلمها النواب فإنها كانت تتعلق بصهيون.

وقال العماد: كان الطر يق إلى صهيون في أودية وشعاب، ومنافذ صعاب، وأوعاث وأوعار، وانجاد وأغوار، فقطعنا تلك الطريق في يومين ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء وهي قلعة على ذروة جبل بين واديين عميقين يلتقيان عليها، ويدوران حواليها، والجانب الجبلي مقطوع منه بخندق عظيم عميق وسور وثيق ماإليه لسوى القضاء والقدر من طريق، والقلعة ذات أسوار خمسة، كأنها خمس هضاب ممتلئة بذئاب سغاب وأسد غضاب، وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع وهي ممتنعة علينا بالركن الأمنع، والسمّو الأمتع، ونقل السلطان خيمته إلى جانب الجبل وأقام الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين، ونهج بهما من جانب الوادي إلى ردّ الاعادي طريقين، وكان له بفتح هذه القلعة الجد العالي، والجد المتوالي فإنه اتصل بنا قبل الوصول إلى جبلة من طريق حماة، وقد استصحب الكماة الحماة، ومعه الرجال الحلبية، والمنجنيقية والجرخيه والجانداريه والخراسانية، واستصحب الحجارين والحدّادين والنجارين، فأظهر على صهيون اليد البيضاء، وأنار في الفضائل واضاء، وكان نازلاً على جانب الوادي مقابل الحصن، وشرع الجدار في الانقضاض، وأصبحنا يوم الخميس و للجلاميد وقوع، وللسور سجود وركوع، ومازالت المجانيق من جانبه وجانبنا ترمي والحنايا سهام المنايا تصمي حتى قتل وجرح أكثر مقاتلة الحصن، وهان بهادب فيه من الوهن، وأصبحنا يوم الجمعة ثاني جمادى الآخرة، وبحر الحرب في أمواجه الزاخرة، وتطرق أصحابنا من قرنة خفيت عليهم من الخندق لم تحكم عمارتها، كأن الله أعماهم عنها حتى

يسلك الحتف إليهم منها، فتعلقوا في الصخور، وتسلقوا السور، وملكوا عليهم ثلاثة أسوار، واحتووا على كل مافيها من ذخائر وغلال، ودواب وأبقار، وازدحم الفرنج في القلة، وتفادوا من الخوف لا من القلة، وصاحوا الأمان، وبذلوا الإذعان، ونادوا: مكنونا من السلامة، وتسلموا المكان، فما امنوا على المال والنفس، حتى قرّرنا عليهم مثل قطيعة القدس، وأغلقت دونهم الأبواب، وسيرت إليهم النوّاب، وما استقرّ خروجهم حتى استخرج القرار وجبي الدرهم والدينار، وعم الصغار الكبار والصغار، وتولى ذلك شجاع الدين طغرل الجاندرا، ثم سلم حصن صهيون بجميع أعماله وسائر ماحواه من ذخائره وأمواله إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين صاحب بوقبيس، فأحكمه وحصنه، وحفظه وحسنه وتسلم يوم السبت قلعة العيد، ويوم الأحد قلعة الجماهيريين، ويوم الاثنين، حصن بلاطنس، وندب إلى كل حصن من تسلمه وسلكه في سلك الفتوح ونظمه.

قال: وبفتح صهيون حصل الأمن على اللاذقية، وقوى الأمل في فتح انطاكية، فإنه قفل محكم على بابها، وسبب قوي من أسبابها، ففتح الرتاج، ووضح المنهاج.

فصل

في فتح بكاس والشغر والسرمانية

قال القاضي ابن شدّاد: ثم رحل السلطان وسرنا حتى أتينا بكاس، وهي قلعة حصينة على جانب العاصي، ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول بذلك المنزل على شاطىء العاصي يوم الثلاثاء سادس جمادى الآخرة، وصعد السلطان جريدة إلى القلعة وهي على جبل مطل على العاصي فأحدق بها من كل جانب، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزحف المضايق إلى يوم الجمعة أيضاً تاسع جمادى الآخرة، ويسر الله فتحها عنوة، وأسر من فيها بعد قتل من قتل منهم وغنم جميع ماكان فيها، وكان لها قليعة تسمى الشغر قريبة منها يعبر إليها منها بجسر، وهي في غاية المنعة ليس إليها طريق، فسلطت عليها المنجنيقات من سائر الجوانب، ورأوا أنهم لاناصر لهم، فطلبوا الأمان، وذلك في يوم الثلاثاء ثالث عشره، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان من بأنطاكية، يسر الله فتحها، فأذن في ذلك ، وكان تمام فتحها، وصعود العلم السلطاني على قلعتها يوم الجمعة سادس عشرة، ثم عاد السلطان إلى الثقل، وسير ولده الظاهر إلى قلعة تسمى سرمانية يوم السبت سابع عشرة فقاتلها قتالاً شديداً وضايقها مضايقة عظيمة وتسلمها أيضاً يوم الجمعة ثالث عشرة الشهر المذكور.

قال: فاتفق فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية في أيام الجمع، وهو علامة قبول دعاء خطباء المسلمين، وسعادة السلطان، حيث يسر الله له الفتوح في اليوم الذي يضاعف فيه ثواب الحسنات. قال: وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية لم يتفق مثلها في تاريخ. .

وقال العماد: سار السلطان ثاني يوم فتح صهيون على سمت القرشية

ونزل على العاصي في طاعة الله على تل كشفهان، فتسلم حصن بكاس يوم الجمعة تاسع الشهر، وحوّل خيمة خفيفة إلى الجبل لحصار قلعة الشغر، وهي تلة شامخة من أعلى التلل مطلة على واد عميق، وكان الكفار قد أخلوا بكاس من الرعب واجتمعوا بقلعة الشغر، وهي عالية حصينة منيعة لاتصل المجانيق إليها، فاستصعب السلطان أخذها وخاف من طول أمرها، فبينما هو مفكر في ذلك والفرنج قد داخلهم الرعب، فارسلوا في طلب الأمان واستمهلوا ثلاثة أيام، فكبر المسلمون وفرحوا وأصبحوا يوم الجمعة والشغر شاغر، والكفر صاغر ، فتسلمها المسلمون وتصرفوا فيها وفيما تحويه من ذخائر وعدد ودواب وانعام، وأنعم السلطان بها وبقلعة بكاس، وتلك الاعمال على غرس الدين قليج، وكان هذا قليج قد تسلم كفر دبين، وهو معقل حصين يسكنه الأرمن في ذلك الصقع، وبذل في استخلاصه غاية الوسع، فولاه السلطان تلك الحصون، وحاط بإيالته أمرها المصون، وعاد إلى مخيمه يوم السبت، وهو حسن السمت، كريم النعت.

قال: وكان الملك الظاهر عند اشتغالنا بفتح قلعة الشغر، قد نزل على سرمانية مضايقا لها بالحصر فتسلمها يوم الجمعة ثالث عشري الشهر، وذلك بعد قطيعة قررها وقبضها، ولما أخرجهم منها دخلها فأبطل عمارتها وعطلها وهدم بنيانها، وهدّ أركانها، ومابرح حتى سواها بالأرض، وخلط طولها بالعرض.

قال: وهذه ست مدن وقلاع فتحت في ست جمع تباع: جبلة واللاذقية وصهيون وبكاس والشغر وسرمانية. وأطلق بها الأنفس والنفائس العانية، فقد كان في هذه المعاقل من أسارى المسلمين عدّة، لولا فتحها لما زالت عنهم تلك الشدّة، وهذا اقليم جبلة واللاذقية، هو عين انطاكية التي فقئت، ونحرها الذي عنه حلئت، ولم يبق لأنطاكية

- ٨٦٤٥ -

مـن الحصون سـوى ثلاثـة: القصير، وبغراس، ودربسـاك، وقد أصبحـت معدومة الأطراف،قد قطعت أيديها وأرجلها من خلاف.

فصل

في فتح حصن برزيه

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان جريدة إلى قلعة برزيه، وهي قلعة حصينة في غاية القوّة والمنعة على سن جبل شاهق يضرب بها المثل في جميع بلاد الفرنج والمسلمين، يحيط بها أودية من سائر جوانبها، وذرع علو قلتها، فكان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً ثم حرر عزمه على حصارها بعد رؤيتها، واستدعى الثقل فنزل تحت جبلها، وفي بكرة الأحد الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها، وركب القتال عليها، من كل جانب وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين فقسم العسكر ثلاثة أقسام، رتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار، ثم يستريح ويتسلم القتال الشطر الآخر، بحيث لايفتر القتال عنها أصلاً وكان صاحب النوبة الأولى عماد الدين صاحب سنجار، فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته وضرس الناس من القتال وتراجعوا عنه، وتسلم النوبة الثانية السلطان بنفسه، وركب وتحرك عدّة خطوات وصاح في الناس فحملوا حملة الرجل الواحد، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وقصدوا السور من كل جانب فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقى الناس على الأسوار، وهجموا القلعة وأخذت عنوة، واستغاثوا الأمان وقد ملئت الأيدي منهم (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا)(٧٨) ونهب جميع ماكان فيها، وأسر جميع من كان بها، وكان قد أوى إليها خلق عظيم، وكانت من قلاعهم المذكورة، وحصونهم المشهورة، وكان يوماً عظيماً ، وعاد الناس إلى خيامهم غانمين، وعاد السلطان إلى الثقل وأحضر بين يديه صاحب القلعة، وكان رجلاً كبيراً

منهم فكان هو ومن أخذ من أهله سبعة عشر نفساً، فمن عليهم السلطان ورق لهم، وأنفذهم إلى صاحب انطاكية استمالة له، فإنهم كانوا يتعلقون به زمن أهله.

وقال العماد: وصف للسلطان قلعة برزيه، وأنها لحصن أفامية متاخمة، وله مناصفة مقاسمه، وأن المسلمين من جوارها في جور وفي حور بعد كور ، ووصفوا علوها، فركب السلطان إليها وأشرف عليها فألفاها كما وصفوها، وبالغوا فيها وماانصفوها، فنصب عليها المجانيق فوقعت أحجارها دونها، ولم يتحرك سكونها، وكيف تهدّد الخنساء بصخر، والعنقاء بصقر، وحجر الجبل بحجر ، ومدار الفلك بمدر. فلما رأى السلطان ذلك قوي رأيه على أن يفرق العسكر ثلاث فرق، ويتناوبون على قتالهم زحفاً ليتعبوهم ويضجروهم فإنهم عدد محصور عما قليل تفنى عدّتهم، وتفل عدّتهم، ففعل ذلك وكانت النوبة الأولى لصاحب سنجار، والثانية للسلطان وخواصه،ثم امتزجت الثالثة بالثانية، وعادت رجال النوبة الأولى وتناصرت أنصار الله على النزال لاستنزال النصر، واحمدوا عاقبة الصبر في الحصر، فطلب العدوّ الأمان، وأرسلوا إلى السلطان، وكان أصحابنا خالطوهم وباسطوهم وأحاطوا بهم، وهناك جماعة من دهاة العسكر أشاعوا للناس أن السلطان يؤمنهم، فرجع العالم عنهم ولم ينالوا منهم، فلما ردّ السلطان رسولهم ولم يؤمنهم ساقوا أولئك السبايا قدامهم كما يسوقون أغنامهم، وخانوا اخوانهم، وراموا حرمانهم، وتفرقوا بالسبى أيدي سبأ، وسافروا بها من العسكر إلى البلاد وباعوها في سوق الكساد، وتسلم السلطان حصن برزيه ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وولاه الأمير عز الدين ابراهيم بن الامير شمس الدين محمد بن المقدّم، وهو صاحب حصن أفامية مناظر برزيه، وهو على الثغر وما بين الاثنين بحيرة تحجز الجانبين، وصيادوها المسلمون بأفامية، فخلص للاسلام الثغر وسكن الدهر.

قال: وكانت صاحبة حصن برزيه زوجة الابرنس صاحب أنطاكية، وقد سبيت وخبيت، فما زال يطلبها حتى أظهروها وأحضروها، وزوجها وابنة لها، وبجماعة من أصحابها، وصهرها، وكانت امرأة ابرنس انطاكية، تعرف بدام سبيل في موالاة السلطان عيناله على العدو، تهاديه وتناصحه وتطلعه على أسرارهم والسلطان يكرمها لذلك ويهدي إليها أنفس الهدايا، فلما فتح حصن برزيه وحصل في أسره هذه الجماعة، وافترقت بهم أيدي المسلمين تتبعهم السلطان وخلصهم من الأسر، وأنعم عليهم وجهزهم وسيرهم إلى انطاكية لأجل امرأة الابرنس، فشكرته على ذلك ودامت مودّتها ونفعها للمسلمين.

وفي بعض كتب البشائر العمادية: «آخر مافتحناه حصن برزيه الذي تضرب بحصانته الأمثال، ولاترقى إلى ذروة تمنيه الآمال، وقد أخذناه بالسيف عنوة، وفتحناه ضحوه، فيالها من ضحوة ليوم الثلاثاء أظلمت على أهل التثليث، والهى الله المؤمنين عن ذكر الفتوح القديمة بحديث هذا الفتح الحديث، ولو وكلنا الله إلى اجتهادنا في الفتح لتعذر، ولكنه سبحانه سهل ويسر»

ومن كتاب فاضلي إلى السلطان: «وصلت كتب البشارة بفتح حصن برزيه وهو الذي تضرب به الأمثال، وتضرب عنه الآمال، ويكاد يحزن إذا قادت أيدي السلاسل أزمة الجبال، ويكاد يذم ساكنيه من خطرات الأوجال، بل من خطوات الآجال، وكان للكفر درعاً حصينة طالما كانت تهزأ بالنصال فعظمت المنة السلطانية عند أهل الإسلام، ودعوا بأن يفلج الله حجة سيفه الد الخصام، وقد كان الناس يعدّون مواهبه ممالاتحصى، فقد تحققت بها فتوحاته فهي أيضاً لاتحصر، فمرحباً بفتوح يقول غائبها: الحمد لله،وحاضرها: الله أكبر، ومابقي المملوك يستبطىء خبر أنطاكية، فقد ألقت الأرض افلاذها، وقد ولدت لكرمه ذهبها، ولنصره فولاذها، ولم نر في نعم الله مثلها نعمة كريمة وجيهه، ولانعرف

بعدها للزمن سيئة ولاكريهة، إلا أنا نرجع في معرفة قدرها واخلاص شكرها إلى مارضيه الله شكراً ممن نجاه من أهوال يوم القيامة، وأدخله دار المقامة، بأنهم قالوا: (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن)(٧٦) (الحمد لله الذي صدقنا وعده)(٨٠) (الحمد لله الذي هدانا لهذا)(٨١) (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين)(٨٢) فرضي بالحمد منهم، ورضي عنهم، وأثنى عليهم بأنهم اختتموا به، وافتتحوا، وقدّسوا به وسحبوا، وثقلت به موازين أعمالهم،فرجحوا ونجحوا، ونحن نقول: الحمد لله على بهجة الدنيا بمولانا ونضرتها، وعلى عزة الملة به ونصرتها، وعلى بهجة القلوب به ومسرتها، وعلى غنى الأيدي به وميرتها، وعلى روعة قلوب الأعداء به وحسرتها (وإن تُعدوا نعمة الله لاتحصوها)(٨٣) وفتوح مولانا من تلك النعم، وإن قصرنا في شكرها فما نقصر في ذكرها، وإن عجزنا عن حصرها، فما نعجز عن المعرفة بفضل قدرها، وتلك النعم بحمد الله منتظمة العقود، مطردة السعود، متوافية الرسل، عامرة السبل خارقة العوائد قارنة المساعي بالمساعد، كادت العيون قبل وقوعها تلحظها، وكادت المنابر لما يدرس عليها من كتبها تحفظها، فما يشرح صدر من خبرها، فيسمعه ذو صدر إلا إنشرح، ومايسأل الناس هل فتح الملك الناصر، وإنما يقال ماسم البلد الذي فتح؟ فمن عند مولانا الجنان، ومن عندنا اللسان، وعليه الجهد، وعلينا الحمد، فهي فتوح كثمرات الجنة، لامقطوعة ولاممنوعة، وأعمالها المبرورة إلى الله مرفوعة.

ومن قصيدة للشهاب فتيان الشاغوري وقد تقدم بعضها:

لما ملكت حصون انطاكية
يئس الصليب وحزبه من مظهر

أرديت كل مثلث متكبر
بموحد متواضع ومكبر

برزت إلى برزيه عزمتك التي
مدّت يداً عن مطلب لم يقصر

- ٨٦٥٠ -

فتنــــاولتــــه بــــأيــــدهـــــا مـــن بــــاذخ
في الافـــــق ذي مثــــــل يــــــروع مسير

فـــانهض لصـــور فهـــي أحســـن صـــورة
في هيكــــل الــــدنيــــا بــــدت لمصـــوّر

مـــاســـور صـــور عـــاصـــم منـــه وهـــل
ســـور المعـــاصـــم عـــاصـــم لمســـوّر

-٨٦٥١-

فصل

في فتح حصن دربساك

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار السلطان حتى أتى جسر الحديد وأقام عليه أياماً وسار حتى نزل على دربساك يوم الجمعة ثامن شهر رجب، وهي قلعة منيعة قريبة من أنطاكية، يسر الله فتحها، فنزل عليها وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات، وضايقها مضايقة عظيمة وأخذ النقب تحت برج منها، وتمكن النقب منه حتى وقع وحموه بالرجال والمقاتلة، ووقف في الثغرة رجال يحمونها عمن يصعد فيها. قال: ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين، واشتد الأمر حتى طلبوا الأمان واشترطوا مراجعة أنطاكية، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لاغير، ورقي عليهم العلم الإسلامي يوم الجمعة أيضاً ثاني عشر رجب، وأعطاها علم الدين سليمان بن جندر، وسار عنها من الغد بكرة السبت.

وقال العماد: ثم عبر نهر العاصي إلى شرقيه عند شقيف دركوش، وهو ثغر على الغزاة للإسلام منيع، فجزناه وخيمنا على جسر الحديد أياما، حتى استكمل العسكر راحاته وتكامل ونحن بقرب انطاكية، وقد صوّبنا إليها عزائمنا الناكية، ثم قلنا قدامها حصون وحماها بحمايتها مصون، فإذا ذهبت معاقلها، جاءتها غوائلها، فنزلنا على دربساك، وهو حصن للداوية وقد اعتصموا بعصمته، وامتنعوا بمنعته، فنصبنا عليه المنجنيقات، فما زالوا يجالدون ويتجلدون إلى أن ضاق بهم الخناق، وتسلق النقابون إلى الباشورة وهدوا بالنقب برجاً، ووسعوا للزحف نهجاً فطلبوا الأمان وفدوا أنفسهم بألوف فأومنوا على أنهم يخرجون بهوانهم، وثياب أبدانهم، ويدعون كل مافي الحصن من خيل وعدّة وذخيرة وغله

واثاث وقماش وذهب وفضة، وأمهلوا ثلاثة أيـام، ثم أخرجوا من ديارهم، وتسلم الحصن يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب.

في بعض الكتب العمادية: «هذه المكاتبة مبشرة بالفتح الأهنى والنصر الأسنى، وهو فتح دربساك الذي لم يكـن لأنطاكية إلا به الامتساك، وقد قص الآن جناحها، وقل سلاحها، وحـق قرحها وبطل اقتراحها، وخرجت بـاخراج حصـونها مـن ولايتهـا أرواحها، وقـد بقيـت غـرضاً للعسكـر، وعرضا بلا جوهر، وشبحاً بغير روح، وصدراً غير مشروح، والكفر مفجوع بـالنفس والبلـد، والأمل والـولد، ونحـن لاراحة لنـا إلا في هذا التعـب، ولاأرب لنا في غير هـذا الأرب، ولااجتهاد لنا إلا في الجهاد، ولامغـزى لنا غير الغزاة، ومانـرجو من الله إلا انجاز العدات في جميـع العداة، أصبحنا يوم الثلاثاء وقد ساء صباح المثلثين، وبـان صباح الموحدين وأبينا أمانهم إلا أن يفـدوا نفوسهـم، وينـزعـوا من الحرب لبـوسهـم، ويخلعـوا بأسهـم ويلبسوا بوسهـم، وينجوا بثياب أبدانهم، وقد أدّوا خمسـة آلاف دينار من أثمانهم.

فصل

في فتح بغراس

قال القاضي ابن شـدّاد: وهي أيضاً قلعة منيعة أقرب إلى انطـاكية من دربسـاك، وكـانـت كثيرة العـدة والرجـال، فنـزل العسكـر في مـرج لها، وأحدق العسكر بها جريدة، مع أنا احتجنـا في تلك المنزلة إلى يزك يحفظ من جانـب أنطاكية، لئلا يخرج منها من يهجـم على العسكر، فضرب يزك الإسلام على باب أنطاكية، بحيث لايشذ عنه من يخرج منها.

قـال: وأنا ممـن كـان في اليـزك في بعض الأيـام، لـرؤيـة البلد وزيـارة حبيب النجـار المدفون فيه عليـه السلام. ولم نزل نقـاتل بغراس مقـاتلة شديدة حتـى طلبوا الأمان. على استئذان أنطاكية، ورقـي العلم السلطاني عليها في ثاني شعبان.

وقـال العماد: ولما فتحـت دربسـاك لم يبـق لنـا همة إلا بغـراس، وقـد شارف رجـاء أكثر النـاس في فتحه اليـاس، وهو حصـن حصين، ومكان مكين، هو للداويـة وجار ضباعها، وغـاب سباعها، وهو بقـرب أنطاكية حصارها وحصاره سواء، ومالـدواء داويته دواء فنزل العسكر بين أنطاكية وبينه، يتقاضون منهما للدين دينـه، ويشنون الغارات، ويسنون النكايات، ولايبرحون بـازاء أنطاكية صفـا يرمون، لأهلهـا فتحا وحتفاً يتنـاوبون على سبيل اليـزك، ويدعـون العدا إلى المعترك، وليـس بينهما إلا النهر، فصعـد السلطان جريدة إلى الجبل، وأمر بنصـب المجانيق حولها على تلك التلل، ونقـل إليها أحـواض الماء ورواياه، وبـث في النواحـي سراياه، وفـرق على الجميع عطـاياه، وأقمنـا عليه اسبـوعاً نجـري إليه مـن كل منجنيـق من فيـض الحجارة ينبـوعاً، ونحـن نفكر فيما يكـون، ومتى تتـم الحركة وفيـم السكون، وهـذا بيكار يطـول، وتعب لايزول، إذ رأينـا باب الحصـن وقد

فتح وخـرج من الحصـن من أخـذ الامان لأهلـه، وسلم الحصـن بما فيه مـن الأموال، وقـدّر مـافيـه من الغلـة تخمينـا بـاثني عشر ألـف غـرارة، وسلمها السلطان مـع دربساك إلى صاحب عزاز علم الـدين سليما ن بن جندر، وكتبت عليـه جميع مافي القلعتين من الموجـود من المكيل والموزون والمعدود، وكانـت الغلة بانطاكية غـالية السعر، فقلت: كـأني بمن تولى القلعـة وقد بـاع الغلـة وشفـى من فقـره بها الغلـة، ثـم أشار بتخـريبهـا وهدمهـا، ولم يلترم بحكمها، وقـال: ابقاؤها غـرر، وحفظها على المسلمين ضرر وخطر، فجـاء الأمر على ماحسبتـه بعد سنين، وعاد اخـلاها بمضرة المؤمنين، فإنـه أظهر ذلك الـوقت أنه أخـلاها، وأنـه للتخريب خـلاها، فجاء إليها مقدّم الأرمـن ابن لاون فدخلها، وأتم غاراتـه وكملها، وذلك سنـة سبـع أو ثمان وثمانين، وهـذان الحصنان دربسـاك وبغـراس كـانـا لأنطـاكية جنـاحين، ولطاغيـة الكفر سـلاحين، فتم للسلطـان فتح هـذه الحصون المذكـورة مع أبراج ومغـارات وشقفان كثيرة، حتى خلـص ذلك الإقليم، وتـم الفتح العظيم، وعـادت الكنائس مسـاجد والبيع معـابد، والصوامع جوامع، والمذابح لعبدة الشيطان مصارع.

فصل

في عهد الهدنة مع صاحب أنطاكية وعود السلطان

قال العماد: كان السلطان قد عزم على قصد أنطاكية، فرأى همم الأجناد، لاسيما الغرباء قد ضعفت، ونياتهم في الجهاد قد فترت. وتشوّقوا إلى البلاد والراحة من جهادهم، وكان صاحب أنطاكية قد أشرف على الهلاك، وعلم أنه إن قصد غلب، فنفذ أخا زوجته رسولاً إلى السلطان متذللاً يطلب الهدنة على أنه يطلق من عنده من أسارى المسلمين، وهم جمع كبير، فعقدها معهم مدة يسيرة ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى انقضاء أيار، فيكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغلة وأوان حصادها، فيستريح فيها الأجناد، ويعودون بعدها إلى فرض الجهاد، فتم كتاب الهدنة وتوجه شمس الدولة ابن منقذ لتخليص الاسرى وانقاذهم منه.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي بقية ذلك اليوم يعني يوم فتح بغراس، وهو ثاني شعبان عاد السلطان إلى المخيم الأكبر، وراسله أهل انطاكية في طلب الصلح، فصالحهم لشدة ضجر العسكر، وقوة قلق عماد الدين صاحب سنجار في طلب الدستور وعقد الصلح بيننا وبين أهل أنطاكية لاغير، على أن يطلقوا جميع أسارى المسلمين الذين عندهم، وكان إلى سبعة أشهر، فإن جاءهم من ينصرهم، وإلا سلموا البلد إلى السلطان، ثم رحل عنه يطلب دمشق، وسأله ولده الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه فدخلها حادي عشر شعبان، فأقام بقلعتها ثلاثة أيام، ثم سار إلى دمشق فاعترضه ابن أخيه تقي الدين وأصعده إلى قلعة حماة، وبات بها ليلة واحدة فأعطاه جبلة واللاذقية، وسار إلى بعلبك وأقام ببرجها يوماً ودخل حمامها، ثم أتى دمشق فأقام بها حتى دخل شهر رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكنه، وكان قد بقي له من

القلاع القريبة من حوران التي يخاف عليها من جانبها صفد، وكوكب، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين في الصيوم.

وقال العماد: وودع السلطان عماد الدين صاحب سنجار والعساكر الغربية، وأتحفهم بالتحف العجيبة، وارتاح إلى العبور على أرتاح. ووصل إلى جانب حلب وقد خرج كل من بها للتلقي مستبشرين بالاقبال المتضاعف المترقي، وشاهدنا من النظارة عيوناً للمحاسن ناظرة، ووجوها ناضرة، وقلوبا حاضرة، وألسنا شاكرة، وأيديا في بسطها إلى الله للابتهال بالدعاء متظاهرة، فأقام بقلعتها أياماً يسيرة، وألفى ولده الظاهر قد سار فيها أحسن سيرة. ثم سار منها على طريق المعرّة وقصد زيارة الشيخ الزاهد أبي زكريا المغربي عند مشهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فتبرك بزيارة الميت والحي، ثم وصل إلى حماة فنزل بقلعتها، ومعه أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وهو عز الدين أبو فليتة القاسم بن المهنا، وكان للسلطان في جميع الغزوات مصاحبا، وعلى معاضدته مواظبا، وماحضر معنا على بلد أوحصن إلا فتحناه، وكان السلطان يستوحش لغيبته، ويأنس بشيبته، وكان بجنب السلطان جالساً، ولنظره عليه حابساً ، وكانت قلعة حماه ذات تل منبطح، فلما تولاها تقي الدين رفع تلها وعمق خندقها وحصنها، فطلع السلطان تلك الليلة إلى القلعة، وسر بما رأى من الحصانة والرفعة، ووقف الملك المظفر لعمه وجرى في الخدمة على رسمه، وأصبح السلطان راحلاً، ولم يقم بحمص وجاء إلى بعلبك على طريق الزراعة واللبوة ووصل إلى دمشق قبل رمضان، وأشير على السلطان بأن يريح عسكره، فقد أحمد في عامه مورده ومصدره، وأربح في سبيل الله متجره، فقال: إن القدر غير مأمون، والعمر غير مضمون، وللفرض أوقات وللدهر آفات، وبقيت مع الكفر هذه الحصون، وإن لم نبادرها اختل أمرنا المصون، لاسيما صفد وكوكب فإنهما للداوية والاسبتارية في وسط البلاد، والثغور الإسلامية بهما

-٨٦٥٧-

واهية السـداد، فنخرج ونشتـو عندهما، ونقصـد قصدهما، فـإذا فتحناهما خلصت هذه البلاد، وصفت الأوراد.

قـال: فما لبث السلطـان ولامكـث، ولانقض عهـد عـزمه على الغـزاة ولانكث، وقال: لانبطل الغزوه ولانعطل هذه الشتوه.

فصل

في فتح الكرك وحصونه

قال العماد: ووردت البشرى بنحج الدرك، في تسليم حصن الكرك، وذلك أنها في مدّة غيبتنا في بلاد انطاكية، لم تعدم من محاصرتها المضايقة الناكية، وكان الملك العادل أخو السلطان مقيما بتبنين في العساكر، محترزاً على البلاد من غائلة العدو الكافر، أقامه السلطان هنالك عند توجهه إلى البلاد الشمالية، لقصد جبلة واللاذقية، فأقام بتبنين مقوياً للأمراء المرتبين على الحصون، حافظاً على الدهماء بحركته في الأمور عادة السكون، وكان صهره سعد الدين كمشبه بالكرك موكلاً، وبأهله منكلاً، قد غلق رهنه وبقي حصاره معضلاً، وأمره مشكلاً، حتى فنيت أزوادهم، ونفدت موادهم، ويئسوا من نجدة تأتيهم، وأمحلت عليهم مصايفهم ومشاتيهم، فتوسلوا بالملك العادل، وأبدوا له ضراعة السائل، فما زالت الرسالات تتردد، والاقتراحات تتجدد، والقوم يلينون والعادل يتشدد، حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم، وسلموا الحصن وتحصنوا بالسلامة، وخلصوا بإقامة عذرهم عند قومهم من الملامة، وتسلم سعد الدين بعدها الحصون التي بقربها كالشوبك، وهرمز، والوعر، وسلع.

وقال القاضي ابن شدّاد: وفي أثناء شهر رمضان سلمت الكرك من جانب نواب صاحبها، وخلصوه بها من الأسر، وكان أسر في وقعة حطين المباركة.

وكتب العماد في بعض البشائر: «سلم حصن الكرك وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدث نفسه بقصد الحجاز، وقد نصب اشراك شركه منه على طرف الاجتياز، فأذقناه عام أوّل كأس الحمام، وتملكنا حصنه الذي كان يعتصم به في هذا العام، واضطر الكفر في إسلامه إلى الاسلام، وتم بحل هذا البيت أمن البيت الحرام».

-٨٦٥٩-

وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان شفـاعة: «أدام الله سلطان مولانا الملك النـاصر وثبته، وتقبل عمله بقبـول حسن وأنبته، وأخذ عـدوّه قائلاً أو بيته، وأرغم أنفه بسيفه وكبته، خـدمة المملوك هذه واردة على يد فلان، خطيـب عيذاب، ولما نبـابه المنـزل منها، وقـل عليه المرفـق فيها ، وسمـع بهذه الفتـوحات التـي طبق الأرض ذكـرهـا، ووجب على أهلهـا شكرهـا، وحصل لمن جـرت على يده أجـرها، هاجـر من هجير عيـذاب وملحها، ساريـا في ليلة أمـل كلها صبـاح فلا يسـأل عن صبحهـا، وقد رغـب في خطابـة الكرك، وهـو خطيب، وتـوسل بـا لمملوك في هـذا الملتمس وهـو قريـب، ونزع من مصر إلى الشام، ومـن عيذاب إلى الكرك وهـو عجيب، والفقر سـائق عنيف، والمذكـور عائل ضعيـف ولطف الله تعـالى بـالخلـق بوجود مولانا لطيف، ورأيه أعلى إن شاء الله تعالى»

-٨٦٦٠-

فصل

في فتح صفد

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار في أوائل رمضان من دمشق يريد صفد، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والوطن والولد، في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان ليجتمع فيه بأهله، فأتاها وهي قلعة منيعة قد تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها، فأحدق العسكر بها، ونصبت عليها المجانيق، وكانت الأمطار شديدة، والوحول عظيمة، ولم يمنعه ذلك عن جدّه، ولقد كنت ليلة في خدمته وقد عين مواضع خمسة مجانيق حتى تنصب، فقال في تلك الليلة: مانتام حتى ننصب الخمسة، وسلم كل منجنيق إلى قوم ورسله تتواتر إليهم يخبرونه ويعرفونهم كيف يصنعون حتى أطلنا الصباح وقد فرغت المنجنيقات، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها، فرويت له الحديث المشهور في الصحاح، وبشرته بمقتضاه وهو قوله صلى الله عليه وسلم: «عينان لاتمسهما النار عين باتت تحرس في سبيل الله، وعين بكت من خشية الله»

قال المؤلف: أخرج الترمذي هذا الحديث، وقال: وهو حديث حسن غريب.

قال: ولم يزل القتال متواصلاً بالنوب مع الصوم حتى سلمت بالأمان في رابع عشر شوّال.

وقال العماد: لما خرج السلطان من دمشق صحبه الفاضل، وجعل طريقه على مرج برغوث، وعبر مخاضة الأحزان، وجاء إلى صفد، وقد لان من فيها من الفرنج وزادهم نفد، فنزل عليه في العشر الأوسط من رمضان، فضايقها ونصب المجانيق عليها إلى أن سلمها مقدمها في ثامن شوّال بالأمان وراح إلى صور وقد كانوا عدموا القوت، ووجدوا الموت

الموقـوت، وعلموا أنهم إن لم تخرج صفـد من أيـديهم دخلت أرجلهـم في الأصفاد، فتبرؤوا من الجذاذ والجلاد، وإنها كانـت في عين الاسلام قذى، لايتـوقـع منهـا على الأيام إلا مضرة وأذى، فسهـل الله صعبهـا، وأوطـأ هضبها، وكشف عن البلاد كربها، وقـذف في قلوب أهلها رعبها، فخرجوا مـذعنين، واستسلمــوا مسلمين، وتبرؤوا مـن حصنهـم، ونــزلـوا بهوانهم ووهنهم، وأحضروا رهـائنهم للإستمهال في نقـل متاعهم، وندمـوا على ما كان من امتناعهم.

قال: واجتمع الفرنـج بصور ونحن نضايق حصن صفـد، وقالوا: متى فتحت صفـد فإن كوكب لاتمتنـع، وأملنا عن حفظها ينقطـع، والرأي أن نجـرد لها نجدة لعلهـا تثبـت إلى أن توافينـا مـن البحـر ملوكنـا، فسيروا مـائتي رجـل فتفرقـوا في تلـك الأودية يكمنـون في الشعاب والهضـاب، واتفـق أن أميراً من أصحـابنـا خـرج متقنصاً فـوقـع أحـدهم في قنصـه، وحصل طـائر منهم في قفصـه، فاستغرب وجـوده في ذلك المكـان فهدّده وتوعده وأقامه للعذاب وأقعـده حتى دل على مكمن ذئابه، فما أحسوا إلا بصارم الديـن قايماز النجمي وأجناده إلا وقـد نزلوا عليهم في آكـام ذلك الشعب ووهاده، فتلقطوهـم من كل غار ووجار، ولم يهتد أحـد من أولئك الضلال إلى نهج فـرار، فما شعرنـا ونحن على صفـد للحصار،حتـى وصل صاحـب قايماز بالأسارى مقـرنين في الاصفاد، مقودين في الاقيـاد، وكان فيهما مقدمان مـن الاسبتار، وقد أشفيا على البتـار، فإن السلطان رحمه الله ماكـان يبقى على أحـد من الاسبتاريـة والداويـة، فأحضرا عنـد السلطان للمنيـة، فأنطقهما الله بما فيـه حياتهما، ونـاجيـا بما به نجـاتهما، وقالا عنـد دخولهما: مـانظن أننـا بعدمـا شافهنـاك يلحقنا سـوء فعرفـت أن بقاءهما مرجـو، فمال إلى مقالهما، وأمـر باعتقـالهما فإن تلـك الكلمة حـركت منـه الكـرم، وحقنت منهما الـدم، وفتـح الله علينا صفـد ثـامن شـوال. حين فرغنا مـن صوم ست منه بعـد صوم رمضان، وجمعنا بين فضيلتـي الصوم

- ٨٦٦٢ -

والجهاد، وسلمت قلعة صفد إلى شجاع الـدين طغرل الجاندار، واستبشرنا بانعكاس ماأحكمه الكفار.

فصل

في فتح حصن كوكب

قال القاضي ابن شدّاد: ثم سار رحمة الله عليه يريد كوكب، فنزل على سطح الجبل، وجرد العسكر، وأحدق بالقلعة وضايقها بالكلية بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوزه نشاب العدوّ، وبنى له حائطاً من حجر وطين يستتر وراءه، والنشاب يتجاوزه، ولايقدر أن يقف أحد على باب خيمته إلا أن يكون ملبساً، وكانت الأمطار متواترة، والوحول بحيث تمنع الماشي والراكب إلا بمشقة عظيمة، وعاني شدائد وأهوالاً من شدة الرياح وتراكم الأمطار، وكون العدو متسلطاً عليهم بعلوّ مكانه، وجرح وقتل جماعة، ولم يزل راكباً مركب الجد رحمه الله حتى تمكن النقب من سورها، ولما أحس العدوّ المخذول بالنقب، وقد تمكن من السور علم أنه مخذول مأخوذ، فطلب الأمان فأمنهم وتسلمها في منتصف ذي العقدة، ونزل إلى الغور إلى الثقل، وكان قد أنزل الثقل من شدة الوحل والريح في سطح الجبل.

وقال العماد: وجئنا إلى كوكب، فوجدناها في مناط الكوكب، كأنها وكر العنقاء، ومنزل العوّاء، قد نزلتها كلاب عاوية ونزغت بها ذئاب غاوية، وقالوا : لو بقي منا واحد لحفظ بيت الاسبتار، وخلصه إلى الأبد من العار، ولابد من عود الفرنج إلى هذه الديار فنتشدد للانتظار.

ثم وصف القتال بالرمي والمنجنيق، والنقب والتعليق والحفر والتعميق، والحصر والتضييق، ثم قال: وكان الوقت صعباً والغيث سكباً وتكاثرت السيول، وتكاثفت الوحول، ودامت الديم لدموعها مريقة، وبقيت الخيم في الطين غريقة، وكنا في شغل شاغل من تقلع الأوتاد وتوتد الاقدام، ووهي الاطناب ووقوع الخيام وقد عادت الخيام

مناخل الانـداء، والانوار معدومة لـوجود الأنواء، وماء الشرب مفقـود مع سيـول الماء، والرواحـل في الطين باركـة وهي للعلـف تاركـة، والطريـق زلقة، وهـي مع سعتهـا ضيقة، فنقـل السلطان خيمتـه إلى قرب المكـان لتقريب وجوه الامكان، وبني له من الحجـارة ماصار له كالستاره، ونزلت الاثقال والخيم إلى أسفل التل بالغور، وأقام السلطان على محاصرة الحصن ومصـابرتـه، ونحن نـركب إليـه من الخيـام بكرة وعشيـة للسلام، وتنفيـذ المهام، حتـى بلغ الـرجال أماكـن النقوب، وتمكـن لهم المطلوب، فشرع الكفرة في التذلل، وسلموا الحصن بالأمـان، وعرضه على جماعة فلم يقبل ولايته أحـد سوى قـايماز النجمي على كـره منه، وذلـك في منتصف ذي القعدة، ونزل السلطان إلى المخيم بالغور.

ومن كتاب فـاضلي إلى سيف الاسلام باليمن عـن السلطان: «مما تجدد بحضرتنـا فتح كـوكـب، وهي كـرسي الاسبتاريـة ودار كفـرهم، ومستقـر صـاحب أمـرهم، ومـوضع سـلاحهم وذخـرهم، وكـان بمجمع الطـرق قاعـداً، وللملتقى السبل راصداً ، فتغلقـت بفتحه بلاد الفتح واستـوطنت، وسلكت طرقها وأمنت، وعمرت بـلادها وسكنت، ولم يبق في هذا الجانب إلاصور، ولولا أن البحر ينجـدها والمراكب تردها لكان قيـادها قد أمكن وجماحها قـد أذعن، وماهـم بحمد الله في حصن يحميهـم، بل في سجين يحويهم، بل هم أسارى، وإن كانوا طلقاء، وأمـواتاً وإن كانوا أحياء، قال الله تعالى: (فـلا تعجل عليهـم إنما نعدّ لهم عـدا)(٨٤) ،وكان نـزولنا على كوكب بعد أن فتحنا صفد بلد الداويـة المصونة، وفتحنا الكرك وحصونه، والمجلس السـامي أعلـم بما كان على الإسـلام من مـؤنته المثقلـة وقضيته المشكلـة، وعلتـه المعضلة، والله تعـالى المشكـور على مـاطوى مـن كلمـة الكفر، ونشر من كلمة الإسلام، فإن بـلاد الشام اليوم (لايسمع فيها لغو ولاتأثيراً إلا قيلا سلامـاً سلاماً)(٨٥) فـ(ادخلوها بسلام)(٨٦) وكان نزولنا على كوكـب والشتاء في كـوكبه، وقد طلـع من الأنـواء في موكبـه والثلوج تنشر على الجبال طـي ملائهـا، والأودية قـد عجت بمائهـا وفاضـت عند

امتلائهـا، فشمخت أنوفهـا سيولاً، وخـرقت الأرض وبلغت الجبـال طولاً والأوحـال اعتقلـت الطـرقـات، ومشـى المطلـق فيهـا مشيـة الأسير في الحلقات فتجشمنـا العناء نحن ورجـال العسآكر، وكابـرنا العدوّ والـزمان وقد تحرّز الحظ المكابـر، وعلم الله النية فأنجدها بفعلهـا، وضمير الأمانة فأعـان على حملها، ونزلنـا من رؤوس الجبـال منازل كان الاستقـرار عليها أصعب مـن ثقلها» ثم قـال: «والآن فالمجلس السـامي يعلم أن الفـرنج لايسلـون عما فتحنـا، ولايصبرون على مـاجـرحنـا، وأنهم لعنهـم الله أمـم لاتحصى، وجيوش لاتستقصى، ويد الله فـوق أيديهم، و(سيجعل الله بعد عسر يسرا)(٨٧) وماهم إلا كلاب قد تعـاوت، وشياطين قد تغاوت وإن لم يقذفـوا من كل جانـب استأسدوا واستكلبوا، وكـانوا لباطلهم الـداحض أنصر منا لحقنا الناهض، وقد كتب المستخـدمون بالاسكندرية، وصاحب قسطنطينيـة، والثغور المغـربية ينـذرون بـأن العدوّ قـد أجمع أمراً، وحـاول نكراً، وغضبـوا زادهم الله غضباً، وأوقـدوا ناراً للحرب جعلهـا الله عليهم حطباً، وسلـوا سيوفـاً للبغي لايبعـد أن يكونـوا أغمادها، وتـواعدت جموع ضـلالتهـم أخلـف الله ميعـادهـا، وأمـا نحـن فبـالله نـدفـع مـانطيـق، ومالانطيق، وإليه نرغب في أن يثبت قلوبنـا إذا كادت تزيغ قلوب فريق، ونحـن الآن نستنجد أخـانا ونـدعوه إلى مـالـه دعينا، ونـؤمل مـن الله أن ينصرنـا دنيا ودينـا، ونـرجـو أن يمدنـا بنفسـه سريعـاً وبعسكره جميعـاً، وبذخـره الذي كان لمثلـه مجموعاً، وأن يلبيهـا دعوة إما أن يطيـع بها ربه لأنها دعوتـه، وإما أن ينصر بها نبيه صلى الله عليـه وسلم فـإنها شريعته، وإما أن يعين بها أخاه فإنها شدّة الاسلام لاشدّته، هذا وإن كان المجلس قد قعد عنا ولم يعدنا في مرض الاجسـام، فلا يقعد عنا في مرض الإسلام، فالبدار البدار، فـإن لم يكن الشام له بدار فما اليمن لـه بدار،والجنة الجنة فإنها لاتنـال إلا بإيقاد الحرب على أهل النـار، والهمة الهمة، فـإن البحار لاتلقى إلا بالبحـار، والملوك الكبار لايقف في وجوههـا إلا الملوك الكبار، وفي هذه السنـة ننزل على أنطاكيـة، وينزل ولدنـا المظفر تقي الـذين على

اطـرابلس، ويستقـرّ الـركاب الملكـي العـادلي بمصر لأنها مـذكورة عنـد العدوّ أنها تطـرق، وأن الطلب على مصر والشام منـه يفرق، ولاغنـى عن أن يكون المجلـس السيفي بحرا في بـلاد الساحـل يزخر سـلاحاً، ويجرد سيفاً يكون على مافتحنا قفلاً، ولما لم يفتح بعد مفتاحا، ومايدعى للعظيم إلا العظيم، ولايـرجى لموقـف الصبر الكريم إلا الكـريم، هـذا والأقدار جارية، ومشيئة الله ماضية، فإن يشـأ ينصرنا على العدد المضعف، بالعدد الأضعف، فإنا لانـرتاب بأن الله تعالى مافتح علينـا هذه الفتوح ليغلقها، ولاجمع علينـا هذه الأمـة ليفرقهـا، وإنما يـؤثر أن يتسـاهم آل أيـوب في ميراثهم منـه مواقف الصبر، ومطـالع النصر، ولايسرنـا أن ينقضي عمره في قتـال غير الكافـر، ونزال غير الكفـر المناطـر، فـإنما هي سفـرة قاصـدة. وزجرة واحـدة ، فإذا هـو قد بيـض الصحيفة والـوجه والـذكر، فليحضر وليشاهد أولاد أخيه يستشعرون لفراقه غماً، قد عـاشوا ماعاشوا ولايعرفون إن لهم مع عمهم عماً».

وله إليـه من كتاب آخر وكـأنه بعد اعتذاره عـن الحضور: «المولى على حسب اختيـاره إن سار فمثله من سـار وسر، وقاد الجيش وجـرّ، ونفع الولي وضر العـدوّ الذي أضر، وإن أقـام فالعـذر الذي أقعـده، واشفاق السلطان عن نصره الذي ردّه عن وجهـه، والرأي الذي ردّده، فلا يكن في صدره مـن الأمريـن حرج، ولايخف استقصـار عزمـه إن ركد أو خـرج، فمكانه مكـانه من القلب، وودّه ودّه، وله من اللسـان حمده، وهو سيف الاسلام إن ضرب فبحدّه، أو صين ففي غمده لازال المولى منوها باسمه، ومرفها في جسمه، ومجرداً سيـف عزمه، وسعيداً بحكم التوفيـق، فلا خرج التوفيق عن حكمه».

ومن كتاب عمادي إلى الديوان بفتح الكـرك والشوبك وصفد وكوكب يقول فيـه: « والآن فقد خلص لنا جميـع مملكة القدس وحدهـا في سمت مصر من العـريش، وعلى صوب الحجاز مـن الكرك والشوبـك، وتشتمل

على البلاد الساحلية إلى منتهى أعمال بيروت، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور. وفتح أيضاً جميع اقليم انطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن، وحدّه من أقصى بلاد جبلة واللاذقية إلى بلاد ابن لاون، وبقيت أنطاكية بمفردها والقصير من حصونها، ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعمالها، ولم تخل عما كانت عليه حالها سوى طرابلس، فإنها لم يفتح منها إلا مدينة جبيل، وقد سحبت عليها المهلة الذيل، ومعاقلها باقية، وليس لها من عذاب الله الواقع واقية، والخادم الآن على التوجه إليها وعزم النزول عليها ،و أنه قدرتب الجانب القبلي، والبلد القدسي، وشحن الثغور من حد جبيل إلى عسقلان بالرجال والأموال ، وآلات العدد، والعدد المتواصل الممدد، ورتب فيها ولده الأفضل عليا لحمايتها وحفظ ولايتها، وقلد ولده العزيز عثمان ولاية مصر ومملكة أقاليمها لتهذيب أحوالها وتقويمها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: ولما فرغ السلطان من شغل القلاع ونزل إلى الوهاد من التلاع، تجدد للأجل الفاضل عزم مصر، فركب السلطان معه للوداع، ثم تحول إلى صحراء بيسان وأقام بها إلى مستهل ذي الحجة، ثم رحل يوم الجمعة مستهل الشهر ومعه أخوه العادل، وسلكا طريق الغور إلى القدس ووصله يوم الجمعة ثامن الشهر، وهويوم التروية، وصلى الجمعة في قبة الصخرة، وعيد بها يوم الأحد عيد الأضحى، وسار يوم الاثنين إلى عسقلان للنظر في مهامها، ونظم أسباب أحكامها، ثم أذن للعادل في العود إلى مصر لمساعدة ولده العزيز، وودّعه وأعطاه الكرك، وأخذ منه عسقلان.

قال ابن شداد: ورحل على سمت عكا بعسكره موفقا في مورده ومصدره، فما عبر ببلد إلا قوى عدده وكثر عدده، وانفصل العماد عن خدمته إلى دمشق عند رحيله من بيسان لعارض مرض سلبه الامكان، ومازال منفصلاً عنه إلى أن وصل السلطان دمشق بعد شهرين مستهل صفر من السنة الجديدة.

وفي هذه السنة في الثالث والعشرين من رمضان توفي الأمير مجد الدين مؤيد الدولة أسامة بن مرشد بن علي بن منقد، وكان مولده بشيزر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة فبلغ عمره ستاوتسعين سنة.

وفيها في الثامن والعشرين من جمادى الأول توفي الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمي الهمذاني ببغداد، صاحب المصنفات على صغر سنه، منها: العجالة، والناسخ وغيرهما، ومولده سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة رحمه الله تعالى.

قال العماد : ووصل كتاب من مصر ونحن على حصار صفد أن إثني عشر رجلاً أعلنوا بشعار أهل القصر ودخلوا من باب زويلة إلى قرب الصياقلة مجذوبي السيوف لادالة الدولة الزاهقة، ونصرة الدعوة الباطلة، وهم ينادون يال علي، وفي زعمهم أنهم يقبلون بالصولة، ويقلبون بالباس لباس الدولة، ويخالون أنهم إذا ثاروا أثاروا، وإذا داروا أداروا، فما اكترث بهم مكترث، ولاانبعث إليهم منبعث، فلما تحققوا أنهم لامجيب لهم ولاداع تفرّقوا في الدروب واضمحلوا، وكانوا عقدوا على الوفاءفانحلوا، ثم أخذوا ووقذوا، واعتقلوا ولم يستنقذوا، ولما علم السلطان بهذا الأمر عراه الهم، وتضجر بمن على بابه من وفود مصر وقال: إلى متى نتحمل منهم هذا الوهم، فطردهم وردعهم وردهم، وكان قد وفد إلى باب السلطان جماعة من أولاد الوزراء المصريين، والأمراء بها المقدمين، ومن أهل المعروف بالمعروفين، ووافق ذلك دخول الفاضل إليه فأخبره بالخبر، فقال له: يجب أن تشكر الله على هذه النعمة، فقد عرفت بهذا طاعة رعيتك، وموافقة نياتهم لنيتك، أليس لم يلب دعوتهم أحد، ولم يكن من ورائهم مدد، فطب نفساً ، وزد عند الله أنساً، فقال السلطان: كان الملوك قبلي تخافهم وتهرب منهم الرعية، وتتوقع منهم البلية، والآن فقد تكاثروا علينا، وتوافدوا إلينا حتى اضجرونا وأملونا ونفرونا، فاذا ركبنا أو نزلنا تعاورونا بالقصص، وساورونا بالغصص، فقال له: أنت أولى بشكر الله على هذه العارفة: كان بمصر من صاحب القصر وأشياعه، وخدمه وأتباعه، وأمرائه وخواصه، وذوي استخلاصه وجهاته والزامه،كل من كان يرتع الخلق في رياض انعامه، وكان بالشام في كل بلد وال وصاحب له على أهله نعم ومواهب، وملوك يلوذ بهم الاقارب والأجانب، واليوم أنت سلطان الجميع، وقد ردّ الله الآمال في تلك الصنائع كلها إلى مالك من حسن الصنيع، وقد اجتمع أولئك المتفرقون على بابك، ووفدوا إلى جنابك، فلا يجدون بعد الله إلاّ جودك، فأكرم وفودك، فأغرورقت بالدموع عيناه، وبالسماح يداه، وأقسم أنه ما عاش

لايرد قاصداً ولايصدّ وافداً ،وتقدم في الحال بقضاء حقوق الوافدين، وانجاح آمال القاصدين.

قلت: وكتب إلى السلطان في هذا المعنى أبو الفتح سبط التعاويذي من بغداد:

فلا يضجرنك ازدحام الوفود ... عليك وكثرة ماتبذل
فانك في زمن ليس فيه ... جواد سواك مفضل
وقد قل أهله المنعمو ... ن وقد كثر البائس المرمل
ومافيه غيرك من يستما ... ح ومافيه إلاّك من يسأل(٨٨)

وقرأت رقعة بخط الفاضل: «المملوك ينهي وصول فخر الكتاب الجويني، وقد كاد يهلك من لهب الحر والمشقة في السير، وكيف يكون حال ابن السبعين مع المرض اللازم والقولنج الدائم، ونحافة الأعضاء وضعف القوة واستشعار انقطاع الرزق الذي هو نظير انقطاع العمر، وما أظن أن الله أجرى على يد المولى ولافرح عدوّا له بأن ينقطع رزق مثل هذا البقية الحسنة والضيف الراحل، والأديب الفاضل في أيام مولانا التي هي تاريخ الكرم، ومواسم النعم». وفي آخرها: «ومما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته اقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار بشهادة الله، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار» وفوق الرقعة بالخط الصلاحي:«وقفت على رقعة القاضي الفاضل، ومايقطع لأحد رزق إن شاء الله تعالى، بل هي علالات نحن مثل الغريم المنكسر نرضى لذا بمال ذا، و على الجملة ماتقدمت بقطع رزق أحد والورقة قد علمت أكتب فيها الذي لهما ولغيرهما إن شاء الله تعالى». وكان في آخر

- ٨٦٧١ -

الرقعة ذكـر الجمال الخيفي، وكأنه كـان له مثل حاجـة الجويني، رحم الله الكل أجمعين.

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

قال العماد: والسلطان في عكا نافذ الأمر، نابه القدر، فأحكم أمرها، وكشف ضرها واستحضر جماعة من مصر يحمي بهم الثغر، فما انفصل حتى وصلوا واتبعوا أمره وامتثلوا، وتقدم إلى بهاء الدين قراقوش باتمام العمارات وولى حسام الدين بشارة، وعوّل عليه في الولاية، والحفظ والحماية.

وقال القاضي ابن شداد: أقام بعكا معظم المحرم يصلح أحوالها، ورتب فيها بهاء الدين قراقوش والياً، وأمره بعمارة السور والاطناب فيه، ومعه حسام الدين بشارة وسار يريد دمشق فدخلها مستهل صفر.

قال العماد: وولى مملوكه فارس الدين كشتغدي شهرزور وأعمالها، وكان قد تزوج بأخت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق، فولاه ذلك لقرب الولاية القفجاقية من الشهر زوريه، وقصد حصول المناصرة بحكم المصاهرة.

قال: وحكم السلطان بدر الدين مودوداً في ولاية دمشق، وجدّد له منشوراً بانشائي وفيه: «وقد قلدناه أمر دمشق وجهاتها، وأعمالها، والعشري والزكوات وكل مايجري في الديوان ومايبتاع للخزانة، وولاية المرج والغوطة ومايضاف إليها من الاعمال،وولاية الجبل ووادي بردا ويبوس وتولي الشحنكيات وحفظ الطرقات».

ثم رحل السلطان إلى طبرية فألحقها بمعدلته العمرية، ثم وصل وأقام بدمشق شهر صفر، ووجه الدين به قد سفر، وعز من آمن وذل من كفر، وبدأ بحضور دار العدل، وحكم بالشرع المطهر.

ووصل في ثاني عشر صفر رسول الديوان ضياء الدين عبد الوهاب

ابن سكينة، والوزير يومئذ معز الدين بن حديدة، يأمر بالخطبة لولي العهد عدة الدين أبي الفضل نصر محمد بن الامام الناصر، فاستقبله السلطان وأولاده وأمراؤه وأجناده، وخطب له بذلك يوم الجمعة ثالث عشر صفر خطيب دمشق ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد الدولعي، فلما انقضت الخطبة وعاد الرسول سير السلطان معه رسوله ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري، وسيرت معه الهدايا والتحف السنايا، وأسارى الفرنج الفوارس، وعددها النفائس، وتاج ملكهم السليب والملبوس والطيب والصليب. وهو الذي كان فوق القبة بالصخرة المقدسة، ليدل على تطهير ما كان هناك من الأسباب المدنسة، وسار الضياء ان رسولهم ورسول السلطان، ودخلا بغداد وأسارى الفرنج على هيئتها يوم فراغها راكبة حصنها في طوارقها وبيارقها وأدراعها، قد نكست بنودها، واتعست أنوفها، وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفها.

قلت: وقال ابن القادسي: قدم ابن الشهرزوي ومعه صليب الصلبوت الذي تعظمه النصارى فدفن تحت عتبة باب النوبي الشريف يتبين منه شيء قليل، وكان من نحاس وقد طلي بالذهب، فجعل يداس بالأرجل ويبصق الناس عليه، وذلك في سادس عشر ربيع الآخر، كذا قال صليب الصلبوت، وقد نص العماد في البرق على أنه الصليب الذي كان فوق الصخرة وهذا غير ذلك، والله أعلم.

ثم إن الخليفة الناصر اعتقل ابنه هذا بعد مدّة في سنة احدى وستمائة، وأراده على خلع نفسه من ولاية العهد ففعل وأشهد على نفسه بذلك، ثم قضى الله سبحانه أن عادت إليه ولاية العهد في أواخر عمره، فخطب له بذلك، ونقش اسمه على الدينار والدرهم، إلى أن توفي الناصر سنة اثنتين وعشرين، وتولى بعده فأقام نحو تسعة أشهر ، وتلقب بالظاهر، ثم توفي وولي ابنه المستنصر المنسوب إليه المدرسة ببغداد، ثم توفي سنة أربعين، وولي ابنه المستعصم بالله وهوالخليفة الآن، والله المستعان.

-٨٦٧٤-

فصل

في فتح شقيف ارنون

قال القاضي ابن شداد: وهو موضع حصين، قريب من بانياس، خرج السلطان من دمشق بعد صلاة الجمعة في الثالث من ربيع الأول، فسار حتى نزل في مرج فلوس، ونزل من الغد يوم السبت في مرج برغوث، فأقام به والعساكر تتابع إلى حادي عشر، ورحل إلى بانياس ومنها إلى مرج عيون، فخيم به وهو قريب من شقيف أرنون بحيث يركب كل يوم يشارفه، ويعود والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب، فأقمنا أياما نشرف كل يوم على الشقيف، والعساكر الاسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العدد والعدد، وصاحب الشقيف يرى مايتيقن معه عدم السلامة، فرأى أن اصلاح حاله معه قد تعين طريقاً إلى سلامته، فنزل بنفسه ومأحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان فأذن له فدخل فاحترمه وأكرمه، وكان من كبار الفرنجية وعقلائها وكان يعرف بالعربية، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والأحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويفهمه، وكان عنده أناة، فحضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته، وأنه يسلم إليه من غير تعب واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق فإنه لايقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج، واقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وأنه يمكن من الاقامة بموضعه، وهو يتردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكن من تخليص أهله وجماعته من صور، ويأخذ مغل هذه السنة، فأجيب إلى ذلك كله، وأقام يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت ويناظرنا في صحة دينه ونناظره في بطلانه، وكان حسن المحاورة متأدباً في كلامه، ثم استفاض بين الناس أن صاحب الشقيف فعل مافعله من المهلة غيلة

لأنه صادق في ذلك وإنما قصد به تدفيع الزمان، وظهرت لذلك مخايل كثيرة من الخوض في تحصيل الميره، وإتقان الأبواب، فرأى السلطان أن يصعد إلى سطح الجبل ليقرب من المكان ويمنع من دخول نجدة وميرة إليه، وأظهر أن سبب ذلك شدة حمو الزمان، والفرار من وخم المرج، فنزل صاحبه وسأل أن يمهل تمام سنة فماطله السلطان، ومآنسه وقال: نفكر في ذلك ونجمع الجماعة، ونأخذ رأيهم، ثم وكل به من حيث لايشعر إلى أن كان من أمره ماسيذكر.

قال: وفي أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشوبك، وكان قد أقام السلطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مدّة سنة حتى فرغت أزوادهم وسلموه بالامان.

وقال العماد: كان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط، وقد أكمل في حفظه الاحتياط، فنزل إلى خدمة السلطان وسأل أن يمهل ثلاثة أشهر يتمكن فيها من نقل من بصور من أهله وأظهر أنه محترز من علم المركيس لعنه الله بحاله ، فلا يسلم من جهله وحينئذ يسلم الموضع بما فيه ويدخل في طاعة السلطان ومراضيه، ويخدمه على اقطاع يغنيه، وعن حب أهل دينه يسليه، فأكرمه وقربه، وقضى أربه، وأجابه إلى ما سأله، وقبل منه عزيزاً مابذله بذله، واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينة ووجد إليه سكوناً وسكينة، فشرع أرناط في إزالة وهنه ، وترميم مستهدمة وتوفير غلاله، وتدبير أحواله ونحن في غرة من تحفظه، وفي سنة من تيقظه، وكان يبتاع من عسكرنا الميرة، ويكثر فيه الذخيرة، وقد أضمر الغدر، وظن أن له النصر، والسلطان حسن الظن به، يحمل صدق الواشي به على كذبه، وكان انتهاء المدة يوم الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة، وأقام السلطان بالمرج ينتظر انسلاخ الهدنة وتسليم الحصن، وخاف إن فارقه أن تجيء امداد الفرنج اليه، وكان مشفقا أيضا من جانب أنطاكية لانتهاء أشهر هدنتها، فكتب إلى تقي الدين بالمقام في تلك الخطة، وسير بذلك

الفقيه عيسى الهكاري، ولم يستدع إلا صاحب آمد قطب الدين سكمان ابن قرا أرسلان، فجاء في أمداده وأعداده، ولازم السلطان فلما قرب انتهاء مدّة صاحب الشقيف أحضره السلطان فتضرّع، وقال: إن قومي إلى الآن لم يخلصوا من صور، وقد أنعمت فأتمم وسأل أن تكون المهلة سنة، فعرف السلطان من فحوى حاله أمارات الارتياب، فكلمه بإيناس وما ردّه بياس، فأرخى طوله، وأرجى أمله، وأمر السلطان بتحويل الخيم إلى ظهر الجبل ليقرب من الحصن وقد بقي من الهدنة يومان، فتضور صاحب الحصن فقيل له تقيم عندنا في كنف الأمان، فبكى وتألم من ضبطه وانكشفت سريرته الغادرة، فأمربحمله إلى الشقيف حتى يسلمه ووكل به وحفظ من حيث لايعلم، وقيل لعله يحسن ولايحوج إلى المقابحة ويسلم، وقيل له قد بقي يومان من المدة تقيم حتى تنتهي وتسلم، فأبدى ضرورة وضراعة وقال: سمعاً وطاعة، وكان له ملقى وملق، وفي لسانه ذلق، وماعنده من كل ماتفرق فرق، وقال: أنا أنفذ إلى نوابي في التسليم، وهو قد تقدّم إليهم بالوصية والتعليم، فأظهروا عصيانه، وقالوا يبقى مكانه، فقيد وحمل إلى قلعة بانياس، وبطل الرجاء فيه وبان الياس، ثم استحضر في سادس رجب وهدده وتوعده، فلما لم يفد خطابه، ولم يجد عذابه، سيره إلى دمشق وسجنه ورتب عدة من الأمراء بملازمة حصر الحصن في الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السلم، وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحلم.

فصل

وفي مـدة مقـام السلطـان على مرج عيـون لمحـاصرة شقيـف أرنـون ، اجتمعت الفرنج وجرت لهم مع المسلمين وقائع.

قال القاضي ابن شداد: كان السلطان قد اشترط على نفسه حين تسلم عسقلان أنـه إن أمر الملـك من بها بتسليمهـا أطلقه، فـأمرهـم بتسليمها وسلموها، فطالبـه الملك باطلاقه فأطلقه وفـاء بالشرط ونحن على حصن الاكراد، أطلقـه من انطـرسوس واشترط عليـه أن لايشهر في وجهـه سيفاً أبداً، وأن يكون مملـوكه وطليقه، فنكث لعنه الله وجمع الجمـوع وأتى صور يطلب الـدخول إليها فخيـم على بابها يـراجع المركيس الـذي كان بها في ذلـك الوقـت، وكان المركيـس اللعين رجلاً عظيماً ذا رأي وبـأس شديـد وصرامة عظيمة، فقـال له: إنني نائب الملـوك الذين وراء البحر ومـاأذنوا لي في تسليمها إليـك، وطالت المراجعـة واستقرت القـاعدة بينهما على أن يتفقـوا جميعـاً على المسلمين وتجتمع العسـاكـر التـي بصور وغيرهـا مـن الفـرنجية على المسلمين، وعسكـروا على باب صـور، ولما كان يـوم الاثنين سابـع عشر جمادى الأولى بلغ السلطان من جـانب اليزك أن الفرنـج قد قطعـوا الجسر الفاصـل بين أرض صور وأرض صيـدا وهي الأرض التـي نحن عليهـا، فركب السلطـان نحو اليزك فوصـل وقد انفصلت الـوقعة، وذلـك أن الفـرنج عبر منهـم جماعـة الجسر فنهـض إليهم يـزك الاسـلام وكانوا في عدة وقـوة فقاتلوهم فقتلوا منهم خلقـاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ماقتلـوا ، ورموا في النهر جماعة فغـرقوا، ولم يقتل مـن المسلمين إلا مملوك للسلطان يعـرف بأيبك الاخـرش، وكان شجاعـاً باسلاً مجر بـاً للحرب ممارساً فتقطر بـه فرسه، فلجأ إلى صخرة فقاتل بالنشـاب حتى فني، ثم بالسيـف حتى قتـل جماعة، ثـم تكاثـروا عليه فقتلـوه، وفي يوم الأربعـاء تاسـع عشر جمادى الأولى ركب السلطـان يشرف على القوم على عـادته ،

فتبع العسكر خلق عظيم من الرجالة والغزاة والسوقة، وحرص رحمه الله في ردهم فلم يفعلوا، وخاف عليهم فإن المكان كان حرجاً ليس للراجل فيه ملجأ، ثم هجم الرجالة إلى الجسر ، وناوشوا العدوّ، وعبر منهم جماعة إليهم وجرى بينهم قتال شديد، واجتمع لهم من الفرنج خلق عظيم وهم لايشعرون، وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين، فحملوا عليهم حملة واحدة على غرة من السلطان، فإنه كان بعيداً منهم ولم يكن معه عسكر فإنه لم يخرج للقتال، وإنما ركب مستشرقاً عليهم على العادة في كل يوم، ولما بان له الوقعة، وظهر له غبارها، بعث إليهم من كان معه ليردوهم، فوجدوا الأمر قد فرط، والفرنج قد تكاثروا، حتى خافت منهم السرية التي بعثها السلطان وظفروا بالرجالة ظفراً عظيماً، وأسروا جماعة وعدّ من قتل من الرجالة في ذلك اليوم فكان عدد الشهداء مائة وثمانين نفراً، وقتل من الفرنج أيضاً عدة عظيمة وغرق أيضاً منهم عدة، وكان ممن قتل منهم مقدّم الألمانية، وكان عندهم عظيماً محترماً، واستشهد في ذلك اليوم من المعروفين من المسلمين الأمير غازي سعد الدين مسعود بن البصار، وكان شاباً حسناً شجاعاً، واحتسبه والده في سبيل الله، ولم تقطر من عينه عليه دمعة، على ماذكره جماعة لازموه.

قال: وهذه الوقعة لم يتفق للفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه الوقعة في هذه المدة، ولما رأى السلطان ماحل بالمسلمين من هذه الوقعة النادرة جمع أصحابه وشاورهم وقرّر معهم أنه يهجم على الفرنج، ويعبر على الجسر، ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم، وكان الفرنج قد رحلوا عن صور ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ، فلما صمم العزم على ذلك، رحل الفرنج عائدين إلى صور ملتجئين إلى سورها، فرأى رحمه الله أن يسير إلى عكا ليلحظ مابني من سورها ويحث على الباقي، فراح على تبنين ولم يرجع على مرج عيون، فمضى إلى عكا فرتب

أحوالها، وعاد إلى العسكر بمرج عيون منتظراً مهلة صاحب الشقيف، ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه أن جماعة من رجالة العدوّ يتبسطون، ويصلون إلى جبل تبنين يحتطبون، وفي قلبه من رجالة المسلمين وماجرى عليهم أمر عظيم ، فرأى أن يقرر قاعدة كمين يرتبه لهم وبلغه أنهم يخرج وراءهم أيضا خيل تحفظهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تبنين أن يخرجوا في نفر يسير عابرين على تلك الرجالة، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عينها لهم، وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو حتى إن تحركوا في نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم، وركب هو وجحفله إلى الجهة التي عينها لهزيمة عسكر تبنين حتى قطع تبنين، ورتب العسكر ثمانية أطلاب، واستخرج من كل طلب عشرين فارساً وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم، وينهزموا بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم يقدّمهم الملك لعنه الله، وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتال شديد، والتزمت السرية القتال وأنفوا من الانهزام بين أيديهم، وحملتهم الحمية على مخالفة السلطان، واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الأمر، وقد هجم الليل فبعث بعوثاً كثيرة فعاد الفرنج ناكصين على أعقابهم، وقتل من الفرنج عشرة أنفس، ومن المسلمين ستة: اثنان من الترك، وأربعة من العرب منهم الأمير زامل، وكان شاباً حسن الشباب يتقدم عشيرته، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه ففداه ابن عمه بفرسه فتقنطرت به أيضاً وأسر هو وثلاثة من أهله، فلما بصر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ. وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة.

قال: ومن نوادر هذه الوقعة أن مملوكاً من مماليك السلطان يقال له أيبك أثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تشخب دماً، وبات ليله أجمع على تلك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثاء فتفقده أصحابه فلم

يجدوه فعرّفوا السلطان فقده، وأنفذ من يكشف عن حاله فوجدوه بين القتلى فحملوه إلى المخيم، وعافاه الله، وعاد السلطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر فرحاً مسروراً.

وقال العماد: اجتمع من كان سلم من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خلص من الأسر، وقالوا: نحن في جمع جم خارج عن الحصر، وقد تواصلت إلينا أمداد البحر فثربنا للثار، وأعرنا من هذا العار، وجاء من كان بطرابلس وخيموا على صور، واتفقوا أنهم يقصدون بلداً إسلامياً من الساحل، ويقيمون عليه والمركيس يمدّهم من صور بالمدد والعدد، ثم جاء الخبر أنهم على قصد صيدا للحصر، وقد جسروا على عبور الجسر، ووقعت عليهم اليزكية فردوهم، ووقع في الأسر من سباعهم سبعة، فحملوا إلى سجن دمشق، ثم ذكر قتلهم للغزاة المطوعة على الجسر، وقال: لم يصب الكفار من المسلمين مذ أصيبوا غير هذه الكره، وأذاقونا بعد أن حلالنا جنا الفتوحات مرارة هذه المرة، فأيقظنا الله من رقدة المغره، وأخذ الناس حذرهم، وقالوا: بهذا وعد الله حيث قال: (فيقتلون ويقتلون)(٨٩) وعباده هم الذين يتبعون أمره ويمتثلون، ثم ذكر وقعة الكمين. قال: وكان مع المسلمين أربعة من أمراء العرب، فحملوا كما وصاهم السلطان على عزم الطراد ليقصدوا الكمين، وسلكوا أسفل الوادي، وإنما الطريق أعلاه، ولاخبرة لهم بتلك الأرض، فعرف الفرنج أنهم ضائعون فطاردوهم وردّوهم إلى المضيق، وأنفت العرب من الهزيمة فاستشهدوا، قال: وكان معهم مملوك للسلطان يقال له أيبك الساقي فاعتزل إلى صخرة واحتمى بها، ونكب كنانته ورماهم بنشابها، وهم لايقدرون على الاقتحام إليه بالخيل، فرموه بالزنبورك، حتى كثرت فيه الجراحات، وظنوا أنه قد مات، ووصل الخبر إلى المسلمين فأدركوهم، ووقفوا على الشهداء وقبروهم، وجاؤوا إلى أيبك فوجدوا فيه الروح فنقلوه إلى الخيام ، وهم يظنون إنه لاخلاص له من الحمام، وكان في أجله باقية. فمن الله عليه بالعافية.

فصل

في نزول الفرنج خذلهم الله على عكا

قال القاضي ابن شداد: ثم بلغنا بعد ذلك أن الفرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو النواقير يريدون جهة عكا، وأن بعضهم نزل باسكندرونه، وجرى بينهم وبين رجالة المسلمين مناوشة وقتل منهم المسلمون نفراً يسيراً وأقاموا هناك، ولما بلغ السلطان حركتهم إلى تلك الجهة عظم عليه، ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيلهم عن الشقيف لاقصد المكان، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب فوصل قاصد أخبر أن الفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا ونزلوا عين بصه، ووصل أوائلهم إلى الزيب، فعظم عنده ذلك، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بالمسير إليه، وتقدم إلى الثقل أن سار بالليل، وأصبح هو يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائراً إلى عكا على طريق طبرية إذ لم يكن ثم طريق يسع العسكر إلا هو، وسير جماعة على طريق تبنين يستشرفون العدوّ ويواصلون بأخباره، وسرنا حتى أتينا الحولة منتصف النهار، فنزل بها ساعة ثم رحل وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له مينة صبيحة الثلاثاء وفيه بلغنا نزول الفرنج على عكا، وسير صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه، واشتد حنقه عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئاً، وسار السلطان جريدة من المينة حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تبنين بمرج صفورية فإنه كان واعدهم إليه، وتقدم إلى الثقل أن يلحقه إلى مرج صفورية، ولم يزل حتى شارف العدو من الخروبة، وبعث بعض العسكر ودخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها، ولم يزل يبعث إليها بعثاً بعد بعث حتى حصل فيها خلق كثير،وسار من الخروبة إلى تل كيسان في أوائل مرج عكا،

فنزل عليه وأمر الناس أن ينزلوا على التعبية، فكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو، وآخر الميمنة مقارب تل العياضية، واحتاط العسكر الاسلامي بالعدو، وأخذوا عليهم الطرق من سائر الجوانب، وتلاحقت العساكر الاسلامية، واجتمعت ورتب اليزك الدائم وحصر العدو في خيامه بحيث لايخرج منها أحد إلا يجرح أو يقتل، وكان عسكر العدو على شطر من عكا وخيمة ملكهم على تل المصلبين قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً، قال: ومارأيت من نقصهم عن ذلك، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك، ومددهم من البحر لاينقطع. وجرى بينهم وبين اليزك مقاتلات عظيمة متواترة، والمسلمون يتهافتون على قتالهم، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل والملوك والأمراء من الأقطار تتابع، ووصل تقي الدين من حماه ومظفر الدين بن زين الدين، وفي اثناء هذه الحال توفي الحسام سنقر الخلاطي وفاة بأسها شديد، وكان شجاعاً ديناً، فأسف المسلمون عليه.

ولما استفحل أمر الفرنج استداروا بعكا، بحيث منعوا من الدخول والخروج منها، وذلك سلخ رجب، فعظم على السلطان وضاق صدره وثارت همته العالية في فتح الطريق إلى عكا لتستمر السابلة إليها بالميرة والنجدة، فباكرهم مستهل شعبان وضايقهم مضايقة شديدة، فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة، وانتشر عسكر العدو إلى أن ملكوا التلول، وكانت ميسرة عسكرهم إلى البحر الحلو آخذة إلى البحر الملح وميمنتهم قبالة القلعة الوسطى التي لعكا، واتصلت الحرب إلى أن حال بين الفئتين هجوم الليل، وبات الناس على حالهم من الجانبين شاكين في السلاح تحرس كل طائفة نفسها من الأخرى، وأصبحوا ثاني شعبان يوم السبت على القتال، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف شمالي عكا، فانكسروا بين أيديهم كسرة عظيمة وقتلوا منهم جمعاً كبيراً، والتفت

السالمون منهم إلى خيامهم و هجم المسلمون خلفهم إلى أوائل خيامهم، ووقف اليزك الاسلامي مانعاً من أن يخرج من عسكرهم خارج أو يدخل إليه داخل وانفتح الطريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش الذي جدّده، وصار الطريق مهيعا يمر فيه السوقي ومعه الحوائج ويمر به الرجل الواحد والمرأة، واليزك بين الطريق وبين العدو، ودخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا، ورقي على السور، ونظر إلى عسكر العدو وتراجع الناس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقي الدواب وأخذ الراحة، ولم يعودوا إلى القتال، وأصبحوا يوم الاحد فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الراجل كله إلى عكا ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو من ورائه، وتركب العساكر من خارج من سائر الجوانب، ويحملوا حملة الرجل الواحد والسلطان رحمه الله تعالى يعاني هذه الأمور كلها بنفسه، ويصافحها بذاته لايتخلف عن مقام من هذه المقامات، وهو من شدّة حرصه، ووفور همته كالوالدة الثكلى، ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الاحد لم يتناول من الغداء إلّاشيئاً يسيراً لفرط اهتمامه، وفعلوا ماكان عزموا عليه واشتدت منعة العدو وحمى نفسه في خيامه، ولم تزل سوق الحرب قائمة تباع فيها النفوس بالنفائس، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومترائس، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان، عزم العدو على الخروج بجموعهم، فخرج راجلهم وفارسهم، وامتدوا على التلول وساروا الهوينا غير مفرطين في نفوسهم ولاخارجين من راجلهم، والرجالة حولهم كالسور المبني يتلو بعضهم بعضاً حتى قاربوا خيام اليزك، فصاح السلطان بالعساكر الاسلامية فركبوا بأجمعهم وحملوا حملة الرجل الواحد، فعاد العدو ناكصاً على عقبيه والسيف يعمل فيهم فالسالم منهم جريح، والعاطب طريح، يشتدون هزيمة يعثر جريحهم بقتيلهم، ولايلوي الجماعة منهم على قبيلهم، حتى لحق بخيامهم من سلم منهم وانكفوا عن القتال أياماً، وكان قصاراهم أن يحفظوا

نفوسهم، ويحرسوا رؤوسهم ، واستمر فتح طريق عكا والمسلمون يترددون إليها.

قال: وكنت ممن دخل ورقى على السور، ودام القتال بين الفئتين متصلاً الليل مع النهار حتى كان الحادي عشر من شعبان، ورأى السلطان رحمه الله توسيع الدائرة عليهم لعلهم يخرجون إلى مصارعهم، فنقل الثقل إلى تل العياضية وهو تل قبالة تل المصلبين مشرف على عكا وخيام العدو، وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طمان، وكان من شجعان المسلمين ودفن في سطح هذا التل وصليت عليه مع جماعة من الفقهاء ليلة نصف شعبان، وبلغ السلطان أن جمعاً من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النهر مما ينبت عليه فكمن لهم جماعة من العرب وقصد العرب لخفتهم على خيلهم، فهجموا عليهم وقتلوا منهم خلقاً عظيماً وأسروا جماعة وأحضروا رؤوساً عدة بين يديه، وذلك يوم السبت تاسع عشر شعبان، وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حرب عظيمة قتل فيها جمع عظيم من الطائفتين، وطال الأمر بين الفئتين وما يخلو يوم عن قتل وجرح وسبي ونهب، وأنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة، وسئموا يوماً فقالوا: إلى كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ، نريد أن يصطرع صبيان: صبي منا، وصبي منكم، فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الفرنج، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه وضرب به الأرض، وأخذه أسيراً فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين، وقالوا: هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه.

قال: ووصل مركب فيه خيل فهرب منها فرس ووقع في البحر، ومازال يسبح وهم حوله يردّونه حتى دخل ميناء عكا وأخذه المسلمون.

قلت: وذكر العماد كل هذه الوقائع والنوادر في كتابه بألفاظه المسجوعة، وقال: كان من رأي السلطان أن يسايرهم في الطريق ويواقعهم عند المضيق، ويقطعهم عن الوصول، ويدفعهم عن النزول، فإنهم إذا نزلواصعب نزالهم، وأتعب قتالهم، وقالوا: —يعني أمراءه— بل نمضي على أسهل الطرق، فسار الثقل من الليل على طريق الملاحة، وسرنا على جب يوسف إلى المينه، وجئنا عصر يوم الثلاثاء والسلطان نازل بأرض كفر كنا، ونزل يوم الأربعاء على جبل الخروبة، ونزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر محيطين بها للحصر، وضرب الملك العتيق خيمه على تل المصلبة، وربطب مراكبهم بشاطىء البحر فكانت كالآجام المؤتشبه، ثم عبر السلطان بجيشه ونزل بمرج عكا على تل كيسان، وصرنا محاصرين المحاصرين، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط، واستشطنا منه وهو مستشيط، واحدقنا بأولئك الكفرة إحاطة النار بأهلها، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها، ورتبنا بالزيب والنواقير رجالاً يصدونهم عن سبلها ،ودمنا نصدّهم ونصدمهم، ونوجدهم في البحر ونعدمهم، واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز، وزادوا من جانبنا في التحرّز وذلك في آخر رجب لانسلاخه، و الاسلام ينادينا باستصراخه، وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان وقد اتفقت الآراء على أن يكون اللقاء وقت الصلاة عند ارتفاع الدعوات على المنابر الإسلامية، فأحاط العسكر الاسلامي بجوانبهم فكدر عليهم صفو مشاربهم وقلل مضاء مضاربهم وهم في مواضعهم واقفون، وعلى مصارعهم عاكفون وفي مواطنهم ثابتون، كالبنيان المرصوص مافيه خلل، وكالحلقة المفرغة ماإليها مدخل، وكالسور المحيط ماعليه متسلق وكالجبل الأشم مافيه متعلق، فزحفنا إليهم فلم يبرحوا وقربنا منهم فلم ينزحوا، وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يعطوها، وكلما قتل واحد وقف آخر مقامه حتى دخل الليل وحجز، وحملوا من الغد من جانب البحر شمالي عكا فانهزم الفرنج إلى تل المصلبين نحو القبة، وثبتوا عند الوثبة،

وانفتح لنا طريق عكا فدخلها الرجال، وحملت إليها الغلال، والفرنج قد رهبوا ولو قدروا لهربوا، وأصحابنا رأوا أن انفتاح باب البلد غنيمة، فتوقفوا عن تمام العزيمة، ولو أنهم استمروا لباد العدو بصرعه، فإن للصدمة الأولى في الروع روعه، فبلع العدو ريقه، ووجد إلى الجلد طريقه، ووقفوا كالسور من وراء الجنويات والتراس والقنطاريات، وضربوا الجروخ وفوقوها وجمعوا العدد وعلى الرجال فرقوها وكانوا في عدد الرمل ومذد النمل، وهم في كل يوم في ازدياد، والبحر يمدهم بالامداد، وشرعوا في حفر الخنادق، وسد المضائق ونصب الطوارق والسلطان ساهر للمسلمين في ليلهم قائم بأمرهم في نهارهم، ومن كتاب فاضلي في بعض الوقعات: «فاستدارت بهم رجال الجاليشية تقذف شياطينهم بشهابها، وتهوي إلى أوكار أفئدتهم طيور نشابها، وتجنيهم من القنا والنشاب ثمر الردّا متشابها، وقد ارتفع الاسلام إلى درجات سيذكر أمرها، وانخفض الكفر إلى دركات سيمر ذكرها، فالنصر خافق علمه، وكتاب البشارة قد استمد قلمه، وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيما يأتي، فتأهبت الخواطر لمعاني المسار، واعدت ألفاظه البشرى المهداة إلى كافة البشر من الاستبشار، فإن الفرنج محصورون، والنازل المحصور كالمركب المكسور، والنصر قد أعرب لعسكر الاسلام والكفر جار ومجرور .

فصل

في المصاف الاعظم على عكا وهي الوقعة الكبرى التي بدأت بالسوء وختمت بالحسنى

قال القاضي ابن شداد: لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحركت عساكر الفرنج حركة لم يكن لهم مثلها عادة، فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم، واصطفوا خارج خيمهم قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الانجيل محمول مستور بثوب أطلس مغطى يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه وهم يسيرون بين يدي الملك، وامتدت الميمنة في مقابل ميسرة المسلمين من أولها إلى آخرها، وامتدت ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها، وملكوا رؤوس التلال، فكان طرف ميمنتهم إلى النهر، وطرف ميسرتهم إلى البحر، وأمر السلطان الجاووش أن ينادى في الناس: يالالاسلام وعساكر الموحدين، فركب الناس وقد باعوا أنفسهم بالجنة، وامتدت الميمنة إلى البحر كل قوم يركبون ويقفون بين يدي خيامهم والميسرة إلى النهر كذلك أيضاً، وكان السلطان قد أنزل الناس في الخيم ميمنة وميسرة وقلبا على تعبية الحرب، حتى إذا وقعت صيحة لايحتاجون إلى تجديد ترتيب ، وكان هو في القلب، وفي ميمنة القلب ولده الأفضل ثم ولده الظافر ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البكنكري، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين صاحب الحصن، ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابلس، ثم قايماز النجمي ،و جموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة، وكان في طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطل على البحر، وأما أوائل الميسرة فكان سيف الدين علي بن أحمد المشطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدّميهم ، والامير مجلي وجماعة المهرانية والهكارية، ومجاهد الدين يرنقش مقدّم عسكر سنجار وجماعة

من المماليك، ثم مظفر الدين بن زين الديـن بجحفله وعسكره، وأواخر الميسرة كبـار المماليك الأسـدية كسيف الـدين يـازكـوج ورسلان بغـا، وجماعة الأسديـة الذي يضرب بهم المثل وفي مقدمة القلـب الفقيه عيسى وجمعه، هذا والسلطـان رحمه الله تعالى يطوف على الأطلاب بنفسـه يحثهم على القتـال، ويدعـوهم إلى النـزال، ويرغبهـم في نصرة دين الله، ولم يـزل القوم يتقـدمون والمسلمـون يقدمـون حتى عـلا النهار، ومضـى فيه أربـع ساعـات، وعند ذلـك تحركت ميسرة العـدو على ميمنة المسلمين وأخـرج لهم تقي الـدين الجاليـش وجرى بينهم قلبـات كثيرة، وتكاثـروا على تقي الديـن، وكان في طرف الميمنة على البحـر فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم لعلهم يتعـدون عن أصحـابهم فينال منهم غـرضاً، فلما رآه السلطـان قد تأخر ظـن به ضعفاً فأمـده بأطلاب عدّة مـن القلب حتى قوي جـانبه، وتراجعـت ميسرة العدو، واجتمعـت على تل مشرف على البحـر ولما رأى الذيـن في مقابلـة القلب ضعـف القلب، ومـن خرج منـه من الأطـلاب داخلهم الطمع وتحركـوا نحو ميمنة القلب، وحملـوا حملة الرجل الـواحد راجلهـم وفـارسهـم، قـال: ولقـد رأيـت الـرجـالـة تسير سير الخيـالـة ولايسبقونها وهم يسيرون خبباً وجاءت الحملة على الـديار بكرية كما شاء الله تعالى، وكان بهم غـرة عن الحرب، فتحركوا بين يـدي العدو وانكسروا كسرة عظيمـة، وسرى الأمـر حتـى انكسر معظـم الميمنـة واتبـع العـدو المنهزمين إلى العياضيـة، فإنهم استداروا حول التل وصعدت طـائفة من العدو إلى خيـم السلطان فقتلوا طشـت دار كان هناك، وفي ذلـك اليوم استشهد اسماعيل المكبس، وابن رواحة رحمهما الله تعالى، وأما الميسرة فإنها ثبتت فـإن الحملة لم تـصادفها وأما السلطـان رحمه الله فإنه أخـذ يطوف على الأطـلاب ينهضهم ويعـدهم الـوعود الجميلـة ويحثهم على الجهـاد، وينـادى فيهم: يـاللاسـلام، ولم يبق معـه إلا خمسة أنفـس وهو يطـوف، ويتخـرق الصفوف، وآوى إلى تحت التـل الـذي كـان عليه الخيـام، وأمـا المنهزمون من العسكـر فإنهم بلغت هزيمتهم إلى الأقحوانـة قاطع جسر

طبرية، وتم منهم قوم إلى دمشق، وأما المتبعون لهم فإنهم أتبعوهم إلى العياضية فلما رأوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم وجاؤوا عائدين إلى عسكرهم،فلقيهم جماعة من الغلمان والخربندية والساسة منهزمين على فعال الخمل فقتلوا منهم جماعة، ثم جاؤوا على رأس السوق فقتلوا جماعة، وقتل منهم جماعة، فإن السوق كان فيه خلق عظيم، ولهم سلاح وأما الذين صعدوا الخيم السلطانية فإنهم لم يلتمسوا شيئاً أصلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرناه وهم ثلاثة نفر، ثم رأوا ميسرة الإسلام ثابتة فعلموا أن الكسرة لم تتم، فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم، وأما السلطان فإنه كان واقفاً تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا إلى الحملة على العدو ،فلما رأى الفرنج نازلين على التل أرادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم واشتدوا يطلبون أصحابهم، فصاح في الناس وحملوا عليهم وطرحوا منهم جماعة واشتد الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم والطرد وراءهم، فلما رآهم منهزمين والمسلمين وراءهم في عدد كثير ظنوا أن من حمل منهم قد قتل، وأنه إنما نجا منهم هذا النفر فقط، وأن الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الهرب والهزيمة، وتحركت الميسرة عليهم وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة، وتحايا الرجال وتداعت، وتراجع الناس من كل جانب وكذب الله الشيطان ونصر الايمان، وظل الناس في قتل وطرح وضرب وجرح إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكر العدو، فهجم المسلمون عليهم في الخيام ، فخرج منهم أطلاب كانوا أعدوها خشية من هذا الأمر مستريحة، فردوا المسلمين، وكان التعب قد أخذ من الناس والخوف والعرق قد ألجمهم، فتراجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في القتلى ودمائهم فرحين مسرورين، وعاد السلطان وجلسوا في خدمته يتذاكرون من فقد منهم، فكان مقدار من فقد منهم من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفراً، ومن المعروفين استشهد في ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى رحمه الله، ولقد رأيته وهو جالس يضحك

والناس يعزونه وهو ينكر عليهم ويقول: هذا يوم الهناء لايوم العزاء، وكان قد وقع هو من فرسه رحمه الله وأركبه، وقتل عليه جماعة من أقاربه، وقتل في ذلك اليوم الأمير مجلي يعني ابن مراون، وزاد العماد: والحاجب خليل الهكاري.

ثم قال القاضي: هذا الذي قتل من المسلمين وأما العدو المخذول فحزر قتلاهم بسبعة آلاف نفر، ورأيتهم وقد حملوا إلى شاطيء النهر ليلقوا فيه فحزرتهم بدون سبعة آلاف، ولما تم على المسلمين من الهزيمة ماتم رأى الغلمان خلوا الخيام عمن يعترض عليهم فإن العسكر انقسم إلى منهزمين، ومقاتلين فلم يبق في الخيم أحد، ورأوا الكسرة قد وقعت فظنوا أنها تتم وأن العدو ينهب جميع مافي الخيم، فوضعوا أيديهم في الخيم ونهبوا جميع ماكان فيها وذهب من الناس أموال عظيمة، وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعا، فلما عاد السلطان إلى الخيم ورأى ماقد تم على الناس من نهب الاموال والهزيمة سارع في الكتب والرسل في رد المنهزمين، وتتبع من شذ من العسكر والرسل تتتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبه فيق فردوهم وأخبروهم بالكرة للمسلمين، فعادوا وأمر بجمع الأقمشة من أكف الغلمان، وجمع الأقمشة في خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي، وهو جالس ونحن حوله وهو يتقدم إلى أن كل من عرف شيئاً وحلف عليه يسلم إليه، وهو يتلقى هذه الأحوال بقلب صلب، وصدر رحب، ووجه منبسط ورأي مستقيم، واحتساب لله تعالى، وقوة عزم في نصر دينه.

وأما العدو المخذول فإنه عاد إلى خيمه وقد قتلت شجعانهم، وقعدت ملوكهم، وطرحت مقدموهم، وأمر السلطان أن خرج من عكا عجل يسحبون القتلى إلى طرف النهر ليلقوا فيه.

قال: ولقد حكى لي بعض من ولي أمر العجل أنه أخذ خيطاً، وكان

كل ماأخذ قتيل عقد عقدة فبلغ عدد قتلى الميسرة أربعة آلاف ومائة وكسراً، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدّهم فإنهم ولي أمرهم غيره، وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه، وأقاموا في خيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم، وتشذب من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب الهزيمة، فإنه مارجع منها إلا رجل معروف خاف على نفسه والباقون ذهبوا في حال سبيلهم، وأخذ السلطان في جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها، وأقام المنادية في العساكر وقرن النداء بالوعيد والتهديد، وهو يتولى تفرقتها بنفسه بين يديه، واجتمع من الأقمشة عدد كثير في خيمته حتى أن الجالس في أحد الطرفين لايرى الجالس في الطرف الآخر، وأقام من ينادي على من ضاع منه شيء فحضر الخلق وصار من عرف شيئا وأعطى علامته حلف عليه وأخذه من الحبل والمخلاة إلى الهميان والجوهرة، ولقى من ذلك مشقة عظيمة، ولايرى ذلك إلا نعمة من الله تعالى يشكر عليها ويسابق بيد القبول إليها، ولقد حضرت يوم تفرقه الأقمشة على أربابها فرأيت سوقاً للعدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم منها، وكان ذلك في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان.

قال: وعند انقضاء هذه الوقعة وسكون نائرتها، أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخرّوبة خشية على العسكر من أراييح القتلى وآثار الوقعة من الوخم، وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل، وضربت له خيمة عند الثقل، وأمر اليزك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه، واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر، ثم أمرهم بالاصغاء إلى كلامه، وكنت من جملة الحاضرين، ثم قال: بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله، اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا، وقد وطىء أرض الاسلام، وقد لاحت لوائح النصرة عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولابد من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب.علينا

ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل وهو واصل، وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ،و الرأي كل الرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك، وكان ذلك في ثالث عشر تشرين، —يعني— الثاني من الشهور الشمسية، فانفصلت أراؤهم على أن المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب، واستولى على نفوسهم الضجر، وتكليفهم أمراً على خلاف ماتحمله القوى لاتؤمن غائلته، والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل ونستعيد من شذ من العساكر ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجالة، وكان بالسلطان رحمه الله التياث مزاجي قد عراه من كثرة ماحمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام، فوقع له ماقالوه ورآه مصلحة فأقام يصلح مزاجه، ويجمع العساكر إلى عاشر رمضان.

قال: وكان لما بلغه خبر العدو وقصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون، وشاورهم فيما يصنع، وكان رأيه رحمه الله أن قال: المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد، وإلا إن نزلوا جعلوا الرجالة سوراً لهم وحفروا الخنادق وصعب علينا الوصول إليهم وخيف على البلد منهم، وكانت إشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد، وكان الأمر كما قال والله لقد سمعت منه هذا القول ،وشاهدت الفعل كما قال.

وقال العماد: عبأ السلطان ميمنته وميسرته، وطلب من الله نصرته، وهو يمر بالصفوف، ويأمر بالوقوف، ويحض على حظ الأبد، ويحث على الجلاد والجلد، قال: وكنت في جماعة من أهل الفضل، قد ركبنا في ذلك

اليوم ووقفنا على التل نشاهد الوقعة، ونحن على بغال بغير أهبة قتال، فرأينا العسكر مولياً، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخلياً فوصلنا إلى طبرية فيمن وصل، ووجدنا ساكنها قد أجفل، فسقنا إلى جسر الصنبرة ونزلنا على شرقيه، وكل منا ذاهل عن شبعه وريه، ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق، وهو غير مفيق، ومنهم من وصل إلى دمشق وهو غير معرج على طريق، ووصل جماعة من الفرنج إلى خيمة السلطان وجالوا جولة، ثم رأوا انقطاع أشياعهم عنهم فانحدروا عن التل واستقبلهم أصحابنا، فركبوا أكتافهم، وحكموا في رقابهم أسيافهم، وكان ميسرتنا عسكر سنجار والأسدية فما زالوا ولازالوا بل وصلوا وصالوا، وحملت عليهم ميمنة الفرنج فكأنما مرت الرياح بالجبال، وعاد من كان من الميمنة مثل تقي الدين وقايماز النجمي والحسام بن لاجين، ومن ثبت من أبطال المجاهدين، فلم يفلت من الأعداء إلا أعداد، ولم ينج من آلافها إلا آحاد، وفرس منهم زهاء خمسة آلاف فارس منهم مقدم الداوية الذي كنا أطلقناه، وذكر أنهم في مائة ألف وعشرين ألفاً حين سألناه، ثم ضربنا عنقه —وقال في الفتح: وعشرة آلاف ــ قال العماد: ومن العجب أن الذين ثبتوا منا لهم لم يبلغوا ألفاً، فردوا مائة ألف وآتاهم الله قوة من بعد ضعف، وكان الواحد يقول: قتلت من المثلثين ثلاثين وأربعين، وتركتهم مصروعين، وكان السلطان من الثابتين في تلك الجولة، والكابتين لأهل الصولة، وقد بقي وحده عند تولي المسلمين، ولاشك أن الله أنزل ملائكته المسوّمين.

حكى بعضهم قال: كنت منهزماً من فارس مدجج قد لز بقربي حصانه، وهز لصلبي سنانه فأيست من البقاء، ثم أبطأت عليّ طعنته فالتفت فإذا هو وحصانه كلاهما ملقى ومابالقرب أحد، فعرفت أنه نصر إلهي وصنع رباني.

قال: وعاد السلطان إلى مضاربه. وأمر بمواراة الشهداء ومن جملتهم

الفقيـه أبو علي بـن رواحه، وكـان ،غزيـر الفضـل قد أكمـل الشجاعـة والرجـاحة، وهو شـاعر مفلق وفقيـه محقق، مـن ولد عبد الله بـن رواحه الصحابي الأنصـاري، في الشهادة والشعر معرق، فطـرفه الأعلى يوم مـؤته مع جعفر الطيار، وطرفة الأقرب يوم عكا في لقاء الكفار.

قال في البرق: وكان السلطان قد أنعم عليـه في حلب بمزرعة، وكتبت توقيعـه، وأراد الله تعويقه إذ قـرب إلى الآخرة طـريقه، وحملت تـوقيعه إلى السلطـان تلـك الليلـة ليعلـم فيه فما علـم وراجعتـه في معنـاه فسكـت وماتكلم، وكان ساعة الوقعة راكبـاً معنا ثم قال: وقوفنا يطول فمضى إلى خيمته يتودع فلما علـم باندفاعنـا ساق وراءنا فقطع عمـره قبل أن يقطع الوادي، وكان قـال لنا لما أصبح: رأيت رجلاً يحلـق رأسي في المنام، فقلنا له: هذا من أضغاث الاحلام، فنقله الله بعد ساعة إلى دار السلام.

قلت: وليس هـو من أولاد ابن رواحة الصحـابي، ذاك لم يعقب، وإنما في أجداده من اسمه رواحة، وقد بيناه في التاريخ، والله أعلم.

قال: ومنهم اسماعيل الصوفي الأرمـوي المكبس، وشيخ من الحاشية في بيت الطشـت، وغلام في الخزانة أمين على البيـت، وآخرون صودفـوا عند التـل فجـاءتهم السعادة، وفجـأتهم الشهـادة وهـؤلاء سوى مـن وقـع في الوقعة، وذهب قبل الـرجعة، وأجمع السلطان وذووا الآراء على أنه يصبح القوم، فتفقدوا العسكر فإذا هو قـد غاب لما بان من الأمر وراب، وذلك أن غلمان العسكـريـة والأوبـاش ظنـوا أن تلك الفـورة هـزيمـة، فنهبـوا الاثقال وعدّوها غنيمـة، فمن عاد إلى رحله وجده منهوبـاً مسلوباً، وكان في ظنه أنـه فرغ مـن لقاء خطـب فلقي خطـوباً، وأصبحنـا وإذا العسكر مفترق والثابـت قلق والآمـن فرق، والغنـي معدم، والجريء متنـدم، فهذا خلف ماذهـب من ماله ذاهب، وهذا لمن طلـب الطريق بأثقالـه طالب، فتفتر ذلك العـزم، وتأخـر ذلك الحكـم، وانتعش الفـرنج في تلـك المدة

وانتشلوا من تلك الشدة، وجاءتهم في البحر مراكب أخلفت من عدم، وبنت ماهدم، وشكونا نتن رائحة تلك الجيف فحملت على العجل إلى النهر ليشرب من صديدها أهل الكفر، فحمل أكثر من خمسة آلاف جثه حملت إلى النار قبل يوم البعثة، وأشير على السلطان بالانتقال إلى الخروبة عند خيم الأثقال المضروبة، فسار إليها رابع رمضان، وأمر أهل عكا باغلاق أبوابها، وإحكام أسبابها، فوجد الفرنج بذلك الفرج، وشرعوا في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر، وأخرجوا ماكان في مراكبهم من آلات الحصر، وفي كل يوم يأتينا اليزكية بخبرهم، وبما ظهر من أثرهم، والجد في تعميق الخندق وتتميم حفرهم، فكان من قضاء الله أنا أغفلناهم، وأمهلنا هم بل أهملناهم حتى عمقوا الحفور، ووثقوا من ترابها السور، فكانوا يخندقون ويعمقون ويعملون من تراب الحفر حولهم سوراً ، فعاد مخيمهم بلداً مستوراً معموراً، فملؤوه بالستائر، ومنعوه من الطير الطائر، وبنوه وأسسوه وستروه وترسوه، ورتبوا عليه رجالاً، ولم يتركوا إليه لواغل مجالاً، وتركوا فيه أبواباً وفروجاً ليظهروا منها إذا أرادوا خروجا، ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحصر، وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا، وبان ضعف رأي الانتقال فإنه بعدما أضحك أبكى.

وجاء كتاب من الفاضل إلى العماد جواباً عن كتابه المخبر فيه بوقعة مرج عكا يقول فيه: «وعرفت ماجرى على قضيته، فسبحت الله تعالى فإن من عجائب قدرته سلامة سيدنا على ضعف حركته، والأمر كان عظيماً، والمدفوع أعظم، والسلامة كانت غريبة إلا أن نقول ولكن الله سلم، والسلطان أعزه الله إذا سلم فكل الناس قد سلموا، وإذا وجد وقد عدم الناس كلهم فقد وجدوا وماعدموا، وكل جوهر بالإضافة إليه عرض ، وهو جوهر بالحقيقة ماعنه من كل جوهر عوض» ومن كتاب له إلى السلطان أ وّله:(ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين)(٩٠)

الآيـة (ومـارميت اذ رميـت ولكن الله رمـى) (٩١) ورد الكتاب بخط
مـــــــــــولانـــــــــــا مـــــــــــن
معترك حربه وجـلاده وتوفيق جهاده،قبل أن تضـع الحرب أوزارها، وهرع الناس إلى المجلس العادلي والعزيزي يسقعـون الأخبار، ويستوضحون من وجوهها الأنوار، ويسألون كيف كانت عـاقبة أهل الجنة وعاقبة أهل النار، ويشكرون الله على سلامـة أديانهم، وقلوبهم وأبدانهم، وسـلامة سلطانهم، ومأدراك ماسلامـة سلطانهم، ونصرة كلمة ايمانهم، ودلائل الخير لاتخفى، وقد يقـرأ الكتاب ومـايلمح قارئه منـه حرفا، وتصـوّرّ الناس الأمـر الذي وقاهم الله شره وكفاهم أمره.

فصل

في باقي حوادث السنة بمرج عكا وغيره

قال العماد: وفي يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ أصحابنا بعكا مركبا للفرنج إلى صورمقلعا محتويا على ثلاثين رجلاً وامرأة واحدة ورزمةمن الحرير، وجاءت حظوة حلوة، وغنيمة صفوة، وقد كان انكسر نشاطهم، وانقبض انبساطهم، فلما عثروا بالمركب انتعشوا وصاروا يخرجون ويقتلون ويجرحون، ويمسون على القتال ويصبحون، وندم الفرنج على تلك الحركة، فإنها أفضت بهم إلى الهلكة، فانهم ماداموا رابضين، وعلى يد الصبر قابضين ، يتعذر الوصول إليهم، والدخول عليهم.

وفي بعض الكتب إلى بعض الأطراف:«والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك همم المؤمنين في تسكين ثأرهم، وتخريب عامرهم، ومادام البحر يمدّهم والبر لايصدهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم، فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين، وغيرة أهل اليقين، وماينقضي عجبنا من تظافر المشركين، وقعود المسلمين،فلا ملبي منهم لمناد، ولا مثقف لمنآد، فانظروا إلى الفرنج أي مورد وردوا،وأي حشد حشدوا، وأي ضالة نشدوا، وأية نجدة أنجدوا، وأية أموال غرموها وأنفقوها، وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها، ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم إلا جارى جاره في مضمار الانجاد، وبارى نظيره في الجدّ والاجتهاد، واستقلوا في صون ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمدّوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح مع أكفاء الكفاح، ومافعلوا مافعلوا ولا بذلوا مابذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم، والنخوة لمعتقدهم، وليس أحد من الفرنجية يستشعر أن الساحل إذا سلك ورفع فيه حجاب عزهم وهتك،يخرج بلد عن يده، وتمتدّ يد إلى بلده ،والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنواوفشلوا وغفلوا

وكسلـوا ولزمـوا الحيرة، وعدمـوا الغيرة، ولو انثنـى والعياذ بـالله للاسـلام عنان، أو خبا سنا ونبا سنان لما وجـد في شرق البلاد وغربها، وبعد الآفاق وقربها، من لدين الله يغار، ومـن لنصرة الحق على الباطل يختار، وهذا أوان رفض التواني، واستدناء أولي الحميـة من الأقاصي والأداني، على أنا بحمد الله لنصره راجون، ولـه باخلاص السرّ وسرّ الخلاص مناجـون، والمشركون بإذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون».

قال العماد: وكان السلطـان قد كتب إلى مصر يستدعي بـأخيه العادل في رجـال، فتقدم علىـه منتصف شـوّال،وكتب أيضـا في طلب الاسطـول المصري، فقـدمت خمسـون قطعـة مع حسـام الديـن لـؤلؤ منتصـف ذي القعـدة، فجاءت فجـأة على مراكـب الفـرنج وبغتتهـا وسحقتها وبـددتها وكسبتهاو سلبتهـا، وظفر ببطستين كبيرتين بما فيهما مـن أموالهم ورجـالهم وغلالهم، قال: وهذا لؤلؤ قد اشتهـرت بالكفر فتكاته، وشكرت في العدوّ نكاياته، وقد تفرد بغزواته لم يشاركـه فيهاأحد، وهو الذي ردّ الفرنج عن بحر الحجاز، ووقف لهم على طرق المجـاز، ولم يترك منهم عينا تطرف، ولم يبق لهم دليـلا يعرف، وغزواته مشهـوره وفتكاته مـذكوره، وأمواله مبـذولة وأكياسه لعقد الانفاق في سبيل الله محلولة.

قال: ونقل السلطان الى البلد في المراكب جماعة من الأمراء بأجنادهم، وعددهم وأزوادهـم، واستظهر البلد أيضا بـرجال الأسطول، وكانوا زهاء عشرة آلاف، هذا ورجـاله المسلمين يتطـرقون إليهم ليـلا، ويذيقـونهم من القتل والأسر والسرقة والإسار.

قال: ولما عرف صاحب الموصل ماشرع فيه السلطان من تكثير العدّة، وتقوية النجـدة بكل مايمكنه من أسباب البـاس والشدة، سير من أحمال النفط الأبيـض—مع عزة وجوده— مـاوجده ، ومن التراس والرمـاح من كل جنـس أحكمه وأقومه وأجـوده، وكتبنا في شكره:«وصل السـلاح وتم

للاسلام من قروح الكفـر الاقتراح ، فان الحروب المتطاولة المدد أتت على جميع العـدد، ومن العجـب أن تفنى العدة ومـا يفنى العـداة، وتنمو على الحصاد كأنها النبات، فالبحر يمدهم والكفر إلى الردى يردهم»

ومن كتـاب إلى الديوان:« قـد مضت ثـلاثة أشهر شهـر بها التثليث على التوحيـد سلاحه، وبسـط الكفر جناحيه وقتـل من الفرنـج وعدم في الوقعات التي روّعت الروعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل من فـارس وراجل ورامح ونـابل، فما أثر ذلـك في نقصهم، ولا أرث إلاّ نار حـرصهم، وليـس هذا العـدّو بواحـد فيفجع فيـه التدبير ويـأتي عليه التدمير، وإنما هـو كل من وراء البحـر، وجميع مـن في ديار الكفر، فـإنه لم يبق لهم مدينـة ولا بلد ولا جزيرة ولا خطـة صغيرة ولا كبيرة ، إلاّ جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرز ساكنها وبـرز كامنها، وثار ثائرها، وسار سـائرها، وطـار طائرهـا، ونقضت خـزائنها، وانفضـت معادنها، وحملـت ذخائرهـا، وبذلت أخـائرها، ونثلت كنائن كنـائسها، واستخرجـت دفائن نفائسها، وخرج بصلبـانها أساقفها وبطاركها، وغصت بـالأفواج فجاجها ومسالكهـا، وتصلبت للصليب السليـب، وتعصبت للمصـاب المصيب، ونادوا في نواديهم بـأن البلاد هي بلادهـم، وأن اخوانهم بالقدس أبـارهم الاسلام وأبادهم، وإنه من خرج من بيته مهاجراً لحرب الاسلام وهبت له ذنوبه، وذهبت عنه عيـوبه، ومن عجز عن السفر سفر بعدّتـه وثروته من قدر، فجاؤوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحداد،وتواصلت منهم الامداد»

قال:« ووصلـت في مركـب ثلاثمائة امرأة فـرنجية مستحسنـة اجتمعن مـن الجزائر، وانتـدبـن للجـرائر، واغتربـن لاسعـاف الغـربـاء، وقصـدن بخروجهن تسبيل أنفسهـن للاشقياء، وانهن لايمتنعن من العـزبان، ورأين أنهن لايتقربـن بأفضل من هـذا القربان، وزعمن أن هـذه قربة مافـوقها قربة، لاسيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة».

قال:«وأبـق من عسكـرنا مـن المماليك الأغبيـاء، والمدابير الجهلاء جماعـة جذبهم الهوى، واتبعـوا من غوى، فمنهـم من رضي للـذة بالذلـة، ومنهم مـن ندم على الـزلة، فتحيـل في النقلة، فـإن يد مـن لايرتـدلاتمتدّ، وأمـر الهارب إليهم لاتهامه يشتدّ، وباب الهوى عليه يستـدّ، وماعند الفرنج على الغرباء إذا أمكنت منها العزب حرج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعزبـان المضيفين من فرجها فـرج». قال:ووصلت أيضاً في البحـر امرأة كبيرة القدر، وافـرة الوفر، وفي جماعتهـا خمسمائة فارس بخيولهم وأتبـاعهم، وغلمانهم وأشياعهم، وهي كافلة لكل مـايحتاجون إليه من المؤنة، زائدة بما تنفقـه فيهم على المعـونـة، وهـم يركبـون بـركبـاتها ، ويحملون بحمـلاتها، ويثبون لـوثباتها، وفي الفـرنج نساء فـوارس، لهن دروع وقوانـس، وهن في زي الرجـال يبرزون في حومـة القتال ويعملـن على أرباب الحجـى، وهنّ ربات الحجال، وكل هذا يعتقدن أنه عبادة، ويخلن أنهن يعقدن به سعادة ويجعنله لهنّ عادة، فسبحان الذي أضلهنّ، وعن نهج الهدى أزلهنّ».

وفي يوم الـوقعة طلعـت منهنّ نسـوة لهنّ بالفـرسان أسـوة، وفيهنّ مـع لينهـنّ قسوة، وليـس لهنّ سـوى السوابـغ كسوة، فما عـرفـن حتى سلبـن وعـرّين، ومنهـنّ عـدّة سبين واشترين، وأمـا العجـائز فقد امتـلأت بهنّ المراكـز وهن يشـدّدن تـارة وتـارة يرخين، ويحرضـن وينخين، ويقلـن إن الصليب لايرضـى إلا بالإباء، وإنه لابقاء إلا بالفنـاء، وإن قبر معبودهم تحت استيـلاء الأعـداء، فـانظـر الى الاتفـاق في الضـلال بين الـرجـال والنساء».

قال: وفي آخرهـذه السنة ندب السلطان الرسـل إلى الاقطار والأمصار للاستنفـار والاستنصـار، وبـث الكتـب وكتب بـالبـث، وحـث الرسـل وراسل بالحث، وسرّح عـدنان النجاب إلى سيف الاسـلام باليمن، وشرح في الكتـاب إليه مـاجرى مـن حوادث الـزمن، ووصـف له جليـة الحال، وطلـب منه الإعـانة بـالمال، وكوتـب مظفر الـدين قـزل أرسلان بهمـذان

ببعث مادنا منه عزمـه ودان، وحكم على كل ملك بحجة الايمان، وهدى الى محجـة الاحسـان، ووصل الى السلطـان رسـول ابـن أخيه لأمـه ركـن الديـن طغرل بـن أرسلان بـن طغرل بـن محمد بـن ملكشاه، وهـو آخر السلاطين السلجوقية يتظلم من عمـه قزل أرسلان، ويطلب من السلطان إعانته، فاعتذر السلطان بما هو عليـه من شغل الجهاد مع الكفار، وأرسل رسولاً في السفارة بينه وبين عمه جمال الديـن أبا الفتح اسماعيل بن محمد ابن عبـد، لكونه نسيـب العماد، وكتب إلى صـاحب إربل وإلى حسـن بن قفجاق ونائبه بشهـرزور بالتوفر على خدمته، والارتيـاد لمصلحته، واشياعه ومعونته.

قال: وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الـدين سنقر الخلاطي أخص مماليـك السلطان وأخلصهم، وقد قـدّمه على مماليكـه، وكانت وفاتـه ليلة الاثنين والعشرين من رجب.

قال: وفي ثالـث عشر شعبان توفي الأمير حسام الديـن طمان صاحب الرقة، وهو مـن المجاهدين المجتهدين، والأتقيـاء المتجهدين، ولما حضرته الوفاة تـأسف من موته على فـراشه،وطلب حصانه ليركبـه وينتقل سعيدا شهيداً إلى معاده من معاشه.

قال: وفي تاسـع عشر شعبان توفي الأمير عز الـدين موسك بـن جكر، وهو ابـن خال السلطان، وهـومن أكابـر أقاربه، ومقـدّمي كتائبـه، وكان للقرآن حافظا، وعلى الإحسان محافظا، ولقضـاء حقوق الناس ملاحظاً، ولم يزل للسلطان في هـذه الغزوات ملازما، وعلى قمع جمع الكفـر عازما، ولما اشتدّمرضه استأذن في الدخول إلى دمشق ودفن بجبل قاسيون.

قال: وفي حـادي عشر رمضان توفي بدمشـق القاضي شرف الديـن بن أبي عصرون،ومـولـده في أوائل سنـةاثنتين وتسعين وأربعمائة، فبلـغ عمـره

ثلاثا وتسعين سنة ونصفا، وأضر قبل وفاته مدّة عشر سنين، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بدمشق قبالة داره بينهما عرض الطريق، وكان شيخ المذهب، وقد ختمت به الفتيا، وأوحشت غيبته الدين والدنيا.

قال: وفي تاسع ذي الحجة توفي الأمير الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري في العسكر بمنزلة الخروبة، وكان صاحب أسد الدين شيركوه، ومضى معه إلى مصر حين ملكها، ثم اختص بالسلطان بعده،وتولى حله وعقده، ودرّت بوساطته وشفاعته للناس أرزاق، ونقل إلى القدس فدفن بظاهره، ولقد كان من الأعيان،ومن أهل الجدّ في نصرة الايمان ، فنقله الله إلى الجنان.

قال: وفي هذه السنة أقطع السلطان مملوكه مجاهد الدين إياز ولاية شهرزور وأعمالها، وولى جمال الدين بن المحسن نقابة الاشراف بدمشق.

قال: وفي عاشر جمادى الأولى منها، كان مولد ناصر الدين محمد بن الملك العزيز بمصر، الذي اجتمع عليه أصحابه بعد وفاة أبيه في محّرم سنة خمس وتسعين، وورد بذلك إلى السلطان جدّه كتاب كريم فاضلي من مصر نسخته:« المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، دام رشاده وارشاده، وزاد سعده واسعاده، وكثرت أولياؤه وعبيده واعداده، واشتدّ باعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عدده، حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده، وينهي ان الله وله الحمد رزق الملك العزيز عز نصره ولداً مباركا عليا، ذكراً سوياً، براً ذكيا، تقيا نقيا، من ذرية كريمة(بعضها من بعض) (٩٢) ، ومن نبت شريف كادت ولاته تكون ولاة في السماء، ومماليكه تكون ملوكاً في الأرض، وكان مقدمه الميمون في ليلة الأحد أولى العدد، وبه وبآله يعز الله أهل الجمعة ويذل أهل الأحد »ثم ذكر باقي الكتاب

-٨٧٠٣-

فصل

في ورود خبر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد:ولما دخل شهر رمضان من سنة خمس وثمانين وصل من حلب كتب من ولده الظاهر، يخبر فيها أنه قد صح إن ملك الألمان خرج إلى القسطنطينية في عدة عظيمة قيل مائتا الف، وقيل مائتان وستون ألفا، يريد البلاد الاسلامية، فاشتدّ ذلك على السلطان وعظم عليه، ورأى استنفار الناس للجهاد واعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة، فاستندبني لذلك، وأمرني بالمسير إلى صاحب سنجار،وصاحب الموصل، وصاحب إربل واستدعاهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى بغداد، فسرت حادي رمضان، ويسر الله تعالى الوصول في الجماعة، وابلاغ الرسالة إليهم فأجابوا إلى ذلك بنفوسهم، وسير صاحب الموصل علاء الدين ابنه بمعظم عسكره، ووعد الديوان بكل جميل، وعدت إليه خامس ربيع الآول سنة ست وثمانين، وسبقت العساكر وأخبرته بإجابتهم وتأهبهم للمسير،فسر بذلك.

وقال العماد في كتاب الفتح: ونمى الخبر بوصول ملك الألمان إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قصد العبور إلى بلاد الإسلام، وقطع بلد الروم والأرمن إلى الشام، وفيهم ستون ألف فارس مدّرع، ومعهم ملوك وكنود، وكل شيطان لربه كنود، وكتب صاحب قلعة الروم مقدّم الأرمن وهو في قلعته على الفرات، وبين أهل الذمة في المأمن يبدي تنصحا واشفاقا وتخوفا على البلاد واحتراقا، ويقطع أن الواصلين في كثرة، وأن الناهضين إلى طريقهم في عثرة، وأبرق في كتابه وأرعد، وأبدع في خطابه وأبعد، ولاشك أنه إلى جنسه النجس مائل، وبملاءة أهل ملته قائل، ولما وصل هذا النبأ، قيل إنه عظيم، وورد هذا الخبر، وخيل إنه أليم، كاد الناس يضطربون على أنهم يصدّقون ويكذبون ، ومن طرف

كـل حبل مـن الـرأي يجذبون، وقلنـا: إن وضح هـذا الخطـر، وصح هـذا الخبر، فالمسلمـون يقومون لنـا ولايقعدون ، ويغضبون لله ولا يـرضون أنهم لايعضدون، على أن الله ناصرنا، ومؤازرنا ومظاهرنا، وحققنا باظهار القوّة لمن استوحش التأنيس ، وبثثنا بالارسـال إلى بلاد الروم عيونا وجواسيس، ونـدبنـا رسـل الاستنصـار، وبعثنـا كتـب الاستنفـار الى جميـع الأمصـار والأقطار، وقلنا مـاهذه المـرّة الى مرّه، لايسيغها إلاّ كل مـرّ أبيّ، وماهذه الكرة مثل كل كرة، ولايحضرنا إلا كل كميش كمي.

قال: وعوّل السلطان على ارسال القاضي بهاء الـدين بن شداد يوسف ابن رافع بن تميم، ليكون كتابه إلى الديـوان العزيز مع رسول كريم، وقال له: ماأحتاج أوصي، وأنت توفي القول وتستقصي، وجعل له إلى كل طرف في طريقـه رسالـة، وأودعه إليه مقـالة، فسـار ووصل إلى حلـب والقاضي ضياءالدين بـن الشهرزوري رسول السلطان ببغداد قد عـاد، وذكر أنه قد بلغ المراد، فما هذا الرسول الـرائح، ووصل وهو مغتاظ وتغير عليّ، ونسب انفاذ القاضي بهاء الـدين إليّ، ثم اجتمع بـالسلطان وندّمه على مـاقدّمه، وأعلمه بما عمله وعلمه، وقال له: الشغل قـد فرغ، والقصد قد بلغ، وقرّر مـع السلطان أمـراً ، وعاد على النجـب إلى بغـداد، وصادف بها القـاضي بهاء الديـن بن شداد، فلـم يسفر أمر سفارتـه عن سداد، وقيـل: جواب ماأتيت فيه مع ضياء الدين نسيره، ونندبه فيما نتخيره.

وقـال في كتاب البرق: وصـل الخبر بخروج ملـك الألمان من بـلاده في مائتـي ألف دارع، وفي راجل في دبيـب رجل الـدبا، في عدد رمـل اللوا، وأقام بمحشرهـم القيامة، واستثارهـم لثـار كنيستهم بالقدس قمامة، وساروا في شهـور حتـى وصلـوا قسطنطينيـة، وكـان ملـك الـروم يكتـب إلينـا بأخبارهم ونبأ خروجهم من ديـارهم، ويقول: أنا لا أمكنهم من العبور، فلما جاؤوا لم يقـدر على منعهم، فصـدّعنهم الأزواد، وحـرمهم الإسعـاد، وعبروا الخليـج وقـد كثـرت أمـدادهـم، وقلـت أزوادهـم، ولما وصلـوا إلى

حـدود بـلاد الاسـلام، وسلكـوا في الأوديـة والآجـام والـوهـود والآكـام، تسلمهـم تركمان الأوج، وتـراكـم الثلوج وشتـا الكـلاب في كلب الشتـا، واحتاجـوا إلى أكل الدواب، واحراق عـددهم لإعواز الأحطاب، وعـدموا العلف، وماوجدوا الخلف، ومناهل الزلال جـامدة، وهم بالبلاد جاهلون، ومن البـلاء ناهلون، لايقطعـون في يومين فـرسخا، وقد أذهـب الله عنهم البركة، وصعب عليهم الحركة، وخرج الامر عن حسابهم، وهم كل يوم في نقص أنفسهم ودوابهم، وكـانوا يدفنون مـن اعلاقهم النفيسة، وعـددهم الكريمة الرئيسـة، مايعجزون عن نقله، ولايخفون بثقلـه، فاتخذوا لأسرارها من اضلاع تلك الشعاب، وصدور تلـك الوهاد والهضاب ضمائر لاتبوح بها أبـداً، ولاتطلع على مكنـونها ومـدفونها أحـدا، هـذا وبحـرهم عبـاب الموج، وهباب الفـوج، فلما خلصوا بعـد أشهر كـأنهم زخروا بمـوج سبعة أبحر، هذا وقدنقـص شطرهـم، وانقطع ظهرهـم، لكنهـم عرضوا في الستين ألف مـدّرع مدجـج مقنع، ذلـك وقد بـاد أكثر راجلهـم، وترجـل معظم أبطال باطلهم، وسيأتي باقي أخبارهم.

قلت: ومن قصيدة للحكيم أبي الفضل الجلياني:

يـامنقـذ القـدس مـن أيـدي جبـابـرة
قـد أقسمـوا بـذراع الـرب تـدخلـه

فـاكـذبـوا كـذبهم في وصـف ربهم
وصـدّق الـوعـد مـأمـونـا تحوّلـه

أمـار أيـت ابـن أيـوب استقـل بها
يعيـي الـزمـان وأهليـه تحملـه

هـاج الفـرنـج وقـد خـار والفتكتـه
فـاستنفـروا كـل مـرهـوب تغلغلـه

لما سبـى القـدس قـالـوا: كيـف نتركهـا
والـرب في حفـر منهـا تمثلـه

فكـم مليـك لهم شـق البحـار سرى
لينصروا القبر والأقـدار تخذلـه

وكـــم تـــرحـــل منهـــم فيلـــق بفـــلا
إلى الخوامـــع ألقـــاه تـــرحلـــه
استصرخـــوا الأهـــل والعـــدوى تمزقهـــم
واستكثـــروا المال والهيجـــا تنفلـــه
هـــم الفـــراش لهيـــب الحرب تصرعـــه
كلما الـــج صـــد مـــا جـــل مقتلـــه
سيـــف امـــام فلسطين يـــرى اممـــا
خلـــف البحـــار لقـــد أمهـــاه صيقلـــه
كـــم أعـــدّوا وكـــم قـــد فـــل جمعهـــم
مـــن غير ضرب ولا طعـــن يـــزيلـــه
وإنما اسـم صـــلاح الـــديـــن يـــذكـــر في
جيـــش العـــدّو فيسبيهـــم تخيلـــه

-٨٧٠٧-

ثم دخلت سنة ست وثمانين

قال العماد رحمه الله: والسلطان مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة في خيامه المضروبة على الحالة المحبوبه، وعنده العادل والأفضل والمظفر، وعكا محصورة، وانقضت هذه السنة، وهو على مرابطة المحاصرين لعكا، واتفق في أوائل هذه السنة وقبلها انصراف العساكر الغريبة إلى بلادها البعيدة والقريبة لهجوم الشتاء وتوالي الأنداء والأنواء، وحالت الوحول عن الركوب والنزول، وكانت نوب اليزك مترتبة، والأحوال متهذبة، وربما ركب السلطان يوماً للقنص بالبزاة، ثم يعود لانتهاز فرصة الغزاة، ثم وقعت وقعة الرمل، وذلك أنه ركب يوما في صفر فتصيد، وطاب له قرب القنص فأبعد، واليزكية على الرمل وساحل البحر، فخرج الفرنج في وقت العصر في عدد لايدخل في الحصر، وتسامع أصحابنا بهم، فزحفوا اليهم، وحكموا عليهم، وطردوا عليهم إلى خيامهم، وأخذوا من خلفهم وأمامهم ، ولهم في كل دفعة من العدّو قلائع ، وللفرنج في كل كرة على الرمل مصارع، حتى فني النشاب وبقي الانتشاب، وشاع نداء الاصحاب باستدعاء النشاب، والفرنج لايعجزهم إلا الرما ولايهتكهم إلا الاصما، فلما أنسوا بخلوا الجعاب، تجاسروا على الدنو من تلك الشعاب، وحملوا حملة واحدة ردوا بها أصحابنا إلى النهر، وكادت تعبث بهم يد القهر، فتبث من العادلية في وجوه القوم صف مرصوص البنيان، واستشهد جماعة من الشجعان، وذلك أنهم لما ردّوا والفرنج قلعوا فرسانا، وصرعوا أقرانا، فنزلوا بعد فرسهم بسلب لبسهم، فمرّت بهم الحملة في الأوبه، وأعجلتهم عن الركبة والوثبة، وأظلم الليل وافترق الجمعان، وكثر التأسف على من فقد، ومنهم الحاجب أيد غمش المجدي.

قال: ومن عجائب هذه الوقعة أن مملوكا للسلطان يقال له سرا سنقر عثر به جواده، فقبض من أسره على شعره ليجذبه وسل آخر سيفه

ليضربه، فضرب يـد قابـض شعره فسيبه، واشتـدّ سرا سنقر يعـدو ، وهـم خلفه فلم يدركوه، وعاد السلطان من الصيد وقد انفصل الأمر.

قـال: وفي يوم الأحـد خامـس عشر ربيع الاوّل تسلـم شقيف أرنـون بالأمان، وكان الحصار قد استمر عليـه حتى فني زاده، وصاحبه أرناط في الأسر، فسلمه بخلاصه وصار إلى صور.

قال:واغتنـم السلطان هيجـان البحر، وحضور مـراكب الاسطـول من مصر، فما زال يقـوّي عكـا بتسيير الغـلات والقـوّات إليهـا في المراكـب، ومـلأها بـالذخـائر والأسلحة والكماة، فلما سكـن البحر عـادت مراكـب الفرنج إلى مراسيهـا، ودبت عقاربها وأفاعيها، وشدّت مـراكبنا في موانيها، وانقطع خبر البلد، وامتنع عليه دخول المدد، فانتـدبت العوّام بالسباحة، وحملهـم على ذلك مـن السلطان السماحـة، حتى صـاروا يحملون نفقـات الأجناد على أوساطهم، ويخاطرون بأنفسهـم مع احتياطهم، ويحملون كتبا وطيورا ويعودون بكتـب وطيور، ونكتب إليهم، ويكتبـون إلينا على أجنحة الحمام بالترجمة المصطلـح عليها،وكـان في العسكر مـن اتخذ حماما يطـوف على خيمته، وينـزل في منزلته، وعمـل لها برجـا من خشب، وهـوادي من قصب، ويـدرّجها على الطيران مـن البعد، وكنا نقـول: مالهذا الـولع، بما لاينفع حتـى جاءت نـوبة عكـا فنفعت، وشفـت الغليل ونقعـت، وأتت بالكتـب سارحـة شارحـة، وكنا نطلبها منـه مع الليـل والنهار، حتـى قل وجودها لكثـرة الارسال، ولقد عطب عـوّامون، فما ارتدع الباقـون، ومنهم من سلم مراراً من القوم فاجترأ وأنس بالعوم.

فصل

في قدوم الملوك وحريق الأبراج

قال العماد: ولما انقضى الشتاء،وانفتح البحر، وحان زمان القتال، جاءت العساكر الاسلامية من البلاد، فكان أوّل من وصل الملك المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر، وعز الدين ابراهيم بن المقدّم، ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان، وحشود من العرب والتركمان،فرحل السلطان وتقدّم وعزم على طلب العدّو وصمم، ونزل على تل كيسان يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأوّل، ورتب عسكره فكان تقي الدين في آخر الميمنة، والعادل في آخر الميسرة، والأفضل في أوّل ميمنة القلب، وأخوه الظافر في أوّل الميسرة على الجنب، ثم وصل الظاهر في عساكرحلب، وعماد الدين محمود بن بهرام الأرتقي صاحب دارا وغيرهم من الملوك والمقاتلين، ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الاوّل، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التبن ببغداد، ووصل معه حملان من النفط الطيار ، وحملان من القنا الخطار وتوقيع بعشرين ألف دينار، يقترض على الديوان العزيز من التجار، وخمسة من الزراقين النفاطين المتقنين صناعة الاحراق بالنار، فاعتد السلطان بكل ماأحضره ، وأخلص الدعاء للديوان العزيز وشكره، غير أنه أبدى ردّ التوقيع وقال كل مامعي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت محمولة إلى الديوان ، وأركب الرسول معه مراراً وأراه مبارك النزال، ومعارك القتال، حتى يشهد بما يشاهد، ويبين له المجتهد المجاهد، وأقام طويلا ثم استأذن في العود فرجع.

وقال القاضي ابن شداد: قبل السلطان جميع ماوصل مع الرسول، واستعفى من الرقعة والتثقيل بها. قال: وفي ذلك اليوم بلغ السلطان أن

الفرنج قد زحفوا على البلد وضايقوه ، فركب إليهم ليشغلهم بالقتال عن البلد، فقاتلهم قتالا شديدا إلى الليل، وخاف أن يهجم العدّو البلد، فانتقل إلى تل الحجل في خامس عشر ربيع الاوّل للقرب، قال: وفي صبيحة هذا اليوم وصل من البلد عوّام معه كتب تتضمن أنه قد طم العدّوبعض الخندق، وقد قوي عزم العدّو على منازلة البلد ومضايقته، فجدّد السلطان الكتب إلى العساكر بالحث على الوصول، وفي سحر ليلة سابع عشري ربيع الاوّل وصل ولده الظاهر، وفي آخر ذلك اليوم وصل مظفر الدين، وكان السلطان رحمه الله مايقدم عليه عسكر إلاّ ويعرضهم ويسير بهم إلى العدّو، وينزل بهم في خيمته ويمدّ لهم الطعام وينعم عليهم بما تطيب به قلوبهم إذا كانوا أجانب، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر، وينزلون بها مكرمين، قال: وكان العدّو قد اصطنع ثلاثة أبراج من خشب وحديد، وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ماذكر بحيث لاتنفذ فيها النيران، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال نشاهدها من مواضعنا عالية على الأسوار، وهي مركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة مايزيد على خمسمائة نفر على ماقيل ويتسع سطحه لأن ينصب عليه منجنيق، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين وأودعها من الخوف على البلد مالايمكن شرحه، وأيس الناس من البلد بالكلية، وتقطعت قلوب المقاتلة فيه، وكان قد فرغ عملها، ولم يبق إلاّ جرّها قريب السور، وكان السلطان رحمه الله قد أعمل فكره في إحراقها واهلاكها، وجمع الصناع من ا لزراقين والنفاطين، وباحثهم في الاجتهاد في احراقها، ووعدهم عليه بالاموال الطائلة، والعطايا الجزيلة، وضاقت حيلهم عن ذلك، وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي فذكر أن له صناعة في احراقها، وأنه إن أمكن من الدخول إلى عكا وحصل له الأدوية التي يعرفها أحرقها فحصل له جميع ماطلبه ودخل الى عكا وطبخ تلك الأدوية مع النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار، ثم ضرب البرج الواحد يوم وصول الملك الظاهر بقدر فاشتعل

من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء، فاستغاث المسلمون بالتهليل والتكبير، وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب، فبينما الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثاني بالقدر الثاني، والثالث بالثالث فاحترقا كالأوّل، وركب السلطان والعساكر وسار إليهم وانتظر ان يخرجوا فيناجزهم عملا بقوله ﷺ:« من فتح له باب خير فلينتهزه»، فلم يظهر العدّو من خيامهم ، وحال بين الطائفتين الليل، واستمر ركوب السلطان إليهم في كل يوم وطلب نزالهم وقتالهم وهم لايخرجون من خيامهم لعلمهم بتباشير النصر والظفر بهم، والعساكر الاسلامية تتواتر وتتواصل، فوصل في الثاني والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي صاحب سنجار، وهو ابن أخي نور الدين رحمه الله وصهره وزوج ابنته، فلقيه السلطان بالإحترام والتعظيم، ورتب له العسكر في لقائه،وسار به حتى أوقفه على العدّو، وعاد معه إلى خيمته وأنزله عنده، وكان صنع له طعاما لائقا بذلك اليوم، فحضر هو وجميع أصحابه، وقدّم له من التحف، واللطائف مالا يقدر عليه غيره، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طراحة مستقلة إلى جانبه، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله، وضربت خيمته على طرف الميسرة على جانب النهر، وفي سابع جمادى الأولى وصل ابن أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، فلقيه السلطان وأنزله إلى جانب عمه عماد الدين. وفي تاسع جمادى الأولى وصل ابن صاحب الموصل، وهو علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، نائبا عن أبيه، ففرح السلطان به فرحا شديدا وتلقاه من بعيد هو وأهله، واستحسن أدبه وأنزله عنده في الخيمة، وكارمه مكارمة عظيمة، وقدْم له تحفا حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الأفضل والظاهر، وفي أواخر الشهر وصل صاحب إربل زين الدين يوسف بن زين الدين علي، فأكرمه السلطان وأنزله عند أخيه مظفر الدين يعنى في الميسرة.

وذكر العماد قدوم هؤلاء الملوك بمعنى ماتقدّم قال: وكان الفرنج مذ نزلوا على عكا صمموا على الاقامة والحصر، فشرعوا في بناء الأبراج العظام العالية، ونقلوا في البحر آلاتها وأخشابها الجافية،' واقطاع الحديد، وبنوا ثلاثة أبراج عالية في ثلاثة مواضع من أقطار البلد، وكل برج لابد له في أركانه من أربع اسطوانات عاليات غلاظ جافيات، طول كل واحدة خمسون ذراعا ليشرف على ارتفاع سور البلد، وبسطوها على دوائر العجل، ثم كسوها بعد الحديد والوثوق الشديد بجلود البقر والسلوخ، وكل يوم يقربونها، ولو ذراعا على حسب التيسير في تسييرها، وسقوها بالخل والخمر، وكشفوا من جوانبها الثلاثة سور البلد وشرعوا في طم الخندق، وجاء عوّام من عكا فأخبر السلطان فركب بالعسكر ولازمهم من الجمعة إلى الجمعة يقاتلهم صباح مساء ليشغلهم، فافترقوا قسمين فريق للقتال وفريق آخر مع الأبرا ج، فأشفى البلد وبقي له رمق ضعيف، ورميت الأبراج بكل قارورة نفط فما أثرت، ولم نشعر يوم السبت الثامن والعشرين من ربيع الأوّل بالأبراج إلاّ وقد اشتعلت، والتهبت ووقعت، وكانت آية من قدرة الله ظهرت، وذلك أنه كان بعكا شاب من أهل دمشق يعرف بعلي ابن عريف النحاسن، وكان أبدا يجمع آلات الزراقين مولعا، ولتحصيل عقاقيرها متتبعا، وكل من عرفه عذله وانكر عمله، وكان قد ألف منها مقادير وقدورا، وملأ بالغيظ من أهل تلك الصناعة صدورا، ولم يكن النفط من صناعته، ولكن الله وفقه لسعادته، فلما كان يوم حريقها جاء إلى الأمير قراقوش وهو مغتاظ واخلاقه فظاظ غلاظ، وقال: أتأذن لي في تصويب المنجنيق لأحرق البرج واللهولي التوفيق، فزجره وزبره ونهاه ونهره، وقال صناع: هذا الشغل قد خاروا وحاروا، وبعد ما انجدوا أغاروا، فقال الناس: دعه وشأنه، ومايدريك أن الله وفقه وأعانه، فرمى ابن العريف إلى البرج الأوّل قدور نفط خالية من نار حتى عرف انه سقاه وروّاه، ثم رماه بقدر محرقه، وأردفها بأخرى مزهقة، فتسلطت النارعلى طبقاتها، فأضرم على أهل

السعير سعيرا(وكان يوما على الكافرين عسيرا) (٩٣) ثم أحرق الثاني والثالث، فاجتمع عليه الأصحاب يفدّونه ومن الأولياء يعدّونه، وحملوه بعد ذلك إلى السلطان فلم يقبل عطاء، وقال: عملته لله فما أريد به من سواه جزاء، وقيل احترق في البرج الأوّل سبعون فارسا بعدّتها فحبطت أعمالهم وخابت آمالهم، وخرج رجالنا من البلد فنظفوا الخندق، وسدوا الثغر وأظهروا القدر بظهور القدر وجاؤوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها واستخرجوا الحديد من مكامنها، ونبشوا الرماد عن الزرديات التي انسبكت، وكشفوا عن الستائر التي تهتكت، فأخذوا ماوجدوا، وحصلوا مانشدوا.

قال: وكان السلطان قد كتب بالاستظهار من شوانى الاسطول والاسراع به في الوصول، فوصل الخبر بوصوله يوم الخميس ثامن الشهر، فاستظهر به الأسطول الأوّل الذي بالثغر ، فركب السلطان بجميع كتائبه، وأحاط بالكفر من جميع جوانبه واشتغل الفرنج عنا بمادهمهم في البحر، فجدّوا في الامر، وجهزوا اسطولا بعدد الرجال وعدد القتال ، وخرجوا لتلقي الأسطول الواصل، وقابلوا الحق بالباطل، وجاءت شواني المسلمين فنطحت وطحنت، وأخذت مركبا للعدّو برجاله، وأخذوا لنا قطعة، ومازالت الحرب قرعة وقرعة، وصرعة وصرعه، حتى دخل الليل فتحاجز الفريقان، وتفرّق الاسطولان، وكانت المقتلة في الكفر شديدة والسطوة مبيدة.

وقال القاضي ابن شداد: لما كان ظهيرة يوم وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ظهرت في البحر قلوع كثيرة، وكان رحمه الله في نظرة الاسطول من مصر فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله، فعلم أنه هو ، فركب والناس في خدمته وتعبأ تعبية القتال ، وقصده مضايقة العدّو ليشغله عن قصد الأسطول، ولما علم العدّوبالاسطول استعدّ له وعمر اسطوله لقتاله ومنعه من دخول عكا، ولما خرج اسطول العدّو واشتدّ

السلطـان في قتالهم مـن خارج، وسـار الناس على جـانب البحـر تقويـة للأسطول وإينـاسا له ولرجـاله التقى الاسطولان في البحـر، والعسكران في البر واضطـرمت نـار الحرب واستعـرت، وباع كـل فريـق روحـه براحتـه الأخروية، وجرى قتال شديد أقشع عن نصرة الاسطول الاسلامي، وأخذ منـه شيني وقتـل من بـه،ونهب جميـع مافيـه، وظفـر من العـدّو بمركـب أيضا، كـان واصلا مـن قسطنطينية، ودخـل الاسطول المنصـور إلى عكا، وكان قـد صحبه مراكـب من الساحل فيهـا مير وذخائر، وطابـت قلوب أهل البلد بـذلك، وانشرحت صدورهم، فـان الضائقة كانـت قد أخذت منهم، واتصل القتـال بين العسكرين من خـارج البلد إلى أن فصل بينهما الليل، وعاد كـل فريق إلى خيمه، وقـد قتل من عدّو الله وجـرح في ذلك اليوم خلق عظيـم، فإنهم قاتلوا في ثلاثـة مواضع، فإن أهـل البلد اشتدّوا في قتـالهم ليشغلـوهـم عـن الأسطـول أيضـا، والاسطـولان مقـابـلان، والعسكر من البر يقاتلهم، وكان النصر بحمد الله للمسلمين.

قال العماد: وقتلنـا منهم مـدّة مقامنـا على عكا سنتين أكثـر من ستين ألف، ورزأنـاهم بكل حتـف، وكلما أبادوا في البر زادوا من البحـر، وكم جسروا وخسروا، وقتلـوا وأسروا، وهزمـوا وكسروا، وخلفهـم خلـف، ويقـوم مقام مائتهـم ألف، وقد أفنينا أنفسهم وأموالهم، وقطعنـا أرزاقهم ووصلنا آجالهم.

فصل

فيما كان من أمر ملك الألمان

قال القاضي ابن شداد: تواصلت الأخبار بوصول ملك الألمان إلى بلاد قليج أرسلان، وأنه انتهض للقائه جمع عظيم من التركمان، وقصدوا منعه من عبور النهر، وأنه أعجزهم لكثرة خلقه، وعدم مقدّم لهم يجمع كلمتهم، وكان قليج أرسلان يظهر اشفاقه، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر من الفساد ماكان أضمره ووافقه وأعطاه رهائن معه على أنه ينفذ معه من يوصله إلى بلاد ابن لاون، وأنفذمعه أدلة يدلون به وعراهم في الطريق جوع عظيم وأعوزهم الزاد وقل بهم الظهر حتى أنهم ألقوا بعض أقمشتهم، ولقد بلغنا والله أعلم أنهم جمعوا عدداً كثيرة من زرديات وخوذ وآلات وسلاح عجزوا عن حملها، وجعلوها بيدرا واحدا وأضرموا فيها النار لتتلف ولاينتفع بها أحد، وأنها بقيت بعد ذلك رابية من حديد، وساروا على هذه الحال حتى وصلوا إلى طرسوس، فأقاموا على نهر ليعبروه وأن ملكهم الملعون عنّ له أن يسبح فيه، وكان ماء شديد البرد، وكان ذلك عقيب مانا له من التعب، وأنه عرض له بسبب ذلك مرض عظيم اشتدّ به إلى أن قتله، ولما رأى ماحل به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته، ولما مات أجمعوا رأيهم على أنهم سلقوه في خل، وجمعوا عظامه في كيس حتى يحملوه إلى القدس الشريف ويدفنوه فيه، وترتب ابنه مكانه على خلف من أصحابه، فإن ولده الأكبر كان خلفه في بلاده، وكان جماعة من أصحابه يميلون إليه، واستقر قدم ولده الحاضر في تقدّمه في العسكر، ولما أحس لافون بما جرى عليهم من الخلل وماحل بهم من الجوع والموت والضعف بسبب موت ملكهم، مارأى أن يلقي نفسه بينهم فإنه لايعلم كيف يكون الأمر، وهم فرنج وهو أرمني،فاعتصم عنهم في بعض قلاعه المنيعة، ولقد وصل إلى السلطان كتاب من الكاغيكوس، وهو مقدّم

الأرمن، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات، ومعنى هذا الاسم الخليفة، ونسخة الكتاب:«كتاب الداعي المخلص الكاغيوس مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الملك الناصر، جامع كلمة الايمان، رافع علم العدل والاحسان، صلاح الدنيا والدين، سلطان الاسلام والمسلمين، من أمر ملك الألمان وماجرى له عند ظهوره، وذلك أنه أوّل ما خرج من دياره دخل بلاد الهنكر غصبا، ثم دخل أرض مقدّم الروم وفتح البلاد ونهبها، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه، وأخذ منه خمسين قنطارا ذهباً وخمسين قنطارا فضة، وثياب أطلس مبلغا عظيما، واغتصب المراكب، وعدى بها إلى هذا الجانب، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان، وردّ الرهائن وبقي ثلاثة أيام سائراً وتركمان الأوج يلقونه بالاغنام والابقار الخيل والبضائع، فتداخلهم الطمع وجمعوا من جميع البلاد، ووقع القتال بين التركمان وبينهم، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوما وهو سائر، ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر، وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً فظفر به ملك الألمان وكسره كسرة عظيمة، وسار حتى أشرف على قونية، فخرج إليه جموع عظيمة من المسلمين فردّهم مكسورين، وهجم قونية بالسيف وقتل منها عالماً عظيما من المسلمين والفرس، وأقام بها خمسة أيام، فطلب قليج أرسلان منه الأمان، فأمنه الملك واستقر بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه الملك رهائن عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ففعل، وقبل وصوله إلى هذه البلاد أنفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده ومالقيه في طريقه، وأنه لابدّ يجتاز بهذه الديار اختياراً أوكرها، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك خاتمه وصحبته ماسأل، ومعه من الخواص جماعة للقاء الملك في جواب كتابه، وكانت الوصية معهم أن يحرّفوه على بلاد قليج أرسلان إن أمكن، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب وعرّفوه الاحوال أبى الانحراف، ثم كثر عليه

العساكر والجموع ونزل على شط بعض الأنهر وأكل خبزاً ونام ساعة وانتبه فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد، ففعل ذلك، وخرج وكان أمر الله أنه تحرّك عليه مرض عظيم من الماء البارد، فمكث أياما قلائل ومات، وأما لافون فكان سائراً يتلقى الملك، فلماجرى هذا المجرى هرب الرسل من العسكر وتقدّموا اليه وأخبروه بالحال، فدخل في بعض حصونه واحتمى هناك، وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه لقصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه، وتأكدت قواعده، وبلغه هرب رسل لافون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال: إن أبي كان شيخا كبيراً وانما قصد هذه الديار لأ جل حج بيت المقدس، وأنا الذي دبرت الملك وعاينت المشاق في هذه الطريق مع من أطاعني، والا كنت بدأت بقصد دياره واستعطف لافون، واقتضى الحال الاجتماع به ضرورة، وفي الجملة هم في عدد كثير، ولقدعرض عسكره فكان في اثنين وأربعين ألف مجفجفاً وأما الرجالة فلا يحصى عددهم، هم أجناس متفاوتة، وخلق غريبة، وهم على قصد عظيم، وجدّ في أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة، ولقد بلغنا عن بعض أكابرهم أنه جنى على غلام له وجاوز الحد في ضربه، فاجتمعت القسوس للحكم عليه، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه وشفع الى الملك منهم خلق عظيم، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه، وقد حرّموا الملاذ على أنفسهم حتى أن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه، وكل ذلك كان حزنا على بيت المقدس، ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدّة طويلة وحرّموها على أنفسهم ولم يلبسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الاكابر ذلك، وهم على الذل والشقاء، والتعب على حال عظيم».

وقال العماد: لما قاربوا بلاد عز الدين قليج أرسلان نهض إليهم ابنه قطب الدين ملك شاه،فوقع بينهم الحرب، ثم اندفع عنهم إلى مدينة قونية، فساقوا وراءه ودخلوها وحرقوا أسواقها ونزلوها، فنفذوا إلى

السلطان قليج أرسلان: إنـا لم نصل لأخـذ بلادك، وإنما ثـرنا لثـأر بيت المقدس، ونفذوا اليه هدايا وطلبوا الهدنـة فهادنهم، فتقوّوا من تلك البلاد بما أرادوا من العدد والأزواد، وأنفذ قليج الـدين أرسلان وابنه يعتذران الى السلطـان مـن تمكينهـم ثـم العبـور، وانهم غلبـوا على ذلـك، ثـم ان الالمانيةطلبـوا من قليج أرسـلان إنفاذ جماعـة من الأمراء معهـم يمنعونهم مـن لصوص التركمان حتـى يصلوا إلى بـلاد الأرمن، فنفـذ معهم خمسـة وعشرين، ووافـق ذلك غرض قطب الـدين، فإنـه كان كارها لجماعـة من المقدّمين فتقـدّم إليهم بـأن يكونـوا في صحبة ملـك الألمان فحملهم على الخطر وأوقعهم في الغرر، وورّطهم في الضرر، فإنهم ماقدروا في الطريق على دفـع كـل سارق، وقـد تبعهـم اللصـوص حتـى وصلوا إلى بـلاد الأرمـن ومقدّمهم لافون بـن أصطفان بن لاون، فأخذوا أولئك الـرهائن وقيدوهـم وجعلوهم في الاسر وجـرّدوهم، فمنهم من خلص بعـد حين بمال جزيل، ومنهـم مـن بقي مـأسـورا حتـى أتـاه اليقين، ووصل مقـدّم الأرمـن إلى خـدمته، ودخـل في طـاعتـه، وهداهـم لمقصـده، وقـام لهم بالضيـافـات والعلوفات، وذلـك في طرسوس، فتمكنوا بها ليريحوا النفـوس، فعن للملك الالمان أن يسبح في النهر لإماطـة مابه من الوضر، فعرض لـه مرض سلك بـه في سقـر، وقيـل: لما عبرت جموعـه النهـر ازدحموا والتطـم الموج بهم واقتحموا، وطلب هو موضعا يعبر فيه وحده، ويتبعه من بعده، فنزل على مخاضـة ذات مخافة، لايخلـو مـن هجمها مـن آفـة، فجرى إليهـا، واجترأ عليهـا، فجـذبتـه سـورة الماء إلى شجرة شجـت رأسـه ومجت أنفـاسـه، وأخرجـوه ونفسه على الخروج، وعمـره على الدروج، فتسلـم مالـك ملك الألمان بآله وأحمالـه إلى جهنم، وجلس ابنه مكـانه، واتبع شانـه، واستتبع رجاله وفرسانه، وقيل عـرض عسكره في نيف وأربعين ألف كمي، وانقطع عنه ابـن لاون واختلف عليه أصحاب أبيـه ميلا منهم إلى أخيـه، وساروا على سمـت انطـاكيـة في فـرق ثلاث كـأنهم مـن المرض قـد نبشـوا مـن أجداث، وأكثـرهم حملـة عصيّ وركاب حمير، وكـل بالأرض التـي يسلكها

غير خبير، فتبرم بهم صاحب أنطاكية، وثقلت وطأتهم المفاجئة، وحسن لهم طريق بلاد حلب فلم يروا ذلك الصوب من أرب، وطلب منه الملك قلعة انطاكية لينقل إليها ماله وخزائنه وأثقاله، فأخلاها له وسلمها اليه طمعا في ماله، وأموال رجاله، وكان على ماحدسه فإنه لم يعد إليها، واستولى الابرنس بأنطاكية عليها، وجاءت فرقة منهم ليلا إلى حصن بغراس، وظنوا أنه في أيدي أجناسهم الأنجاس، ففتح والي القلعة الباب، وأخرج الاصحاب، وتسلم تلك الأموال بأحمالها والصناديق بأقفالها، وأسر منهم وقتل كثير، وخرج بعد ذلك أهل حلب وجندها إلى طرقهم، وفرقوا بين فرقهم والتقطوهم من الخمر والغياض، وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثة، ولايرى من رفقائهم إغاثة، فهانت الألمانيةبعد تلك المهابة في الأنفس، وباعوهم في الاسواق بالثمن الأبخس، ولما تكامل وصول السالمين إلى أنطاكية، سلكوا إلى طريق طرابلس جبلة واللاذقية، فخرج عليهم رجالها فقتلوا منهم وأسروا، فما وصلوا إلى طرابلس إلاّ في خف ولم يسف ممن جاء مع الملك غير ألف، وجاؤوا إلى النازلين على عكا فغرقوافي لجهم، وخمدوا في وهجهم، ثم هلك على عكا بعد انقضاء مدّة، واقتضاء شدّة، بتاريخ ثاني عشر ذي الحجة سنة ست وثمانين.

وقال في الفتح: وجبن الملك عن السير على الطريق لما لقيت جموعه في طرقاتهم من التفريق، فركب البحر في عدد يسير لايزيد على الألف، برعب قلب وقصور يد ورغم، أنف، واختلط مع الفرنج على عكا فسقط وسخط حكمه، وهلك بعد قليل، ولم يحظ بنقع غليل،

وقال القاضي ابن شدّاد: مرض ولد ملك الألمان الذي قام مقامه مرضاًعظيماً، وأقام بموضع يسمى التينات من بلاد لافون، وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأربعون داوياً، وجهز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطريق ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم، ثم إن الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس ومقدّمها كند عظيم عندهم، وإن عسكر بغراس مع

قلته أخذ منهم مائتي رجل نهبا وقهراً، وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد، وقلة الخيل والظهر ، والعدد والالآت، ولما اتصل هذا الخبر بالنوّاب في البلاد الاسلامية أنفذوا إليهم عسكرا يكشفون أخبارهم، فوقع العسكر على جمع عظيم قد خرجوا لطلب العلوفة، فأغاروا عليهم، وقتلوا وأسروا زهاء خمسمائة نفس، ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول: هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة، قال: ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم فعبر منهم جمع عظيم ماوجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحا إلا النادر، فسألتهم عن ذلك، فقالوا: أقمنا بمرج وخم أياما وقلت أزوادنا وأحطابنا، فأوقدنا معظم عددنا ومات منا خلق عظيم، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها،ومات الكند الذي وصل إلى أنطاكية، وطمع لافون فيهم حتى عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تأخر معه،ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض.

قال:ولما تحقق السلطان وصول ملك الالمان إلى بلاد لافون وقربه من البلاد الاسلامية، جمع عسكر العدو الواصل، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدّو المقابل بباقي العسكر المنصور، فكان أوّل من سار صاحب منبج ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عز الدين ابن المقدم صاحب كفر طاب وبارين وغيرهما،ثم مجد الدين صاحب شيزر، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب، وسار إلى دمشق ولده الأفضل لمرض عرض له، وكذا بدر الدين شحنة دمشق، ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لايالة الطريق، وكشف الأخبار، وحفظ ماپليه من البلاد، وسار بعده الملك المظفر لحفظ ماپليه من البلاد وتدبير أمر العدّو المجتاز، ولما سارت هذه العساكر خفت الميمنة فان معظم من سار منها، فأمر رحمة الله عليه الملك العادل فانتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة، ووقع في العسكر مرض عظيم، فمرض مظفر الدين بن

زين الدين صاحب حران وشفي ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان وشفي، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم إلاّ أن المرض كان سليما بحمد الله تعالى، وكان المرض عند العدّو أكثر وأعظم، وكان مقترنا بموتان عظيم، وأقام السلطان مصابرا على ذلك مرابطاً للعدو.

قال العماد: وتقدّم السلطان بهدم سور طبرية وهدم يافا وأرسوف وقيسارية، وهدم سور صيدا وجبيل، ونقل أهلهما إلى بيروت وفي بعض الكتب السلطانية:« قد عرفنا خبر العدّوالمشؤوم الواصل من جانب الروم، وهذا أوان تحّرك ذوي الحميه، ونهوض أهل الهمم الأبية العلية، وانهم في كثرة مستنون في طريق العثرة، والسيل اذا وصل إلى الجبل الراسي وقف، والليل إذا بلغ إلى الصبح المسفر انكشف، فأين المؤدون فرض الجهاد المتعين، وأين المهتدون في نهج الرشاد المتبين، وأين المسلمون وحاشى أن تكونوا للاسلام مسلمين، وأين المقدّمون في الدين، ومعاذ الله أن لايكونوا في نصرته على الموت مقدمين، ولولا التقيد بهذا العدّو الرابض لأطلقت أعنة النهضة إلى العدّو الناهض، ولابد من لقائه قبل تلفق الجمعين واراءة الملاعين وجوه حتفهم ملء العين».

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد:« ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمدّهم البحر بمراكب أكثر عدّة من أمواجه، ويخرج منه للمسلمين ماهو أمر من أجاجه، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكه، فاذا قتل المسلمون واحداً في البر بعثوا ألفا عوضه في البحر، فالزرع أكثر من الحصاد، والثمرة أنمى من الجذاذ، وهذا العدّو المقابل قاتله الله قد زرّ عليه من الخنادق دروعا متينة، وأستجن من الجنانات بحصون حصينة، فصار محصوراً ومتمنعا حاسرا ومتدّرعا، مواصلا ومنقطعا، وعددهم الجم قد كاثر القتل، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل، لشدة ماقطعها النصل، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة في

استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لافي شجاعتهم، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية في الصحبة البدرية، «اللهم إن تهلك هذه العصابة» ويخلص الدعاء ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة، وقد حرّم باباهم لعنة الله عليه وعليهم كل مباح، واستخرج منهم كل مذخور، وأغلق دونهم الكنائس، ولبس وألبسهم الحداد وحكم عليهم أن لايزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة،فياعصبة محمد عليه السلام أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه، ووفه الحق فينا فإنا والمسلمون عندك ودائعه، ومامثل الخادم نفسه في هذا القول إلاّ بحالة عبد لو أمكنه لو وقف بالعتبات ضارعا، وقبل ترابها خاشعا، وناجاها بالقول صادعا، ولو رفعت عنه العوائق لهاجر وشافه طبيب الاسلام بل مسيحه بالداء الذي خامر، ولو أمن من عدّو الاسلام أن يقول قولا آخر لسافر، ولولا أن في التصريح مايعود على العدالة بالتجريح لقال مايبكي العيون، وينكي القلوب، ولكنه صابر محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب: ربّ إني لاأملك إلا نفسي، وهاهي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة، وولدي وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم، وهان عليّ محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم، ونقف عند هذا الحد ولله الأمر من قبل ومن بعد».

فصل

في الوقعة العادلية على عكا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة

قال القاضي ابن شداد:علم عدّو الله أن العساكر قد تفرقت في أطراف البلاد، وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من سار كان منها بحكم قرب بلادهم من طريق العدّو فأجمعوا رأيهم، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ويهجمون على طرف الميمنة فجأة، فخرجوا واستخفوا طرف الميمنة وفيها مخيم العادل، فلما بصر بهم صاح صائحهم، وخرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها، وركب السلطان ونادى مناديه: ياللاسلام، وكان رحمه الله أول راكب، ولقد ركب من خيمته، وحوله نفر يسير ثم خواصه، والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة لولدها والثاكلة لواحدها، ثم ضرب الكوس فأجابته كاسات الأمراء من أماكنها، وركب الناس وسارع الفرنج في قصد الميمنة حتى وصلوا إلى المخيم العادلي قبل استتمام ركوب العساكر، ودخلوا في وجاقه وامتدت أيديهم في السوق وأطراف الخيم بالنهب والغارة وقيل وصلوا إلى خيمة الخاص وأخذوا من شرا بخاناته شيئا، وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي قايماز النجمي، وعز الدين جرديك النوري ومن يجرى مجراه، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم في المخيم ويشتغلوا بالنهب، وكان كما ظن فانه عاثت أيديهم في الخيام ، والاقمشة والفواكه والطعام، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالناس وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين مودود، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصائح إلى خيامهم هاربين، وعلى أعقابهم ناكصين، وسيف الله يقتل فيهم، وصاح صائح السلطان في الناس: ياأبطال الموحدين هذا عدّو الله قد أمكن الله منه، وقد داخله الطمع حتى غشي خيامكم بنفسه، فبادر إلى اجابة دعوته أهل حلقته

وخاصته، ثم عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبي، وتتابعت العساكر وتجاوبت الأبطال، وقامت سوق الحرب فلم يكن إلاّ ساعة حتى رأينا(القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) (٩٤) وامتدوا مطروحين من خيام العادل إلى خيامهم، أولهم في الخيم الاسلامية وآخرهم في خيم العدّو صرعى على التلول والوهاد، وكان مقدار ماامتد فيه القتلى بين المخيمين فرسخاً، وربما زاد على ذلك، ولم ينج من القوم إلاّ النادر.

قال: ولقد خضت في تلك الدماء بدابتي، واجتهدت أن أعدهم،فما قدرت على ذلك لكثرتهم وتفرقهم، وشاهدت منهم امرأتين مقتولتين، وحكى لي من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن وأسر منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نفر يسير فإن السلطان كان قد أمر الناس أن لايستبقوا أحداً ، هذا كله في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلاّ وقد نجز الأمر، وقضي القضاء على العدو لبعد المسافتين ، وكانت هذه الوقعة فيما بين الظهر والعصر، فإن العدو ظهر في قائم الظهيرة، وانفصلت الحرب بعد العصر، وانكسر القوم حتى دخلت طائفة من المسلمين وراءهم الى مخيمهم على ماقيل، ثم إن السلطان أمر الناس بالتراجع، ولم يفقد من المسلمين أحد في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين، ولما أحس جند الله بعكا بما جرى بين المسلمين وبين العدو من الوقعة فإنهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السور خرجوا إلى مخيم العدّو من البلد، وجرى بينهم مقتلة عظيمة، وكانت النصرة والحمد لله للمسلمين، بحيث هجموا خيام العدّو ونهبوا منها جمعاً من النسوان والأقمشة حتى القدور فيها الطعام، ووصل كتاب من عكا يخبر بذلك واختلف الناس في عدد القتلى منهم، فذكر قوم أنهم ثمانية آلاف، وقال آخرون: سبعة آلاف ولم ينقصهم حازر عن خمسة آلاف، ولقد شاهدت منهم خمسة صفوف أوّلها في خيم العادل وآخرها في خيم العدّو، ولقد لقيت انسانا عاقلا جندياً يسعى بين

صفوف القتلى، ويعدهم فقلت له: كم عددت؟ فقال: إلى هنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلا، وكان قد عدّ صفين، وهو في الصف الثالث لكن مامضى من الصفوف أكثر عدداً من الباقي.

قال: وجاء من الغد نجاب له عن حلب خمسة أيام بكتاب يتضمن أن جماعة عظيمة من العدّو الشمالي خرجوا للنهب بأطراف البلاد الإسلامية، ونهض العسكر الحلبي إليهم وأخذ عليهم الطرق، فلم ينج منهم أحد إلاّ من شاء الله.

قال: وجاء في ليلة ذلك اليوم من اليزك من ذكر أن العدّو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم ليسمع منهم حديثا في سؤال الصلح لضعف حل بهم، ولم يزل العدّو من حينئذ مكسور الجناح منهاض الجانب حتى وصلهم كند يقال له كندهري، وسيأتي ذكره.

وقال العماد: لما شاع عند الفرنج خبر وصول الألمانية قالوا: إذا وصل ملكهم، ونكى في المسلمين انكسر ناموسنا وتطأطأت عنده رؤوسنا، فذكر الوقعة بمعنى ماتقدم إلى أن قال: ووصل السلطان وشاهد من مساءة الفرنج ماسره، وعرف لطف الله وبره ونصره، وعاين هناك مصارع الأعداء، ومشارع البلاء، وكانوا مفروشين في مدى فرسخ على الأرض، وهم في تسعة صفوف من تلال الرمل إلى البحر بالعرض، وكل صف يزيد على ألف قتيل، وشاع القتل في الفرنج في كل قبيل، وكانت هذه النوبة بلا نائبة، وتلك الغزوة بلا شائبة، وقتل منهم زهاء عشرة آلاف، ولم يبلغ من استشهد من اتباع العسكر عشرة نفر، واغتنمها تجارة رابحة وغنيمة ميسرة.

قال: ولماعرفت بالواقعة، والنصرة الجامعة، صدرت ثلاثين أو أربعين كتابا بالبشارات بأبلغ المعاني وأبرع العبارات، وقلت: إذا نزل السلطان

وجد الكتب حاضرة، ورأى البشارة شائرة، وركبت أنا والقاضي بهاء الدين ابن شداد لمشاهدة ماهناك من أشلاء صرعى وأجساد، فما أعجل ماسلبوا وعرّوا، وفروا وفروّا، وقد بقرت بطونهم وفقئت عيونهم، ورأينا امرأة مقتولة لكونها مقاتلة، وسمعناها وهي خامدة بالعبرة قائلة، ومازلنا نطوف عليهم ونعبر ونفكر فيهم ونعتبر حتى ارتدى العشاء بالظلام، فعدنا إلى الخيام، واطلنا الوقوف على تلك الطلول الدارسة، واستبشرت الوجوه بتلك الأوجه العابسه، وحزرناهم بعشرة آلاف قتيل، لاحزر تكثير بل حزر تقليل، وكان الذين حملوا وهزموا وقتلوا أقل من ألف، فقتلوا أضعافا مضاعفة وعدموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفة، وحكي من نوادر هذه الوقعة أن فرنجيا عقر فجثا للصرعة فعثر به راكب برذون فعرقب الفرنجي فرسه بسيف في يده، فنزل بحده مستنا في جدده وقتل ذلك الفرنجي، وروى من دمه الهندي، وحل من وسطه ثمانين دينارا فانقلب ربحاً ماعده خساراً، وامتلأت الأيدي بالأسلاب والأكساب، وحصل من العدد مالم يكن في الحساب، وبيعت الزرديات ذوات الأثمان بالرخص.

قال: وشرع الفرنج في الخداع والمراسلة، وسألوا في الصلح وأذن لهم السلطان في الخروج للنظر إلى اولئك الصرعى بتلك المروج،وهي قد تورمت، وانتنت، وجافت وحميت الشمس على جيفها وحافت، وضافتها القشاعم والخوامع وعليها اطافت، فساءهم ماسرنا، ونفرهم ماأقرّنا.

فصل

قال العماد: وكان الرأي بعد هذه ا لنصرة أن نرد عليهم الكرة مرة بعد مرة إلى أن يهلكوا حسرة، ويبيدوا فلا يبقى لهم جمرة، فاشتغل السلطان بما جاء من المكاتبات بظفر التركمان وغيرهم بعسكر الألمان، فجاءت للفرنج نجدة من البحر، ومدد أضعاف مانقص منهم من العدد والعدد، فأضحوا كأن لم ينكبوا، وثبتوا مكانهم ولم يثبوا، ووصل اليهم المعروف بالكندهري، ففرّق الأموال واستخدم الرجال، وأنفق في عشرة آلاف رجل ،وأظهر أنه يخرج إلى لقاء عسكر الاسلام، فتحوّل السلطان الى منزلة الخروبة ليوسع عليهم الدائرة، ونصب الكند على عكا منجنيقات كثيرة، فأحرقها المسلمون، وقتل منهم من الفوارس سبعون، وأسر عدّة معروفون، ثم نصب منجنيقين فأحرقا أوّل شعبان، وكان الكند قد أنفق على أحدهما ألفا وخمسمائة دينار، ومن جملة من وقع في الأسر فارس كبير فما أمهلوه حين أخذوه، حتى قتلوه ونبذوه، فطلبه منهم الفرنج بالأموال ولم يعرفوا بالحال فأخرجوه إليهم قتيلا فأكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلا، وباتوا يندبونه نوحاً، ويذيعون سر تقدّمه فيهم بوحاً، وحين وقعت أعينهم عليه قتيلا ضربوا بنفوسهم الأرض، وحثوا على رؤوسهم التراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة، وكتموا أمره ولم يظهر أحداً على سره، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم، وهجم عليهم العرب من كل جانب يسرقون وينهبون ويقتلون ويأسرون، هذا والكتب متواصلة من عكا الينا ومنا إليها على أجنحة الطيور، وأيدي السباح والمراكب اللطاف تخرج ليلا وتدخل سارقة من العدو.

قال العماد: ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافا واستسعافا، ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية، والخطبة فيه، وأنه مستمر على المودّه ، راغب في المحبة، ويعتذر عن عبور الملك الألماني، وأنه قد فجع في طريقه بالأماني، ونال

مـن الشدة، ونقـص العدة مـا أضعفه وأوهـاه، وأنه لايصـل إلى بلادكـم فينتفـع بنفسه أو ينفـع، ويكون مصرعـه هنـاك ولايرجـع، ويموت بها بـه كـاده، وأنـه قـد بلـغ في أذاه اجتهاده، ويطلـب رسـولا يـدرك بـه مـن السلطان سولا، فأجيب في ذلك إلى مراده، ووقع الاعتداد بها ذكره من اعتداده.

وقـال القاضي ابـن شدّاد: كـان بين السلطـان وبين ملك قسطنطينيـة مراسلـه ومكاتبـه، وكان وصـل منه رسـول الى الباب الكـريم السلطـاني بمـرج عيون سنـة خمس وثمانين في رجـب في جـواب رسول كـان أنفـذه السلطان بعد تقريـر القواعد، واقامة قانون الخطبـة في جامع قسطنطينية، فمضى الرسـول وأقام الخطبة ولقي باحترام عظيم وإكـرام زائد، وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعاً من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينيـة يومـا عظيما من أيـام الاسلام، وشـاهده جمع كبير مـن التجـار، ورقـي الخطيب المنبر واجتمـع إليـه المسلمـون المقيمـون بها والتجار، وأقام الدعوة الاسلامية العباسيـة، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبر بانتظام الحال في ذلك فـأقام مدّة ولقد شاهدته يبلغ الـرسالة ومعه ترجمان يترجـم عنه وهـو شيخ مـن أحسن مـايفرض أن يكـون من صـور المشايـخ، وعليه زيهم الـذي يختص بهم، ومعـه كتاب وتـذكرة والكتـاب مختوم بذهب، ولما مات وصل خبر وفاتـه إلى ملك قسطنطينية، فأنفذ هذا الرسول في تتمة ذلك، ثم وصف القاضي الكتاب، وعبر عنه بألفاظه.

وقـد عبر العماد عن معـانيـه فأغنـى عـن ذلك، ثـم قـال: وكان مـن حديـث ملك الالمان أنـه بعد أن استقـرت قدمـه في أنطاكيـة أخذهـامن صاحبهـا وتحكم فيـه، وكان بين يـديه فيهـا ينفذ أوامـره، وكان لـه أموال برفقته، فأخذها منه غيلة وخديعـة وأودعها في خزانته، وسار عنها خامس عشري رجب، نحـو عكا في جيوشـه، وجموعه على طـريق اللاذقيـة حتى

أتى طرابلس، وكان قد سار إليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور، وكان من أعظمهم حيلة وأشدهم بأسا وهو الأصل في تهييج الجموع، وذلك أنه صوّر القدس في ورقة عظيمة، وصوّر فيه صورة القمامة التي يحجون إليها، ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم، فصوّر القبر، وصوّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب وقد وطىء قبر المسيح، وقد بال الفرس على القبر، وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها، ورؤوسهم مكشفة وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل في قلوبهم فإنها أصل دينهم،فهاج بذلك خلائق لايحصي عددهم إلا الله تعالى، كان من جملتهم ملك الألمان، وجنوده فلقيهم المركيس لكونه أصلا في استدعائهم إلى هذه الواقعة، فلما اتصل به قوّى قلبه وبصره بالطرق، وسلك به الساحل خوفا من أنه إذا أتى على بلاد حلب وحماه نازلهم المسلمون من كل جانب، ومع ذلك لم يسلموا من شن الغارات عليهم، واختلف حزر الناس لهم، ولقد وقفت على بعض كتب الخبيرين بالحرب قد حزر فارسهم وراجلهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ماذكر بمائتي ألف، فانظر إلى صنيع الله مع أعدائه، ولما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجد في اعقابهم نيفا وستين فرساً قد عطبت وانتزع لحمها ولم يبق فيها إلا العظام من شدّة الجوع وضعف الخيل، ولم يزالوا سائرين وأيدي المسلمين تتخطفهم من حولهم نهباً وأسراً وقتلاً حتى أتوا طرابلس،

فأقام بها حتى استجم عسكره، وأرسل إلى النازلين على عكا يخبرهم بقدومه فوجموا من ذلك، لأن المركيس صاحب مشورته، وكان الملك كي وهو ملك الساحل بالمعسكر، هو الذي يرجع إليه في الأمور، فعلم أنه مع قدوم الملك الألماني لايبقى له حكم، وفي أواخر شعبان نزل الملك الألماني في المراكب هو وعسكره فثارت عليهم ريح اهلكت منهم ثلاثة

مـراكـب، وسار البـاقـون إلى صـور، ثـم وصل إلى عكـا في نفـر يسير في سادس رمضـان، وكان لقدومه وقـع عظيم عندهم، ووصـل خبر وصولهم إلى طرابلس ثامن شعبان، والسلطان ثـابت الجأش راسخ القدم لايزعزعه ذلك عـن حراسة عكا والحمايـة لها، ومراصدة العسكر النـازل بها، وشن الغارات والهجوم عليهـم في كل وقت، مفوّضا أمـره إلى الله تعالى، معتمداً عليه منبسط الوجـه لقضاء حوائج الناس، مواصلاً ببره مـن نفذ إليه من الفقـراء والفقهـاء والمشايـخ والأدبـاء، ولقـد كنت إذا بلغنـي هـذا الخبر تأثـرت حتى إذا دخلت عليـه أجد عنده مـن قوّة النفس وشـدّة البأس مايشرح صدري، وأتيقن معه نصر الاسلام وأهله.

فصل

في إدخال البطس إلى عكا

قال ابن شـدّاد: كان رحمه الله قد أعدّ ببيروت بطسه، وعمـرها وأودعها أربعمائة غرارة مـن القمح، ووضـع فيها مـن الجبن والبصـل والغنم وغير ذلك من الميرة، وكان الفرنج قد أداروا مـراكبهم حول عكا حراسة لها عن ان يـدخلها مـركـب للمسلمين، وكان قـد اشتدت حـاجـة من فيهـا إلى الطعام والميرة، فـركب في بطسه بيروت جماعـة من المسلمين، وتزيـوا بزيّ الفرنـج، حتى حلقوا لحاهم ووضعـوا الخنازير على سطح البطسـة بحيث ترى مـن بعد، وعلقـوا الصلبان وجـاؤوا قاصـدي البلد مـن البعد حتـى خالطوا مراكب العدّو، فخرجـوا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلـد، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا: أولم تكونوا أخذتـم البلد؟ فقـالوا:لم نـأخذ البلد بعـد، فقالـوا: نحن نـرّد القلوع إلى العسكر ووراءنا بطسة أخـرى في هوائها فأنذروهم حتـى لايدخلوا البلد، وكان وراءهـم بطسة فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فرأوهـا فقصدوها لينذروهـا، فاشتدّت البطسة الاسـلامية في السير واستقامـت لها الريح حتى دخلـت مينا البلد وسلمت ولله الحمـد، وكان فرجا عظيما فـإن الحاجة كانت قـد أخذت من أهل البلـد، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب.

قال: وفي العشر الأوسـط من شعبان كتب بهاء الـدين قراقـوش، وهو والي البلدوالمقدّم على الأسطول، وهو الحاجب لـؤلؤ يذكران للسلطان أنه لم يبـق بـالبلـد إلا قـدر يكفـي البلـد إلي ليلـة النصـف مـن شعبـان لاغير(فـأسرها يـوسـف في نفسـه ولم يبدهـا)(٩٥)؛ لخاص ولاعام خشيـة الشيوع والبلوغ إلى العدّو فتضعف بـه قلوب المسلمين، وكان قد كتب إلى مصر بتجهيـز ثـلاث بطـس مشحـونـة بـالأقـوات والأدام والمير وجميـع

مـا يحتاج إليـه في الحصار، بحيـث يكفيهم ذلـك طول الشتـاء، فأقلعـت البطس الثلاث من الـديار المصرية، ولججت في البحر تتوخـى النوتية بها الريح التي تحملهـا إلى عكا، فطابت لهم الريح حتـى ساروا ووصلوا إلى عكـا ليلـة النصـف مـن شعبان، وقـد فنيـت الأزواد، ولم يبـق عنـدهـم مايطعمـون الناس في ذلـك اليوم، وخـرج عليها أسطـول العدّو يقـاتلها والعساكر الاسـلامية تشاهد ذلـك من الساحل والنـاس في تهليل وتكبير، وقد كشف المسلمـون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضـاء بسلامتها إلى البلد، والسلطان على الساحل كالوالدة الثكلى يشاهد القتال، ويدعو إلى ربه بنصره، وقـد علم مـن شدّة القوم مـالم يعلمه غيره، وفي قلبـه مافي قلبه والله يثبتـه، ولم يزل القتال يعمل حـول البطس من كل جـانب، والله يدفع عنها والـريح تشتدّ والأصوات قد ارتفعت مـن الطائفتين، والدعاء يخرق الحجب حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى مينـا البلد، وتلقاهـم أهل عكا تلقي الامطار عن جدب، وامتاروا بها فيهـا، وكانت ليلة بليال، وكان دخولها في وقت العصر رابع عشر شعبان.

وقال العماد: كـان السلطان قـد أمر نوّاب الاسكنـدرية بتجهيـز بطس كبار وتعميرها من كل ميرة وغلة وتسييرهـا إلى عكا، فأبطأت عن الميقات وأضر بالمقيمين بـالبلد إعـواز الأقوات، فـافكر فيها يتعجـل به الغـرض، فكتب إلى متـولي بيروت عز الدين سـامة فجهز بطسة كبيرة،مـلأها ميرة، وغلة كثيرة، وأركبهـا جماعة على زي الفـرنج ممسـوحي اللحـى، ممسوخـي الحلى، وأصحبهـم صلبانـا وخيل بهم رهبـانا، وكـانت هـذه البطسة مـن الفرنـج مأخـوذة، وهي بسـاحل بيروت منبـوذة، فأمـر السلطان بترميمهـا وتتميمها، فملئـت بالشحـوم واللحوم، وأربعمائة غـرارة غلة، وأحمال مـن النشاب والنفط، ورتب فيها ر جـال مسلمون ونصارى من أهل بيروت، وأرادوا أن تشتبـه ببطـس العـدّو في البحـر، فشـدّوا زنـانير واستصحبـوا خنـازير، وسـاروا بها في البحر بمـراكب الفـرنج مختلطين، والى محادثتهـم

وبجاذبتهم منبسطين، ولما حاذوا بها عكا صوّبوا بها نحوها والريح تسوقها، والفرنج من مراكبها تقول: ماهذه طريقها، وهي كالسهم النافذ قد سدّد فوقها، فدخلت الثغر واجتزأ البلد بها نصف شهر، وظهرت رابع عشر رمضان من ثبج البحر ثلاث مراكب، كأنها ثلاث هواضب، فجاءت فجأة أعلامها كالأعلام، طائرة كالسهام، ولم تبال بمراكب العدّو فخرقتها، وقربت من سفينة فغرقتها، وعبرت وعين الكفر عبرى، وامتلأ الثغر بها وأثرى.

فصل

قال العماد:ووصل ملك الألمان، ورام أن يظهر بمجيئة وقعا، ويبدي به نفعا، فدبوا في راجل كرجل الدبا، وخيل أغصت النوهاد والربى، وقربوا من تل العياضيه، وعليه خيم اليزكية، والنوبة فيها للحلقة المنصورة الناصرية، والعصبة الموصلية، فثارت إليهم، ودارت عليهم، وركب السلطان، وتقدّم إلى تل كيسان، ولم يزل الحرب إلى أن جن الظلام، وكف الكفر، وسلم الاسلام، وكانت الدائرة على الكفرة.

قال القاضي: وقتل منهم وجرح خلق عظيم، والسيف يعمل في بقيتهم وهم هاربون حتى وصل المخيم غروب الشمس من ذلك اليوم وهو لايعتقد سلامة نفسه من شدة خوفه، وقتل من المسلمين في ذلك اليوم اثنان، وجرح جماعة كثيرة.

ومن كتاب إلى بغداد:«قد بلي الاسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبين الأوطان والأوطار، وهجروا المألوفين الأهل والديار، وركبوا اللجج ووهبوا المهج كل ذلك طاعة لقسيسهم وامتثالاً لأمر مركيسهم وغيرة لمتعبدهم وحمية لمعتقدهم وتهالكا على مقبرتهم، وتحرقاً على قمامتهم، ولايطلبون مع شدّة الاملاق مالاً، ولايجدون مع كثرة المشاق ملالا، بل يتساقطون على نيران الظبى تساقط الفراش، ويقتحمون الردى متدرّعين الصبر متثبتي الجأش، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات، وسرن إلى الشام في البحر والبر متجهزات، وكانت منهن ملكة استتبعت خمسمائة مقاتل، والتزمت بمؤنتهم فصودف مركبهابقرب الاسكندرية فأخذت برجالها، وأراح الله شر احتفالها، ومنهن ملكة وصلت مع ملك الالمان، وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات، يحملن إلى الطعان الطوارق والقنطاريات، وقد وجد في الوقعات التي جرت عدّة منهن بين القتلى، وماعرفن حتى

سلبن، وإن البابا الذي برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم، وقال: من لايتوجه إلى القدس مستخلصا فهو عندي محرم، لامنكح له ولامطعم، فلأجل هذا يتهافتون على الورود، ويتهالكون على يومهم الموعود، وقال لهم:إني واصل في الربيع، جامع على الاستنفار شمل الجميع، وإذا نهض هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد، ويصل معه بأهله وولده كل من يقول إن لله أهلا وولد، فهذا شرح هؤلاء وتعصبهم في ضلالتهم ولجاجتهم في غوايتهم، بخلاف أهل الاسلام، فإنهم يتضجرون ولايصبرون، بل يتفللون ولايجتمعون، ويتسللون ولايرجعون وإنما يقيمون ببذل نفقة، واذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة، ليعلم أن الاسلام من عند الله منصور، وان الكفر بارادة الله محسور ومدحور.

قال القاضي: ولما عرف ملك الألمان ماجرى على أصحابه من اليزك الذي هو شرذمة من العسكر، رأى أن يرجع إلى قتال البلد، ويشتغل بمضايقته، فاتخذ من الآلات العجيبة، والصنايع الغريبة، ماهال الناظر إليه وخيف على البلدمنه، فمما أحدثه آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد، وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة فتهدمه بتكرار نطحها، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجال تسحب ذلك إلا أن رأسها محدّد على مثال السكة التي يحرث بها، ورأس الكبش مدّور هذا يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدتها وثقلها وهي تسمى سفودا، ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة، واعدّوا في البحر بطسة غائلة، وصنعوا فيها برجا بخرطوم إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات، ويبقى طريقا إلى المكان الذي ينقلب عليه يمشى عليه المقاتلة، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان ليأخذوه به.

قال: ونصب العدّو على البلد منجنيقات هائلة، حاكمة على السور،

وتواتـرت حجارتها حتـى أثرت فيـه أثرا بينا، وخيـف من غـائلته فـأخذ سهمان من الجرخ العظيم، وأحـرق نصلاهما حتى بقيا كالشعلـة من النار، ثم رميا في المنجنيق الواحد فعلقا فيـه، واجتهد العدّو في إطفاء النار، فلم يقدر على ذلـك، وهبت ريح شديـدة فاشتعل اشتعـالا عظيما، واتصلت لهبته بالآخر فـأحرقته، واشتدت ناراهما بحيث لم يقـدر أحد أن يقرب من مكانهما ليحتـال في إطفائهما، وكـان يومـاً عظيماً اشتد فيـه فرح المسلمين، وغم الكافرين».

قال:«ومن نوادر هـذه الوقعة ومحاسنها، يعني نوادر مـاجرى في القتال على عكا، أن عواما مسلما كان يقال له عيسى، كان يدخل البلد بالكتب والنفقات على وسطـه ليلاً على غـرة من العـدّو، وكان يغـوص ويخرج من الجانب الآخر مـن مراكب العدّو، وكـان ذات ليلة شد على وسطه ثـلاثة أكياس فيهـا ألف دينار، وكتبا للعسكـر، وعام في البحر فجرى عليـه أمر أهلكه، وأبطـأ خبره عنا، وكانـت عادته إذا دخل البلـد طار طائر عـرفنا بوصوله، فابطأ الطائر فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحـر في البلد وإذا البحـر قد قـذف إليهم ميتـا غريقـا فافتقـدوه فوجـدوه عيسى العـوام، ووجدوا على وسطـه الذهـب، ومشمع الكتـب، وكان الذهب نفقة للمجاهديـن، فماروئي من أدّى الأمانة في حال حياته، وقـدر الله له أداءهـا بعـد وفـاته إلا هـذا الـرجـل، وكان ذلـك في العشر الأواخر من رجب أيضا».

وقال العماد: فقد —يعني عيسى—ولم يسمـع له خبر ولم يظهر له أثر، فظنت به الظنون، وماتيقنت المنون، وكانـت له لاشك عند الله منزلة، فلم يرد أن تبقى حـاله وهي مجهلة محتملة، فـوجد في عكا ميتا قـد رماه البحر إلى ساحلها، وبرأه الله مماقالوا، فذهب اليقين من الظنون بباطلها.

فصل

في احراق ماحوصر به برج الذبان وتحريق الكبش

قال القاضي:وفي الثاني والعشرين من شعبان، جهز العدّو لعنه الله بطساً متعددة لمحاصرة برج الذبان، وهو برج وسط مبني على الصخرعلى باب مينا عكا، تحرس منه المينا، ومتى عبره المركب أمن من غائلة العدّو، فأراد العدّو أخذه ليبقى المينا بحكمه ويمنع من دخول شىء من البطس إليه، فتنقطع الميرة عن البلد، فجعلوا على صواري البطس برجاً وملؤوه حطباً ونفطا على أنهم يسيرون البطس فإذا قاربت برج الذبان ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصاري، وألصقوه ببرج الذبان ليلقوه على سطحه ويقتل من عليه من المقاتلة ويأخذوه، وجعلوا في البطسة وقوداً على أ نهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الاسلامية، ثم يلهبونها فتحرق البطس الاسلامية، ويهلك مافيها من الميرِ، وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لايصل إليهم نشاب ولا شىء من آلات السلاح، حتى إذا أحرقوا ماأرادوا إحراقه دخلوا تحت القبو فأمنوا وأحرقوا ماأرادوا إحراقه، وقدموا البطسة نحو البرج المذكور، وكان طمعهم مشتدا حيث كان الهوا مسعدا لهم، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به من على البرج فأوقدوا النار وضربوا فيها النفط فانعكس الهواء عليهم، كما شاء الله تعالى وأراد، واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بأسرها واجتهدوا في اطفائها فما قدروا وهلك من كان بها من المقاتلة إلاّ من شاء الله تعالى، ثم احترقت البطسة التي كانت معدّة لإحراق بطسنا، ووثب أصحابنا عليها فأخذوها إليهم وأما البطسة التي فيها القبو فإنهم انزعجوا وخافوا وهموا بالرجوع واختلفوا واضطربوا اضطرابا عظيماً فانقلبت، وهلك جميع من بها لأنهم كانوا في قبو لم يستطيعوا الخروج منها، وكان ذلك من أعظم آيات الله تعالى، وأندر العجائب في نصرة دين الله ولله الحمد، وكان يوما مشهودا.

وقال العماد: وعند مينا عكا في البحر برج يعرف ببرج الذبان، وهو في حراسة المينا عظيم الشان، وهو منفرد عن البلد محمي بالرجال و العدد، وقصد الأفرنج حصاره قبل مجيء ملك الألمان في الثاني والعشرين من شعبان ببطس كبار جهزوها، ومراكب عظام الآلات أبرزوها، ومكر مكروه، ودبردبروه، وأحد تلك المراكب قد ركب برج فوق صاريه، لايطاوله طود ولا يباريه وقد حشي حشاه بالنفط والحطب، وضيق عطنه بسعة العطب حتى إذا قرب من برج الذبان والتصق بشرافاته أعدى إليه بآفاته، ورميت فيه النار فاحترق واحترق من الأخشاب والستائر مابه التصق، واستولت النار على مواقف المقاتلة فتباعدوا عنها، ولم يقربوا منها، وأوقدت بطسة الحطب التي من ورائها، وعادت على الفرنج فالتهبوا، وحمى عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا، وانقلبت بهم السفينة فاحترقوا وغرقوا، والناجون منهم فارقوا وفرقوا ولم يغرقوا، واحتمى برج الذبان فلم يطر عليه من بعدها ذباب، ولم يفتح للعدّو في الكيد له باب.

ومن كتاب الى سيف الاسلام باليمن:« ومن حديث هذا البرج أنه يحيط به البحر من جوانبه، وهو قفل مينا الثغر على مراكبه، وقد رفعناه وأعليناه، وبالعدد والرجال قويناه فعمدوا إلى أكبر بطسة واتخذوا فيها مصقالا كأنه سلم، وهو في مقدمها مركب مقدم، وقد جعلوها بحيث إذا قرب إلى البرج ركب رأس السلم على شراريفه، وصعد الرجال إليه في تجاويفه، وتعبوا في ذلك أياما، وأشبعوه توثيقا واحكاما، حتى إذا التصق بالبرج التصقت به قوارير النفط، وتوالت امطار البلايا من الجروخ والمنجنيقات على أولئك الرهط، ثم عمل الفرنج برجاً عاليا في أكبر مركب وحشوه بالحطب، وعملوا على رأس صاريه مكاناً يقعد فيه الزراق، وقدموه إلى برج الذبان، وسلطوا على جوانبه النيران، فأهب الله

من مهب لطفه نكباء نكبت النار عن البرج المحروس، وكبت الفرنج على الوجوه والرؤوس.

قال القاضي: وفي ثالث رمضان زحف العدّو على البلد في خلق لايحصى فأهملهم أهل البلد حتى نشبت مخالب اطماعهم فيه، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا ان يلصقوها بالسور، وتحصل منهم في الخندق جماعة عظيمة، فأطلقوا عليهم الجروخ والمجانيق والسهام والنيران، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفتحوا الأبواب وهجموا على العدّو من كل جانب، وكبسوهم في الخنادق فهربوا ووقع السيف فيمن بقي في الخندق منهم، ثم هجموا على كبشهم فألقوا فيه النار والنفط، وتمكنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه فأحرق حريقاً شنيعاً، وظهرت له لهبة نحو السماء، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل والشكر، وسرت نار الكبش بقوتها إلى السفود فاحترق، وعلق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة في الاسل[٩٦] فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه عندهم في البلد، وكان مركبا من آلات هائلة عظيمة، وألقي الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام، وبلغنا من البلد أنه وزن ماكان عليه من الحديد، فكان مائة قنطار بالشامي، والقنطار مائة رطل، ولقد أنفذ رأسه إلى السلطان ومثل بين يديه وشاهدته وقلبته وشكله على مثال السفود الذي يكون بحجر المدار، قيل إنه ينطح به السور فيهدم ما يلاقيه، وكان ذلك من أ حسن أيام الاسلام، ووقع على العدّو خذلان عظيم، ورفعوا ماسلم وآلاتهم، وسكنت حركاتهم التي ضيقوا فيها نفقاتهم، وقال العماد: واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة، وآلة للغوائل غائلة، في رأسها شكل عظيم، يقال له الكبش، وله قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظين، وهذه الدبابة في هيئة الخربشت[٩٧] الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس، فلم يبق للنار إليها سبيل، ولا للعطب عليها دليل، وملؤوها

بالكماة والرماة وسحبوها وقربوهـا فجاءت صورة مزعجة، وبلي البلد منها بالبـلاء الأفظع، وقالوا: مـافي دفعها حيلة ولا مطمع ونصبـوا على صوبها مجانيق، ورموا بـالحجارة الثقيلة ذلك النيـق، فأبعدت رجالها مـن حواليها ثم رموها بحزم الحطـب حتى أحرقوا مابين القرنين، وقذفوهـا بالنار فباتوا يطفئـونها بالخل والخمـر وقـد تمكنـت النار مـن أضـلاعهـا، ثم خسفهـا المنجنيـق وخرج مـن بالثغـر فقطعـوا رأس الكبش، واستخـرجوا مـاتحت الرمـاد من العـدد بالنبش، وقـدر مانهب مـن الحديد بمائة قنطـار، وعلم الفرنـج أن أعمالهم حبطت، وآمـالهم هبطت، وكـان ذلك في ثـالث عشر رمضـان، وفيه قـدم الظـاهر صـاحب حلـب والأمجد صـاحب بعلبـك، وسابـق الدين عثمان صـاحب شيزر، وعزالـدين بن المقـدم والامير حسام الدين حسين بن باريك، وجماعة من الأمراء والخواص والمماليك.

فصل

في حوادث أخر متفرقات

قال العماد: ووصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أن صاحب أنطاكية أغار على غرة بشر وشره، فرتب أصحابنا له كمينا، ثم خرجوا عليه شمالا ويمينا، فقتلوا أكثر رجاله وأفلت ووباله في وباله.

قال القاضي: خرج عليه نواب الملك الظاهر، فقتل من عسكره خمسون نفراً وأسر منهم خلق عظيم واستعصم بنفسه في موضع يسمى شيح حتى اندفعوا وسار إلى بلده.

قال: وفي أثناء العشر الأوسط ألقت الريح بطستين، فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة قاصدين نحو العدّو، فغنمها المسلمون، وكان العدّو قد ظفر لنا ببركوس فيه رجال أراد الدخول إلى البلد فأخذه، فوقع الظفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك وجابراً له.

قال العماد: وفي هذا التاريخ ألقت الريح إلى ساحل زيب بطستين خرجتا من عكا بجماعة من الرجال والصبيان والنساء، وفيهما امرأة محتشمة غنية محترمة، فأخذتا وأخذوا وأخذت، وجد الفرنج في استنقاذها فما استنقذت.

قال: وفي تاسع عشر الشهر رحلنا إلى منزلة تعرف بشفرعم، وسببه أنه كثر المستأمنون من الفرنج وأخبروا أنهم في عزم الخروج الى المرج هائجين إلى الثأر، ثائرين إلى الهيجاء فاستشار السلطان أمراءه فقالوا: الصواب أن نفسح لهم عن هذه المروج، حتى يكون دخولهم إليها يوم الخروج، فنصبحهم في اليوم الآخر ولا يتعذر بهم احداق العساكر، فخيمنا هناك ورحبت المنازل وعذبت المناهل،وعادت معالم تلك المجاهل، وحللنا

التلال والآكام، وركزنا بتلك الأعلام الأعلام، ونزلنا لمقام الشتا مستعدين، ولأسباب التوقي من الأمطار مستنجدين.

قال: ومرض زين الدين صاحب إربل في شهر رمضان، وتوفي في الثامن والعشرين منه.

قال القاضي: وكان استأذن في الرواح فلم يؤذن له، فأستأذن في الانتقال إلى الناصرة فاذن له، فأقام بها أياما يمرض نفسه، ثم توفي وعنده أخوه مظفر الدين يشاهده، وحزن الناس عليه لمكان شبابه وغربته.

قال العماد: وكان كريماً أريحياً، جواداً سخيا، وبكرنا إلى مظفر الدين نعزيه في أخيه، وظننا به الحزن فقلنا نعظه ونسليه، فإذا هو في شغل شاغل عن العزاء، مهتم بالاحتياط على ماخلفه أخوه وتركه من الأشياع والأشياء، وهو جالس في مخيم أخيه المتوفى، وقد أشرف على حفظه وأوفى، وقد قبض على جماعة من أمرائه واعتقلهم، وعجل عليهم وماأغفلهم، منهم: صارم الدين بن بلداجي متولي خفيتان(٩٨)، كان ليتسلم منه المكان، وكذلك كل حاضر له حصن ليحصل له من طاعته أمن، وخاطب في اسباب ولاية إربل وأعمالها، وأن يستقل ببلادها وأموالها، ورغب في شهرزور واستضافتها لاستنارة وجاهته بها واستفاضتها، وأنه ينزل على حران والرها وسميساط والموزر، ويجعل كل مافي يده من الأعمال في الموفر، ويخدم بخمسين ألف دينار، يحضرها نقدا، ويلتزم بها على الميثاق عقداً، فاجيبت رغبته، وأصيبت طلبته، وعقد لواؤه، ونجح رجاؤه، وأراد سرعة الرحيل، فاستمهل إلى حين وصول الملك المظفر تقي الدين لينزل في منزلته بجنده وصحبه الميامين، فوصل يوم الأحد ثالث شوال وأضيف إليه مااستعيد من مظفر الدين من الأعمال، وكتب منشور إربل، وكتاب إلى صاحب الموصل فيه:« لاشك في إحاطة العلم

بانتقال زين الدين إلى جوار الله ومقر رحمته، مجاهداً في سبيله، شاكراً لنعمته، وهو من السعداء الذين أنزل الله تعالى فيهم: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) (٩٩) فما أفجع القلوب بمصابه، وماأنكى في النفوس أفول شبابه، ولقد كانت الهمة متوفرة على تربيته وإعلاء درجته، ولكن الله تعالى استأثر به قبل ظهور حسن الآثار في ايثاره، وبلي بدره التم بسراره، وأصبح في ضمير البلى من أسراره، وهذه إربل من انعام البيت الكريم الأتابكي على البيت الزيني مذ سبعين عاما، لم يخلوا لعقد انعامهم بها نظاماً، ولم يزيدوا أحكامه إلا احكاما وإبراما، ومارأى أن يخرج هذا الموضع منهم، وأن يصدف به عنهم، والأمير الأجل مظفر الدين كبير البيت وحاميه، والمقدم في الولاية بمقتضى وصية أبيه، وقد أنهض ليسد مسد أخيه».

قال: وكان الملك المظفر تقي الدين متوليا منذ سنين أعمال ميافارقين، فطلب من عمه تفويض كل ماوراء الفرات إليه والاعتماد فيه عليه، فأنعم عليه بذلك فأقام عندنا بالمنزلة المظفرية إلى أن يؤذن له في المضي إلى تلك الولاية، وسير نوابه إليها لابقاء رعاياها على شيمة الرعاية.

قال : ولما أحس العسكر الشرقي بالشتاء أبدوا خلق السآمة، وضجروا من الاقامة، وأماعماد الدين صاحب سنجار فإنه عرف كراهية السلطان لفراقه، فلم يجر إلا على وفاقه، وأما صاحب الجزيرة سنجر شاه، فإنه استطال المقام وأباه، ودخل يوم عيد الفطر على السلطان فقبل يده وودعه من غير سابقة الاستئذان، فأغضبه انفصاله، وساءه ارتحاله، وكان تقي الدين واصلاً فلقي صاحب الجزيرة عنا فاصلا، فردّه عن طريقه، وجد في تعويقه، ورجع به إلى الرضى، وعفا الله عما مضى.

قال القاضي: ترددت رسله ورقاعه إلى السلطان في طلب الدستور، والسلطان يعتذر بأن رسل العدّو متكررة في معنى الصلح ولا يجوز أن

تنفض العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب، فلما كان يوم عيد الفطر دخل على السلطان وهو ملتاث الجسم وقبل يده وخرج وسار من ساعته، وتبعه أصحابه، فلما بلغ السلطان صنيعه كتب إليه: « إنك أنت قصدت الإنتماء إلي في الابتداء فبسطت يدك وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من أهلك، فقبلتك وآويتك ونصرتك، فبسطت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم، فنفذت إليك ونهيتك عن ذلك مراراً فلم تنته، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام، فدعوناك فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس، وأقمت هذه المديدة وقلقت هذا القلق، وتحركت بهذه الحركة، وانصرفت عن غير طيب نفس وعن غير فصل حال مع العدّو، فانظر لنفسك وأبصر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك فما بقي لي إلى جانبك التفات»،وسلم الكتاب إلى نجاب فلحقه قريبا من طبرية فقرأ الكتاب، ولم يلتفت وسار، فلقيه تقي الدين عند عقبة فيق فأخبره بأمره وتعتب على السلطان كيف لم يخلع عليه، ولم يأذن له في الرواح، ففهم تقي الدين انفصاله عن غير دستور من السلطان فأمره بالرجوع وقال: أنت صبي ولاتعلم غائلة هذا الأمر، فقال: مايمكنني الرجوع، فقال: ترجع من كل بد من غير اختيارك، وكان تقي الدين شديد البأس مقداماً على الأمور ليس في عينه من أ حد شيء، فلما علم أنه قابضه إن لم يرجع رجع معه، وسأل السلطان الصفح عنه ففعل، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشية على نفسه فأذن له فأقام في جواره إلى حين ذهابه.

وقال العماد في الفتح: وطال على الملك عماد الدين صاحب سنجار المقام، وجد في الاستئذان في الرحيل منه الاهتمام، وتقرر ملاله، وتكرر سؤاله، فكتب إليه السلطان:

من ضاع مثلي من يديه
فليت شعري ما استفادا

- ٨٧٤٥ -

فلما قرأ هذا البيت ما راوح في الخطاب ولا غادى

وقـال في البرق: وفي مستهل ذي القعـدة أذن لعلاء الـديـن خرم شـاه ابن صـاحب الموصل، ونعـت بالملك السعيـد لما تفرس فيه مـن أمارات السعد، وأقام بعده عمه عماد الدين وابـن عمه معز الدين سنجرشاه وهما صاحبا سنجار والجزيرة، وحبـوا بالحباء الوافر والعطايا الغزيـرة، ومافارقا إلاّ في السنة الأخرى في ثالث صفر.

قال: وغلـت الأسعار عند الفـرنج حتى بلغـت الغرارة أكثر مـن مائة دينار، والسعـر من الزيـادة لديهم في استعار، وبلـوا بأمور صعبـة، وهرب إلينا منهم عصبة بعـد عصبة، فاستأمنوا إلينا لفـرط جوعهم جميعهم، ولما شبعوا عنـدنا لم يـرغبوا في رجوعهـم، فمنهم من أسلـم فحسن إسـلامه، ومنهـم من خـدم فوافـق استخـدامه، ومنهـم مـن حن إلى إلفـه، فرجـع القهقرى إلى خلفه.

فصل

كان القاضي الفاضل رحمه الله تعالى في هذه الأوقات بالديار المصرية يرتب للسلطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الاسطول، وحمل المال، ونقل المير إلى عكا، والسلطان يكاتبه في مهماته، وترجع اجوبته بأحسن عباراته، مشيرا وناصحا ومسليا، وباحثا عن مصالح الاسلام متقصيا، فمن بعض كتبه: « المملوك ينهى أن الله تعالى لاينال ماعنده إلاّ بطاعته، ولاتفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كل مكان باديه، والمظالم في كل موضع فاشيه، وقد طلع إلى الله تعالى منها مالا يتوقع بعدها إلاّ مايستعاذ منه، وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس مايكون بمشيئة الله له حجة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حجة عليه في غضبه، بلغ المملوك من كل وارد منه مكاتبه ومخاطبة بأنه على صفة تقشعر منها الاجساد، وتتصدع بذكرها الأكباد، والمملوك لايتعرض لتفصيل مابلغه من ظهور المنكرات في أتباعه، وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد وعدم القدرة على المرمة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، وبالغفلة عن مرمتها وتفقدهما في أشتيه القدس العظيمة الجليلة المثلجة لايؤمن سقوطها، وافتضاح القدرة في العجز عن اعادتها، والمرمة أقرب تناولاً من الانشاء والتجديد، ولا شبهه أن مولانا عز نصره في اشغال شاغلة وأمور متشددة، وقضايا غير واحدة ولا متعددة، ولكن قد ابتلي الناس فصبروا، وأضجرتهم الايام فما ضجروا، وأي عبادة أعظم من عبادته التي قام بها والناس عنها قعود، وصبر في طلب جنتها على ناري الحرب والوقت ذواتي الوقود، غير أن مولانا إذا ذكر نصيبه من الإقدام، فلا ينسى نصيبه من الحزم ولا يعجل في الامور الخطيرة، ولايقدم بالعدد القليل على العدة الكثيرة، فالمولى إذا أقبل كان واحدا، وإذا أدبر كان مقوما بجميع الخلق، ولايطمع بأن يقوم به الألف، وليذكر المولى نوبة الرملة التي كان وقوعها من الله سبحانه

أدباً لاغضباً وتوفيقا لا اتفاقـا، ولايكره المولى أن تطول مـدة الإبتلاء بهذا العدّو، فثـوابه يطـول وحسناتـه تزيد، وأثـره في الاسلام يبقـى، وفتوحـاته بمشئية الله يعظـم موقعهـا، (والعاقبـة للتقوى) (١٠٠) (ولينصرن الله من ينصره) (١٠١) واللهتعـالى يشكـر لمولانـا جهـاده بيـده، وبـرأيـه وبـولـده، وبخاصته، وبعامة جنده، وبالأعـداء في أعدائه كجهاده بصاحب صيدا في الفـرنج، فهـو جهاد قـد أربى فيـه رأي المولى فرجـح والحديد يفلـح، وأكيد ماقوبل به العدّو سلاحـه، وأسرع جناح طار لقنصه جناحه، ودولة مولانا كالبحر كرما وظهور عجائب، وكالسماء مطرا وأسنة كواكب».

ومن كتاب آخر:« المملوك يقبل الأرض بين يـدي مولانا الملك الناصر، لطـف الله بقلبه، وحمل عنـه، وروّح سره، ووصل الـراحـة به، ونسـأل أن يرحمه لنا الـذي رحمنا به، فقد بلغـت منا الحناجر القلـوب، وقد وقفت في طرقنـا الذنـوب، وبينما نحن ننتظـر من كتـب المولى مايستـدل به على أن قلب المولى قد طاب، وقصد العدّو قد خـاب، إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعا لـلاكباد مفتتا للقلوب ولو أنها جماد»، ثم ذكـر البطس الذي تقدم ذكـرها الـواصلة إلى عكـا ليلة نصـف شعبان فقـال:« وبينا نحـن نعتقد أن البطس في عكـا، وصل الخبر بأنها في دمياط، ويـوم وصل الخبر بـانها في دميـاط نحـن على انتظـار خـروجهـا منـه، وكتـب البطـائق بالاستحثاث والاستعجال، وتحذيرهـم من تمادي المقام وماتيقنا أخرجت أم هي بـلقية، كأن الـريح في بيت ماخـرجت منه مـن هاتين الجمعتين، ولها من تـاريخ خـروجها مـن الاسكندريـة وإلى تاريـخ تسطير هذه الخدمـة خمسـة عشر يومـا والعيـون ممدودة، والأيـدي مـرفوعـة بـأن يفرج الله عنـا وعنكم بـوصولها، فمن شبع في هـذه الأيام فما واسى المسلمين، ومـن نام مـلء عينه، فما هـو مـن أخـوة المؤمنين، والمملوك شفيـق على البطـس في وقـت الـدخـول حـذر أن يعترض العدّو طـريقهـا، فيحـول بينهـا وبين الـوصـول، فينكـس المراد بها، ويحدث مـن المضرة بحـرمـانها أضعـاف

مـايحدث مـن النعمـة بـالفرج المسير فيهـا، وآكـد هـذه الحال في نفـس المملوك وقـوفه على كتـب أصحابنـا من عكـا، وقد وقـع لهم هذا الـواقع الذي وقع للمملـوك من خوفهم عليهـا، واستبعادهم دخولها ،فـالمملوك وكل من يعرف الأمر إلا كـأهل الصراط، رب سلم رب سلم، فنسأل الله سبحـانه أن لايكلنا إلى أنفسنـا فنعجـز، ولا إلى الناس فنضيـع، ومجهـود أهـل الأرض قـد انتهى وبقـي مـايفعلـه الله، والخير منتظر منـه، والفـرج بالقوت قد سير في البحر من خمسة عشر يوما، والفرج بالنفقة قد سير في البر من عشرة أيـام، والله يامولانـا ما تنجـز شيء من هذه الأمـور إلاّ بأن تضرب الوجوه بالشوك، وتستحلب الحجـارة وينبه النوام، وتبح الأصوات مـن التذكـار، وتحفـى الأقـلام من الكتـابـة، ويخضـع لمن يلزمـه الشغـل كالخضوع لمن لايلـزمه، والله المستعان، فليخلص المولى نيتـه في الاستعانة، والأعوان قليل.

وقـــد كـــانـــوا اذا عـــدوا قليـــلا

فقـــد صـــاروا أقـــل مـــن القليـــل »

ومن كتاب آخـر:« وماتجدد للعدّو من الشروع في آلات الحصـار لعكا، ومـا أرجـف بـه مـن النجـدتين الفـرنجيتين الـواصلـة والبعيـدة وافتراق العسـاكـر في هذا الـوقـت للضرورة، والتماس العسكـر الشرقي الـدستـور للضجر، وحـاجة المولى مـن الانفاق إلى مـالايسعه التـدبير، ويضيق عنـه الامكان، ومطـالبة الغني بالـزيادة مع الغنـى والضعيف بأكثر ممـا يحتاج إليـه وضيـاع فرصـة، واختـلاف رأي بين المتشـاور من الجماعـة، وجـود الألسنة بالآراء، وبخـل الأيدي بالمعونة، وانفـراد المولى بالتعب، واشتراك النـاس في الراحـة، ومابتلي بـه المسلمـون من مـرض أظهروه ليكـون لهم عذراً في القعود، وكتمـه على نفسه لئلا يجلب لأصحابنـا ضعف النفوس، فهـذه الأمـور وإن كـانت شـدائد، وزائدات على العـوائد، فقـد ألهم الله مولانـا فيها سعة الصـدر، وحسن الصبر، ليشعـره أن صبره يعقبه النصر، وحسبته يعقبها الأجـر، ولو لم يعرف المملوك غير الله ينصرهـا، وغير مولانا

يباشر النصرة ويحضرها، فليس إلا التجرد للدعاء، والتجلد للقضاء، فلا بد من قدر مفعول، ودعاء مقبول، ومن الامثال المنظومة:

نحن الذين إذا علوا لم يبطروا
يوم الهياج وإن علوا لم يضجروا

ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها، وأن يسلم على يدينا القدس ثم ينصره، ثم معاذ الله أن نغلب على النصر، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر، وإذا كان ماتقدم الله اليه المماليك قبل المولى لابدمنه وهو لقاء الله سبحانه فلأن نلقاه والحجة لنا، خير من أن نلقاه والحجة علينا، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر بصره، وتملأ صدره (فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الاعلون والله معكم) (١٠٢) وهذا على دين ماغلب بكثره، ولانصر بثروه، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف، (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) (١٠٣)، واشتدّي أزمة تنفرجي، والغمرات تذهب ثم لاتجيء، والله تعالى يسمع الأذن مايسر القلب، ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب، ونستغفر الله العظيم، فإنه مابتلى إلاّ بذنب».

ومن كتاب آخر:«يامولانا اعلم أن الله تعالى قد فعل لك مافعله لنفسه، ودل على لطفه بك كما دل على قدرته، فإنه تعالى خلق من غير مادّة، وأقام السماء بغير عمد وكذلك فعل الله بك خلقك بغير شبيه في الملوك: كرماً ، وديناً، وسهل لك من مصر مالاً من غير جهة، وحمى منها بلاداً بغير جند، وسكن رعية بغير ولاة فاشكر الله، ولاتحتقر خدمة من يبيع الأنفاس، والنوم والراحة اجتهاداً فيما يريحك، ويخفف عنك ثم لايريد العوض منك إنما يريده من الله عنك، لأن خدمتك طاعة والوجوه التي وقعت الاشارة إليهاخضنا فيها وفي غيرها فما وجدنا أكثر مما بلغنا إليه، يامولانا ليس لك في مصر إلا الثغور، وماعملت في هذه السنة

إلا بقدر ثمن حمال ماسير اليك من الأسـاطيل إن الله آخذ بيد الكريم، والمعـونـة بحسب المؤونـة فليهـن المولى العـافيـة من الحسـاب، فشتـان: مـابين حسـاب من كنـز الذهـب والفضة ولم ينفقها فـي سبيل الله، وحساب من قال بيده هكذا وهكـذا في سبيل الله» ومن كتاب آخر« وما في نفس الملوك شـائبة إلا بقية هذا الضعف الذي بجسم مـولانا ، فإنه بقلوبنا، ونفديه بأسماعنا وأبصارنا.

بنـــا معشر الخدام مـنـــا بـــك مـــن أذى
وإن أشفقـــوا ممـــا أقـــول فبـــي وحـــدي»

ومن كتـاب آخر:« إنما أتينـا من قبل أنفسنـا، ولو صـدقناه لعجـل لنا عواقب صـدقنا، ولوأطعناه لما عاقبنا بعـدّونا، ولو فعلنا مانقـدر عليه من أمره، لفعـل لنا مالانقـدر عليه إلا به فلا يستخصـم أحد إلاّعملـه ولا يلم إلاّنفسه، ولايـرج إلاّربـه، ولا ينتظر العسـاكر أن تكثـر، ولا الأصول أن تحصر، ولا فلان الذي يعتقـد عليه أن يقاتل، ولا فلان الـذي ينتظر أنه يسير، فكل هـذه مشاغـل عن الله ليـس النصر بها، ولانأمـن أن يكلنا الله إليها والنصربه، واللطف منـه، والعادة الجميلة لـه، ونستغفر الله سبحـانه من ذنـوبنا فلـولا أنها مسد طريـق دعائنـا لكان جواب دعـائنا قـد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطـريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق».

وفي كتـاب آخـر وصف فيـه الملـك العـزيـز عثمان بن السلطـان ثـم قال:«ولـو شاهد مولانـا اليوم شخصه الكـريم، وصورته الجميلـة، ونفسه الطاهـرة، ونظرتـه المطرقـة، وصفحته الحييـه، وسكون حـركاتـه الموزونة، لخلع عليـه فؤاده، ووهبـه عينه ورقاده، ولقـد يرد المولى عـرصات القيـامة وثواب فراقه له لوجه الله أعظم من ثواب جهاده في سبيل الله، وإن إيمانا صبّره عن ذلـك الولد الكـريم لكريـم، وإن إيمانا أسلى عن ذلـك الملك لعظيم».

ومن كتاب آخـر:«وعسكرنا لايشكو والحمد لله منـه خوراً، وإنما يشكو منه ضجـراً، والقوى البشريـة لابد أن يكـون لها حد، والاقـدار الالهية لها قصد، وكـل ذي قصد خـادم قصدها، وواقـف عند حـدها، وإنما يـذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقت المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع مـن أبطاله قال الله تعالى: (فاعـف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر) (١٠٤) يامولانـا أليس الله تعالى اطلع على قلـوب أهل الأرض فلـم يـؤهـل، ولم يستصلـح، ولم يختر ولم يسهـل، ولم يستعمـل ولم يستخـدم في إقامـة دينـه وإعلاء كلمتـة وتمهيد سلطـانـه، وحماية شعـاره وحفظ قبلة موحـديه إلاّ أنت، هذا وفي الأرض من هو للنبـوة قرابه، ومن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومـن له في العدد كثرة، فأقعدهم وأقامـك، وكسلهم ونشطـك، وقبضهم وبسطـك، وحبب الـدنيا إليهـم، وبغضها إليك، وصعبهـا عليهم وهونها عليك، وأمسـك أيديهم، وأطلق يدك، وأغمـد سيوفهـم وجرد سيفـك، وأشقاهـم وأنعم عليـك، وثبطهم وسيرك، ولـو أرادوا الخروج لأعدّوا لـه عـدة (ولكـن كره الله انبعـاثهـم فثبطهم وقيل اقعدوا مـع القاعدين) (١٠٥) نعم و أخرى أهـم من الأولى انه لما اجتمعـت كلمة الكفر من أقطـار الأرض،وأطراف الدنيـا، ومغرب الشمس ومـزخر البحر مـاتأخر منهـم متأخـر، ولا استبعد المسافـة بينك وبينهم مستبعـد، وخرجوا من ذات أنفسهـم الخبيثة لاأموال تنفـق فيهم، ولا ملوك تحكـم عليهم، ولاعصا تسـوقهم، ولاسيف يـزعجهم (مهطعين إلى الـداع) (١٠٦) سـاعين في أثـر السـاعـي (وهـم مـن كـل حـدب ينسلون)(١٠٧)ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يامولانا كما قال أبقاك الله:

ولســـــت بملـــــك هــــــازم لنظيره
ولكنـــــك الاســـــلام للشرك هـــــازم

هـذا: وليس لـك من المسلمين كـافة مسـاعدة،إلا بـدعوة، ولامجاهـد معـك إلا بلسانـه، ولا خـارج معـك إلاّ بهمّ، ولا خارج بين يـديـك إلا بالاجـرة، ولا قانـع منك إلا بـزيادة تشترى منهـم الخطوات شبرا بـذراع،

وذراعا بباع، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة وكأنك تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة، وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم، والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك، فقائل: لم لانتباعد عن المنزلة، وآخر لم لانميل إلى المصالحة، ومتندم على فائت ماكان فيه حظ، ومشير لمستقبل مايلوح فيه رشد، ومشير بالتخلي عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة، وماكأنها طليعة الجيش، ولا قفل الدار، ولاخرزة السلك، إن وهت تداعى السلك وأنبت في يد الملك، فألهمك الله قتل الكافر، وخلاف المخذل، والتجلد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر.

ولكن مولانا صفيحة وجهه
كضوء شهاب القابس المتنور
قليل التشكي للمهم نصيبه
كثير الهوى شتى النوى والمسالك

ولا شبهة أن المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، ومامراده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له ويسر عليه، وحببه إليه فرب ممتحن بنعمة، ورب منعم عليه بمشقة، وكم مغبوط بنعمة هى داؤه، ومرحوم من بلوى هي دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لايتغير لمولانا أبقاه الله وجه عن بشاشه، ولاصدر عن سعة، ولالسان عن حسنه، ولا ترى منه ضجره، ولا تسمع منه نهره، فالشدّة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها، وكما لم يحدث استمرار النعم لمولانا عز نصره بطرا، فلا حدث له ساعات الامتحان ضجرا، والمملوك يستحسن بيتي حاتم، ومولانا أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه يحفظهما:

شربنا بكأس الفقر يوما وبالغنى
وما منهما الا سقانا به الدهر
فما زادنا بغيا على ذي قرابة
غنانا ولا أزرى باحسابنا الفقر (١٠٨)

والمملوك يسمع بأن مولانا عز نصره على مايعهده من سعة صدره، أسر منه بما يسمعه من بشائر نصره ويااليتني كنت معهم، وماذا كانت تصنع الأيام إما شيبا من مشاهدة الحروب، فقد شبنا والله من سماع الأخبار، أوغرمايمكن خلفه من الوفر، فقد غرمنا في بعد مولانا مالاخلف له من العمر، أومرض جسم فخيره ماكان الطبيب حاضره، ولقد مرضنا أشدّ المرض لفراقه، إلا إن التجلد ساتره».

ومن كتاب آخر:« المملوك يوصي المولى بالإسلام، والإسلام هو قلب المولى فيروّحه ولايحمله ويشغله بما يثقله، ويوصي المولى بقلوب المسلمين، وقلوب المسلمين جسم مولانا أبقاه الله من علم أنه لاتوفيه رواتب الحياة اشتغل قلبه، واستطار لبه، وضعفت نفسه، فيحسب المولى من جهاده تفقد جسمه، وآلات مطعمه، وترويح خطراته،فقد بلغ من حمله على نفسه مايخشى على مولانا الإثم فيه، وانما نتجشم كل مشقة لتسلم منه، ونحن في ضرّ قد مسنا، ولانرجو لكشفه إلا من ابتلى به، وفي طوفان فتنه، (ولاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) (١٠٩) ولنا ذنوب قد سدّت طريق دعائنا، فنحن أولى بأن نلوم أنفسنا، ولله قدر لاسلاح لنا في دفعه إلا أن نقول: لاحول ولا قوة إلا بالله، وقد أشرفنا على أهوال (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) (١١٠) وقد جمع العدّو لنا، وقيل لنا اخشوه فقلنا (حسبنا الله ونعم الوكيل) (١١١) متنجزين بذلك موعود الانقلاب بنعمة من الله وفضل فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم، وليس لنا إلا الاستعانة بالله فما دلنا الله في الشدائد إلاّ على الدعاء له،وعلى طروق باب كرمه، وعلى التضرع إليه (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم) (١١٢) ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرحمة، ومن اليأس من الفرج، فانه لاييأس منه إلا مسلوب الرشد، مطرود عن الله مقطوع الحظ منه، ولاحيلة إلا بترك الحيلة، بل قصد من تمضي أقداره بلا حيلة، سبحانه وتعالى إن علم الله من جند مولانا أنهم

قـد بذلـوا المجهـود، فقد عـذرهم فيعـذرهـم المولى، وإن علم أنهم قـد ذخروا قوة وقصروا في نصرة كلمـة الله، فيكفيهم مقت الله، والمملوك يـذكر المولى بصبره، وبـرحب صـدره، وبفضـل خلقه وبتقـواه لـربه، وبمـداراة مـزاجـه وببر القلـوب الإسلاميـة وببر جسمـه، (وإن كـان كبر عليـك اعراضهـم) الآية إلى (ولـو شاء الله لجمعهـم على الهدى) (١١٣) والمولى أولى بهذا البيت

لابطـــــرإن تتـــــابعـــــت نعـــــم
وصـــــابـــــر في البـــــلاء محتســـــب

قيل للملهب: أيسرك ظفـر ليس فيه تعب؟ فقال: أكـره العجز، ولابدّ أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، لاراد لحكمه، فلا يتسخـط مولانا بشيء من قـدره، فـلأن يجري القضـاء وهو راض مـأجـور خير مـن أن يجري وهـو سـاخـط مـوزور، فيصطلي نـار الشـدّة أعـاذه الله منهـا، ولايجحـد راحـة الثـواب، وفـر الله حظـه منـه، ومـن شكـا بثـه وحـزنـه إلى الله شكـا إلى مشتكى، واستغاث بقادر، ومن دعا ربه دعـاء خفيا استجاب له استجابة ظاهـرة، فلتكن شكوى مـولانا إلى الله خفيـة عنا، ولايقطع الظهـور التي لاتشتـدّ إلاّ بـه، ولايضيـق صدور الا تنفـرج إلاّ منـه، ومـاشرد الكـرى، وأطـال على الأفكـار ليـل السرى إلاضـائقـة القـوت بعكـا، ولم يبـق إلا ضعف نعـم المعين عليه ترويـح النفس واعفاؤهـا من الفكرة، فقـد علم مـولانـا المباشرة أنـه لايـدبـر الـدهـر إلاّ رب الدهـر، ولاينفـذ الأمـر إلاّ بصاحب الأمر، وأنه لايقلّ الهم إن كثر الفكر.

قـــد قلـــت للـــرجـــل المقســـم أمـــره
فـــوض إليـــه تنـــم قـــريـــر العين

وكل مقترح يجـاب اليه إلا ثغراً يصير نصرانيـا بعد أن أسلـم، أوبلدا يخرس فيـه المنبر بعد أن تكلـم، يامـولانا هـذه الليالي التـي رابطت فيهـا والناس كارهون، وسهـرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيـام التي ينادى

فيها: ياخيـل الله اركبي، وهـذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس،وهذه الغمرات التي تنقبض فيها الصدور بهائها بل بنارها هي نعمة الله عليك، وغراسك في الجنة، ومحملات محضرك (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا) (١١٤) وهي مجوّزاتك على الصراط، وهي مثقلات الميزان، وهي درجات الرضوان، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر، ومن ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: لو كان الصبر والشكر بعيرين مابـاليت أيهما ركبت، وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لانطمع في اللحاق بالغبار، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العثار، مااستعمل الله في القيام بالحق إلاّ خير الخلق، وقد عرف ماجرى في سير الأوّلين وفي أنباء النبيين، وإن الله تعالى حرض نبيه ﷺعلى أن يهتدي بهداهم، ويسلك سبيلهم، ويقتدي بأولي العزم منهم، وماتغلو الجنة بثمن، وما ابتلى الله سبحانه من عباده إلاّ من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا، وكان ماقد كان لم يكن ويذهب التعب ويبقى الأجر،وإنما يقظات العين كالحلم، وأهم الوصايا أن لايحمل المولى هما يضعف به جسمه، ويضر مزاجه، والأمة بنيان وهو أبقاه الله تعالى قاعدته، والله يثبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحق، ومما يستحسن من وصايا الفرس: إن نزل بك مافيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك ماليس لك فيه حيلة والعياذ بالله فلا تجزع، ورب واقع في أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانصرف همه، وكفى خطبة(وماتشاؤون إلا أن يشاء الله) (١١٥) هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعها، وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره، ولا تعويلا على قوة إلا على قوته، فهنالك الفرج ميعاده، واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولايقل متى نصر الله، وليصبر فإنما خلق للصبر، بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتلي: أنت المعافى، وليرض عن

الله سبحانه فإن الراضي عن الله هو المسلم الراضي، فأما أخبار فتنة بلاد العجم، فسبحان من ألحق قلوبهم بألسنتهم،(قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) (١١٦)».

وكتب السلطان الى القاضي الفاضل كتابا من بلاد الفرنج يخبره عما لاح له من امارات النصر ، ويقول « ما اخاف الا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها» فكتب اليه الفاضل : « فأما قول المولى إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عفي عنها بهذه الساعات وعفيت، فيكفي مستغفر لسان السيف الاحمر في الجهاد، ويكفي قارعا لابواب الجنة صوت مقارعة الأضداد، ولعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سعت في منهاجك، وطوبى لوجه تلثم بمثار عجاجك، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقتلت، وإن الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شغلت»

- ٨٧٥٧ -

فصل

كان بلغني أن السلطان رحمه الله لما اشتدأمر الفرنج على عكا ، أرسل إلى ملك المغرب يستنجده عليهم ليقطع عنه مادتهم من جهة البحر، وكنت أتطلب حقيقة ذلك وأبحث عن شرح الحال فيه فإن العماد والقاضي لم يتعرض له في كتبهما، غير ان العماد ذكر كتابا كتبه القاضي الفاضل إلى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ماكان أرسله لأجله، وسيأتي ، وغرضي كان الاطلاع على نفس كتاب الرسالة ومضمونها، ثم أراني بعض الشيوخ الصلحاء الثقاة بخطه، ماكنت أرومه فنقلته على وجهه.

قال : نسخة كتاب كتبه القاضي الفاضل، ونقلته من خطه لابن منقذ يأمره فيه بالسفر الى المغرب بأمر الملك الناصر صلاح الدين رحمه الله ، يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حصر الفرنج خذلهم الله عكا بعد كسرة حطين، وفتح بيت المقدس ، والكتاب الذي سير الى المغرب، والهدية التي حملت يأتي ذكر ذلك إن شاء الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

الأمير الاجل الاسفهسلار الاصيل ، العالم المحترم شمس الدين ، عدة الاسلام ، جمال الانام ، تاج الدولة ، أمير الملة، صفوة الملوك والسلاطين ، شرف الأمراء، مقدم الخواص أدام الله توفيقه، ويسر طريقه وانجح مقصده ، وأعذب مورده، وحرس مغيبه ومشهده، وأسعد يومه وغده، يستخير الله سبحانه، ويتوجه كيفما يسر الله إلى الجهة الاسلامية المغربية ، حرس الله جانبها ، ونصر كتائبها ومراكبها ، ويستقرىء في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم ، وأشغالهم وأفعالهم ، ومايحبونه من القول نزره أو جمه،ومن اللقاء منبسطه

أومنقبضـه، ومـن القعود ، مجالسهـم مخففـة أومطـولة ، ومـن التحيـات المتهاداة بينهم ماصيغتـه وماموقعه، وهل هي السنـن الدينية ، أو العوائد الملوكيـة ، ولايلقه الا بما يحبه، ولا يخاطبـه الا بما يسره ، والكتاب قـد نفذ اليه ولم يختم لتعلم.مـاخوطب به، والمقصود أن تقص القصـص عليه من أول وصولنـا إلى مصر ، وماأزلنا مـن البدع بها، وعطلنا مـن الإلحاد فيها، ووضعنا مـن المظالم عنها ، وإقـامة الجمعة، وعقـد الجماعةفيها، وغـزواتنا التي تـواصلت إلى بـلاد الكفار مـن مصر، فكانـت مقدمـة لملك الشـام الاسلامـي باجتماع الكلمة علينـا، ومقدّمة لملك الشـام الفرنجي بـانقياد المسلمين لنا، واتفاق الملوك المجاورين على طـاعتنا، وتفصيل ماجرى لنا مع الفرنج مع الغزوات المتقدمة التي جسنا فيها خلال ديارهم ، وجعلها الله تعـالى مقدّمات لما سبـق في علمه من أسبـاب دمارهـم ، ومـا أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى وفتح البيت المقدس ،و تلك على الاسلام منة اللـه العظمى إلى غير ذلـك من أخـذ الثغور وافتتـاح البلاد واثخـان القتل فيهم والأسر لهم، واستنجاد بقيتهم لفـرنج المغرب وخروج نجداتهم وكثـرتها وقـوتها،ومنعتها وغنـاهـا وثـروتها، ومسـارعتها ومبـادرتها ، وإنـه لايمضي يـوم إلاّعــن قـوة تتجـدّد ومبرة تصـل، وأمــوال واسعـة تخرج ، ومعــونـات كثيرة تحمــل وإن ثغـرنــا حصره العــدوّ، وحصرنـا نحــن العدّو،فما تمكـن من قتال الثغر ، ولاتمكـن من قتالنا ، وخنـدق على نفسه عدة خنـادق، فما تمكنا مـن قتالـه ، وقدّم الى الثغـر أبرجـة أحرقهـا أهله، وخرج مـرّتين الى عسكرنا فكسر العـدو الكثير أقله، فـانه اغتنم أوقـاتا لم تكن العساكر فيها مجموعة، وارتاد سـاعات لم تكن الأهب فيها مأخوذة ، وأقـدم على غرّة استيقظـت فيها نصرة اللـه لنـا وخذلانـه لهم، فقتل اللـه العدو القتل الذريع ، وأوقع به الفتك الشنيع ، وانجلت احدى الحركتين عـن عشرين ألـف قتيـل من الكفـار ، خرجـت أنفسهـا إلى مصارعهـا، وهمدت أجسامها في مضاجعها ، والعـدو وإن حصر الثغر فإنه محصور ، ولو ابـرز صفحته لكـان باذن اللـه هو المثبـور المكسور، وتـذكر مـادخل

الثغـر من اسـاطيلنـا ثـلاث مرات ، واحـراقهـا لمراكبهـم ، وهي الاكثـر، ودخولها بالميرة بحكم السيف الاطهر.

وإن أمـر العدو مـع ذلـك قد تطـاول، وخطبـه قـد تمادى ، ونجدتـه تتواصل، ومنهـا ملك الالمان في جموع جماهيرها مجمهرة ، وأمـوال قناطيرها مقنطرة ، وإن عساكـرنا لو أدركته لما استـدرك ، ولولا سبقه لها بالـدخول إلى انطاكيـة لتلف وهلك ، وتـذكر أن اللـه قصم طاغيـة الالمان، وأخذه أخذة فرعونية بالاغراق في نهر الدنيـا الذي هو طريقه إلى الاحراق في نار الآخرة ، وإن هذا العدّو لـو أرسل الله عليه أسطولا قويـا مستعدا يقطع بحره ويمنع ملكه ، لأخـذنا العدو إما بالجوع أو الحصر، أ و برز فـأخذنا بيـد الله تعـالى التي بها النصر، فـإن كانـت الاسـاطيل بـالجانب المغـربي ميسرة ، والعـدة منها متـوفرة ، والـرجال في اللقـاء فارهـة ، وللمسير غير كارهة، فالبدار البدار ، وأنـت أيها الامير فيها أوّل من استخار الله وسار، وإن كانـت دون الاسطول مـوانع إمـا من قلـة عده، أومـن شغل هنـاك بمهمة أو بمباشرة عدّو إما تحصن منه العـوره، أو قد لاحت منه الفرصة، فالمعونة مـا طريقها واحدة ، ولا سبيلها مسدودة، ولا انـواعها محصورة ، تكون تـارة بالـرجال ، وتارة بـالمال ، وما رأينا أهـلا لخطابنـا ، ولا كفؤ ا لانجادنـا ، ومحقوقا بـدعوتنا ، ولا ملبيـا بنصرتنا إلا ذلك الجنـاب ، فلم ندعه إلا لـواجب عليه ، والى ما هو مستقـل به ومطيق له ، فقـد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نـارها ، ويستطير في الشرق سناها ، وتغرس في العـدوة القصوى شجـرتها فينـال من في العـدوة الدنيـا جنـاها، فـلا تـرضـى همتـه أن يعين الكفـر الكفـر، ولا يعين الاسـلام الاسـلام ، ومـا اختص بـالاستعانة إلا لأن العـدّو جاره، والجار أقـدر على الجار ، وأهل الجنـة أولى بقتال أهـل النار، ولانـه بحـر ، والنجدة بحـرية، ولا غـرو ان يجيش البحـار البحار، وإن سئـل عن المملـوكين بوز بـا وقراقـوش وذكر مافعـلا في اطراف المغرب بمـن معهما من نفايات الـرجال الذيـن نفتهم مقـامات القتـال ، فيعلمهـم ان المملوكين ومـن معهما ليسـوا من وجـوه

المماليك والأمراء ، ولا مـن المعدودين في الطواشيـةوالأولياء وانما كسدت سوقهما وتبعتهما ألفـاف أمثالهما ، والعـادة جارية أن العسـاكر إذا طـالت ذيولها ، وكثرت جموعها ، خرج منهاوانضاف اليهـا، فلا يظهر مزيدها ولا نقصها ، ولا كان هـذان المملوكان ممن إذا غـاب أحضر، ولا ممن إذ ا فقد افتقد، ولا يقـدّر في مثلهماأنه ممـن يستطيع نكـاية ، ولا يـأتي بما يوجـب شكوى من جناية ، ومعاذ اللـه أن نأمر مفسدا بأن يفسد في الارض ، ان أريد الا الاصـلاح ما استطعت ، وان سئل عـن النوبة المصرية ومـا فعل بجندها ، فليعلمهم الأمير أن القوم راسلـوا الكفار وأطمعوهم في تسليم الديار ، فأشفى الاسلام على أمر شـديد، وكاد يقرب على الكفار كل أمر بعيد، فلم يعـاقب الجيش بل أعيـان المفسدين ، فقوبلـوا بمايجب، وكانوا دعاة كفـر وضلال ومحاربين للّه بما سعوا في الارض مـن فساد، فأمـا بقية الجيش وإن كان منهم من هو تبع للمذكورين في الرضا فإنهم اقتصر بهم على أن لايكونوا جندا، ومنهم من أجريت عليه أرزاق تبلغه وشملته آمنة تسكنـه، وأما الهديـة المسيرة على يد الامير فتفصيلهـا يرد في كتـاب الامير الاجل الاسفهسلار العالم الكبير مجد الدين سيـف الدولة، أدام اللّه علوه، مقـرونـا بالهديـة المذكـورة ، ومـع قـرب الشتـاء فلم يبـق الا الاستخـارة والتسمية ، ومبـادرة الوقـت قبل أن يغلـق البحر انفتـاح الأشتية ، واللّـه سبحـانه يـوفق الأمير ، ويسهـل سبيله ، ويهدي دليلـه، ويكلأه بعينـه ، ويمده بعونه ، ويحمل رحله ، ويبلغـه أهله، ويشرح له صدره، وييسر له امره إن شاء اللّه تعالى .

وكتب ثامن وعشرين شعبان سنة ست وثمانين وخمسمائة

فصل

في نسخة الكتاب الى ملك المغرب والهدية

العنوان :

بلاغ الى محل التقوى الطاهر، ومستقرّ حزب اللّه الظاهر من المغرب أعلى به الله كلمة الايمان ، ورفع به منار البر والاحسان .

بسم الله الرحمن الرحيم

من الفقير إلى رحمة ربه يوسف ين أيوب

أما بعد : فالحمد لله الماضي المشية، الممضي القضية ، البر بالبرية ، الحفى بالحنفية ، الذي استعمل عليها من استعمر به الارض ، وأغنى من أهلها من سأله القرض، وأجزل أجر من أجرى على يده النافلة والفرض، وزان سماء الملة بدراري الذراري التي بعضها من بعض، وصلى اللّه على سيدنا محمد الذي أنزل عليه كتابا فيه الشفاء والتبيان ، وبنى الاسلام بأمته التي شبهها صاحبها بالبنيان ، وعلى آله وصحبه الذين اصطفاهم وطهرهم ، فنصروه وظاهروا رسوله صلى الله عليه وسلم فنصرهم وأظهرهم ، ويسر بهم السبيل ، ثم السبيل يسرهم ، وان الله بهم (لذو فضل على الناس ولكن اكثرهم)(١١٧) (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين امنوا ربنا انك رؤوف رحيم)(١١٨) وهذه التحية الطيبة الكريمة الصيبة، الواجبة الرد، الموجبة للقصد، العذبة الورد، المتنفسة عن العنبر والورد، وقاده على دار الملك ومدار النسك ، وجل الجلالة ، وأصل الاصالة ورأس الرياسة، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم ، وعلم العلم ، وقائم الدين وقيمه، ومقدّم الاسلام ومقدّمه، ومقتضى دين الدين ومثبت المتقين على

اليقين ، ومعلي الموحدين على الملحـدين ، أدام اللّه له النصرة، وجهـز به تيسير العسرة ، وردّ له الكرةوبسط له باع القـدرة ، وأوثق به حبل الالفة، ومهد لـه درجات الغـرفة ، وعرفـه في كل مـايعتزمه صنعـا جزيـلا جميلا ولطفا حفيـا جليلا ، ويسر عليه في سبيلـه كل مـا هو (اشد وطئـا وأقوم قيلا) (١١٩) ،تحية استنير منها الكتاب ، واستنيـب عنها الجواب وقد حفز لها حـافزان أحـدهما شـوق قديـم كان مطـل غـريمه ممكنـا إلى ان تتيسر الاسباب ، والآخر مـرام عظيم ماكره اذا استفتحت بـه الابواب ، وكان وقت المواصلـة ، وموسم المكـاتبة هنـاءة بفتح البيت المقـدس ، وسكون الاسـلام منه الى المقيـل والمعـرّس ، ومافتـح اللّه لـلاسـلام من الثغـور ، ومـاشرح لأهلـه مـن الصـدور ، ومـاأنـزلـه عليهـم مـن النـور ، ولم يخل المسلمون فيـه من دعـوات أسرار ذلك الصدر، ومـلاحظات أنـوار ذلك البدر، ومطـالعات تلـك الجهة التـي هي وان كـانت غـريبة فـإن الغرب مستودع الأنوار ،وكنـز دينار الشمس ، ومصب أنهار النهار، ومـن جانبه يأتي سكون الليل ومستروح الأسرار ، وعنه يقلـب الله الليل والنهار (ان في ذلك لعبرة لاولي الأبصار)(١٢٠) ولم تتأخر المكاتبة الا ليتـم الله ما بدأ من فضله ، وليفتح بقية مالم ينقطـع بتقطع يد الشرك من حبله ، والمفتتح بيد الله من الشام مدن وأمصار وبـلاد كبار وصغار ، وثغور وقلاع كانت للشرك معـاقل ولـلاسلام معـاقر، ولبنـي الكفـر مصانـع، ولبني الاسـلام مصارع والباقـي بيد الكفر منها ثغر طـرابلس ، وصور ، ومدينـة انطاكية يسر الله أمـرها ، وفك من يـد الكفر أسرها ، وإذا أمن المؤمـن على هذه الدعوة رجي ايجابها ، وما يتأخر من اللـه سبحانه جوابها ، فالدعاء أحد السلاحين ، ومـع النية يطير إلى وكره من السماء بجنـاحين ، بعد أن كسر العـدّو الكسرة التـي لم يجبر بعـدها، وألجيء الى حصـونـه التـي للحصر أعدها، وكـان يومها كريما ، ولطـف اللّه فيها عظيما ، قبضت كـل حاجة في النفـس ، وأغنت المسلمين ، فـأما العـدّو بعـد يومهـا ، فكأن لم يغـن بالامس ، وكانت على أثر غزوات قبلهـا ، فما الظن بالمجهزة بعدالنكس ،

ولم يؤخـر فتح البـلاد بعدها إلا أن فـرع الكفار بـالشام استصرخ بـأصل الكفار مـن الغرب، فـأجابـوا رجالا وفرسـانا، وشيبـا وشبانـا ، وزرافات ووحـدانا ، وبـرا وبحـرا ، ومركبـا وظهرا ، وركبـوا اليهـم سهلا ووعـرا ، وبذلوا ماعـونا وذخرا ، وما احتاجوا ملـوكا ترتادهـم ولا أرسانـا تقتادهم، بل خرج كل يلبي دعوة بطركـه، ولا يحتاج الى عزمة ملكه ، وخرجت لهم عدة ملوك أقفلـت العجمة على اسمائها ، واتت العزيمـة بحمد الله على اشخاصهـا عند لقائهـا، ومنهم ملك الالمان خـرج في جموع برية مـن الله تعالى برية، مـلأت الفجاج وازدحمت فأنفذها العجاج ، ومنهـم من ركب ثبج البحر فركـب الاجاج العجاج ، وامتطى من البحر مشيـة الرجاج ، لينصر دينـا مشبـه الـزجاج ، يقبـل للكسر ولا يسرع اليـه الجبر، وراكـب ذلك الـدين كـراكب البحـر بلا سـاحل سـلامة والى قـاع كفر، وجلـب الكفار الى المحصـورين بالشـام كل مجلـوب ، وملؤوا عليهـم ثغـريهم من كل مطلوب مـابين أقوات وأطعمة، وآلات وأسلحة وشكة وجنـة، وحديد مضروب وزبرة ، ونقدي ذهب وفضة إلى أن شحنوا بـلادهم رجالا مقاتلة وذخـائر للعـاجلة مـن حـربهم والآجلـة لاتشرق شارقـة إلا طلعـت على العدّو من البحـر طالعة تعوض من الـرجال من قتل ، وتخلـف من الزاد ماأكـل ، فهم كـل يوم في حصـول زيادة ووفـور مادّة، وقـد هان عليهـم موقـع الحصر ، وأعطاهـم البحر مـامنعهم البر، وبطـروا لما كثروا، ونظـروا فـإنهم لايستطيعـون أن يلقوا ويصحـروا ويستطيعـون أن يحصروا على ان ينحصروا ، ونزلـوا على عكا بحيـث يمدهم البحـر بامـداده ، ويصل إلى المقـاتل مـايحتـاجه مـن أسلحتـه وازواده ، وبمـن يكثر بـه مـن مقاتلتـه واجناده، فانقطعت مادّة عكا من البحـر ، وحصرنا منازلهم من العدو من جهة جـانب البر، فخنـدقوا على نفـوسهم ، وحثـوا التراب على رؤوسهم، وعقـدت عـدتهم مائة ألـف أويـزيـدون ، كلما أفنـاهـم القتـل أخلفتهـم النجدة ، فكأنهم قبـل المهات يعودون، فاتممنا بعمارة بحـرية لقينا عمارتهم بها،فنفذت عمارتنا إلى الثغر، وأوصلت إليـه الأقوات التي حمل منها البحر

مالايحمله الظهر، والأسلحة التي أمضاها الله عز وجل بيد الاسلام في صدور الكفر . ومالقينا عمارة العدو بأوفر منها عدة ، فعدد مراكبهم كبيرا ، ولكن لقيناهم بأصدق منها عزمه، والقليل مع العزم الصادق كثير، واستمر مقام العدّو محاصراً للثغرمحصوراً منا أشد الحصر ، لايستطيع قتال الثغر، لانأمن خلفه ولا يستطيع الخروج الينا خوفا من حتفه ، ولا نستطيع نحن الدخول اليه لأنه قد سوّر وخندق وحاجز من وراء الحجرات وأغلق ، ولما خرج ملك الالمان بحشده وسمعته التي هي منه أحشد، وعاد جيشه الملعون على رسم قديم إلى الشام ، فكان العود لأمة أحمد صلى الله عليه وسلم أحمد، قويت به نفوسهم وجمحت به رؤوسهم ، وظنوا انه يزعجنا من مخيمنا ،ويخرجنا من خيمنا ، فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشمالية ، فسلك ذات الشمال ،متوعرا فيها محتجزا عن لقائها مظهرا أنه صريع داء ومابه غير دائها ،وكان أبوه الطاغية ملك الالمان شيبة اللعن اللعين ، قائد جيشه إلى سجن سجين ، قد هلك في طريقه غرقا، وخاض الماء فخاضه الماءشرقا ، وبقي له ولد هو الآن المقدّم المؤخر وقائد الجمع المكسر، وربما وصل بهم إلى عكا في البحرتهيبا ان يسلك البر، ولوسبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى انطاكية لأخذوه أخذا سريعا ، وسبق بحر سيوفهم إلى أن يكون الطاغية فيه لافي النهر صريعا ، ولكن لّله المشيئة في البرية، والطاغية إنما يمشي إلى البلية، فإنه لولا احتجار مقيمهم بالخنادق، واحتياز واصلهم بالمضائق لكان لنا ولهم شأن ، وكان ليومنا في النصرة الكبرى بحول اللّه ثان لا يثنيه من العدو ثان ، ولما كانت حضرة سلطان الاسلام ، وقائد المجاهدين إلى دار السلام أولى من توجه اليه الاسلام بشكواه وبثه، واستعان به على حماية نسله وحرثه، وكانت مساعيه ومساعي سلفه في الجهاد الغرّ المحجلة المؤمرة المؤملة الكاسفة لكل معضلة ، الكاشفة لكل مشكلة، والأخبار بذلك سائرة ، والآثار ظاهرة ، والصحف عنه باسمه ، والسير به معملة وعاملة ، وكل بجهاده قد سكن إلا السيوف في

اغمادها ، وقد أمن إلا كلمة الكفر في بلادهـا، لايزال في سبيل اللّه غاديا وراتحـا ، ومـواجهـا ومكـافحا ، وممـا سيـا ومصـابحـا، يجوز لجة البحـر بالمجـاهديـن ملوكا على الأسرة ، وغـزاة تصافح وجـوهها السيـوف ، فلا يخمد نور الاسرة بذود الفرق الكافـرة ، ولو ترك سبيلها لملأ قراره كل واد، (كلما اوقدوا نارا للحرب اطفأها الله) (١٢١) ولولاه لأخمد شرارة كل زناد. كان المتوقع من تلـك الدولة العالية ، والعزمة الغاديـة مع القدرة الوافية، والهمة المهـدية الهادية، أن يمـد غرب الاسلام المسلمين بـأكثر مما امـد به غرب الكفـار الكافـرين ، فيملأهـا عليهم جواري كـالاعلام ، ومـدنا في اللجج سوائر كأنها الليالي مقلعة بـالأيام تطلع علينا معشر الاسلام امالا، وتطلع على الكفـار آجالا ، وتردنـا إما جملة وإمـا أرسالا ، مسوّمـة تمدها ملائكـة مسوّمة ومعلمـة، تقدم حيازيمهـا إقدام حيزوم تحت أصحـابه، وإنما هي منه عزمه، كانـت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المشأمة، وكلمة كانت تنفخ الروح في الكلمـة ، ولما استبطئت ظن أنها توقفت على الاستدعاء فصرخنا به في هذه التحيـة ، فقد تحفل السحاب ، ولاتمطر إلى أن تحركها أيـدي الرياح ، وقـد ينزل النصرة فلا تظهـر الى أن تضرع اليها ألسنة الصفاح،وسير لحضـور مجلسه الأطهر ومحله الأنـور ، الأمير الاجل المجـاهد الأمين الأصيـل، شمس الـديـن نور الاسـلام والمسلمين، سفير الملـوك والسـلاطين ، أبـو الحزم عبـد الـرحمن بـن منقـذ ، كتـب اللّـه سلامته،وأحسـن صحابته ، وما اختير للوفادة إلا مـن هو اهلها، ولا حمل الوديعـة إلا منّ هـومحلها،ولا بعـث لنهج الصلـة إلا من هـو مفتاحهـا ، ولأداء الامانة إلا مـن هو أ هلها ، ومهما استوضـح منه، وسئل عنه، فـإنه على نفسه بصيرة ، ومـن البيان ذو ذخيرة، وفي العـربية ذو بيـت وعشيرة، والمشاهدة له أوصف، على ا ن تلك الجلالـة ربما ذعرت البيان فأخلف، وماأجـدره بأن يصادف بسطـة على بساطـة، ونظرا يأذن لـه في القول على اختصاره، وتوسطه وافـراطه، فكل هو به واف، وكل هـو للفهم الكريم كاف، واللّـه تعالى يجعل هـذه العزمةمنـا في استنهاض العـزمة منه بـالغة

مبلغا يسر أ هل دينه ، ويوزعهم بها اقتضـاء ديونه ، من الذين اتخذوا إلها من دونه ، والسلام الصادر عن القلـب السليم ، والودّ الصميم ، والعهد الكـريم، على حضرة الكـرم العليـة ، وسدّة السيـادة الجلية، سلام مـودّة مـاوفد الغـرب قبلهـا مثلها ، ورسـألة مـاخظـرت إلى أن انفذت وراءهـا المحبة رسلها، وليصل السلام رحمة الله وبركـاته، ورضوانه وتحياته إن شاء الله تعالى.

وكتـب في شعبـان سنـة سـت وثمانين وخمسمائة ،والحمـد للـه وحـده وصلاته على سيدنا محمد نبيه واله وسلامه .

الهدية ختمة كريمة في ربعة مخيشة ، مسك ثلاثمائة مثقال ، عنبر عشر قلائد عـددها ستمائة حبة. عود في عشرة أمنـاء. دهان بلسان مـائة درهم واحـدة . قسي بأوتـارها مـائة وقوسـان . سروج عشرون . نصول سيـوف هنـديـة عشرون. نشاب نـاسـج خـاص مـريش كبير ومتوسـط ضمـن صندوقي خشب مجلدة سبعمائة سهم.

وكان اقلاعه من الاسكندريـة في شيني عمارته مائة وعشرون . في ثالث عشر رمضان سنة ست وثمانين وخمسمائة ،ووصـل إلى طرابلس أوّل البلاد في الخامـس والعشرين مـن شوال ،وأقـام بها إلى ذي القعـدة ،وتوجـه الى البلاد وكـان الاجتماع بالوزيـر أبي يحيى بن أبي بكـر بن محمد بـن الشيخ أبي حفص ، ودفـع كتاب السلطـان اليه يوم الخميـس سابـع ذي الحجة، وكان الـدخول على يعقوب والسـلام عليه في العشرين مـن ذي الحجة ، وفي هـذا النهار حملـت هديـة السلطان إلى خـزانتـه،وكان انفصـاله مـن مراكش عاشر المحرم سنـة ثمان وثمانين وخمسمائة، ووصل الى الاسكندرية في الثامن من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين .

فصل

لم يحصل من جهة سلطان الغرب ما التمس منه من النجدة ، وبلغني أنه عز عليهم كونه لم يخاطب بأمير المؤمنين على جاري عادتهم ، وقد كان سلطانا عادلا مظهرا للشريعة غازيا توفي في سنة خمس وتسعين، وفيه يقول شاعره:

أهل لأن يسعى إليه ويرتجى
ويزار من أقصى البلاد على الوجا
ملك غدا بالمكرمات مقلدا
وموشحا ومختما ومتوجا
عمرت مقامات الملوك بذكره
وتعطرت منه الرياح تأرجا
وجد الوجود وقد دجى فأضاءه
ووراءه في الكرب العظام ففرجا

وفيه يقول ابن عمه سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن أبو الربيع من قصيدة أولها :

هبت بنصركم الرياح الأربع
وجرت بسعدكم النجوم الطلع
ان قيل من خير الخلائف كلها
فإليك يا يعقوب تومى الاصبع
ان كنت تتلو السابقين فانما
أنت المقدّم والخلائف تبع

وقدمدحه أيضا شمس الدين بن منقذ هذا المرسل اليه من جهة السلطان بقصيدة منها:

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته
إلى بحر جود ما النعماه ساحل

إلى معـــدن التقـــوى إلى كعبـــة الهدى
إلى مـــن سمـــت بـــالـــذكـــر منـــه الأوائل
إليـــــك أمير المسلمين ولم تـــــزل
إلى بـــابـــك المأمـــول تـــزجـــى الـــرواحـــل
قطعـــت اليـــك البر والبحـــر مـــوقنـــا
بـــأني بـــذاك القطـــع بـــالنجـــح كـــافـــل
فما راعنـــي مـــن وجبـــة البر رائع
ولا هـــالنـــي مـــن زاخـــر البحـــر هـــائل
ومـــن كـــان غـــايـــات المعـــالي طـــلابـــه
يهون عليـــه كـــل أمـــر يحاول
رجـــوت بقصـــديـــك العلى فبلغتهـــا
وأدنـــى عطـــايـــاك العلى والفضـــائل
فـــلا زلـــت للعليـــاء والجود ثـــانيـــا
تبلغـــك الأيـــام مـــا أنـــت آمـــل

وابن منقذ هذا من أهل بيت أدب وشعر، وله على ماوجدت بخط بعض الثقاة :

تصرّم عمـــري في التغـــرّب والنـــوى
وأفنـــى ارتحالي طـــارفي وتـــلادي
وأخلقـــت الايـــام بـــرد شبيبتـــي
وأصلـــد مـــن وقـــع الخطـــوب زنـــادي
وأشغلنـــي الحرص الموكـــل في الـــورى
عـــن العمـــل المنجـــي ليـــوم معـــادي
فـــلا راحـــة الأخـــرى تيقنـــت نيلهـــا
ولا أنـــا في الـــدنيـــا بلغـــت مـــرادي

وله على لسان بعض غلمانه:

ورب قميـــص دعـــاني إلى احـــــــــ
ـــــــتمال الـــرثـــاثـــة منـــه العـــدم

أقطب وجهي له كلما
تهلل لي ضاحكاً وابتسم

ومن كتاب فاضلي الى بعض اخوانه :« وأما الاخبار المغربية وإخلال جانبها ، وضعف مطلوبها وطالبها فإذا نجزت الظلماء الى المغرب فبحق، كما ان الانوار الناصرية قد تناصرت في الشرق ، فالله يسعد بلاد الدنيا بالانخراط في سلك ملكه ، ويمكن من مؤمنها حكم عدالته ومن كافرها سيف فتكته ، والله يجزيها الخير عن نيتها في الخير، ويكتب سلامة عزمها في طرق النفع أينما يممت السير».

ثم اني وقفت على كتاب فاضلي للسلطان يشعر بأن الرسالة المغربية لم تكن برأي الفاضل ، ولاهو مختار لها.صورته:«المملوك يقبل الارض بالمقام العالي المولوي الملكي الناصري ، جعل له الله في الدنيا والآخرة المقام العالي، وأبقى دولته التي هي الايام بالحقيقة والايام قبلها هي الليالي ، وينهي ان الظاهر ان المملوك عند المولى ليس من أ هل الاتهام،وان له ولله الحمد اثارا في دولته تشهد بها الايام، واثار السيوف طاحت وبقيت اثار الاقلام،والرسالة المغربية ليس المملوك مشيرا بتركها،ولا كارها لسفر رسولها، ولا مستبعداً مصلحة قريبة منها، لكن على وجهها ، وقد نجزت الهدية المغربية على ما أمر به، وكتب الكتاب على مامثل ، وفخم الخطاب والوصف فوق العادة ، وبما لايمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه،وعند وصول الامير نجم الدين من المخيم المنصور فاوضه المملوك في أنه لايمكن الا التعريض لا التصريح بما وقع له أنه لاتنجح الحاجة إلا به من لفظة أمير المؤمنين ، وأن الذين أفاضوا في هذا الحديث وأشاروا به ماقالوه نقلا ، ولا احاطوا به قياسا ، ولا عرفوا مكاتبة المصريين قديما، وآخر ماكتب في أيام الصالح بن رزيك فخوطب فيه أكبرأولاد عبد المؤمن وولي عهده بالامير الأصيل النجار، الجسيم الفخار ، وعادت الاجوبة الى ابن رزيك وهو وزير سلطان مصر الذي

اتباع مـولانا اليوم مـائة مثله، مترجمة بمعظـم أمره ، وملتزم شكـره ، هذا والصالح يتوقـع ان يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يـديه، وماهو الا ان يهرب مملوكـان طريدان منـا فيستوليـان على أطراف بلاده، ويصـل المشار اليه بـالامر من مـراكش الى القيروان في ستـة اشهر فيلقاهـم فيكسرا مرة، ويتماسكا أخـرى، واعلم الامير نجم الديـن بذلك فأمسـك مقدار عشرة أيام، ثـم أنفذ الامير المذكـور اليه على يـد ابن الجليـس بأن الهديـة أشير عليه بأن لايستصحبها ، وان استصحبهـا تكون هدية برسم مـن حواليه، وان الكتاب لايـأخذه الا بتصريـح أمير المؤمنين ، وان السلطان عـزنصره رسم له ذلـك ، والملك العادل دامت قدرته بـأن لايشير الا به ، وانه اذا لقـي القوم خـاطبهم بهذه التحيـة عن السلطـان ابقـاه اللّه مـن لسانـه فأجـابه المملوك بأن الخطـاب يكفي ، وطريق جحـدنا له ممكن والكتـابة حجة تقيد اللسـان عن الانكار ، ومتى قرئت على منبر من منـابر المغرب جعلنـا خالعين في مكـان الاجماع ، مبايعين مـن لاينصره اللّـه ولا شوكـة فيه، ولايحل اتباعـه، مرخصين الغالي ، منحطين عن العـالي ،شاقين عصا المسلمين ، مفرقين كلمة المؤمنين، مطيعين لمن لاتحل طاعته، متقلدين لمن لاتصـح ولايتـه، فتفسـد عقـود الاسلام وينفتـح بـاب يعجـز وارده عـن اصدار ، بل تمضي وتستشـف الامور وتكشف الاحوال، فـان رأيت للقوم شوكة ولنا زبده،فعدهم بهذه المخاطبة ، واجعـل كل مانأخذه ثمنا للوعد بها خـاصة ، فـامتنـع وقال: أنـا أقضي اشغالي وأتـوجـه إلى الاسكندريـة وانتظـر جواب السلطـان عز نصره ، ومـايفوت وقـت وإلى أن أنجز أمـر المركب ، وارتـاد الركاب فسير المملـوك النسخة وان وافقـت فينعم المولى على المملـوك بترجمة يلصقهـا على مـاكتبـه،ويـأمـر نجـم الـديـن بتسلـم الكتاب، على ان ابن الجليس حدثه عنه انـه ممتنع من السفر إلا بالمكاتبة بها، فأما الذي يترجـم به المولى عز نصره فيكون مثل الذي يـدعى به على المنبر لمولانا وهـو: الفقير الى الله تعـالى يوسف بـن أيوب، أدام اللـه غنى مولانـا بالفقـر الى ربه، واذا كتب الصـالح ابن رزيـك اليهم مـن السيد

الأجل الملك الصالـح قبح ان يكتب اليه مولانا أبقـاه الله «الخادم» وهذا مبلغ رأي المملـوك ، والمؤمن لايـذل نفسه، وقـاسم الارزاق يـوصلها وان رغم مـن جرت على يـده ، وان كان مـولانا أعـز الله نصره يقـول: أنت غافل وغائب، ومـاتعرف ما الاسلام فيه ، فلو حضرت وعـرفت ماشققت الحديث ، فجواب ماتكتب:بعد سنتين فيما يتخلى الله عنا ولا تستمر هذه الشدة ولا نسيء الظن بـالله ، واذا كانت لنـا إن شاء الله أخذت خـالية ممن نطلـب الآن مواسـاته، واذا كـان المملوك مستجهـلا وغير مستنصح وللضرورة حكمها . والأحـوال المملوك غائب عنهـا ، فالمفهوم مـن الأمر أن يتولى من الكتابة ترتيـب المقاصد ، وتحرير الالفاظ ، وتنضيد الخبر عما اجراه الله تعالى على يد مولانا عـز نصره ، والثاني المطلوب فقد فعل هذا كله في النسخة ، وبقيت اللفظة التي ليست كتابة المملوك لها شرطا فيها، والمملـوك وعقبـه مستجيرون بـاللـه تعـالى ثـم بـالسلطـان عـزنصره مـن تعريضهـم لكدر الحيـاة وتوقع الخوف ومعـاداة من لايخفـى عنه خبر ولا تقال به عثـرة، ويكفي ان المولى انعم بخطه في كتابـه الى المملوك ، وفيها ماهـو بخط حضرة سيدنـا الاجل عماد الدين الكـاتب الاصفهاني حـرسه الله تعالى لماوصى بأن لايناظر في الخطاب ماصرح باللفظة، فهي اما تقية فالمملوك اولى بها، واما استهانة فنفس الملك لاتقاس بنفس المملوك ، فان كـان ولابد فـالنسخة بين يـديه، والمقصـود فيهـا من زيـادة هذه اللفظـة مايحتاج الى تعليـم ، والكتاب الذين يستقلـون بكتابة النسخة معـدومون، وقد ناب المملـوك عنهم، والكتاب الذيـن يستقلون بالتبييض مـوجودون فينوبـون عن المملـوك في التبييض ، والافكيـف يسير رسول بكتـاب من مصر بـلا خط سلطـان ، وبغير حضرته كتـب ولا بهديه سـار، وبمحضر من البغاددة والمغـاربة يعلمون أن الكتاب كتـب بمصر ، ويشهدون بما لم يـروه ومالم يقـرؤوة مـن الخطاب ، ولـو وصل مـن المولى أدام اللـه أيامـه كتا . مختوم وسير ولم يعلـم مافيه لانقطع فضـول كثير وحمدت أراجيف شنيعة، ولا يعتقـد المولى أن المملوك يعظـم القصص فما لـلألسنة والاعين

شغـل إلاّالســلاطين وأفعـالهم واقــوالهم ، ولا للخلـق خــوض إلا في أوامرهــم وأحوالهم، ولـو علـم المملـوك أن هذا الـذي استعفى منـه يضره بحيـث ينفــع المولى أبقـاه اللّـه لهان عليـه، ولكنــه مضرّة بغير منفعـة ، وتعـرّض لماتذم عـاقبته، أويبقـى على ا لخوف منه ، وذلـك مما لايقتضيـه حسن عهد المولى، وفضل رأفته فمقصـود المولى ابقاه اللّه تحصيل تبييضها بين يديـه ، وربما حصل استنـارة، وامنت المكـاره فيه، وغمضـت العيون عنه وشحت الأيام عليه، طالع المملوك بذلك».

فصل

وللقاضي الفاضل رحمه الله من كتب أُخر مايشرح لنا بعض ماتقدم ، ومالم يذكره أحد من أرباب السير منها قوله: «كتاب بغداد كتاب بارد، غث جامد، مافيه مقصود لقاصد ، ولا صلة ولا عائد، ونحن نطلب الذهب الحار فيضرب في حديد بارد» ومنها فيما خرّب من البلاد الفرنجية المغنومة :«خراب البلاد في هذا الوقت الضيق لاشبهة في تقويته لنفس العدّو واضعافه لأنفس المسلمين ، وكان من يسمعه يفجأه من بديهة اليأس مايقطع وجأه. المولى يعلم أن العدو أخذها من المصريين في تمام ستين سنة وخفضوها بالانحصار مرة وبالهدنة مرةأخرى وبالقتال مرات، وبولاة سوء لوكان فيهم خيرا لما عجزوا عنها ، ونحن قد حملنا عن العدو المؤنة بتخريب البلاد التي كان العدّو يريد أن يحاصرها وينازلها، وينصب المنجنيق والبرج عليها، ويخاف النجدة أن تصلها، وقوّة الاسلام أن تثوب اليها، ويتوقع أن يبدهه المصاف قبل النزول عليها ، فعرّفناه أنه قادم على من لاسلاح له إلا أن يلقي السلاح، ولاحفظ للبلاد إلا أن يخربها ، فقد نكلنا عن اللقاء ، وفررنا قبل المواجهة،وزدنا زيادة عجيبة وهو أن المنهزم ينهزم بالرجال ونحن ننهزم بالبلاد» ثم قال:

«وثبوت مولانا على عكا هو حراستها وحفظها وقوّة نفس من بها، وأهون الاعداء ملك الألمان لايشك مولانا أن جمعه لايفي بعشر قراقر من ستين قرقورة وصلت الى الفرنج نجدة من بلاد المجوس في السنة الماضية ، وانما الزائد سمعة ملك وقد هلك ، ورأس قد قطع، وقائد جيش وقد كبا كالجهال

ومنها عن ورود كتاب السلطان إليه يبشر بعافيته من مرض عرض له في شهر رمضان:« أسفرت بشارته عن أن المولى أتاه الفرج وغذاؤه الفروج، واستقل بحمد الله، وصح وقالت العافية: للمرض تنح، وكان مافي كتابيه الأولين من تعريق النون من الحمد لله رب العالمين فيه أثر

ضعف ينتقده صيارفة الخطوط ، فأما هذا الكتاب المبارك فقد صحت فيه التعريقة ، وقويت اليد وطلعت النون أهم الينا من مطلع الهلال الفطري الذي يشبهه الشعراء بالنون ومنهم من قال:

ولاح هلال مثل نون أجادها
يذوب النضار الكاتب ابن هلال

وهذا من أنواع الفراغ الذي ماأوجبه المملوك الا لمسرته بعافية المولى أدامها اللّه، وأدام المسرة بها له وللخلق فمايشبهها المملوك إلا بنور الشمس الذي له في كل مكان أثر، ولكل عين به نظر، فلا أخلى اللّه الدنيا من اثاره والعيون من أنواره ، وبعد عافية المولى قد انتظر الاسلام عافيته به من المرض الذي هو العدّو ، فيجمع اللّه تعالى للمولى وللخلق بين العافيتين ، ويستخدم شكرهم للنعمتين ، فقد جلا اللّه بهذا المرض سيف اللّه الذي هو المولى وماصقله إلا لتصدأ به قلوب أعدائه ، ومن فوائد هذا المرض أن المولى يستأنف العمر جديدا و العزم حديدا، ويستقبل التدبير بنشاط قد حضر، واعضاء قد فارقها ما كان سبب الضجر»

ومنها:«وأما تبرم مولانا بكثرة الطلبات منه فلا أخلى اللّه مولانا من القدرة عليها ، وهنيئا له أن اللّه سبحانه يطالبه بحفظ دينه، والنبي صلى اللّه عليه وسلم يطالبه بحسن الخلافة في أمته، والسلف الصالح من هذه الامة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه لما زادوا على مايفعله المولى، وأهل الحرب يطالبونه بإزاحة علتهم من الذهب والفضة والحديد، وبقية الأمة تطالبه بالأمن في سربهم، والاستقامة في كسبهم والخفارة في سبلهم، ونفسه الكريمة تطالبه بالجنة بلغه اللّه اليها ، ولمعالي الأمور أعانه اللّه عليها، وإذا عدّد مايراد منه فلا بد أن يعدّد مايسر عليه فهل عدم من اللّه تعالى قط نصره، وهل استمرت به قط عسرة ، وهل تمت

لعدو قط عليه كره، وهل بات قط إلا راجيا ،وهل أصبح إلا راضيا ، ألا يعلم أن اللّه تعالى ذخر له من الصالحات مالم ير كفؤا له غيره،ألا يحصي من سبقه من الملوك إلى الدنيا فعجزوا عما سبق إليه المولى من الآخرة ، وهل تعرف راية قاتل تحتها في سبيل اللّه إلا رايته، وهل يعرف مال ينفق في سبيل اللّه إلا ماله ، وهل يسمع في مجلسه إلا كتاب اللّه يتلى، وسنة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تقرأ ، أويرى به إلاّ الخيل تعرض، والسلاح يقلب،لاأقداح الشاربين ، ولا أصوات المغنين ، ولا وقائع الكذابين ، ولاسعايات النمامين ، ويحق إذا توافر حظ مولانا أبقاه اللّه على تشبيه الملوك ، فإذا كان مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد فإن مجلسه أولى بأن يكون مسجداً من كل مسجد، ولا غرو أن تعترف المدائح كما تعترف الضوال ، وان تتبع كما تتبع الطرائد،(ولينصرن اللّه من ينصره)(١٢٢)

لعل المولى عز نصره قد نفذ إلى جانب الشمال جماعة فإن صاحب أنطاكية خذلة اللّه عاث وشعث، وخلا الجبان بأرض فطلب الطعن وحده، لو قرن أهل عكا—وكذلك يفعلون— بمشيئة اللّه ما هم فيه من جهاد بنية احتساب لما سبقهم إلى الجنة سابق ولا لحقهم بعدهم لاحق، فليهن مولانا توفر ثوابه على كل حال، فله ثواب نفسه وثواب من جاهد بسببه ، فلا أعدم اللـه الخلق واحدا به استقام جميعهم، ومالكا قام برعاياهم فأقعد مايروعهم ، وشفيقا يقيهم بنفسه وبولده وبأخوته، ويتقدم إلى الأهوال امام مماليكه وأمرائه وعسكره وجملته كأنه منهم مكان بسم اللّه من الكتاب، ومكان الامام من المحراب، ومكان النواصي من وجوه الصاهل، ومكان الأسنة من وجوه الذوابل، وخير ماكان اذا لم تظن نفس بنفس خيرا ، وأغير ماكان على محارم اللّه إذا كانت أنفس الملوك غير غيرى، وقد اطمأنت القلوب إلى أن اللّه سبحانه قد كشف الغمة وفرجها ، وأطفأ نار الحرب التي كان العدو قد أججها ، فما يتوقع من كتب مولانا أبقاه اللّه إلا ان الاسلام قد رضي بما يسخط

الكفر، ولا يسمع من قصصه الذي هـو أحسن القصص إلا أن يقول ما قاله سميه على نبينا وعلية السلام(قضي الأمر)(١٢٣) فأما ملك الألمان فقد سلبه اللّـه ماأضيـف اليه كما كـان المملوك رأى في منـامه على كـوكب.، واعلـم به مـولانـا في ضمن رسـالـة فقال ابقـاه اللّـه قد قبلـت البشرى، وصـورة الـرؤيـاأن رسـولا جـاء مـن السلطـان عـز نصره إلى المملـوك فقال:أكتب كتابـا ببشارة ملك الألمان ، فقلت حتى أفكر، فقـال الرسول اكتب بـأن اللّه قد سلب ملـك الالمان ماأضيف اليه، والمشهـور ان ملك الالمان خرج في مائتي ألف، وأنه الآن في دون خمسة الاف».

ومنها: «ورد كتـاب من المهديـة إلى الاسكندريـة ثاني رجب بعـد ستة عشر يـوما مـن المهـدية ، وذكـر مـن فيه أخبـارا ، وقـد طولـع بها ، ولما تكـررت علمت صحتهـا، وهو أن عسـاكر الغـرب الاسلاميـة نازلـة على طليطلة ، وقـد افتتحت عدّة حصون كـافرة، وأن بوزبـا شوهد بالمهـدية مـوثقا بـالحديد وقـد نفذه قـراقوش الى صـاحب تـونس ليسيره إلى بـلاد الاندلس ، موضـع نزول ابن عبد المؤمن بالعساكـر ،وأن أهل صقلية من المسلمين إلى الآن في حرب قائمة بينهم وبين فـرنجها ومعتصمون بالجبال في أعمالها، وأن عسكـر الفـرنـج قد خـرج لانجـاد أصحـابهم بصقليـة ، والمسلمون بها على توقـع ورقبة وحذار وخيفة ، نصر اللّه كلمـة التوحيد، وأهلك كل جبـار عنيد، وان مراكب فيها أزواد للجنويين دخلـت المهدية بأمان من صـاحبها، فباعت بها وتزودت منها ، وانها قـاصدة الشام خيب اللّه قصدها»

ومنهـا «وقد سير الحمـل الآن مـن المجلس العـزيـزي بحضور فـلان وفلان وكلهم مجتهـد في الخدمة، ولما عرف المملوك انهم لايطـرقون المعنى الذي يطرقـه المملوك من تنبيه مولانا على أن يقتصـد في الانفاق ، ويقدّر الاخراج للعلم أن هـذا الحجر قد رمينا بعدمـه، وسمع بخبر المولى فإنهزم فرارا من سطوة كـرمه، والبلاد ليست الآن كعهدها في انقطـاع اسفارها ،

ووقوف معـائشها،وكساد أسـواقها ،وانكسـار تجارتها،ولولم تكن الـدراهم سلعةلاتخرج من مصركما يخرج الدينار، لما وجـدت كما يوجد الدينار، وإن تصريـف الـدراهـم بعـد أن يصير مستخـرجـا بـذهـب شغـل شـاغـل، واستخراج ثـان غير الاول، وعسى اللّـه ان يأتي بالفتـح أو أمر مـن عنده يحدث للاسلام نصرا عزيزا، وللكفر خذلانا سريعاً وجيزا.

مولانا خلد اللّه ملكه مـن وراء ضرورة لاتخفى عن المملوك، والمماليك من وراء ضرورة لاتخفى عـن المولى وصدر المولى بحمد اللّه واسـع وفرج الله منه قريب، وهـذه الضائقة لما يريده اللّه تعالى من حسـن موقع الفرج بعدهـا، فقد انفـق المولى مال مصر في فتح الشـام، وأنفق مـال الشام في فتح الجزيـرة، وأنفق مال الجميـع في فتح السـاحل، وينفق ان شـاء اللّه تعالى مال القسنطنطينية في فتح روميـة، والملوك كلهم وكلاؤه وأمناؤه على خزائنهـم إلى أن يسلموها إليـه فيشكره اللّه على مـاأخرجه في سبيـل اللّه منها ، ويمقتهم على ماكنزوه من ذهبهـا وفضتها، فلا يكن في صدر المولى حرج ولا في خلقـه،فإن اللّـه سبحانـه لايضيق رزقـا على يده الكـريمة، لاسيما وقد أجرى عليها ارزاق خلقه»

ومنهـا« ينهي المملـوك وصـول رسول ملـك الـروم بما في صحبته مـن هديـة، وبما على لسانـه من رسالـة ،وبما على يده مـن كتاب، وحضر بين يدي الملك العـادل وجرى من المفاوضة مـا زبدته امتنان الملـك بكونه لم يجب رسول ملك الالمان وصاحب صقلية، وغيرهم من جيوش الفرنج إلى الموافقـة على حـرب السلطـان، وإطـلاق طـريقهـم ، وامتنـع وسـدّ الدربندات ، وحفظ عليهم الطرق، ووصـى أرباب الحصون بالتيقظ لهم والمنـع دونهم، وجعـل موافقتـه أن البـلاد في هـذه السنـة غاليـةالسعـر، والمصلحة تقتضي أن لاتكون الحركة إلا بقـوة وعلى تمكن من الميرة وتأخير الحركة الى السنة الاخـرى» ثم قال:«وهذاملـك الروم خائف من الفـرنج على بلده،مـدافع عن نفسـه إن تم له الدفـع ادعى انه بسببنـا،وان لم يتم

ادعى انه غائب عـن مقصده ومقصدنا، وقد جعل مـااورده من أن يقال ان البطاركة في قيامـة من قبله، وان ينقل مـن ولاية الفرنج الى ان يـوليها الطاغيـة من أهـل عمله سببـا يبسط به عـذره بزعمـه عند أهـل جنسه ، ويـدفع بـه عن نفسـه لاسيما مع إقـامـة الخطبة الاسـلامية ، ونقلـه المنبر وفسحته في الصلاة واعزاز الكلمة الاسلاميـة ، أرغم اللّه بها أنفه، وعجل بسيفها حتفـه، ومولانا ابقاه اللّـه يتثبت في الاجوبة ، ولايجيـب الى ماعلى الاسـلام فيه غضـاضة ، ولا الى مـا للكفر فيـه قوة(ان ينصركـم اللّه فـلا غالب لكم)»(١٢٤).

ومن كتاب آخر: « وصل إلى المملوك كتاب يذكر وصول رسل الملك العتيـق مـن قبرس اليـه يخبره بعصيـانه على ملـك انكلتيـز ومكـاشفتـه بالعداوة والحرب وانه قدكاتب السلطـان أعز اللّه نصره يبذل له من نفسه العبوديـة والطاعـة والمظاهـرة على ملك انكلتيـز ، والاخبار متـواترة بـأن الملك العتيق أحـرق مواني قبرس ووعرها وقطع الميرة عـن الساحل ، ولا شبهة ان مـولانايتقبل مـن المذكور ويقوي نفسـه على هذه المباينـةفان في تخاذلهم نصرة الاسلام وشغل بعضهم ببعـض وافتراق كلمتهم المجتمعة ، وقطعـا للميرة عن الشـام وامنا لجانـب كثير مـن جوانـب البحر ، وهـذا الملك العتيـق قد صـار لمولانا صـديق،ومـاسمي العتيـق إلا لانه صـار لمولانا عتيقـا، ولا اعتبار بحديثنا مـع صاحب القسطنطينية في انـا ننجده على قبرس، فانا انما وعدنـا بالنجدة عليها لما كانت بيد عـدونا ، واللّه ما أفلح ملك الروم قط، ولا نفع ان يكون صديقا ، ولا ضر ان يكون عدوا ، وكذلك صاحب الغرب ، واللّه يعصمك من الناس.

وقف المملـوك على كتاب بغداد والمقصود الـذي ندب لأجله الـرسول مـا ألم بذكـره في الكتـاب وهـي المعونـة على ا لجهـاد ، وعـرف استدعـاء المساعدة على تكريت، ولو كان لنـا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها لانها مهما بقيـت في يد مـن هـو الآن بها لكانـت في يـد المولى أبقاه اللّـه

تعالى، ومهما خـرجت عنه خـرجت عنها ، وما نقـول انه ليس لنـا تطلع الى مثلها لاسيما وهـي طريق الى غيرها ، وقـد فتح اللّه للمولى ببـلاد هي مع سعتهـا ضيقة عن ربـوتها، فللمولى أولاد كثـر الله منهم، مـامنهم الا من هو متطلع الى طـرف ، وله اهل مامنهم الا من هـو متطلع الى مملكة، وأمراء مامنهم الا من هو متوقع زيـادة ، ومماليك مامنهم الا من يريد ان يوفى الحق عليه في الخدمـة، ومن سيرّه المولى لهذا الأمر عدم مـن أصحابه منفعـة فيما هـو أهـم ممـا سـار فيــه ،ومـايليـق ان يسير الا مـن يـريهم مايعجـزون عنه، ويكون عنوانـا لما لعلهم في شك منه مـن قوة المولى على مايـريد، وامساكـه مع القدرة، ويـرى المملوك ان مطلبهم نقـد، ومطلبنا منهم وعد، وان كـان ولابد من تسيير فلا يسير الا مـن يقضي الشغل ، ويستزيد الجعل.

ماتضمنه الكتـاب البغدادي من عزم الخليفـة على الحج في هذه السنة المملـوك يستبعده ،بـالاضافـة الى الوقـت والى عـادة أهله آخـرهـم حجـا الرشيدرحمه اللّـه، ويستقربه بالاضـافة الى خلته، وان سار صلـح ان يهتم بما اشار اليـه ابن الشهرزوري، ولاشـك انه قد أنسي الرسـالة التي تـوجه فيها ، فإنا بعثاه يلتمس لنا نفقة فالتمسها منا».

وكتب الفاضـل الى السلطان: « ينهي المملوك انه عـرف تسحب رجل وصبي من القصر الغـربي، وان المؤيد ، يعني ابن السلطـان ، وكان ينوب عن اخيه العزيزبمصر ، حضر نائبـه الطواشي بهاء الدين واستعلم أمرهما فذكر أن هـربهما صحيح وأن أحدهما وهوالصبـي من جملة ثلاثـة وثلاثين ولدا كانوا اطفالا وقت الحوطة عليهـم بالقصر الغربي، وقد بلغ هذا وكبر وزاحم عشرين سنة، والآخـر كان معتقلا في الايوان فحدثـت لـه خنازير في حلقه ، وأشفى على الهلاك فـأمر الطواشي بنقله الى القصر الغـربي من الايـوان وفـك حـديـدة، وحمل ليتـداوى في اوائل سنـة ثـلاث وثمانين، واستمـر مـرضه واشتـد ضعفـه وبقـي في القصر الغربي الى ان علـم انـه

تسحب فسأله المملوك عن المستحفظ للقصر الغربي، فذكر أستاذين كان الطواشي اقامهما ورضي امانتهما وانهما يذكران ان هذا القصر الغربي قدخرب ودثر، واكثرت التسليقات عليه ، ويجاوره اصطبلات فيها جماعة من الخربندية والمفسدين، والتطرق مستمر من هذه الاصطبلات الى من في القصر من النساء، وأنهما كانا أنهيا مرة بعد اخرى أن المكان غير حريز، والاعتقال فيه غير وثيق ، قال: وجمعت اصحاب الارباع وجيرة القصر ، ورجوت بترك الشناعة الظفرة بهما، والبحث واقع عنهما».

وكتب الفاضل عن السلطان الى العادل وهو بمصر: « انتهى الينا بالديار المصرية ، وبالحضرة العلية، أن جماعة من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعة من أرباب السيوف ، وبسطوا ألسنتهم بالمنكر من القول غير المعروف وأنشأوا من العصبية ماأطاعوا فيه القوى الغضبية ، وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حمية الجاهلية ، والله سبحانه يقول وكفى بقوله حجة على من كان سميعا مطيعا:(واعتصمو ا بحبل الله جميعا)[١٢٥] ولم يزل التعصب للمذاهب يملأ القلوب بالشحناء ويشحنها، وقد نهى الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف بأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنها ، وماعلمنا أن في ذلك نية تنجد، ولا مصلحة توجد، ولا هداية تعتقد، بدراسة تعقد ، ونار عداوة توقد، وقلما اثمرت المشاجرة الا خلافا، فالمجلس أعزه الله يوعز بكف الألسنة الخائضه، وعقل الأعنة الراكضة، فإن أقنع بلطفه المرضي والا كانت همته الرائضة ، ومن عاد بعد الزاجر أبعد عن مستقره ، وأزعج ، وليسع الخلف ماوسع السلف من الادب ، وليعلم العبد أنه يكتب كتابا الى ربه فليفكر فيما كتب والى من كتب».

فصل

في ذكر خروج الفرنج خذلهم الله بعزم اللقاء ووصولهم الى رأس الماء

قال العماد: وذلك يوم الاثنين حادي عشر شوال بعد ان رتبوا على البلد من لازم القتال مع ملك الالمان وخرج معهم المركيس، والكندهري، واخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها، واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها، وكان مخيم اليزك على تل العياضية فركبوا واشغلوا القوم بنيران النصال، وألهبوا فنزل العدو تلك الليلة على آبار كنا قد حفرناها عند نزولنا هناك، وباتوا ترميهم وتشويهم وتصميهم الاتراك، وأصبحوا يوم الثلاثاء سائرين الى اللقاء ورفع السلطان تلك الليلة الثقل الى ناحية القيمون، وقد امتدت ميمنته الى الجبل صفا، وميسرته الى البحر زحفا، وعنده في يمين قلبه أولاده: الافضل، والظاهر، وأخوه العادل في أول الميمنة، ويليه حسام الدين بن لاجين، ثم صارم الدين قايماز النجمي، ثم حسام الدين بشاره ومعه بدر الدين دلدرم الياروقي، فهولاء عظماء دولته وكبراء مملكته، ومعهم امراء ومقدمون جريئون مقدمون وكان في الميمنة ايضا ابن صاحب الموصل وعز الدين جرديك النوري وعلى ميسرته صاحب سنجار، وصاحب الجزيرة وتقي الدين، وابن المشطوب سيف الدين، وخشترين والامراء الهكارية والحميدية والزرزارية والمهرانية، وأمراء القبائل من الاكراد، ورجال الحلقة الخاصة واقفون في القلب، وضرب للسلطان خيمة لطيفة بقرب الخروبة على تل مشرف، وفي مرج عكا عين غزيرة الماء يجري منها نهر كبير الى البحر، فانحرفوا الى غربي النهر، ونزلوا واعتزوا بالاحتراز واعتزلوا، فأنهض السلطان اليهم الجاليشية وانتظر من الله في كسرهم المشيه فاستداروا بمركزهم واثخنوا فيهم اللتوت رضا، وبالدبابيس قضا، وبالنصال قرضا، وبالاسنة وخزا ووحضا، وقضوا فيهم من حق الجهاد

سنة وفرضـا، وكان المراد ان يحتموا فيثوروا حتى يلقاهـم ويبوروا ، فمارامو امكانهم واصبحوا يوم الاربعاء راكبين ، وعن سبيل اللقاء ناكبين ، ووقفوا على صهـوات الخيل الى ضحـوة النهار ، والـراجـل محدق بهم كالأسـوار وأصحابنـا قد قربـوا منهم حتـى كادوا يخالطونهم ، وارادوا يبـاسطونهم ، والسلطـان يمد الـرماة بـالرمـاة ، والكماة بالكماة ، وهـم ثابتـون نابتـون، سـاكنـون سـاكتـون، ونحن نقـول لعلهـم يحملـون ويغضبـون فيجهلـون فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم ، وتفـريق جماعتهم ، وأحس العدو بـالضعف وانـه متـورط في الحتف ، فـالجئـوا لعجزهـم عـن الدفـاع الى الانـدفاع ، وسـاروا عـائدين على هيئـة الاجتماع ، والنهـر عن يمينهـم ، والبحر عـن يسارهـم ، وقد أيقنوا إن صـح منهم الثبـات بانكسـارهم ، واصحـابنا حـواليهـم ومن ورائهـم ، يغرقـونهم في دمـائهم ، ويشلـونهم ويقلونهم وينهلونهم مـن ماء الحديد ويعلونهم ، ءهم يتحـركون في سكون ويتظـاهـرون في كمون ، ويتـذوبـون في جمود ويتلهبـون في خمود، وكلما صرع منهم قتيل حملـوه وستروه، وطموا مدفنه وطمروه حتى يخفـى أمرهم ولايصح لـدينا كسرهم ، ونزلـوا ليلة الخميس على جسر دعـوق ، وقطعوا الجسر حتى يمنع عبورنا اليهـم ويعوق، وأبلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بـلاء حسنا، وأتـوا كل ما كـان فيه مستطاعـا ممكنا ، وبـذل إياز الطويل هذا اليوم جهده،وفل في هذا اليـوم حدهم حده ، وكذلك سيف الديـن يازكوج عام في بحـرهم وقام بـأمرهم ، واصبحوا يـوم الخميس الى نار الـوطيس ، ووصلـوا الى مربضهم ولم يحصلـوا على غرضهـم ، ونقص منهم خلق ، وعـدنا الى الخيام ظافـرين ظفر الكرام ، فـرحين بذل الكفر وعز الاسلام ، وعرف الفرنج مسـاق خزيهم ، واخفاق سعيهم ، فاحترزوا من الهلكة وماعاد وا الى مثل هذه الحركة.

قـال القـاضي وكـانـوا قد جعلـوا راجلهـم سـورا لهم يضرب النـاس بالـزنبورك والنشاب حتـى لايترك احدا يصل اليهـم الا بالنشاب ، فـإنه كان يطير عليهم كـالجراد ، وخيالتهم يسيرون في وسطهم بحيـث لم يظهر

منهم أحد في ذلك اليوم أصلا، وعلم العدو مرتفع على عجلة وهو مغروس فيها وهي تسحب بالبغال، وهم يدنون من العلم وهو عال جدا كالمنارة، خرقته بياض ملمع بحمرة على شكل الصلبان ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة الى قبالة جسر دعوق، وقد ألجمهم العطش من شدة الحر ، وأخذ منهم وأثخنتهم الجراح، وكان الفعل معظمه للحلقة المنصورة في ذلك اليوم فإنهم أذاقوهم طعم الموت، و جرح منهم جماعة كاياز الطويل، فإنه قام في ذلك اليوم أعظم مقام يحكي عن الاوائل، وجرح جراحات متعددة.وهو مستمر على القتال ، وجرح سيف الدين يازكوج جراحات متعددة ، وهو من فرسان الاسلام وشجعانه ، وله مقامات متعددة، وجرح خلق كثير في ذلك اليوم ، وعزم السلطان في تلك الليلة على كبس بقيتهم في الخيم وكتب الى البلد يعرّفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب ونحن من هذا الجانب، فلم يصل من أهل البلد كتاب، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخر الكتاب، فلما أصبحوا كف السلطان الناس عن القتال خشية ان يغتالوا فإن العدو كان قد قرب من خيمه ووقف الأطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة العدو حتى وصل الى مخيمه، وكان لهم فيها اطلاب مستريحة فخرجت على اليزك الاسلامي وحملت عليهم، وانتشب القتال بينهم ، فقتل من العدو وجرح خلق كثير منهم شخص كبير فيهم مقدم عندهم ، وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد الى حافره، وكان عليه لبس لم ير مثله، وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع اليهم جثته وطلب رأسه فلم يوجد ، وعاد السلطان الى مخيمه، وأعيد الثقل إلى مكانه، وعاد كل قوم الى منزلتهم، وكان عماد الدين زنكي غائبا بنفسه مع الثقل لمرض كان به، وبقي عسكره فعاد وقد اقلعت حماه وبقي التياث مزاج السلطان وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة الخارجة، لكونه لم يقدر على مباشرة الأمر بنفسه، ولقد رأيته رحمه الله وهو يبكي في حال الحرب ، كيف لم يقدر على مباشرة القوم،

ورأيته وهو يأمر أولاد ه واحداً بعد واحد بمصافحة الأمر ، ومخالطة الحرب، ولقد سمعت منه، وقائلا يقول: إن الوخم قد عظم في مرج عكا بحيث أن الموت قد كثر في الطائفتين فأنشد تمثلا :

أقتلاني ومالكا

واقتلا مالكاً معي (١٢٦)

يريد بذلك انني قد رضيت بأن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله، وحدث بذلك قوة عظيمة في نفوس العساكر الاسلامية ، وكان مرض السلطان هو أحد الاسباب الحاملة للفرنج على هذه الحركة ، منضما الى كثرتهم ، وشدة الغلاء والجدب عليهم .

فصل

في وقعة الكمين وغيرها ودخول البدل الى عكا

قال العماد: لما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شوال انتخب السلطان من أجناده عدّه، وكثرّ لهم العدّة ، وأمرهم أن يكمنوا في سفح تل هو شمالي عكا بعيد من عسكر العدّو بقرب المنزلة العادلية القديمة عند الساحل ، فكمنوا تلك الليلة ، فلما اصبح الصباح ركب منهم عدة يسيرة وساروا نحوالفرنج وصالوا عليهم وأغاروا ، فاستقبلهم الفرنج فخرج اليهم اربعمائة فارس ، هكذا قال العماد في البرق— وقال في الفتح مائتا قنطاري، وكذا قال ابن شداد مائتا فارس— وطمعوا في المسلمين فتأخروا قدامهم قليلا حتى أوصلوهم إلى الكمين ، فخرج عليهم أسد العرين ، وقتلوا وأسروا واستولوا عليهم بأسرهم ، فلم ينج منهم ناج ، ووقع في الاسر مقدمون أكابر منهم خازن الملك وجماعة من الافرنسيسية ، وركب السلطان فرحا بهذه البشارة ووقف على تل كيسان وقد توافت إليه الاسرى والأسلاب فترك الأسلاب والخيول لآخذيها، وكانت مقومة بأموال عظيمة ، فما أعارها طرفا ولا تردد أمره فيها، وجلس وأحضر الأسرى وباسطهم وأطعمهم وكساهم واذن لهم في أن يسيروا غلمانهم لاحضار مايريدون احضاره ، ثم نقلهم الى دمشق للاعتقال، وحفظهم بالقيود الثقال.

قال القاضي ابن شداد : ولما هجم الشتاء وهاج البحر ، وأمن العدو من أن يضرب مصاف وان يبالغ في طلب البلد وحصاره من شدة الأمطار وتواترها أذن السلطان للعساكر في العودة الى بلادها ليأخذوا نصيبا من الراحة، فسار عماد الدين صاحب سنجار خامس عشري شوال وعقيبة ابن اخيه صاحب الجزيرة بعد ان افيض عليهما من التشريف والانعام والتحف ما لم ينعم به على غيرهما ، وسار علاء الدين

ابن صاحب الموصل في أول ذي القعدة مشرفا مكرما ، وسار الظاهر في المحرم سنة سبع ، وتقي الدين في صفر منها، ولم يبق عند السلطان إلاّ نفر يسير من الأمراء والحلقة الخاصة.

قال العماد: واشتغل السلطان بادخال البدل الى عكا وحمل الميرة والذخائر ، وأخرج من كان بها من الأمراء لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهارا ، وكان مقدم البدل الداخل من الأمراء سيف الدين المشطوب دخل في سادس عشر المحرم سنة سبع، وفي ذلك اليوم خرج المقدم الذي كان بها وهو الامير حسام الدين أبوالهيجاء وأصحابه،ومن كان بها من الأمراء، ودخل مع المشطوب خلق من الامراء وأعيان من الخلق ، وتقدم الى كل واحد ان يصحب معه ميرة سنةكاملة ، وانتقل العادل بعسكره الى حيفا على شاطىء النهر ، وهو الموضع الذي تحمل منه المراكب وتدخل الى البلد واذا خرجت تخرج إليه، فأقام ثم يحث الناس على الدخول ويحرس الميرة والذخائر لئلا يتطرق اليها من العدو من يتعرضها،وكان مما دخل اليها سبع بطس مملوءة ميرة وذخائر ونفقات كانت وصلت من مصر، وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذي الحجة ، فانكسر منها مركب على الصخر الذي هو قريب الميناء فانقلب كل من في البلد من المقاتلة الى جانب البحر لتلقي البطس وأخذ ما فيها، ولما علم العدو انقلاب المقاتلة الى جانب البحر اجتمعوا في خلق عظيم ، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفة عظيمة ، وقاربوا الأسوار وصعدوا في سلم واحد فاندق بهم السلم ، كما شاء الله تعالى ، وأدركهم أهل البلد فقتلوا منهم خلقا عظيما وعادوا خائبين خاسرين ، وأما البطس فإن البحر هاج هيجانا عظيما وضرب بعضها ببعض على الصخر فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق عظيم قيل كان عددهم ستين نفرا ، وكان فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكفت البلد سنة كاملة ، ودخل على المسلمين من

ذلك وهـن عظيم ، وحـرج السلطان لذلـك حرجا شـديدا ،وكـان ذلك أول علائم أ-:ذ البلد.

وقال العماد: لما دخـل الشتاء وعصفت الاهـواء ووقع في سفن الفـرنج الكسر انفذوها الى الجزائر للاحتياط ، وخافوا عليها من اختباط البحر.

وقال في الفتح: نقل الفرنج سفنهم خـوفا عليها الى صور فربطوها بها، فخلا وجه البحـر من مراكبهم ، وحصـل الامن فيه من جـانبهم ، وكان اصحابنا في البلد قـد ملوا فشكوا ضررهم وضجرهم وكـانوا زهاء عشرين ألف رجـل من أمير ومقـدم وجندي واسطولي وبحـري ومتعيش وتـاجر وبطال وغلمان ونـواب وعمال ، وقد تعذر عليهم الخروج، فـرأى السلطان ان يفسـح لهم فيـه رفقا بهم ورأفـة ، ومـاأفكـر ان في ذلك مخافـة وآفـة ، وأشير على السلطان بترتيب البـدل وتكفل العادل بذلـك وانتقل بمخيمه الى سفح جبـل حيفا قاطـع النهر ، وتقـدم بجمع السفن للنقـل واجتمع المنتقلون بالساحـل على الرمل، فمن نجز أمره انتقـل ، وكان الرأي ازاحة علة المقيمين فإنهم قـد جربوا وصبروا وخبروا وهم كنفس واحـدة وكانوا في ثروة وكرم ونخـوة ، وفيهم أبوالهيجاء السمين ، وله أتبـاع وأشياع ، وله في شرع السماحة اقتداء بالسلطان وأوضاع ، ولعلـه انفق من ماله في تلك السنـة خمسين ألف دينـار ، فلما فسـح لهم في الانتقـال لأجل الاستبـدال انتشر ذلـك الضم ، وانتشـر ذلـك النظـم ، ودخل الى عكـا مـن لم يجرب حصـارها ، ولم يخبر منـافعها ومضـارهـا، وماثبـت ممن كـان مقيما بها إلا الأمير بهاء الدين قراقوش ، ودخـل عشرون مقدما وأميراً شبه المكرهين ، عوض ستين ، واستخدمت الرجال وانفقـت الأموال ، وتفاوت الداخلون والخارجـون ، فـلا جرم وقـع الـوهـن ، وقضي الامـر، وتكفل بـالـداخلين المشطوب، وضاع الزمان وتعذر الامكان بعود مراكب العدو ، فلم يستتم البلد ماكان يحتـاج اليه من الرجال والاموال ، فان كـل من عين للدخول

كرهـه وصار يتـوسل في ان يعفـى ويبذل في نفسـه الفداء ، ثـم اا حقت كلمة الـدخول على مـن تعين له استمهلـوا زمانـا يتهيأون فيـه للدحـول

ولإنفاذ قضاء الله تعالى أسباب لابد من وقوعها.

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد:وفي ليلة سابع ذي الحجة وقعت قطعة عظيمة من سور عكا، فانثلم الثغر، وبادر الفرنجة اليها فجاء أهل البلد وسدوها بصدورهم وقاتلوا عنها الى ان بنوها ، وعادت أقوى مما كانت.

وفي ثاني ذي الحجة هلك ابن ملك الالمان ، وكندكبير ، يقال له كند بنياط، ومرض الكندهري وصار يموت من الفرنج كل يوم المائة والمائتان،وحزن الفرنج على ابن ملك الألمان حزنا عظيما ، وأشعلوا نيرانا هائلة بحيث لم تبق خيمة الا اشتعل فيها الناران والثلاثة بحيث بقي عسكرهم كله نارا تقد، وحصل للمسلمين غنائم أخر كثيرة في سرايا سرية ، وأساطيل بحرية ، ومن جملة ذلك ملوطة ، مكللة باللؤلؤ منوطة، وبأزرار الجوهر مربوطة ، قيل إنها من ثياب ملك الالمان ، وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع الينا وقالوا للسلطان: نحن نخوض البحر في براكس ونكسب من العدو ويكون الكسب بيننا وبين المسلمين، فأذن لهم في ذلك وأعطاهم بركوسا ، وهو المركب الصغير ، فركبوا فيه وظفروا بمراكب لتجار العدو وبضائعهم معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة، فأسرهوهم وكبسوهم وأحضروهم بين يدي السلطان ، فأعطاهم السلطان جميع ماغنموه.

قال العماد: فلما أكرموا بهذه المكرمة أثنوا على اليد المنعمة، وأسلم منهم شطرهم واحضروا مائدة فضة عظيمة ، عليها مكبة عالية، ومعها طبق يماثلها في الوزن، ولو وزنت تلك الفضيات لقاربت قنطارا، فما أعارها السلطان طرفه احتقارا.

قال: واستشهد في عكا سبعة من الأمراء منهم الأمير سوار الدين، والتقى في هذه السنة شواني المسلمين بشواني الفرنج في البحر ، فأحرقت للكفر شواني برجالها، وكان عند العود تأخر لنا شينى مقدمه الامير جمال الدين محمد بن ارككز ، فأحاطت به مراكب العدو فتواقع ملاحوه الى الماء ، وسلموه الى البلاء ، فقاتل وصبر فعرضوا عليه الأمان فقال: ما أضع يدي إلّافي يد مقدمكم الكبير ، فلا يخاطر الخطير إلاّ مع الخطير، فجاء اليه المقدم الكبير ، وظن أنه قد حصل له الأسير، فعاقره وعانقه وقوي عليه ومافارقه ووقعا في البحر وغرقا ، وترافقا في الحمام واتفقا ، وعلى طريقي الجنة والنار افترقا ، واستشهد أيضا الأمير نصير الحميدي.

قال: وفي تاسع جمادى الأول قتل القاضي المرتضى بن قريش الكاتب في خيمته، قتله شريك له في دار بنابلس أراده على بيعها، وخرج من خيمته فوجد قاضي نابلس فقتله، وضربه وما أمهله، ومر لينجو فأدرك، وضرب بعمود خيمة فأهلك ، واستكتب السلطان اخا المستشهد مكانه، فلم يبلغ في الاحسان ميدانه.

قال :وفي هذه السنة ورد كتاب سيف الاسلام اخي السلطان من اليمن يذكر استيلاءه على صنعاء واستنابة ولده شمس الملوك فيها.

قال: ووصل القاضي الفاضل من مصر الى المعسكر المنصور في ذي الحجة ، وكان السلطان متشوقا لقدومه وطالت مدة البين لغيبته عنه سنتين ، على ان امور الممالك بمصر كانت بحضوره مستتبة ، وقد جمع الملك العزيز بمقامه هيبة ومحبة، وكان السلطان شديد الوثوق بمكانه ، دائم الاعتماد والاستناد على احسانه ، والى اركانه فان استقدمه خاف على ماوراءه من المهام ، وان تركه نال وحشة التفرد بالقضايا والاحكام ، وكان يكاتبه بشرح الاحوال يستشيره والنجابون مترددون بالمكاتبات والمخاطبات ، والاستشارة في المهمات ، فوصل الى القدس واعتاق بتوالي

الامطـار ، ثم وصـل في ذي الحجـة ،ورجـع الفضل ، واجتمـع الشمـل، واستأنس الملك بصاحب تدبيره، وتأسس ركنه برأي مشيره.

قلت: وفي جمادى الاولى مـن هذه السنة تـوفي بالموصل قـاضي القضاة محيي الدين ابو محمد بن قـاضي القضاة كمال الدين بن الشهرزوري، وقد اثنى العماد الكـاتب عليـه في الخريدة ثناءً كثيرا وانشـد له اشعـارا حسنة منها في التوحيد:

قـــامـــت بـــاثبـــات الصفـــات أدلـــة
قصمـــت ظهـــور أئمـــة التعطيـــل
وطـــلائع التنـــزيـــه لما أقبلـــت
هـــزمـــت ذوي التشبيـــه والتمثيـــل
فـــالحق مـــا صرنـــا إليـــه جميعنـــا
بـــأدلـــة الاخبـــار والتنـــزيـــل
مـــن لم يكـــن بـــالشرع مقتـــديـــا فقـــد
ألقـــاه فـــرط الجهـــل في التضليـــل

وله في مدح الصحابة رضي الله عنهم :
لائمـــي في هـــوى الصحـــا
بـــة ارجـــع إلى سقـــر
لا بلغـــت المنـــى ولا
نلـــت مـــن رفضـــك الـــوطـــر
كيـــف تنهـــى عـــن حـــب اقـــوا
م هـــم السمـــع والبصر
وهـــم ســـادة الـــورى
وهـــم صفـــوة البشر
فـــأبـــو بكـــر المقـــ
دم مـــن بعـــده عمـــر

- ٨٧٩٢ -

ثـــــم عثمان بعـــــــده
وعليّ على الاثـــــــــــــــــر
أيها الـــــرافضي حســـــبك
فــــالحق قـــــد ظهـــــر (١٢٧)

ثم دخلت في سنة سبع وثمانين

ففيها وصل إلى الفرنج ملك افرنسيس وملك انكلتيز وغيرهما ، واخذت عكا يسر الله فتحها .

قال العماد:والغيم في هطلانه ، والبحر في هيجانه ، والسلطان مقيم بمخيمه على شفر عم، ولطف الله به قد خص وعم ، والعادل مخيم قاطع نهر حيفا على الرمل ، وسفن البدل الى عكا في البحر متصلة السبل، والفرنج مستمرون على الحصار ، متحرزون من الاصحار، ونوب اليزك راتبه، ووظائف الجهاد مواظبة ، وووصل من الديوان العزيز مثال ومعه مكاتبة للملك الافضل وفيها اكرام واجلال وفضل وافضال.

وفي ثالث صفر رحل تقي الدين لتسلم البلاد التي اضيفت اليه شرقي الفرات ، وكان له بالشام المعرة وحماه وسلمية ، وجبلة ، واللاذقية، وبالجزيرة ديار بكر وحران والرها والموزر ، وسميساط وضياعها ، وميافارقين وحصونها واعمالها وقلاعها ، وسار على أنه يرجع عن قريب ، فأبطأ وتشوف الى افتتاح مايجاوره من البلاد ، وسار الى ميافارقين فكان السلطان ينسب ماجرى من استيلاء الكفارعلى عكا بعد قضاء الله تعالى الى غيبته ، فإنه تأخرت عساكر تلك البلاد الشرقية لخوف مضرته ، وجور مجاورته ، وسياتي ذكر وفاته في آخر السنة.

ووصل كتاب المجاهد أسد الدين شيركوه أنه اغار على جشير للفرنج بطرابلس فاستاقه ، ولم يطق الكفار لحاقه ، واقتطع لخاصته منه أربعمائة رأس تلف في الطريق منها أربعون، وغنم أبقارًا وغنما ، وانفذ للعماد منها بغلة، وذلك رابع صفر.

وفي ليلة هذا اليوم القت الريح مركبا للعدو على الزيب فكسرته، وكان فيه خلق عظيم منهم، فغرق بعضهم وأسر بعض، وفيهم امرأتان

سبيتا. وفي ليلة أول ربيع الاول خرج أصحابنا من البلد وهجموا على العدو وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وإخذوا منهم من جيمهم جمعاً عظيما منهم اثنتا عشرة امرأة ، وفي ثالث ربيع الأول كان اليزك للحلقة السلطانية ، وخرج اليهم من العدو خلق ، وجرى بينهم وقعة شنيعة ، وقتل فيها من العدو جماعة منهم مقدم كبير، ولم يفقد من المسلمين الا خادم رومي صغير عثر به في الحملة فرسه يسمى قراقوش ، وكان شجاعا له وقعات، وفي تاسع ربيع الاول بلغ السلطان ان العدو يخرج منه طائفة للاحتشاش، فأمر العادل ان يكمن بالعسكر خلف التل الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسار هو فكمن وراء تل العياضة ومعه من أولاده الصغار ، والقاضي الفاضل وانذر الفرنج ، ولم يخرج منهم أحد ، ووصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون أسيراً من الفرنج اخذوا في بيروت، فيهم شيخ كبير هرم لم يبق في فمه ضرس ، ولم يبق فيه قوة إلا مقدار مايتحرك، فسأله عن مجيئه فقال للحج إلى قمامة ، وبيني وبين بلادي مسيرة اشهر، فرق له واطلقه وأعاده إلى العدو راكبا على فرس، وطلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير فلم يأذن ، وسئل عن ذلك فقال:لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدم ويهون عليهم وهم الآن لايفرقون بين المسلم والكافر. ثم لما أقبل الربيع توافت العساكر وفاء بموعدها، فوصلت في شهر ربيع الأول فأول من قدم الأمير علم الدين سليمان بن جندر صاحب قلعتي عزاز وبغراس ، وهو شيخ له رأي وتجربة ومنزلة كبيرة ومرتبة ، والملك الأمجد صاحب بعلبك وبدر الدين مودود والي دمشق في رجالهم وابطالهم ، وفي كل يوم يقدم أمير بعد أمير ، والله يتولى التدبير، وكان قد شاع الخبر بأن ملوك الفرنج واصلون ،وهم حاشدون حافلون فوصل ملك افرنسيس فليب في عدة من عبدة الصليب ،ثاني عشر ربيع الأول في ست بطس عظام ، مملوءة بفوارس ذوي اقدام ، فقلنا ماحمل الماء إلا أهل النار ، وماأجلب للدوابر الا الدبار ، وكان عظيما عندهم من كبار ملوكهم ينقادون له بحيث اذا

حضرحكم على الجميع، ومازالوا يتـواعدونا بـه حتى قدم وصحبـه من بلاده بـاز عظيم عنـده، هائل الخلـق ابيض اللـون نادر الجنـس ، وكان يعـزه ويحبـه حبـا عظيما ، فطـار من يـده حتـى سقـط على سـور عكـا، فاصطـاده أصحابنا وانفـذوه الى السلطان، وبذل الفـرنج فيه ألـف دينار فلم يجابوا.

قـال القاضي ابـن شداد:ولقـد رأيتـه وهو يضرب إلى البيـاض مشرق اللون، مارأيت بازيا أحسن منه.

قال العماد: وكـان مع هـذا الملك باز أشهـب ، كأنه عنـد إرسالـه نار تتلهب، ففـارقه يـوم وصولـه بحيث عجـز عن حصـوله ، وكـان في ظن الفـرنج انـه يقدم في جمع جـم ، فلما رأوا جمعه قليـلا سقط في أيـديهم، فوعدهـم با لمدد خلفه.

قال القاضي: وقدم بعده كند فرير وكـان مقدما عظيما عندهم مذكور، كان حـاصر حماه وحارم عـام الرملة ، وفي ثـاني عشر ربيع الآخـر وصل كتاب من اللاذقيـة أن جماعة من المستأمنين نزلوا ناحيـة من جزيرة قبرس في عيد لهم، وقد اجتمع جمع كبير في بيعة قـريبة من البحر ، وانهم صلوا معهم صـلاة العيد، فلما فـرغوا مـن الصلاة ضربـوا على كل مـن كان في البيعـة من الـرجـال والنسـاء عن آخـرهـم حتـى القسيس وحملـوهـم الى مراكبهم وساروا بهم الى اللاذقية، وكـان فيهم سبع وعشرون امرأة، وكانوا قـد اغلقوا بـاب الكنيسـة عليهـم ليامنـوا افـلاتهم وأسروهـم بأسرهـم ، وكنسوا جميـع مافي الكنيسـة من الامتعـة والاعلاق النفيسـة ، واقتسموهـا فوصـل الى كل واحد على ما قيـل أربعة آلاف درهم من الفضـة النقرة، كذافي كتاب القاضي.

وقـال العماد في الفتح: وقيـل حصـل لكـل واحد منهـم على كثـرتهم

أربعمائة درهم ، وهجم جماعة من العسكرية على غنم العدو فأخذوها وكان عددها مائة وعشرين رأسا، وركبوا في طلبها بأسرهم بخيلهم ورجلهم في اثرهم ، فلم يظفروا بطائل ، ولم يرجعوا بحاصل.

قال العماد: كان عز الدين سامة متولي بيروت ، ولم يكن لمراكب العدوبد من الجواز بها أو بقربها ، واذا عبرت أخذت ، وإن كانت مستعدة لحربها، فغنم هو ورجاله مغانم خلدت له ادخار الغنى ، وكثرت في البحر غزواته، ووصل ملك الانكلتيز إلى قبرس في السادس والعشرين من ربيع الآخر ، واشتغل بها عن الوصول الى عكا حتى أخذها عنوة من صاحبها ، وكانت مقدمات سفنه قد وصلت فاستولى سامة على خمس منها مملوءة رجالا ونساء وأموالا وخيلا، وكان في الزيب وهو شمالي عكا طائفة من المسلمين يجهزون السفن الداخلة الى عكا، ويقطعون الطريق على الفرنج.

قال القاضي: وكان للمسلمين لصوص يدخلون الى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون ، فأخذوا ذات ليلة طفلا رضيعا له ثلاثة أشهر ، فلما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة ، حتى وصل خبرها الى ملوكهم فقالوا لها: إن السلطان رحيم القلب، وقد أذنا لك في الخروج اليه،فاخرجي واطلبيه منه فإنه يرده عليك ، فخرجت تستغيث الى اليزك الاسلامي، وأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها الى السلطان فأتته وهو راكب على تل الخروبة ، وانا في خدمته، وفي خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديدا وأمرغت وجهها في التراب فسأل عن قصتها فأخبروه، فرق لها ودمعت عينه، وأمر باحضار الرضيع فمضوا ووجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه الى المشتري وأخذه منه ،ولم يزل واقفا رحمة الله عليه حتى أحضر الطفل وسلم اليها ، فأخذته وبكت بكاء شديداً، وضمته إلى صدرها والناس

ينظرون اليها ويبكـون وأنا واقف في جملتهم فـأرضعته ساعة ، ثـم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمعسكرهم مع طفلها.

قال: فانظر الى هـذه الرحمة الشاملة لجنس الانس، اللهـم إنك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة آمين.

قال: وفي ذلـك اليوم وصل ظهير الـدين ابـن البلنكري، وكان مقـدما من أمراء الموصل، مفارقا لهم طالبا خدمة السلطان.

فصل

في مضايقة العدو خذله الله لعكا يسر الله فتحها واستيلائهم عليها

قال العماد: لما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى، زحف الفرنج الى عكا، ونصبوا عليها سبعة مجانيق ، ووصلت كتب من عكا الى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم ،فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما نابوا البلد نابهم ، فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر ، واذا رجع عنهم عاودوه ، وكان علامة بين السلطان وأهل البلد أنه متى زحف الفرنج عليهم دقوا كؤوسهم فتدق كؤوس السلطان إجابة لهم، واستبعد السلطان منزلته فتحول الى تل العياضية تاسع جمادى الاولى ،ووصل ملك الانكلتيز ثالث عشر جمادى الاولى من قبرس ومعه خمس وعشرون قطعة ، وهو في جمع شاك وجمر ذاك فبلي الثغر منه بغير البلاء الاول، هذا ومجانيق الكفر على الوغى مقيمة، وللرمي مديمة، وتمكن الفرنج بها من الخندق، فدنوا منه دنو المحنق، وشرعوا في هجمه واسرعوا الى طمه، وداموا يرمون فيه جثث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ، ويحملون اليه موتاهم ،وأصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم ، قد انقسموا فرقتين ، وانقسموا قسمين ، ففريق ينقي الخندق وما ألقي فيه ، وفريق يقارع العدو ويلاقيه.

قال القاضي: ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم، وكانوا اذا جرح منهم واحد جراحة مثخنة موئسة ألقوه فيه، وانقسم أهل البلد أقساما قسم ينزلون الى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعا ليسهل نقلها

وقسم ينقلـون مايقطعـه ذلك القسـم ويلقونـه في البحر ، وقسـم يذبـون عنهم ويدافعـون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم في المنجنيقـات وحراسة الاسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكايتهم من ذلك.

قـال: وهذا ابتـلاء لم يبتل بـه احد ولا يصبر عليـه جلد ، والسلطـان رحمه الله لايقطـع الـزحـف عنهـم والمضايقـة لهم على خنـادقهـم بنفسـه وخـواصـه وأولاد ه ليـلاً ونهاراً حتـى يشغلهـم عـن البلـد، وصـوبـوا منجنيقاتهم الى بـرج عين البقر ، وتواتـرت عليه أحجار المنجنيقـات ليلاً ونهاراً حتـى أثـرت فيـه الاثـر البين، وكلما ازدادوا في قتـال البلـد ازداد السلطـان في قتالهم، وكبـس خنادقهـم والهجوم عليـه ، ودام ذلك حتـى وصل ملك الانكلتيز .

قال: وفي سادس عشر جمادى وصلت بطسة مـن بيروت عظيمة هائلة مشحونـة بالآلات والمير والرجال والابطـال المقاتلة ، وكان السلطـان قد امر بتعبيتهـا في بيروت وتسييرها ، ووضـع فيها مـن المقاتلـة خلقا عظيما، حتى تـدخل الى البلد مـراغمة للعدو، وكـان عدة رجالها المقـاتلة ستمائة وخمسين رجلاً ، فاعترضها ملك الانكلتيـز الملعون في عدة شواني قيل إنها كانت اربعين قطعـة، فاحتاطوا بها مـن جميع جوانبها واشتـدوا في قتالها ، وجرى القضـاء بأن وقـف الهواء فقاتلوهـا قتالا شديـدا وقتل مـن العدو عليهـا خلـق عظيم ، وأحـرقـوا على العـدو شـانيا كبيرا فيـه خلـق كثير فهلكوا عـن آخرهـم وتكاثـروا على أهل البطسـة، وكان مقـدمهم رجـلا جيدا شجـاعا مجربـا في الحرب اسمه يعقـوب من أهـل حلب، فلما رأى أمارات الغلبة عليهـم، قال: والله لانقتل الا عن عز ولا نسلـم اليهم من هذه البطسة شيئا ، فوقعوا في البطسة مـن جوانبها بالمعاول يهدمونها حتى فتحوها من جانب أبوابا فامتـلات ماء، وغرق جميع من فيها ومافيها من الآلات والمير ولم يظفر العدومنهـا بشيء أصلا، وتلقف العـدو بعض من كان فيهـا وأخذوه إلى الشواني مـن البحر ،وخلصـوه من الغرق ومثلـوا به

وأنفذوه إلى البلـد ليخبرهم بالواقعـة ، وحزن الناس لـذلك حزناً شـديداً والسلطـان يتلقى ذلـك بيـد الاحتسـاب في سبيل الله تعـالى والصبر على بلائه.

قال : وكان العدو المخذول قد صنع دبـابة عظيمة هائلة اربع طبقات الاولى من الخشب، والثانيـة من الرصاص، والثالثة مـن الحديد، والرابعة من النحـاس ، وكانت تعلـو على السور ويركـب فيها المقاتلـة ، وخاف أهل البلد منها خوفا عظيما ، وحدثتهـم نفوسهم بطلب الأمان من العدو وكانـوا قد قربـوها من السور بحيـث لم يبق بينها وبين السـور الا مقدار خمسة اذرع على مانشاهـد ، وأخذ أهل البلد في تواتر ضربها بـالنفط ليلا ونهارا حتى قـدر الله تعالى حـريقها ، واشتعال النـار فيها وظهـر لها ذؤابة نـار نحـو السماء واشتـدت، الأصوات بـالتكبير والتهليـل، ورأى النـاس ذلك جبرا لذلك الـوهن ، ومحواً لذلك الاثر ، ونعمة واينـاسا بعد يأس، وكان ذلك في يوم غرق البطسة

قال العماد: فكـان ذلك تشميتـا لتلك العطسه ، ثـم جرى بعـد ذلك عدة وقعـات في هذا الشهر ، وهـو جمادى الأولى، وهجم المسلمـون خيم العـدو ونهبوهـا ، ووصـل رجل كبير مـن أهـل مازنـدان يـريد الغـزاة، فوصـل والحرب قائمـة فحمل حملـة استشهد فيهـا في تلك السـاعة ، ولم تزل الأخبار تتواصل من أهل البلـد باستفحال أمر العدو والشكوى من ملازمتهم قتالهم ليلاً ونهاراً، وذكر ما ينـالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفـة عليهم مـن حين قـدوم الانكلتيـز الملعون ، ثـم مـرض مرضـا شديـدا اشفى فيه على الهلاك ، وجـرح الافرنسيـس، ولايزيـدهم ذلك إلا إصرارا ً وعتـوا ً، وهرب الى السلطـان خادمـان ذكرا أنهما لاخـت ملـك الانكلتيز وأنهما كـانـا يكتمان إيمانهما ، فقبلهما السلطان وأكـرمهما ، وهرب أيضا المركيـس منهم إلى صور، وكان قد استشعـر منهم أن يخرجوا ملكها عن يده.

قال العماد في البرق: ولما اعوزت الفرنج الحيل ، وأعجزتهم تفاصيل تدابيرهم والجمل ، وذلك أن أبرجتهم الخشبية أحرقت ، وستائرهم ودباباتهم وكباشهم وزعت ومزعت ومزقت ، اقاموا قدام خيامهم صوب عكا تلا من التراب مستطيلاً ، ورفعوه كثيبا مهيلا ، ثم نقلوه وحولوه وكانوا يقفون وراءه، ويحولون الى قدامه ترابه، ويقربون الى قرب البلد رقابه، فهم من خلفه من النكايات محجوبون ، يشبون ويذبون، ويدبرون الحرب الزبون ، والتل المتحول الى البلد قد أعيا على أهل ا لجلد، لاتعمل فيه النار، ولايصل الى دفعه الاقتدار ، حتى صار من المدينة على نصف غلوة سهم، ورمي بكل جمرة ورجم، فمايزيد في كل يوم إلا قربا ، ومايجر في كل وقت الا خطبا أو حربا، وكان الاصحاب يخرجون من البلد اليه ويقاتلون عليه، ويطيفون بحول الله حواليه ، ومن كتاب فاضلي إلى الديوان: « ماقطع الخادم الخدم الا لانه قد اضجر واسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذي قد استفحل أ مره واستشر شره ، فإن الناس ما سمعوا ولا رأوا عدوا حاصرا محصورا ،غامراً مغمورا قد تحصن بخنادق يمنع الجائز من الجواز ،ويعوق الغرض عن الانتهاز ، ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة الف راجل ، وقد أفناهم القتل والأسر ، وأكلتهم الحرب ، ولقمهم النصر ، وقد أمدهم البحر بالبحار ، وأعان أهل النار، واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الاعجمية من لايحصر معدوده ، ولايصور في الدنيا وجوده، فما احقهم بقول أبي الطيب:

تجمع فيه كل لسن وأمة
فمايفهم الحداث إلا التراجم

حتى انه اذا اسر الاسير واستامن المستامن احتيج في فهم لغته الى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان مايقوله اول، وثالث مايقوله ثان، والاصحاب كلوا وملوا ، وصبروا الى ان ضجروا ، وتجلدوا الى ا ن تبلدوا ، والعساكر التي تصل من المكان البعيد لاتصل الا وقد

كل ظهرها وقل وفرها وضاق بالبيكار صدرها، ولا تستفتح الا بطلب الدستور، ويصير ضجرها مضرا بالسمعة عند العدو المخذول ، ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد فإنهم قاتلوا مرة بالابرجة، وأخرى بالمنجنيقات ،ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش وآونة باللوالب، ويوما بالنقب وليلا بالسرابات، وطورا بطم الخنادق وآنا بنصب السلالم، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب ، وتلالا تشبه الأبرجة مدورة ، ورفعوها بالاخشاب وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها وهم يتقدمون أول أول ، وترتفع حالا بعد حال ، حتى صارت منه كنصف غلوة سهم، وقد كان الحجر والنار تؤثران في أبرجة الخشب ، وهذه أبراج وستائر للرجال والمنجنيقات من العطب ، لاتؤثر فيها الحجارة الرامية،ولاتعمل فيها النار الحامية».

قال ووصل في آخر جمادى الأولى من العساكر الاسلامية مجاهد الدين يرنقش ، ومعه عسكر سنجار ، وفي ثاني جمادى الآخرة ابن صاحب الموصل، وجماعة من أمراء مصر والقاهرة ،كعلم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدووي وغيرهمامن الأسدية والناصرية ، وأما عساكر ديار بكر فانهم تأخروا واعتذروا بالخوف من جوار تقي الدين ، وكان قد تعرض للسويدا وغيرها،وصعب ذلك على السلطان ، وقال : هذا من عمل الشيطان ، وفي مثل هذا الوقت نعرض لهذا المقت، وإني أخاف عليه في هذه السنة ، حيث أساء عند إمكان الحسنه ، واشتد مرض الانكلتيز بحيث شغل الافرنج بمرضه عن الزحف ، وكان ذلك خيرة من الله عظيمة، فإن البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما ،وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ،فكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق ، وانتعاش عثرة، وانجبار كسرة.

قال القاضي: واللصوص يدخلون عليهم إلى خيامهم ،ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم،ويأخذون الرجال في عافية بأن يجيئوا الى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين ،ويوقظونه ويقولون له بالاشارة : إن تكلمت ذبحناك ويحملونه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين ،وجرى ذلك مراراً كثيرة، ثم تكررت الرسائل من الفرنج إلى السلطان شغلا للوقت بما لاطائل تحته، منها ان ملك الانكلتيز طلب الاجتماع به، ثم فتر بعد أياما، ثم جاء رسول يطلب الاستئذان في اهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر انها قد ضعفت وتغيرت ،وطلب ان يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى ثم تهدى ، ففهم انه يحتاج الى ذلك لنفسه لأنه حديث عهد بمرض ، ثم نفذ أسيرا مغربيا عنده فأطلقه السلطان ،ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج فأرسل اليه ذلك، وكان غرضهم من ذلك تفتير العزمات وتضييع الاوقات على المسلمين، وهم مشتغلون بالحصر وموالاة الرمي والجد في الزحف حتى تبدلت قوة البلد بالضعف ، وتخلخل السور وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الاعمال عليهم حتى ان جماعة منهم بقوا ليالي عدة لاينامون أصلا ليلا ولا نهارا، والعدو عددكثير يتناوبون على قتالهم، واشتد ذلك عليهم سابع جمادى الآخرة ، فركب السلطان بالعسكر الاسلامي ورغبهم ونخاهم وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر، وجرى قتال عظيم ،وهو كالوالدة الثكلى يحرك فرسه من طلب الى طلب، ويحث الناس على الجهاد وينادى بنفسه: ياللاسلام وعيناه قد فارت بالدمع، وكلما نظر الى عكا وماحل بها من البلاء ومايجري على من بها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال ، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة، وانما شرب شيئا أشار به الطبيب، ولماهجم الليل عاد الى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن، ثم ركب سحرا وصبحوا على ما أمسوا عليه، وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها : إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد ان لم

تعملوا معنا شيئا نطلب الامان، ونسلم ونشتري مجرد رقابنا ،وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضا ، فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر، فإن الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم ،وهجم عليهم بعض الناس من بعض الأطراف فثبتوا وذبواغاية الذب، وحكى بعض من دخل عليهم اسوارهم انه كان هناك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهويرميها على المسلمين، ووقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا وهويتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب حتى ضربه زراق بنفط فأحرقه ، ورؤيت امراة عليها ملوطةخضراء فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ، ثم قتلت وحملت الى السلطان فعجب من ذلك ،ولم يزل الحرب الى آخر الليل ،وضعفت نفوس أهل البلد ،وتمكن العدو من الخنادق فملؤوها ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه ، فوقعت بدنه من الباشورة ودخل العدو اليها وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفسا وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحد منهم: لاتقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية ، فبادر رجل من الأكراد وقتله وقتل الخمسة الباقية ، وفي الغد ناداهم الفرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم، فقالوا: إنا قد قتلناهم فحزن الفرنج وبطلوا عن الزحف ثلاثة ايام، وخرج سيف الدين المشطوب بنفسه بأمان الى ملك الافرنسيس، وهو كان مقدم الجماعة في الرتبة، وقال له: إنا قد اخذنا منكم بلاداً عدة وكنا نهدم البلد وندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الأمان أعطيناهم، وحملناهم الى مأمنهم وأكرمناهم، ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على أنفسنا، فقال:أرى فيكم رأيي، فأغلظ له المشطوب القول وانصرف عنه، ولما دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان في البلد فأخذوا لهم بركوسا،وهو مركب صغير وركبوا فيه ليلا خارجين الى العسكر الاسلامي

منهم عز الدين ارسك، وحسام الدين تمرتاش بن الجاولي، وسنقر الوشاقي ، وهو من الاسدية الاكابر، وذلك في ليلة الخميس تاسع جمادى الاخرة ، فأما ارسك وسنقر فتغيبا خوفا من السلطان، واما ابن الجاولي فظفر به ورمي في الزردخانات،وكان شابا اول ماتوفي والده فأقطع السلطان اقطاعاتهم وقطعها وحبس عنهم الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهها، ومنعها، وكان من جملة الهاربين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة فعاد من ليلته ووقع بعد ذلك في الاسار واستفكه السلطان بعد سنة بثماني مائة دينار، ومن كتاب الى صاحب إربل مظفر الدين:«لما عاين أصحابنا بالبلد ماهم عليه من الخطر، وانهم قد اشفوا على الغرر فر جماعة من الامراء ممن قل بالله وثوقه، وأعمى قلبه فجوره وفسوقه، ولقد خانوا المسلمين في ثغرهم، وباؤوا بوبال غدرهم ،وماقوى طمع العدو في البلد الا هربهم ، ومأرهب قلوب الباقين من مقاتلتهم الا رهبهم، والمقيمين من اصحابنا الكرام ، قد استحلوا مر الحمام،وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الاعداء اضعاف اعدادهم، وانهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهادهم ، وكانوا تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشترطوا، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم في القوم وبسطوا، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب، والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من الكروب».

قال القاضي:وفي سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعرًا أنه يريد كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا وقالوا: نخاطر بالاسلام كله، وفي ذلك اليوم خرج من عند ملك الانكلتيز رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجا وذكروا ان مقدم الاسبتارية يخرج في الغد، يعني يوم الجمعة، يتحدث ويتحدثون معه في معنى الصلح فأكرمهم السلطان ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه،

وعادوا تلك الليلة الى عسكرهم، وفي ذلـك اليوم تقدم الى قايماز النجمي حتى دخـل هو وأصحـابه إلى أسوارهـم عليهم،وترجـل جماعة مـن أمراء الأكـراد كالجنـاح وأصحابـه وهو أخـوالمشطوب ولفيفهـم، وزحفوا حتـى بلغوا أسوار الفرنـج، ونصب قايماز علمه بنفسه على أسوارهـم وقاتل عن العلـم قطعة مـن النهـار ، وفي ذلك اليـوم وصـل عز الـديـن جرديـك النوري وسـوق الزحف قـائمة فترجل هـو وجماعته،وقـاتل قتالا شـديدا، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهادا عظيما.

قال العماد: وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد، منتظرا لنجح الامـل البعيد، ولما عرف السلطان أنـه لاسلامه، وأن عكا عـدمت الاستقامة، نفذ إلى جماعة عكا وقال لهم :خذوا من العدو حذرا، واتفقوا واخرجوا ليلا من البلد يدا واحـدة ، وسيروا الى جانب البحر ، وصادموا العـدو بالقهـر، وخلوا البلـد بما فيه واتـركوه بما يحويـه، فشرعوا في ذلـك واشتغل كل منهـم باستصحاب مايملكه، ولم يعلم ان التهـاءه به يهلكه، فما تمكنوا من المراد حتـى أسفر الصباح ، ولم يصح ذلك في الليلـة الثانية لمصير السر إلى العـلانية . قـال :ولـو صح ذلـك لنجـح المقصد ولكـن الفرنـج اطلعوا على هـذا السر، فحرسـوا الجوانب والأبـواب وكان سبـب علمهـم اثنين مـن غلمان الهاربين خـرجـا إلى الملاعين وأخبراهـم بجليـة الحال،وعزيمة الرجال.

قال: وخرج يوم الجمعة من الشهر جماعـة من رسل الفرنج ونحن على الحرب ومحاولـة الطعن والضرب، وفيهـم صاحـب صيـدا فطلب نجيـب الدين العدل، وكان السلطان يعـذق به في رسالات الفرنج العقد والحل، وعول السلطان في سماع الرسائل على ولـده الأفضل وأخيه العادل، وتردد العـدل مـرارا في الخطـاب والجواب، فلم ينفصـل الأمـر على الصـواب، وبـذلنا لهم عكـا على مافيهـا دون مـن فيها، وأنـا نطلق لهم أسرى بعـدد

العدة التي تحويها، فـأبوا غير الاشتطاط، فزدناهم صليـب الصلبوت فلم يحصل لهم به كمال الاغتباط ، هكذا قال في البرق.

وقال في الفتـح :ان ذلك كان يوم السبـت، وقال اشترطوا إعـادة جميع البلاد ، وإطلاق اساراهم من الاقياد .

وضعـف البلد وعجـز مـن فيـه ضعفا لايمكـن تـلافيـه ووقف كـرام أصحابنا وسدوا الثغـر بصدورهـم وشرعوا في بناء سور يقتطـع جانبا حتى ينتقلوا إليه إذا شـاهدوا العدو غالبـا، وكذا قال ابن شـداد أن ذلك اليوم كان يـوم السبت الحادي عشر، وقال:لبست الفـرنج بأسرهـا لباس الحرب وتحركوا حـركةعظيمـة بحيث اعتقـد ان ربما كان مصـاف ، واصطفوا وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليـك وطلبـوا منهـم العـدل الزيـداني وذكـر وا أنـه— يعنـي الخارج صاحـب صيدا —طليـق السلطان ،فـذكر نحـو ماتقـدم، وقال: وتصرم نهار السبت ولم ينفصل أمر .

قـال : ولما كان يـوم الاحـد ثاني عشر الشهـر وصـل مـن البلد كتـب يقولـون فيها : إنـا قد تبايعنـا على الموت فإيـاكم ان تخضعـوا لهذا العدو وتلينوا له، أمانحـن فقد فات أمرنا،وذكر العوّام الـواصل بهذه الكتب أنه وقع في الليـل صوت انـزعج منـه الطائفتـان ، وظن الفـرنج أن عسكـرا عظيما قـد عبر الى عكا وسلـم وصار فيهـا وانـدفع كيـد العدو في تلـك الأيام بعـد أن كان قـد أشفى البلـد على الأخذ ، ووصـل من عسـاكر الاسلام صـاحب شيزر سابـق الدين، وبـدر الدين دلدرم ومعـه تركمان كثير كان السلطان أنفذ اليهم ذهبا أنفقـه فيهم وصاحب حمص،و اشتد ضعـف البلد وكثـرت ثغور سـوره فبنوا عـوض الثلمة سـورا من داخلهـا حتى إذا تم انهدامها قاتلوا عليـه، وثبت الفرنج على أنهم لايصالحون ولا يعطون الـذين في البلـد أمانا حتـى تطلق جميـع الاسرى الذيـن في أيدي

المسلمين، وتعاد البلاد الساحلية إليهم، وفي يوم السابع عشر خرج العوّام وفي كتبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم، وأخذ جميع مافيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك،فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع مافيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي الف دينار، وألفا وخمسائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم، وصليب الصلبوت، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين ومامعهم من الأموال والاقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساؤهم ،وضمنوا للمركيس الملعون. ـفانه كان قد استرضي وعادـ عشرة آلاف دينار ، لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار ، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج، ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه ، وعزم على أن يكتب إليهم في ذلك انكارا عليهم ، فهو في مثل هذه الحال وقد اجتمع أمراءه وأصحاب مشورته ، فما احس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره على أسوار البلد وذلك ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة ،وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتد حزن الموحدين، وانحصر كلام العقلاء من الناس في إنالله وإنا إليه راجعون ،وغشي الناس بهتة عظيمة ، وحيرة شديدة ، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب ،وكان لكل قلب حظ في ذلك على قدر إيمانه، ولكل إنسان نصيب من هذاالحظ على مقدار ديانته ونخوته ، واقشعت الحال على أن المركيس لعنة الله دخل البلد، ومعه أربعة أعلام للملوك عوضا عن علم الاسلام ، وحيز المسلمون إلى بعض اطراف البلد ، وجرى عل أهل الاسلام المشاهدين لتلك الحال ماكثر التعجب من الحياة معه.

قال :ومثلت بخدمة السلطان رحمه الله عشية ذلك اليوم ،وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى والوالهة الحيرى ، فسليته بما تيسر من التسلية واذكرته الفكر فيما قد استقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية

والقـدس الشريف ، وكيفيـة الحال في ذلـك وإعمال الفكر في خـلا ص المسلمين المأسـورين في البلـد ، وانفصل الحال على أن رأى التـأخر عـن تلك المنزلة مصلحـة فإنه لم يبق غرض في المضايقـة، فتقدم بنقل الاثقال ليلا الى المنـزلة التي كان عليهـا أولاً بشفر عم، وأقـام هو جريدة مكـانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد ، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح، واشتغـل العدو بالاستيلاء على البلـد ، وأقام السلطان إلى التاسع عشر ، ثـم انتقل إلى الثقل ، ووصل ثلاثة نفـر ومعهم أقوش حـاجب بهاء الـديـن قـراقوش، وكـان لسـانـه فإنـه كـان رجـلا عاقـلا مستنجزيـن ماوقـع عليه عقد الصلـح من المال والأسرى، فـأقامـوا ليلة مكرّمين وساروا إلى دمشق يبصرون الاسارى.

قـال العماد :وخرج سيـف الديـن المشطوب ، وحسـام الديـن حسين باريك، وأخذا امان الفرنج يعنى على القطيعة المقدّم ذكرها.

قـال:ولم نشعر إلاّ بـالـرايـات الفرنجيـة على عكـا مـركوزه،وأعطـاف أعلامها مهـزوزة ، وعمّ البلاء ، وتم العنـاء ، وعز العزاء وقنط الـرجاء ، وحضرنا عنـد السلطان وهـومغتم ، وبـالتدبير للمستقبـل مهتم، فعـزيناه وسليناه، وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله قـد استعادها أعداءه، وقلت له: إن ذهبت مدينة فماذهب الدين، ولا ضعف في نصر الله اليقين .

قال: ودخلوا عكا وتسلموها ، ولم يقفوا على الشرائط التي أحكموها ، فإنهم منعوا أصحابنا من الخروج واحتـاطوا عليهم وعلى الأموال بحبسهـم واعتقالهم ، ثـم طلبـوا المال فجمعه السلطان وكمله، وأودعه خـزانته بعد مـاحصلـه ، وأحضر صليبهـم المطلـوب المسلـوب ، وأتـم شرطهـم المخطوب، فظهرت أمارات غدرهم ، وبدت دلائل مكرهم .

وفي كتـاب كتبه الفـاضل عـن السلطان الى شمـس الدولـة بن منقـذ

وهوبالمغرب في الرسالة :«لقـد تجاوزت عدة من قتل على عكا، يعنى من الفرنج، الخمسين الفـا، قولا لايطرقه التسمح ، بـل يحرزه التصفح فانبروا في هذه السنة ملكـا افرنسيس وانكلتيز وملـوك آخرون في مراكب بحـرية وحمالة حملـوا فيها الخيول والخيـالة والمقاتلـة والآلة ،ووصلت كـل سفينة تحمل كل مدينة،واحـدقت بالثغر فمنعت الناقل بالسـلاح اليه، والداخل بالميرة عليـه»ثم قال: «وأخذ البلـد على سلم كالحرب ،ودخله العـدو ولو لم يدخـل من البـاب دخل مـن النقب، ومـاوهنا لما أصـابه في سبيـل الله وماضعفنـا، ولا رجعنا ورا ءنـا ولا انصرفنا، بـل نحن بمكـاننا ننتظـر أن يبرزوا فنبارزهم ، ويخرجوا فنناجـزهم، وينشروا فنطويهم ، وينبثوا فنزويهم، واقمنا على طـرقهم ، وخيمنـا على مخنقهم، وأخـدنا بـأطراف خنـدقهم ، وأحوج مـاكنا الى النجدة البحـرية، والأساطيـل المغربيـة، فإن عاريتنـا به تـرد، وعـاديتنـا بها تشتـد، والامير يبلـغ مـابلغـه مـن خطـب الاسـلام وخطوبـه، ويقوم في البـلاغ يوم الجمعـة مقام خطيبـه ، ويعجل العـودة وقبلها الاجـابه، ويستصحب السهـم ويسبق ببشرى الاصابـه، ويشعر أن الرايـة قد رفعـت لنصر تقدّم بـه عرابـه، فإن لـلاسلام نظـرات الى الافق الغربي يقبلهـا ، وخطرات من اللطف الخفـي يقرّبها، ويكفي مـن حسن الظن أنها نظرة ردّت الهواء الشرقـي غربا، وخطرة أوهمت ان تلـك الهمة لو لم تلم بالسفائن لأخذت «كل سفينة غصبا».

قال العماد: وعـزم ملك الافـرنسيس على المسير الى بـلاده لأمر إختـل عليـه، فأخـذ قسما من الأسـارى وسلمهم إلى ا لمركيـس ووكله في قبـض نصيبه، ورضي بتدبيره وترتيبه، وخرج الفـرنج يوم الخميس انسلاخ الشهر مـن جـانـب البحـر ، وانتشروا بالمرج ووصلـوا الى الآبـار التـي حفـرهـا اليـزك،وتواقعـوا مع اليـزك وأمدهـم السلطان ففلـوا العدو وصرع منهـم خمسون فارسا.

قال القـاضي :وخرج خلـق عظيم ولم يزل السيـف فيهم حتـى دخلوا

خنـادقهـم ، قال :ولم تـزل الـرسـل تتردّد بين الطـائفتين حتى كـان يـوم الجمعة تـاسع رجـب، فخرج حسـام الديـن حسين بن بـاريك المهـراني، ومعه اثنـان من أصحاب الانكلتيز فـأخبر أن ملك الافرنسيـس صار إلى صور، وذكروا أشياء من تحرير أمـر الأسارى، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبـوت وشـاهـدوه وعظمـوه ورمـوا أنفسهـم إلى الارض ، ومـرّغـوا وجوههـم على التراب ، وخضعوا خضـوعا عظيما لم يـر مثله ، وذكـروا أن الملوك قد أجابـوا إلى أن يكون ماوقع عليه القرار يدفـع في تروم ثلاثة، أي نجوم ، كل تـرم شهر ، ولم تزل الرسل تتـواتر في تحرير القاعـدة وتنجيزها حتى حصل لهم ماالتمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليـب ، ومائة ألـف دينار وستمائة أسير، وأنفـذوا نقباءهـم وشاهـدوا الجميع مـاعدا الأسـارى المعينين من جانبهـم فإنهم لم يكونـوا فرغـوا من تعيينهم، ولم يكملوهـم حتى يحصلوا ولم يزالـوا يطاولون ويقضون الـزمان حتى انقضـى الترم الأول في ثامن عشر رجـب ،ثم أنفذوا في ذلـك اليوم يطلبون ذلك، فقـال لهم السلطان :إما أن تنفذوا إلينا أصحـابنا وتتسلموا الذي عين لكـم في هذا الترم، ونعطيكـم رهائن على البـاقي يصـل اليكم في ترومكـم الباقيـة، واما ان تعطـونا رهـائن على ما نسلمـه إليكم حتـى تخرجـوا إلينا أصحـابنـا، فقـالوا :لانفعـل شيئـا مـن ذلك بـل تسلمـون مانقبضه بهذا الترم وتقنعون بـأمانتنا حتى نسلم إليكم أصحـابكم، فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلمـوا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لايؤمن غدرهم، فلما رأوه قد امتنـع من ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظـاهر خنـادقهم مبرّزيـن في الحادي والعشرين الانكلتيـز وجماعة مـن الخيالـة والرجالة والتركبلي وركبـوا في وقت العصر السابع والعشريـن من رجب، وسـاروا حتى أتوا الى الآبار التـي تحت تل العياضـة ، ثم احضروا من الاسـارى المسلمين من كتـب الله شهادتـه، وكانـوا زهاء ثـلاثة آلاف مسلم في الحبـال ووقفوهم وحملـوا عليهم حملة الرّجـل الواحد، فقتلـوهم صبرا طعنـا وضربـا بـالسيـف رحمة الله عليهـم ، واليـزك الاسـلامـي

يشاهدهم، ولايعلم ماذا يصنعون لبعده عنهم، وكان اليزك قد انفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم ، فأنفذ إلى اليزك من قواه، وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة جرى فيها قتل وجرح من الجانبين ، ودام القتال الى ان فصل الليل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفوا منهم، وغشي المسلمين بذلك حزن عظيم، ولم يبقوا من المسلمين إلّا رجلا معروفا مقدما أو قويا أعدّ للعمل في عمائرهم.

قال العماد: وطلب السلطان منهم أن يضمنهم الداوية في قبض المال،فقال الداوية : ماندخل في الضمان ، فاقنعوا منهم بالقول والأمان، فظهر من فحوى كلامهم الخلف، ثم ذكر قتل الاسارى ، قال: فشاهدناهم مستشهدين بالعرا عرايا مجردين، ولاشك أن الله كساهم من سندس النعيم ، ونقلهم إلى دار المقامة في العز المقيم، وتصرف السلطان حينئذ في المال، وفرّق مجموعه في رجاء الرجال، وأعاد الاسارى إلى أربابها،واحتوت عليها بدمشق أيدي أصحابها، وحفظ الصليب السليب وردّه الى مكانه وأعاده الى صوانه لا لعزه بل لهوانه، فإنه لامصاب عندهم أعظم من استيلائنا عليه،وامتداد ايدينا اليه، وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولا، وانفذوا بعد رسول رسولا، فما وجدوا قبولا، ولا صادفوا سولا.

ومن كتاب عمادي عن السلطان في ذلك:« وللكرام آجال، والحرب سجال، ولله من المؤمنين رجال، والآن فقد ثارت الحميات، وهبت النخوات، ووجب على كل مسلم ان ينهض لنصرة الاسلام، ويتدارك ماحدث من الكسر والوهن، بالجبر والاحكام ويعيد ما وهى من عقد الفتوح الى النظام، فأين ذوو الأنفة والحمية، والهمم العليه، والنفوس الأبية، أما يغتمون لمصرع من استشهد من أخوانهم، أما يثورون لثأر

- ٨٨١٣ -

ايمانهم،أما تبكي العيون لمن قتل من أماثلهم وأعيانهم، فإن مصابهم عظيم، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الرّاقدة واثارة العزائم الراكدة».

فصل

فيما جرى بعد انفصال أمر عكا

قال العماد: ثم ان الفرنج رحلت صوب عسقلان مستهل شعبان، وسار السلطان في عراضهم، والمسلمون يخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون ويجرحون ويسلبون ويسرقون ، وكل أسير أتي به السلطان أمر بقتله، ووصلوا الى حيفا فأقاموا بها ونزل المسلمون بالقيمون وقدّم السلطان ثقله الى مجدل يابا وأضحى نازلا على النهر الجاري الى قيسارية، وودع الفاضل السلطان وسار الى دمشق لأنها مدرج الوافدين من الأكابر ،والنواب بها ربما جبنوا عن إقامة الوظائف ، وكان الامر الفاضلي عندهم كالأمر السلطاني، فاذا استشاروه خلصوا من كل تبعة ودرك ،وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسيرون في الساحل بالفارس والرّاجل، وعن يمينهم البحر ، وعن يسارهم الرّمل، وكانت الرّجالة حولهم كالسور وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة ،بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون،وهم يرمون بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم.

قال القاضي: ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهويسير على هيئته من غير انزعاج ، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح، واستراح القسم العمال، هذا والخيالة في وسطهم لايخرجون عن الرّجالة إلا في وقت الحملة لاغير، وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام الاوّل الملك العتيق كي وجماعة الساحلية معه في المقدمة والانكلتيز والفرنسيسية معه في الوسط، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة اخرى في الساقة، وفي وسط القوم برج على عجلة،وعلمهم على ماوصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم

على عجلة كالمنارة العظيمة، وساروا على هذا المثال ، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ، ويحرّكون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ويقطعون الطريق على هذا الوضع، ويسيرون سيرا رفيقا ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل فنزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة، فإن المستريحين كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لقلة الظهر عليهم.

قال:فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ولانفع ،وطاف الجيش حولهم من كل جانب ولزوهم بالنشاب، وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه، وهم يحفظ بعضهم بعضا، والمسلمون محدقون بهم من ثلاثة جوانب، ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية ونشاب القوم يتجاوزه ، وليس معه الا صبيان بجنبيتين لاغير، وهو يسير من طلب الى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم، والصياح بالتهليل والتكبير يرتفع ، والعدو على أتم ثبات ترتيبهم لايتغيرون ولا ينزعجون ، وجرت حملات كثيرة ، ورجالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك والنشاب إلى أن أتوا إلى نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائم الظهيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس من أمر يتم معهم ، وفي ذلك اليوم قتل من فرسان المسلمين وشجعانهم إياز الطويل وهو من مماليك السلطان وكان قد فتك بهم ، وقتل خلقا من خيالتهم وشجعانهم ، وكان قد استفاضت شجاعته بين العسكرين بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدّقت أخبار الاوائل ، وصار بحيث أنه إذا عرفه الفرنج في موضع يخافون منه، فاتفق أن تقنطر به فرسه فاستشهد في ذلك اليوم ، ودفن على تل مشرف على البركة وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما، وقتل عليه مملوك له، ونزل السلطان بالثقل على البركة وهو موضع يجتمع فيه مياه كثيرة، ثم رحل بعد العصر وأتى نهر القصب، فنزل عليه أيضا، فكنا

نشرب من أعـلاه والعدو يشرب من أسفلـه، ليس بيننا إلامسـافة يسيرة ، وبات الفريقان هناك.

قال العماد :وكانت نوبة اليزك لعز الدين ابراهيم بن المقدّم في الساقه، وكانت الفرنج قد انست بانقضاء الحرب فخرج منها جماعة مسترسلين ، وتقدّمواعلى البركـة مشرفين، فبصرهم ابن المقدم، فعبر اليهـم من ورائهم هو ومـن معه النهر ولم يـأخذوا مـن خلفهم الحذر، ففجأهـم وفجعهم ، وفرغ من شغلهـم قبل ان يدركهم الصريخ وسلبهـم وغنمهم ، ثم نهض الفرنـج اليه، وحملـوا عليه وجـرت وقعة شـديدة لحزب الضـلال مبيدة ، جلبـت لنـا غنيمة ، وعليهـم هـزيمـة، وأحضر الأسارى عنـد السلطـان بحزام الذل والهوان، فأخبروا أنهم جرح منهـم بالأمس ألف، وسرى فيهم وهن وضعف.

ثم رحـل السلطان وعبر شعراء أرسـوف، ونزل على قـرية تعرف بـدير الراهب، وطلـب ملك الانكلتيز الاجتماع بالملك العادل خلـوة فاجتمعا، فاشار بالصلـح وكان حاصل كلامه أنه طال بيننـا القتال ونحن جئنا في نصرة افرنـج الساحل، فاصطلحـوا انتم وهم وكـل منا يرجع إلى مكـانه، فقـال: على ماذا يكـون الصلح؟ قـال: على أن يسلم إلى أهـل الساحـل ماأخـذ منهم من البـلاد، فأبـى الملك العادل، وأخبره أن دون ذلـك قتل كل فارس وراجل، فرجع مغضبا.

وفي يـوم السبـت رابـع عشر رمضـان كانـت وقعـة أرسـوف تـأهـب المسلمون للقائهم ، فأزعجوهم وأبلـوهم ببلائهم ، فلما رأى العدو ما هو فيه مـن الضيقة احتموا وحملـوا حملة واحدة فانكشـف من كان قـدامهم، واندفعـوا وثبت ذلـك اليوم العـادل وأصحابـه وقايماز النجمـي، وعسكر الموصل ، ثم كـرت العساكر كرا إليهم، وجرت النـوائب عليهم ، فجرت بين الفئتين مقتلـة عظيمـة ، فلجـأوا إلى جـدران أرسـوف ،ولـولا ذلـك

لاستوعبت فيهم الحتوف، فنزل السلطان على نهر العوجا ورحل العدو الى يافا فنزلوها ، والمسلمون على العادة في عراضهم، مقيمة على تبديد جموعهم واعتراضهم ، وقتل يوم أرسوف لهم كند كبير تحت حكمه من الفرنج عدد كثير، وكان من عظم شأنه وفخامة مكانه انه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين، فما قتل حتى قتلوا، ولا بذل حتى بذلوا روحهم .

قال القاضي ابن شدّاد: رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم،وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفرج لهم رجالتهم، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فاندفع الناس بين أيديهم ولم يبق في طلب السلطان إلاّ سبعة عشر مقاتلا ، والأعلام باقية والكؤوس تدق لاتفتر، فلما رأى السلطان مانزل بالمسلمين سار حتى أتى طلبه فوقف فيه، والناس يفرون من الجوانب وكلما رأى فاراً يأمر من يحضره عنده فاجتمع في الطلب خلق عظيم، ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابي، وخاف العدو أن يكون في الشعراء كمين ،وثابت العساكر كلها، فتراجع العدو إلى منزلته ، وجلس السلطان ينتظر الناس من العود من السقي والجرحى يحضرون بين يديه،وهو يتقدم بمداواتهم وحملهم وقتل رجالة كثيرة وجرح جماعةمن الطائفتين ، وصدم الملك الأفضل وانفتح دمل كان في وجهه، وسال منه دم كثير على وجهه، وهو صابر محتسب في ذلك كله، وقتل من العدو جماعة وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه.

وفي بعض الكتب السلطانية:«سار العدو من عكا على قصد عسقلان، وسقنا لمعارضتهم في كل طريق ، ومضايقتهم في كل مضيق، ومنازلتهم في كل منزل ، ومدافعتهم في كل منهل، وهم يسيرون البحر البحر لايفارقون ساحله، ولا يتجاوزون مراحله، والمواضع مضائق ، وشعراء ورمال ،وما للقتال فيها مجال، وماوجدنا فسحة إلا وضايقناهم

فيها، وأخذنا عليهم في نواحيها، ومن جملة أيامنا المشهودة، ومواسمنا المعروفة المحمودة يوم الاثنين تاسع شعبان عند رحيلهم من قيسارية» فذكر الواقعة السابقة وفيها « أنه نفق ألف رأس»، ثم ذكر يوم أرسوف وحسن عاقبته للمؤمنين بعد اليأس، ثم رحل السلطان تاسع عشر شعبان ونزل بالرملة ، واجتمعت الاثقال بها في تلك الرحلة، ورحل ليلا واصبح على يبنا وجاوزها إلى نهر أمر أن الخيام عليه تبنى، قال :وزرنا بيبنا قبر أبي هريرة رضوان الله عليه ،وتبادر الناس بالتيمن به إليه.

قلت: اعتمد العماد في هذا على ما اشتهر بين العامة من ذلك ،وأما اهل العلم المصنفون في أخبار الصحابة رضي الله عنهم، كابن سعد وغيره، فذكروا أن أبا هريرة توفي بالمدينة، ولم يذكروا غيره على ماذكرناه في ترجمته في التاريخ والله اعلم.

قال العماد: ورحل السلطان ، ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر، وشرع فيما عزم عليه من الأمر، وكان لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء ، وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء ، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها، للعجز عن حفظها على مابها، ووافقه الجماعة وقالوا: قد ضاق عن صونها الاستطاعة، فإن هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها، وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ، ولاسبيل الى حفظ المدينتين، فاعمد إلى أشرف الموضعين فحصنه وحكمه، فاقتضت الآراء اقامة العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء ، حتى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم.

قال القاضي: أشار عليه بتخريب عسقلان خشية أن يستولى عليها الفرنج، وهي عامرة فيتلقفوا من بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القدس الشريف، ويقطعوا طريق مصر، وخشي السلطان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وماجرى على من كان

مقيما بها، فسار حتى أتى عسقلان ، وقـد ضربت خيمته شمـاليها ، فبات هناك مهموما بسبـب خراب عسقلان ومانام تلك الليلـة إلّا قليلا ، ولقد دعاني إلى خدمته سحرا وكنت فـارقته بعد مضي نصف الليل ، فحضرت وبد أ بالحديـث في معنى خرابها، وأحضر ولده الأفضـل وشاوره في ذلك وطال الحديث ، ولقد قال رحمه الله:والله لأن افقد أولادي بأسرهم أحب الي من أن أهـدم منها حجـرا واحداً، ولكن إذا قضـى الله بذلـك ، وعينه لحفظ مصلحـة المسلمين طريقا، فكيـف أصنع؟ قال : ثـم استخار الله تعـالى فـأوقع في نفسـه ان المصلحـة في خـرابها فاستحضر الـوالي، وأمـره بذلـك في تاسـع عشر شعبان، ولقـد رأيته وقـد اجتاز بـالسوق والـوطاق بنفسه يستنفـر الناس للخراب ، وقسـم السور على الناس، وجعـل لكل أمير طائفـة من العسكـر بدنة معلـومة وبـرجاً معلومـا يخربونـه ، ودخل الناس الى البلد ،ووقع فيه الضجيـج والبكاء ، وكان بلد نضرا خفيفا على القلب، محكم الأسوار عظيم البناء مرغـوبا في سكناه ، فلحق الناس عليه حـزن عظيـم ، وكـان هـو بنفسه وولـده الأفضـل يستعمـلان النـاس في الخراب خشيـة أن يسمـع العـدو فيحضر، ولايمكن مـن خـرابها وأبـاح الناس الهري الـذي كان ذخيرة في البلد للعجز عـن نقله، وضيق الـوقت والخوف مـن هجوم الفـرنج ، وامـر بحريـق البلـد ، فأضرمـت النار فيـه والاخبار تتواتـر من جانب العـدوبعمارة يافا ،وخرب مـن سور عسقلان معظمـه، وكان عظيـم البناء بحيـث أنـه كان في مـوضع تسعـة أذرع وفي موضـع عشرا ، وذكر بعـض الحجارين للسلطـان وأنا حـاضر أن عرض البرج الذي ينقبون فيـه مقدار رمح،فلم يـزل الخراب والحريق يعملان في البلد وأسـواره إلى سلخ شعبان ، وعنـد ذلك وصـل من جرديـك كتاب يذكـر فيه أن القـوم قد تفسحـوا ،وصاروا يخرجـون من يـافا يغيرون على البـلاد القـريبـة منهـا،فلـو تحرك السلطـان لعلـه يبلـغ منهـم غـرضـا في غرتهم،فعزم على الرحيل وعلى أن يخلـف في عسقلان حجارين، ومعهم خيـل تحميهـم يستقصـون في الخراب، ثم رأى ان يتـأخـر بحيـث يحرق

البرج المعروف بـالاسبتار ، وكـان برجـاعظيما مشرفا على البحـر كالقلعـة المنيعة، ولقد دخلته وطفتـه ، فرأيت بناءه أحكم بناء لاتعمـل فيه المعاول وإنما أحرق ليبقى بالحريق قابلا للخـراب، وبقيت النار تشعل فيه يومين بليلتيهما .

قال العماد: ونقـض منها الابـراج التي على سـاحل البحـر ، ودخلتها فرأيتها أحسن مـدينة ، منيعة حصينة ، فطال بكائي على رسـومها، وفض ختومهـا، وقبض ارواحهـا من جسومهـا، وحلول الـدوائر بدورهـا، ونزول السـوء بسـورهـا، فما بـرح السلطـان منهـا حتـى رأينـا طلـولها دوارس، ورسـومها طـوامس، والـرؤوس حياء مـن معـاهدهـا نواكـس، قال: ولـو حفظت لكـان حفظها متعينا وصـونها ممكنا، لكـن وجد كلا لـه متجنبا، متجببا، وقد راعتهـم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين ، وعـادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال مـن تعلل واعتذر عـن دخولها: تدخلهـا أنت أو أحـد أولادك فنـدخلهـا إتبـاعا لمرادك ، فحينئـذ لم يجد بـدا مـن نقـض أسوارهـا، وفض سوارهـا، وسكانها كانوا في رفـاهية ، فانتقلـوا عنها على كـراهية، وبـاعـوا أنفـس الأعلاق بـأبخـس الاثمان ، وفجعـوا بالأوطـار والأوطان.

فصل

فيما جرى بعد خراب عسقلان

قال العماد: فارقها السلطان يوم الثلاثاء ثاني رمضان ، ونزل على يبنا، ونزل بالرملة يوم الاربعاء وأمر بتخريب حصنها، وتخريب كنيسة لدّ، وركب جريدة إلى القدس فأتاه يوم الخميس، وأعاد إليه رسوم التأنيس ، وخرج منه يوم الاثنين ثامن رمضان ، وبات في بيت نوبة وعاد إلى المخيم يوم الثلاثاء، ووصل معز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن

قليج أرسلان وافدا عليه منتصرا به على أبيه وأخوته ، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده من يده، فأقام في الخدمة السلطانية مدة ،وتزوّج بابنة العادل على صداق مائة ألف دينار ، وسار مستهل ذي القعدة ، وفي ثامن الشهر أيضا خرج الكمين على ملك الانكلتيز وكان خرج في فوارسه مخفراً للحطابة والحشاشه، وكاد يؤخذ الملك ، لكن أحد خواصه فداه بنفسه، بأن أظهر حسن لباسه ، فظن انه الملك فأسر .

وقال ابن شدّاد: حال بينه وبينهم فرنجي فقتل الفرنجي وجرح هو ، وفي ثاني عشره جرت أيضا وقعة كان النصر فيها للمسلمين ، وقتل مقدّم كبير من المشركين ، ومازال يقع بينهم وبين اليزك وقعات ،وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم.

ومن كتاب الى صاحب سنجار:«قد تقدم الإعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان ، وما تم عليه منا في طريقه من النكاية والخذلان، وانه قطع في سبعة عشر يوما مسافة يومين لما لابسه وغامره من الحين ، وماصدّق كيف وصل إلى يافا فأظهر بها الاستيطان، وأقام بها يعمر المكان، وهذه مدينة يافا متوسطة بين القدس وعسقلان ، ومنها الى كل واحدة منهما مسافة نصف نهار، وكلتاهما من العدو على خوف

وحـذار ، وكل واحـد من الموضعين يحتـاج في تحصينـه إلى ثلاثين ألـف مقاتل، وتعـذر الجمع بين حفظ الثغرين ، وتحصين البلـدين، وتعينت في تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه، وعصمته من العدّو وتأمينه».

ثم رحل السلطـان إلى النطرون، وخيم على تل عـال، والنطرون حصن حصين كان للـداوية،لكن لما فتح تشعثـت أسواره،وانقض جداره، فـأمر بهدمـه فهدم، ثـم بعث ملـك الانكلتيز راغبـا في المصالحة والمسـالمة إلى العادل ، وزعـم أن له أختا عـزيزة عليـه، كبيرة القدر، وأنها كانـت زوجة ملـك كبير من ملـوكهم، وهـو صاحـب صقلية ، تـوفي عنها ورغـب أن يتزوجها العادل، ويجعـل له الحكم على بلاد الساحل ينفـذ أمره فيها،وهو يقطع الـداوية والاسبتـار من البلاد والقـرى دون الحصون ، وتكـون اخته مقيمة بـالقدس ومعها فيـه قسيسون ورهبان، حافظـة لها من آفة الـزمان، فـرأى العـادل في ذلـك عين الصـواب ، وشـاور السلطـان فـوافقـه فيما أجاب، فنفـذ الرسـول إلى الانكلتيز بالاجـابة ، فـدخل الفـرنج على المرأة وخوّفـوها، واتهموهـا في دينها وعنفوهـا،وقالـوا لها مامعناه: هـذه فضيحة فظيعـة، وسبـة شنيعـة، وقطـع على النصرانية وقطيعـة ، وأنـت عـاصيـة للمسيح لامطيعة، فرجعت عن ذلك ومـاأجابت، فاعتذر الانكلتيز بعدم موافقتهـا إلا ان يدخـل العادل في دينها، فعـرف أنها خديعـة كانـت من الانكلتيز .

قال القـاضي: ووصل رسـول من المركيس يـذكر أنـه يصالـح الاسلام بشرط أن يعطى صيـداوبيروت على أن يجاهر الفرنـج بالعـداوة ، ويقصد عكا ويحاصرهـا ويأخذها منهم، فـأجيب إلى ذلـك على أن يطلق مـن بها وبصور مـن الاسارى ، ولما سمـع الانكلتيز بذلـك رجع إلى عكـا لفسخ هذه المصالحة، واسترجـاع المركيس إليه، وجاء الخبر أن ملـك الافرنسيس مات بأنطاكية.

ووصل كتـاب من تقي الـدين يخبر فيه أن قـزل صاحب ديـار العجم ابن ألدكز قتل ، وجرى بسبب قتله في بلاد العجم خطب عظيم.

قـال العماد : وكـان محتقـراً للعظـائم ، مقترفـا للمآثـم واضعـا للشرب والقصـف والمواسـم، وقتـل بـاصفهـان عشرة مـن رؤسـاء الشـافعيـة المعروفين، وكبرائهم الموصوفين .

ووصل من الديوان كتاب يذكر فيـه قصد تقي الدين خلاط ، ويظهر فيه العناية التامة ببكتمر، ويشفع في حسن بن قفجاق ، ويتقدم باطلاقه، وكان قد قبض عليه مظفر الديـن بإربل، ويتقدّم بمسير القاضي الفاضل الى الديـوان لبت حال، وفصل أمـر ، فأجاب السلطـان بأنا لم نأمـر تقي الديـن بشيء من ذلك ، وإنما عبر ليجمـع العساكر ، ويعـود الى الجهاد، وأمـا ابن قفجـاق فقد تقـدم إلى مظفـر الديـن حتى نحضره إلى الشـام، فيقطعه فيه، ويكون مـلازما للجهاد ، وأما الفاضل فاعتـذر عنه بأنه كثير الامراض، قوته تضعف عن الحركة إلى العراق.

قلـت: وبلغني أن الفـاضل رحمة الله كتـب في الاعتـذار بالحضـور الى الديوان ، وتمثل في كتابه بهذين البيتين:

مـــاكنـــت أوّل ســـار غـــره قمـــر
ورائد خـــدعتـــه خضرة الـــدمـــن
مثـــل لنفســـك شخصي اننـــي رجـــل
مثـــل المعيـــدي فـــاسمـــع بي ولا تـــرني

قال القاضي: وأرسـل الانكلتيز إلى السلطان إن المسلمين والفرنـج قد هلكـوا، وخربـت البلاد وتلفـت الأمـوال والأرواح، وقد أخـذ هذا الأمـر حقه، وليـس هناك حـديث سوى القـدس والصليب والبـلاد، والقدس متعبدنـا مانتزل عنـه ولو لم يبق منـا واحد، وأما البـلاد فيعاد إلينا مـا هو قاطـع الأردن، وأما الصليب فهـو خشبة عندكم لامقـدار له، وهو عنـدنا

عظيـم ، فيمن بـه السلطان علينـا ، ونستريـح من هـذا العناء الـدائم، فارسل السلطان في جـوابه: القدس لنا كما هو لكم ، وهـو عندنا أعظم مما هـو عندكم ، فـانه مسرى نبينا ومجتمـع الملائكة، فلا يتصـور أن ننزل عنه ولانقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين،وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل واستيـلاؤكم كان طارئا عليهـا لضعف من كان بها مـن المسلمن في ذلك الـوقت ، وأمـا الصليب فهـلاكه عنـدنا قـربة عظيمـة لايجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام هي أوفى منها.

وهرب شيركـوه بن بـاخل الكـردي من عكـا ، وكان أسيرا بها ،وكـان ادّخر حبـلا في مخدته فتدلى مـن طاقة في بيـت الطهارة ، واشتد هـربا في قيوده إلى تل العيـاضية ، فكمن في الجبل وقد طلع عليـه النهار، ثم كسر قيوده وسـار إلى المسلمين ، ثم تواتـر الخبر أن الفرنج على عـزم النهوض، فسـار السلطـان من المخيـم بـالنطـرون إلى الـرملـة سابـع شـوّال،وأقـام بهاعشرين يوما، فجرت وقعات ،تمت دفعـات ،منها وقعة في نـاحية يازور، وكـان النصر فيها للمسلمين ، وفقـد مـن المسلمين ثلاثـة ،وذلـك ثامـن شـوّال ، وفي ســادس عشر شـوّال وقعـت وقعــة أخـرى عظيمــة قتـل فيهاجماعـة من الامراء، وأسر فـارسان من الكفرة معـروفان بالبـأس سوى غيرهما، وقتل منهم زهاء ستين نفر.

وفي خـامــس شـوّال وصـل الخبر أن الاسطــول المصري استـولى على مراكـب الفرنـج ، ومنها مركـب يعرف بـاسم المسطح قيـل انه كـان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك ،وانـه قتل منهم خلق عظيـم واستبقى منهم أربعة نفر مذكورون .

وفي ثـامن عشر شـوّال اجتمـع الملـك العادل والانكلتيـز على طعـام ومحادثة وانفصلا عن توادد ومطايبـة ،وطلب منه الاجتماع بخدمةالسلطان فـامتنع رحمه الله وقـال: الملوك إذا اجتمعـوا يقبـح بينهم المخـاصمة بعـد

ذلك ، وإذا انتظم امر حسن الاجتماع ، ورحل الفرنج ثالث ذي القعدة إلى الرملة، وأظهروا قصد القدس بتلك الرّحلة ، ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ، ورحل السلطان إلى القدس بنيةالمقام في الثالث والعشرين من ذي القعدة ،وكان الشتاء قد دخل ، والغيث قد اتصل، فوصل إلى القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء مجاورة كنيسة قمامة، وفي ثالث ذي الحجة وصل عسكر من مصر بأموال ورجال مع أبي الهيجاء السمين ، وتحول الفرنج إلى النطرون فقوى السلطان اليزك فوقعوا على سرية فغنموها ، وسيق منهم الى القدس نيف وخمسون أسير سوى من قتل منهم ، وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيرز يوم عيد الأضحى، فنحر منهم وضحى، واحتوى على عشرة من مقدميهم أسرا وقتلا ، وتسلق باقي الفرنج في الجبال وتركواخيلهم ، فغنمها المسلمون، ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مدّة مقامهم بالنطرون وجعل المسلمون يقطعون الطريق على تجارهم حتى أنهم أخذوا قافلة ثقيلة بمن فيها ولم يقدروا على تخليصها فرحلوا عائدين الى الرّملة في الثاني والعشرين من ذي الحجة ، وفي ذلك اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا برسم قطع الصخور من الخندق ، فان السلطان شرع في تحصين القدس وعمارة أسواره ، وتقبل الامراء فيه العمل، وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ،ومعهم القضاة والعلماء، والولاة .

قلت: في قصد الفرنج للسلطان بالقدس يقول الرشيد بن النابلسي من جملة قصيدة له:

ويح الفرنجة بل ويل أمهم
أوما فيهم لبيب على العلات يعتبر
كم نثرتهم ضربا اذ انتظموا
وكم نظمتهم طعنا اذ انتثروا

كـــم قـــد سقيتهـــم ذلا فـــلا عجـــب
أن عـــربـــدوا سفهـــاً فـــالقـــوم قـــد سكـــروا
إن يممـــوك فـــلا بـــدع لجهلهـــم
تسعـــى إلى الاســـد في غـــابـــاتها الحمـــر
زاروا نمـــوراً ولا تغنـــي وقـــاحتهـــم
إذا أســـودك في أبطـــالهم زأروا
فحـــام عـــن حـــوطـــة البيـــت المقـــدس لا
خـــوف وحـــاشـــاك مـــن خـــوف ولا ضرر
هـــو الشريـــف وقـــد نـــاداك معتصماً
فما على مجده مـــن بعـــدهـــا حـــذر
وســـوف تستغفـــر الايـــام هفـــوتها
وتحصـــد الفئـــة الاوغـــاد مـــا بـــذروا

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: في ربيع الأول منها تولى القاضي محيي الدين محمد بن الزكي قضاء دمشق،وفيها يوم الجمعة تاسع عشر رمضان كانت وفاة تقي الدين عمر ابن أخي السلطان وراء الفرات ، وكان قد امتدت عينه الى بلاد غيره، فاستولى على السويدا، وعلى مدينة حاني، وعزم على قصد خلاط وكسر صاحبها سيف الدين بكتمر، وتملك معظم تلك البلاد، ثم اناخ على مناز كرد يحاصرها ومعه عساكر كثيرة ، فأناخت بجسده المنية بسبب مرض اعتراه وزاد إلى أن بلغ منه المراد، وأخفى ولده الملك المنصور وفاته، ورحل عن البلد المحصور وفاته، وعاد به إلى البلاد التي في يده ، وعجب الناس من حزمه وعزمه وثباته وجلده، وجاءت رسله إلى السلطان تخبره بأنه قام مقام والده فيما كان له من البلدان وطلب منه شروطا نسبه بسببها الى العصيان ، وكاد أمره يضطرب، وقلبه يكتئب ، وشأنه ينعكس وينقلب ، حتى احتمى بالملك العادل فنصره وأظهره الى الوجود وأظهره.

وقال القاضي ابن شداد: كانت وفاته في طريق خلاط عائدا إلى ميافارقين، فحمل ميتا حتى وصل به إلى ميارفين، ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماه، وحمل إليها فدفن بها.

قال العماد: وفيها توفي ابن اخت السلطان حسام الدين محمد بن عمر ابن لاجين بدمشق، ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان ،ففجع السلطان بابن اخيه وابن اخته في تاريخ واحد،وكانا من أعظم الأعوان على مايكابده من الشدائد..

قلت ودفن بالتربة الحسامية المنسوبة اليه من بناء والدته ست الشام بنت أيوب، وهي المدرسة الشامية ظاهر دمشق بالعوينة.

قال: وفيها في أواخر ذي الحجة توفي الامير علم الدين سليمان بن جندر من أكابر أمراء حلب ، وكان في خدمة السلطان بالقدس وهو شيخ الدولة وكبيرها وظهيرها ومشيرها، وهو الذي أشار بتخريب عسقلان لتتوفر الحناية والأهتمام بالقدس، ثم مرض بالقدس و طلب المسير الى الوطن فأدركته المنية بقرية غباغب على مرحلة دمشق ، وفيها في الثالث من رجب كانت وفاة الصفي بن القابض نائب السلطان بدمشق ، وكان قد خدم السلطان أيام عدمه، وهو في كفالة أبيه وعمه، فلما ملك مصر أمرحه في أموالها، وحكمه في أعمالها، حتى نال المنى، ووجه ونجح وحصل على الغنى وكتب لمماليكه دوره وأملاكه وجميع أمواله، وفيها توفي نسيب العماد وهو جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبيد بن كوبه سابع عشر ذي الحجة بدمشق.

قال العماد: وكنت استنبته في كتابة الإنشاء وخرّجته ، وقلبته في مراتب المعالي ودرّجته، واعتمد السلطان عليه في الترسل الى السلاطين العجم،وخواص الأمراء منهم والخدم ،وكان نبيلا نبيها كريما وجيها. وفيها توفي الحكيم الموفق اسعد بن المطران في شهر ربيع الاول، وكان من أهل النظافة والظرافة، ومن ذوي الفصاحة والحصافة ، وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام ، ونال أسباب الاحترام، وتقدم عند السلطان ، وما شانه كبر وهو كبير الشان، وفي أواخر هذه السنةتوفي الشيخ الفقيه نجم الدين الخبوشاني بمصر، وهو الذي عمر تربة الامام الشافعي رضوان الله عليه، وبنى المدرسة في جوارها ،واحيا شعار التوحيد، وبنى أمره على التسديد والتشديد، وحفظ شمل الشافعية من التبديد، وكان السلطان مجيبا له الى كل مايستدعيه، ويقضي له من الحوائج مايقتضيه، ووقف على المدرسة التي بناها وقوفا، وأعطاه في بنائها ألوفا، فلما توفي

الخبوشاني طلب المدرسة جماعة مـن العلماءفردوا ، وشفع العادل في صدر الديـن أبي الحسن محمد بـن حمويه شيـخ الشيوخ، فكتب بها لـه، ورتب بوقفهـا وتدريسها استقلالـه، وذلك في أواخر سنـة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة، وتبدّلت بالوحشة الأنسه.

قلت :ثم استقرت عليها يد أولاده واحداً بعد واحد إلى الآن.

قال :وفيهـا توفي الوجيـه بن النفيـس مستوفي ديوان دمشـق بها، وكان نبيها مهيبا نزهـا عارفا مصيبا ، وفيها توفي القاضي أمين الديـن أبوالقاسم بحماه في حادي عشر رمضان، وكان كريما سخيا نابها سريا.

وفيها: نقلـت تربة القاضي محيـي الدين أبي حـامد محمد بن محمـد بن عبد الله بـن القاسم الشهـرزوري إلى المدينة النبـوية على ساكنهـا أفضل الصلاة والسـلام،وكان قاضي الموصـل ، وقد بنى ربـاطا هناك ، وكـانت وفاته بـالموصل في الثامن والعشرين مـن جمادى الاولى سنةست وثمانين ، وقد تقدم ذلك وسأل ابن اخيه القـاضي بعده كتابا إلى أمير المدينة فكتب له كتاب منه:«سبب اصدارهـا الى الامير مسير نائب القاضي كمال الدين بصريـح اذن عمه محيـي الـدين مـن الموصـل الى المدينـة المقدّسـة ، على ساكنهـا أفضل السـلام ليدفـن في الربـاط الذي أنشـأه حيث يبعـث مع شفيع الامة يـوم البعث والنشور، ويأمن ظلام اللحـد المحفور ، في جوار الضياء والنـور ،ويحشر بما يناله مـن البركة والحبـور ، منشرح الصدر(اذا بعثر مـافي القبور * وحصل مـافي الصدور)(١٢٨) ، ولقد وفـق في اختياره ايام حياته نقله إلى ذلك البيت المعمور ، فليعن الأمير على هذه المكرمة ، وليعتز بمواراته في التربة المجاورة للبقعـة المعظمة ». قا ل: وكان القاضي حزقا جواداً لبذل اللهى معتـادا ، واسع المروة جامع اسباب الفتوة ، يحب معالي الامور، فضائله متجاوزة حد الوفور.

قال ابـن القادسي: ووصل الحاج في صفـر بعدمـا اعتاقت اخبـارهم ، وأخبروا أن داود أمير مكة أخذ مـا في الكعبة من أموال، وأخذ طـوقا كان يلزم الحجر الاسود فـأوجب ذلك لشعثه ، وكان قد دخـل بعض الباطنية بعد سنـة أربعمائة فضربه بـدبوس ، وقـال: إلى كم حجـر، وفي يد ذلـك الرجل سيف، فما تجاسر أحد يقرب منه، فتطوع رجل وبذل نفسه للقتل ، وتقدم اليه فقتله، فـأخذ الحجر وجمعت شظاياه، وألفت وجعل له طوق، فأخـذ أمير مكةذلك الطـوق، فلما وصل أمير الحاج عـزل داود وولى أخاه مكثرا، ونقض قلعة كان بناهـا على جبل أبي قبيس ، وهو داود بن عيسى ابن فليته بن قـاسم بن محمد بن أبي هاشـم الحسني، ولما صرف عن مكة أقام بنخلة وتـوفي بها في رجب سنة تسع وثمانين ، وهـو أمير بن أمير إلى آخر من ذكرنا من آبائه وهم به ستة نفر.

قـال ابـن الاثير: وفي ربيع الأوّل سنـةسبـع وثمانين سـار عز الـديـن —يعنى صاحـب الموصل— إلى جزيرة ابن عمر فحصرهـا وبها ابن اخيه معز الـدين سنجـر شاه، لأنه كـان سيء السيرة معه خارجـا عن طـاعته مسـاعدا لـلأعـداء عليه، فعـزم على أخـذها منـه فخضـع وطلب العفـو والصفح ، فأجابه وصالحة على قـاعدة استقرت بينهما ، وعاد إلى الموصل، فعاد سنجر شاه إلى حالته الأولى ،فتجاوز عنه واطرحه.

-٨٨٣١-

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بالقدس ، وقسم سور البلد على أولاده وأخيه و أجناده ، فشرعوا في إنشاء سور جديد محدق مديد، وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه، فيستن الأكابر والأمراء في نقل الحجارة بنهجه ،ولو رأيته وهو يحمل حجراً في حجره ،لعلمت أن له قلبا قد حمل جبلا في فكره، ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور، وانشرح صدره حتى باشر صدور مماليكه بها الصدور، وماتغلو دار يبنيها في الجنة بنقل حجارتها، ليكون ملكا في دارها وقمرا في دارتها ، وداوم البكور في الركوب ، وعرض وجهه الكريم للشحوب.

قال :وفي ثالث محرم رحل الفرنج على سمت عسقلان ، وأشاعوا أنهم يعيدون بها العمران، وهم نازلون بظاهرها ،جائلون في مواردها ومصادرها، فرأى الانكلتيز دخاناعلى بعد فقصد ه ، وكان ثم جماعة من الاسدية وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر ، وهم غارون عما دهمهم،فوصل اللعين إليهم وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين ، فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الثاني ودافعه حتى ركب الفريق الآخر فدافعوهم وواقعوهم ، وساقوا قدامهم أثقالهم وخلصوا ناجين ، وسلم الله أنفسهم من أيدي الملاعين، ولم يفقد المسلمين إلا أربعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها ،وهون ضررها.

وفي حادي عشر المحرّم كبس عز الدين جرديك يبنا إلى أن عبرت قوافل الفرنج ، فساقها بأحمالها وأثقالها ونسائها ورجالها.

وفي مستهل ربيع الاخر ، وصل سيف الدين المشطوب ، وقد خلص من الأسر ، وقطعت عليه الفرنج خمسين ألف دينار، عجل منها عشرين ألفا، وأعطاهم بالباقي رهائن ،فأحسن السلطان لقاءه وأقطعه نابلس بأعمالها ، فتوفي بها في آخر شوال .

وفي ثالث عشر ربيع الآخر قتل المركيس لعنه الله بصور، وذلك أن رجلين دخلا صور وتنصرا ، وأظهرا الترهب والتعبد، ولزما الكنيسة وشكرهما الاقساء والرهبان ، واحبهما المركيس ،ولم يكن يصبر عنهما، ففي بعض الايام وثبا عليه وقتلاه، فأخذا وقتلا وعرف انهما كانا من الحشيشية، فجلس مكانه الكندهري بأمر الانكلتيز وسر الانكلتيز بمصاب المركيس، فإنه كان يضاده ويراسل السلطان في الاعانة عليه، فلما قتل سكن روعه وذهب عنه ضره، وتزوّج الكندهري بالملكة زوجة المركيس في ليلته، ودخل بها وهي حامل ، وما الحمل في ملة الفرنج عن النكاح حائل، ويكون الولد منسوبا الى الملكة ، هذه قاعدة الطائفة المشركة، وهذا الكندهري ابن اخت ملك افرنسيس من أبيه، وملك الانكلتيز من أمه، ودخل الفرنج في حكمه وعاش إلى آخر سنة أربع وتسعين ،وتولاهم دون سبع سنين .

وقال العماد في الفتح :أضافه الأسقف بصور فاستوفى رزقه، وتعدّى ومادرى أنه يتردّى ،وأكل وشرب وشبع وطرب، وخرج وركب ، فوثب عليه رجلان وسكنا حركته، بالسكاكين،ودكاه عند تلك الدكاكين، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة ، وقد أخرج تلك النفس الخسيسة، فقال المركيس وهو مجروح ،وفيه روح : احملوني الى الكنيسة فحملوه ، فلما أبصره أحد الجارحين وثب إليه وزاده جرحا على جرح، وقرحا على قرح، فأخذ الفرنج الرفيقين فألفوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين، فسألوهما من وضعهما على تدبير هذا التدمير ، فقالا: ملك الانكلتيز فقتلا شر قتلة فيا لله من كافرين سفكا دم كافر، وفاجرين فتكا بفاجر، قال: ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه الحالة وان كان من طواغيت الضلالة،لانه كان عدو ملك الانكلتيز ومنازعه على الملك والسرير ومنافسه على القليل والكثير.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم، ثم خربوها،ورحلوا عنها واسروا من فيها،وكان الانكلتيز الملعون قد استفسد من نوبة عكا نقابين حلبيين ، فتمكنوا من نقب المتّان واحرقوا النقب ، وطلب أهل الحصن مهلة يشاورون فيها السلطان فلم يمهلهم ، وفي رابع عشرة خرجت اليزكية على الفرنج على قلعة تعرف بمجدل جناب —كذا قال في الفتح . وقال في البرق: بمجدل يابا وكذا قال ابن شدّاد — وقتل كند كبير ، ثم نزلوا تل الصافية ، ثم الى النطرون ، ثم الى بيت نوبة وهي وطأة بين جبال بينها وبين القدس مرحلة، وقد ألهبهم المسلمون بنهبهم وأضعفوهم بسلبهم ، يتسلطون عليهم من كل ناحية ، ويكمنون لهم تحت كل رابية ، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقدس ، وفي انسلاخ الشهر التقى الجمعان وقد وصل العدو الى قلونية، وهي من القدس على فرسخين ، فلما رأى العدو مالا يدان له به رجع ناكصا على عقبيه، والمسلمون في اثرهم يكمنون لهم وينالون منهم، وكان بدر الدين دلدرم في اليزك ، فبعث من كمن لهم عند طريق يافا، فمرّت بهم فوارس ، فاستولى عليهم الكمين وماسلم منهم أحد.

وفي ثالث جمادى الآخرة كبست الكمناء قافلة ، فكسبت وسلبت واسرت.

وفي تاسعه وصل الخبر بأن الفرنج رحلوا بأسرهم ليلا وادلجوا ، ولم نعلم قصدهم ، فعرف السلطان أنه إلى طريق العسكر المصري ، فندب الامير فخر الدين الطنبا العادلي وشمس الدين أسلم الناصري ، حتى يعلما العسكر فالتقيا بهم بالحسي واخبراهم الخبر فنزلوا وعرّسوا وهم يظنون أن لاحس للعدو بأرض الحسي ، فجاءهم وفجأهم فاستولى على بعض الأموال وخلص أكثرها مع الرجال، ومن جملة من كان في العسكر فلك الدين أخو العادل لأمه، فنجا بما قدر عليه من القوافل.

قال العماد :وجرى هذاكله والملكان العـادل والافضل غائبان وعساكر الموصل وسنجـار وديار بكـر متباطئة في الاتيـان، وسببه مـاكان مـن تقي الـدين ومـوته، وتشرط ولـده في بقاء بـلاد أبيه عليـه، وان الافضل كـان طلب من والده البـلاد قاطع الفرات، ونزل عن جميع مالـه من الولايات، وأنه إذا عبر إلى الرها وحران ، ملك تلـك البلدان ،ورحل من القدس في ثالـث صفر، وأطلـق له السلطـان عشرين ألـف دينار سـوى مااصحبـه بـرسـم الخلع والتشريفـات، ووصـل الى حلـب فـاحتفـل اخوه الظـاهـر لقدومه، وأقام له بسنن المكارم ورسومه، ووقف بخدمته ماثلا ، وبعطف الابتهاج اليـه مائلا، وأحضر له مفـاتيح بلده، وقـدّم له كل مـافي يده ، وسمـع ناصر الـدين بـن تقي الـدين بما اقلقـه، ودفع منـه الى ماازهجـه وأزهقه، ووصـل رسولـه الى العادل وهـو بالقـدس لاجئا إلى ظلـه، راجياً لفضله ، لائذا بجنابه، عائذا ببابه، فـاحتمى له واحتمله،وقوّى في تقويته أملـه، وخـاطـب السلطـان في حقه واستعطفـه، وقـال: أنـا امضي إليـه وأحضره، وأومنه مما يحذره، وتبقى هذه السنة عليـه حران والرها ونعطيه في السنة الاخـرى حماه والمعره، ثم قـرر السلطان مـع أخيه العادل أن يـأخذ هـو تلك البـلاد وينـزل عن اقطـاعـاته بمصر، ونصـف خـاصه ،ففعـل واستزاد قلعـة جعبر، فامتنع الملـك الظاهـر من تسليمها حتـى استظهر ، فسـار العــادل في العشر الأول مـن جمادى الأولى وكتـب السلطـان إلى الأفضل بـالعود، فجـاء هذا راجعـا، وذهب ذلـك مسارعـا ، ووصل إلى حران والرها وعاد في آخر جمادى الآخرة ومعه ابن تقي الدين.

قال القـاضي ابن شدّاد :عاد الأفضـل منكسرا متعتبا ، فوصـل دمشق ولم يحضر إلى خدمة السلطـان، فلما اشتد خبر الفرنج سير إليـه وطلبه فما وسعه التـأخر ، فسـار إليه مـع العساكـر الواصلـة اليه مـن الشرق فلقيه السلطان وترجل له جبرا لقلبه، وتعظيما لأمره.

قـال ولما بلغ ابـن تقـي الـدين مـوجـدة السلطـان ، أنفذ إلى العـادل

يستشفع به ليطيب قلب السلطان عليه، ويقترح احد قسمين : إما حران والرهـا وسميساط ، وإمـا حماه ومنبج وسلميه والمعـرة مع كفـالة أخـوته، فـراجع العـادل السلطـان مرارا فلـم يفعـل ذلك ولم يجب الى شيء منـه، فكثرت الشفاعة اليه، فحلف لـه على حران والرها وسميساط على أنه إذا عبر الفـرات أعطي المواضـع التي اقترحهـا، ويكفل اخـوته، وتخلى عـن تلك المواضع التـي في يده، ثم التمس العـادل خط السلطان فأبـى وألح عليه فخرّق نسخة اليمين ، وانقطع الحديـث ، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطـب بمثل ذلـك من بعض أولاد اولاد أخيـه، ثم أعطـاه خطه بما استقر مـن القاعده، ثـم إن العادل التمـس من السلطان البـلاد التي كـانت بيـد ابـن تقي الـديـن بعـد انتقالـه ،وجـرت مراجعـات كثيرة في العوض عنها، فكان آخر ما استقر أنه ينـزل عن كل ماهو شامي الفرات ماخلا الكرك والشوبك والصلت والبلقـاء وخاصه بمصر بعد النزول عن خبـزه ،وعليـه في كل سنـة ستـة الاف غـرارة غلـة تحمل للسلطـان مـن الصلت والبلقاء إلى القدس.

فصل

في عزم الفرنج على قصد القدس وسببه

قال القاضي ابن شدّاد :وكان تقـدّم الى عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بـالاحتراز عند مقـاربة العـدو ، فـأقامـوا ببلبيس أيامـا حتى اجتمعـت القوافل إليهم، واتصل خبرهم بالعـدو ، ثم ساروا طالبي البلاد ، والعدو يترقب اخبارهـم ويتوصل إليهم بـالعرب المفسدين ، ولماتحقـق العدو أمر القفـل، أمر عسكـره بالانحيـاز إلى سفـح الجبل وركـب في ألف راكـب مردفين ألف راجل، فأتى تل الصافيـة فبات ،ثم سار حتى اتى ماء يقال له الحسي، فأنفذ السلطان الى القافلة ينـذرهم بنهوض العدو ويأمرهم ان يبعدوا في البرية، وركب الانكلتيز الملعون مع العرب بجمع يسير ،وسار حتى أتى القفل وطـاف حوله في صورة عربي ورآهم سـاكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره، وكانـت الكبسة قريبة الصباح ، فبغت النـاس ووقع عليهـم بخيله ورجلـه ،فكـان الشجاع الايـد القوي الـذي ركب فرسه ونجا بنفسه، وانقسم القفـل ثلاثة أقسام :قسم قصدوا الكرك مـع جماعة مـن العرب،وقسـم أوغلوا في البريـة مع جماعـة من العـرب، وقسـم استولى العـدو عليهم فسـاقهم بجمالهم وأحمالها وجميـع مامعهـم ، وكانـت وقعة شنعـاء لم يصب الاسـلام بمثلها مـن مدة مـديدة ، وتبـدّد الناس في البرية ورموا أموالهم ، وكان السعيـد منهم من نجا بنفسه، وجمع العـدو مـاأمكنـه جمعـه مـن الخيـل والبغـال والاقمشـة وسـائر أنـواع الأمـوال،وكلـف الجمالين خـدمـة الجمال، والخربنـديـة خـدمـة البغـال، والساسة خدمة الخيل، وسار في جحفـل من غنيمة يطلب عسكره ، ولقد حكـى من كـان أسيراً معهم أنـه في تلـك الليلة وقـع فيهم الصـوت أن العسكر السلطاني قـد لحقهم فتركوا الغنيمة وانهزموا ،وبعدوا عنهـا زمانا، ثـم انكشف الأمـر فعادوا ، وقـد هرب جمع مـن الاسرى ، وكان الحاكـي منهـم، وأخبر أن الاسـارى خمسمائة، والجمال تنـاهــز ثـلاثـة آلاف جمل،

ووصل العدو إلى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة، وكان يوما عظيما عندهم.

وصح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي تنقل الميرة والازواد، ورتبوا جماعة على لد يحفظون الطريق على من ينقل الميرة، وأنفذوا الكندهري إلى صور وطرابلس، وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس حرسه الله تعالى.

ولما عرف السلطان ذلك منهم عمد إلى الأسوار فقسمها على الأمراءوتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار، وأخذ في افساد المياه ظاهر القدس، فخرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلا، وأرض القدس لايطمع في حفر بئر فيها ماء معين في جميعها لأنها جبل عظيم ، وحجر صلب، وسير إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد.

قال: ولما كان ليلة الخميس تاسع عشرجمادى الآخرة أحضر السلطان الأمراء عنده ، فحضر الأمير أبوالهيجاء السمين بمشقة عظيمة، وجلس على كرسي في خدمة السلطان ، وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم وجماعة الأمراء ، ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد، فذكرت مايسر الله من ذلك ، وكان مما قلته أن النبي ﷺ لما اشتدّ به الأمر بايعه الصحابة رضوان الله عليهم على الموت في لقاء العدّو، ونحن أولى من تأسى به ﷺ والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، فلعل ببركة هذه النية يندفع هذاالعدو، فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه، ثم شرع السلطان بعد ان سكت زمانا في صورة فكر، والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، ثم شرع وقال: الحمد لله والصلاة على رسول الله ، إعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن

دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة في ذممكـم ،وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن لويتم أعنتكم ، والعياذ بالله طوى البلاد (كطي السجـل للكتاب)(١٢٩) وكان ذلـك في ذمتكم فإنكـم انتم الذين تصـدّيتم لهذا كله، وأكلتم مال بيت مـال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام.

فانتدب لجوابـه سيف الدين المشطوب وقـال: يامولانا نحـن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينـا وكبرتنا ، وعظمتنا وأعطيتنا وأغنيتنا ، وليس لنا الا رقـابنا وهي بين يديك ، والله مـايرجع احد منـا عن نصرتك الى ان يموت ، فقال الجماعة مثل ماقال، وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس وطـاب قلبه واطعمهـم ،ثم انصرفوا ، ثـم انقضى يـوم الخميس على اشدّحال في التـأهب والاهتمام حتى اذا كان العشـاء الآخرة اجتمعنا في خـدمته على العـادة وسمرنـا حتى مضـى هـزيع مـن الليل وهـو غير منبسط على عـادته، ثـم صلينا العشـاء ، وكانـت الصلاة هـي الدستـور العام فصلينـا وأخذنا في الانصراف ، فـدعاني رحمه الله وقال: أعلمـت ما الذي تجدد ؟قلـت:لا، قال : إن أبا الهيجـاء السمين أنفذ إليّ اليـوم وقال إنه اجتمـع عندي جماعة المماليك الأمـراء وأنكروا علينا موافقتنـا لك على الحصار والتأهـب له، وقالوا: لا مصلحة في ذلك فـإنا نخاف ان نحصر، ويجري علينا مثل ماجرى على أهل عكا ، وعنـد ذلك تؤخذ بلاد الاسلام جمعـا، والـرأي أن نلقـى مصـاف فـإن قـدّر الله أن نهزمهـم ملكنـا بقيـة بـلادهـم، وإن تكـن الأخـرى سلـم العسكـر ومضـى القـدس ، وقـد انحفظت بلاد الاسـلام بعساكرها مدّة بغير القـدس ،وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيـم لاتحمله الجبال ،فشق عليه هذه الـرسالة ،وأقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح وهي من الليالي التي أحياها في سبيل الله رحمه الله، وكان مما قالـوا في الرسالة: إنك إن أردتنا نقيـم فتكون معنا أو بعض أهلـك حتى نجتمـع عنده، وإلا فـالأكراد لايـدينون لـلأتراك، والأتراك لايـدينون لـلأكراد ، وانفصـل الحال على ان يقيم مـن أهله مجد

الـديـن بن فـرخشـاه صـاحـب بعلبك ، وكـان رحمه الله : يحدّث نفسه بـالمقام، ثـم منعـه رأيـه عنه لما فيـه مـن خطـر على الإسلام، فلما قـارب الصبح أشفقـت عليه وخاطبتـه في أن يستريح سـاعة لعل العين تـأخذ حظهـا من النـوم ، وانصرفـت عنـه إلى داري ، فماوصلت إلا والمؤذن قـد أذن ، فأخـذت في أسباب الـوضوء ، فما فـرغت إلا والصبـح قد طلـع ، وكنت أصلي الصبـح معه في غالب الأحـوال ، فعدت إلى خدمتـه ، وهو يجدد الوضـوء فصلينا ، ثـم قلت له: قـد وقع لي واقـع أعرضـه، فأذن لي فيه، فقلـت: المولى في اهتمامه وماقد حمل نفسـه من هذا الأمـر مجتهد فيما هو فيه، وقد عجـزت أسبابه الأرضية فينبغي أن يرجـع إلى الله تعالى، وهذا يـوم الجمعة وهـو أبرك أيـام الاسبوع، وفيـه دعوة مستجـابة في صحيـح الاحاديـث، ونحن في أبـرك موضـع يقدر أن يكـون فيه في يـومنا هـذا ، فـالسلطان يغتسـل للجمعـة ويتصدق بشيء خفيـة بحيـث لايشعر أنـه منـك، وتصلي بين الأذان والإقامـة ركعتين تنـاجـي فيهما ربك ،وتفـوض مقاليـد أمورك إليـه وتعترف بعجزك عما تصديـت له ، فلعـل الله يرحمك ويستجيب دعاءك .

قال :وكان رحمه الله حسـن العقيدة تام الإيمان، يتلقى الأمـور الشرعية بأكمـل انقياد وقبـول ، ثم انفصلنـا ، فلما كان وقـت الجمعة صليـت إلى جـانبـه في الأقصى وصلى ركعتين ورأيتـه سـاجـدا، وهو يـذكـر كلمات ودموعـه تتقاطر على مصـلاه رحمه الله، ثم انقضت الجمعـةبخير، فلما كان عشيتهـا ونحن في خـدمته على العـادة وصلـت رقعة جـرديك ،وكـان في اليزك يقـول فيها إ ن القـوم ركبوا بـأسرهـم ووقفـوا في البر على ظهر، ثـم عـادوا إلى خيامهـم، وقـد سيرنا جـواسيس تكشـف أخبـارهـم ،ولما كـان صبيحـة السبـت وصلـت رقعة أخـرى يخبر فيهـا أن الجواسيـس رجعـوا وأخبروا أن القوم اختلفـوا في الصعود إلى القـدس والرحيـل إلى بلادهـم، فذهـب الفرنسيسية إلى الصعود إلى القـدس، وقالوا: نحن إنما جئنـا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونـه ،وقال الانكلتيز إن هذا الموضع قد

أفسدت مياهه ، ولم يبـق حوله ماء أصلا فمن أيـن نشرب؟ قالوا: نشرب من نهر نقوع وبينـه وبين القدس مقدار فرسخ ، فقال: كيـف نذهب إلى السقـي ، فقالـوا: ننقسم قسمين قسـم يـذهب إلى السقـي مع الـدواب، وقسم يبقى على البلد في اليزك ويكون الشرب في اليـوم الواحد مرة، فقال الانكلتيز :إذا يـؤخذ العسكـر البراني الذي يـذهب مـع الدواب ، ويخرج عسكر البلد على البـاقين ، ويذهب دين النصرانيـة، فانفصل الحال على أنهم حكمـوا ثلاثمائة مـن أعيـانهم ، وحكـم الثلاثمائة اثنـي عشر مـن أعيانهم، وحكم الاثنـا عشر ثلاثة منهم وقـد باتوا على حكم الثـلاثة فما يـأمرونهم بـه يفعـل، فلما أصبحوا حكمـوا عليهـم بالـرحيـل فلم تمكـن المخالفة ، وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة ناكصين على أعقـابهم والحمدلله ، ووقف عسكرهم إلى أن لم يبق في المنزلـة إلا الآثار ، ثم نزلوا بالـرملة وتواتر الخبر بذلـك، فركب السلطان قـدس الله روحه ، وركـب الناس ،وكـان سرور وفرح ، ولكـن السلطان خـاف على مصر لما حصلوا عليه مـن الجمال والظهر، وكـان قد ذكر الانكلتيز مثل هذا مرارا.

فصل

في تردد الانكلتيز في معنى الصلح وماجرى اثناء ذلك الى ان تم ذلك ولله الحمد

وقد ساق ذلك القاضي ابن شداد أحسن سياق، واستقصى الأمر فيه بخلاف العماد فقال: إن الانكلتيز جاء منه رسول يقول قد هلكنا نحن وأنتم والأصلح حقن الدماء، ولاينبغي أن يعتقد أن ذلك عن ضعف مني بل للمصلحة ، ولا تغتر بتأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح، ثم جاء رسوله يقول لايجوز لك ان تهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن اختي الكندهري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا واطاعوا، وإن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا اطلب منك كنيسة وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك لما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قبلت بتركها وأعرضت عنها ،ولو أعطيتني مقرعة أو قرية قبلتها وقبلتها ، فاستشار السلطان الامراء في جوابه فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح ، لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب، وعلاهم من الديون، واستقر الحال على هذا الجواب: إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فما (جزاء الاحسان إلا الاحسان)(١٣٠) ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة وبقية البلاد نقسمها ،والساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا وما بين العملين يكون مناصفة ، وعسقلان وما وراء ها تكون خرابا لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان ، فانفصل الرسول طيب القلب ، واتصل الخبر أنهم بعد وصول الرسول إليهم راحلون إلى جهة عسقلان طالبون جهة مصر .

ووصل الـرسول مـن جانب قطـب الدين بـن قليج أرسـلان يقول ان البابا قدوصل الى قسطنطينية في خلـق لايعلم عددهم الا الله تعالى، وقال الرسـول : إني قتلت في الطـريق اثنـي عشر فارسـاً، ويقول تقـدم إلى من يتسلم بلادي منـي فإني عجزت عن حفظها ،فلم يصـدّق السلطان هذا الخبر ولا أكترث به.

ثم جاء رسـول الانكلتيز يطلب أن يكون في قلعـة القدس عشرون نفراً وان من سكـن من النصارى والفرنـج في البلد لايتعرض لهم ، وأمـا بقية البلاد .فلنا منها الساحليات والوطـأة ، والبلاد الجبلية لكم ،وأخبر الرسول من عند نفسه مناصحـة أنهم قد نزلوا عن حديث القدس مـاعدا الزيارة وإنما يقولون هذا تصنعا وأنهم راغبـون في الصلح ، وأن الانكلتيز لابد له من الـرواح إلى بلده.فـأجيب بـأن القدس ليـس لكم فيـه حديـث سوى الزيارة، فقال الرسول وليس على الـزوّار شيء يؤخذ منهم ، فعلم من هذا القول الموافقة ، وأمـا البلاد فعسقلان وماوراءهـا وقراها لابّد مـن خرابه، فقال الرسول : قدخسر الملك على سورهـا مالا جزيلا ، فسأل المشطوب أن يجعل مزارعها وقـراها له في مقابلة خسارتـه ، فأجاب السلطان : وإن الداروم وغيره يخرب ويكون بلـدها مناصفة ، وأما باقـي البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا في قرية كانت مناصفة ، ثم جاء الرسـول يقول: الملك يسـألك ويخضع لـك في أن تترك له هذه الأمـاكن الثلاثـة عامـرة ، وأي قدر لها عند ملكـك و عظمتك ، ومـاسبب اصراره عليهـا إلا أن الفـرنـج لم يسمحـوا بها ، وهو قـد تـرك القـدس بـالكليـة لايطلب أن يكون فيه لارهبان ولاقسـوس إلا في القمامة وحدها، فتترك له انت هـذه البلاد ويكـون الصلح عامـا فيكون لهم كـل مافي أيـديهم من الداروم إلى أنطاكيـة، ولكم مافي أيديكـم ، وينتظم الحال ويروح، وإن لم ينتظم الصلح فالفرنج ما يمكنونه من الرواح ولايمكنه مخالفتهم.

قال القـاضي: فانظر إلى هذه الصنـاعة في استخلاص الغـرض باللين

تارة، وبالخشونة أخرى، وكان لعنه الله مضطراً إلى الرواح ، وهذا عمله مع اضطزاره والله المسؤول في أن يكفي المسلمين مكره، فما بلوا بأعظم حيلة ولا أشد اقداما ً منه، فأجابه السلطان بأن أنطاكية لنا معهم حديث فيها ورسلنا عندهم فإن عادوا بها نريد أدخلناهم في الصلح وإلا فلا ، وأما التي سألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه، وإلا فلا قدر لها، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابله ماخسر عليه لد في الوطأة ، ثم عاد الرسول وقال: إن الملك قال: لايمكننا أن نخرب من عسقلان حجرًا واحدا ً ولايسمع عنا في البلاد مثل ذلك، أما البلاد فخذوها معروفة لامناكرة فيها ،وعند ذلك تأهب السلطان للخروج إلى جهة العدو ، وإظهار القوة وشدة العزم على اللقاء ، وبلغه في العاشر من رجب أن الفرنج خذلهم الله قد رحلوا طالبين نحو بيروت،فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الجيب ، وجاء العادل من الشرق والظاهر من حلب ورحل من الجيب الى بيت نوبة،ثم رحل إلى الرملة فنزل بها على تلال بين الرملة ولدّ وركب جريدة حتى أتى يازور وبيت جن وأشرف على يافا ، ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره في الميمنة ولده الظاهر، وفي الميسرة أخوه العادل ،وركب المنجنيقات،وزحف عليها، فأرسل العدو رسولين نصرانيا وفرنجيا يطلبان الصلح، فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته، فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت تاسع عشر رجب، فإن جاءتهم نجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقر، فأبى السلطان الإنظار، وأمربالنقب فحشي وأحرق ،فوقع بعض البدنة فوضع العدو أخشابا عظيمة خلف النقب فالتهب فمنع من الدخول في الثلمة، وقاتلت خارج الأبواب إلى الليل ، فلما أصبحوا وقعت البدنة فعلا غبار مع الدخان، فأظلم الأفق ،وما تجاسر أحد على الولوج خوفا من اقتحام النار، فلما انكشفت الغبرة ظهرت أسنة قد نابت مناب الأسوار،ورماح قد سدت الثلمة حتى عن نفوذ الأبصار، ورأى الناس هولا ً عظيما ً من صبر القوم وثباتهم ، ولقد رأيت رجلين على ممشى السور، يمنعان المتسلق فيه

من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل فقام رفيقه متصديا لمثل مالحقه أسرع من لمح البصر، بحيث لم يفرق بينهما إلا نافذ بصير، ولما رأى العدو ما قدآل الامر إليه سيروا يطلبون الأمان ، فقال رحمه الله : الفارس بفارس، والتركبلي بمثله، والراجل بالراجل، والعاجز فعلى قطيعة القدس، فنظر الرسول ورأى القتال على الثلمة اشدّ من اضرام النار، فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود فقال ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ولكن ادخل إلى أصحابك فقل لهم ينحازون إلى القلعة، ويتركون الناس يشتغلون بالبلد فما بقي دونه مانع، ففعلوا وانحازوا إلى قلعة يافا بعد أن قتل منهم جماعة،ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالاً كثيرة وأثاثاً، وبقايا قماش مانهب من القافلة المصرية ، واستقرّت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان ، وكان قايماز النجمي في طرف الغور لحمايته من عسكر العدو الذي بعكا فوصل منه كتاب يخبر فيه أن الانكلتيز الملعون لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت، وعاد على قصد يافا ، فاشتدّ عزم السلطان على تتمة الأمر وتسلم القلعة ،وكنت ممن لم ير الأمان لأنه قد لاح اخذهم ، وكان الناس لهم مدّة لم يظفروا من العدو بمغنم يوثبهم عليه، فكان أخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر، غير أن الأمان وقع واتفق الصلح فكنت بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدّو من القلعة وتسلمها خوفاً من لحوق النجدة، وكان السلطان يشتد حرصه على ذلك، غير أن الناس قد أقعدهم التعب عن امتثال الأمر وأخذ منهم الحديد، وشدّة الحر ودخان النار بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة، وسمعنا بوق الفرنج في السحر ، فعلمنا بوصول النجدة فسيّر السلطان معي عز الدين بن جرديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني وعدل الخزانةشمس الدين وقال: امض إلى الملك الظاهر وقل له يقف ظاهر الباب القبلي ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة وتخرجون القوم وتستولي على ما فيها من الأموال والأسلحة وتكتبها بخطك إلى الظاهر،

وهو ظاهر البلد وهويسيرها إلينا ففعلنا ،ودخلنا القلعة وأمرنا الفرنج بالخروج فأجابوا وتهيئوا ، فقال جرديك : لاينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفوهم ،وكان الناس قد داخلهم الطمع في البلد وأخذ يشتد في ضرب الناس وإخراجهم وهم غير مضبوطين بعدّة ولامحصورين في مكان فكيف يمكن إخراجهم ، وطال الأمر إلى أن علا النهار، وأنا ألومه وهو لايرجع عن ذلك ، والزمان يمضي ، فلما رأيت الوقت يفوت قلت له: إن النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في إخراجهم فأجاب وأخرجنا خمسة وأربعين نفراً بخيولهم ونسائهم، وسيرناهم ، ثم اشتدّت أنفس الباقين وحدثتهم نفوسهم بالعصيان،وكانوا استقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا أن لانجدة لهم فيها، ولم يعلموا أن الانكلتيز مع القوم وراءهم قد تأخروا عن النزول إلى علو النهار، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم بعد ذاك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركباً فقويت نفوس الباقين في الحصن ، فظهرت منهم أمارات العصيان ودلائله فقلت لاصحابنا :خذوا حذركم ، فقد تغيرت عزائم القوم فما كان إلا ساعة بحيث صرت خارج البلد، وقد حمل القوم من القلعةوأخرجوا من كان في البلد من الأجناد، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة ، وبقي في بعض الكنائس جماعة من رعاع العسكر مشتغلين بما لايجوز فهجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا،ولما عرف السلطان أمر الناس زحف، وعاد للحصار كما كان وحشروا العدو في القلعة ، واستبطئوا نزول النجدة إليهم وخافوا خوفاً عظيماً ، فأرسلوا بطركهم والقسطلان إلى السلطان يعتذران مما جرى ويسألانه القاعدة الأولى ، وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحونا ببيارق المسلمين ورجالهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير، فلما رأى من في القلعة شدّة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها

بلغت نيفا وخمسين مركبا منها خمسة عشر من الشواني ، علموا أن النجدة قد ظنوا أن البلد أخذ، فوهب رجل منهم نفسه للمسيح ، وقفز من القلعة إلى المينا ، وكان رملاً فلم يصبه شيء وعدا إلى البحر فحدث الانكلتيز بالحديث فما كان إلا ساعة حتى نزل كل من في الشواني إلى المينا، هذا كله وأنا أشاهد ذلك فحملوا على المسلمين وأخرجوهم من المينا فقبض السلطان على الرسل وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور، فرحل الناس وتخلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوا من يافا، وخرج الانكلتيز إلى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه لتعظيم سواده، ثم اجتمع به جماعة من المماليك طلبهم وحضر الحاجب أبو بكر العادلي، وكان قد صادق جماعة من خواص المماليك ، ودخل معهم دخولا عظيماً بحيث كانوايجتمعون به في أوقات متعددة ، وكان قد صادق من الأمراء جماعة كبدر الدين دلد رم وغيره، فلما حضروا عنده جدّ وهزل ومن جملة ماقال :هذا السلطان عظيم، وما في الارض للاسلام ملك أكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي، ووالله مالبست لأمة حربي ولا تأهبت لأمر وليس في رجلي إلا زربول البحر، فكيف تأخرتم، ثم قال: والله انه لعظيم، والله ماظننت أنه يأخذ يافا في شهرين، فكيف أخذها في يومين، ثم قال لأبي بكر الحاجب: تسلم على السلطان وتقول له:بالله عليك أجب سؤالي في الصلح فهذا أمر لابد له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم ، فأرسل السلطان إليه في الجواب: إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن فقد خربت هذه يافا فيكون من قيسارية إلى صور، فأرسل الانكلتيز يقول إن قاعدة الافرنج إنه إذا أعطى واحد الواحد بلداً صار تبعه وغلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً ، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي، فقال السلطان: حيث دخلت هذا

المدخل فأنا أجيبك على أن تجعل البلدين قسمين: أحدهمالك وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها، ثم رتب السلطان اليزك بيازور، وأمر بخرابها وخراب بيت جن ورتب النقابين لذلك ، وسار إلى الرملة ، فغادر رسول الانكلتيز يشكر على إعطائه يافا، ويجدد السؤال في عسقلان ، ويقول له إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتي ههنا، فأجابه السلطان في الحال وقال: أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأماتشتيته ههنا.فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة، وإذاأقام أيضا إن شاء الله تعالى، وإذا سهل عليه ان يشتي ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، مايسهل عليّ أن أشتي وأصيف في وسط بلادي وعندي أهلي وأولادي، ويأتي إليّ ما أريده وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا، وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير الذي يكون في الصيف، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء،ثم جاء رسول يقول:كم أطرح نفسي على السلطان وهو لايقبلني، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادي والآن فقد هجم الشتاء، وتغيرت الأنواء، وعزمت على الاقامة وما بقي بيننا حديث، ثم بلغ السلطان أن عسكر العدّو قد رحل من عكا قاصدا يافا، فسار رحمه الله فنزل على العوجا،ووصل من أخبره أن العدو دخل قيسارية ولم يبق فيه طمع، وبلغه أن ملك الانكلتيز نازل خارج يافا في نفر يسير، فوقع له أن يكبسه فأتاه فوجد خيمه نحو عشر خيم، فحملوا عليهم فثبتوا ولم يتحركوامن أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب، وكانوا على ا لموت أصبر، فارتاع المسلمون منهم ووجموا من ثباتهم، وداروا حولهم حلقة،وكانت عدة الخيل سبعة عشر، وقيل تسعة والرجالة ثلاثمائة أو أكثر ، فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة، ودار على الأطلاب بنفسه يحثهم على الحملة، ويعدهم بالحسنى على ذلك، فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الظاهر.

قال : وبلغني أنه قال له الجناح أخو المشطوب: قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون ، وكان في قلوب العسكر من صلح السلطان على يافا شيء حيث فوتهم الغنيمة، فلما رأى السلطان ذلك أعرض عن القتال وغضب وسار إلى طرف يازور .

قال: ولقد بلغني أن الانكلتيز أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ، فلم يتعرض له احد.

قلت: ووصل من الفاضل كتاب من دمشق يقول فيه: «الا تنصروه فقد نصره الله» (١٣١) وجواب السلطان لهم عن ملك الانكلتيز الا تقتلوه فقد قتله الله، ولم يزل لطيفا، ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلاً وخفيفاً ، ومن كان الله عليه لم يكن قوياً، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفاً.»

قال القاضي: ثم سار السلطان الى النطرون، ثم إلى القدس فنظر إلى العمائر ورتبها ، ثم عاد إلى النطرون وتوافت إليه فيه العساكر، ووصل علاء الدين ابن صاحب الموصل، ثم قدم عسكر مصر وفيهم سيف الدين يازكوج وجماعة الأسدية في خدمة ولده الملك المؤيد مسعود، ووصل المنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين فلقيه الظاهر إلى بيت نوبة، ودخل به على السلطان، فنهض واعتنقه وضمه إلى صدره وغشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الأمر فبكى الناس لبكائه ساعة، ثم باسطه وسأله عن الطريق، وكان معه عسكر جميل فقرّت عين السلطان به ، ثم سار ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة، ولما رأى السلطان العساكر قد اجتمعت جمع أرباب الرأي وقال: ان ملك الانكلتيز قد مرض مرضا شديدا والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك، ونفقاتهم قد قلت، و أرى ان نسير الى يافا فإن وجدنا فيها طمعا وإلا عدنا الى عسقلان فما تلحقها النجدة الا وقد بلغنا منها غرضا، فوافقوه على ذلك، فأرسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان

حتى يكونا قريبا من يافا، هذا ورسل الانكلتيز لاتنقطع في طلب الفاكهة والثلج، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ، وكان السلطان يمدّه بذلك ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل، والذي انكشف له أن فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثر ومائتي فارس على قول المقلل، وان الكندهري تردد بينه وبين الفرنسيسيةفي مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولا واحداً،فسار السلطان إلى جهة الرملة وجاء رسول الانكلتيز مع الحاجب أبي بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والثلج، وذكر أبو بكر أنه انفرد به وقال له: قل لأخي —يعني —الملك العادل: يتبصر كيف نتوصل الى السلطان في معنى الصلح، ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي ويبقى هو ههنا مع هذه الشرذمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم، فليس غرضي الإقامة جاهي بين الفرنجية، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لي منه عوضا عن خسارتي على عمارة سورها، فأرسل السلطان الى العادل :إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم فإن العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار والنفقات قدنفدت، ثم ان الانكلتيز نزل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك ، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان، وذكر يافا وعملها ، وأخرج الرملة منها ولدّ ومجدل يابا، ثم ذكر قيسارية وأعمالها،وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، وأخرج منه الناصرة وصفورية، وأثبت الجميع في ورقةوقال للرسول : هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فإن صالحتم على ذلك فمبارك وقد اعطيتكم يدي، فينفذ الملك من يحلف في بكرة غد، وإلا فتعلم أن هذا تدفيع ومماطلة، وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خرابا وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها، واشترط دخول بلاد الاسماعيلية، واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس في الصلح، وشرط أن تكون الرملة ولد بين المسلمين وبينهم مناصفة، واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ورضي الاسبتارية والداوية وسائر

مقدمي الافرنجية بذلك، ولم يحلف الانكلتيز ، بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذر بأن الملوك لايحلفون ، وقنع من السلطان بمثل ذلك، ثم حلف الجماعة، فحلف الكندهري ابن اخته المتخلف عنه في الساحل، وباليان ابن بارزان وابن صاحبة طبرية، ووصل ابن الهنفرى وابن بازران وجماعة من مقدميهم إلى السلطان فأخذوا يده على الصلح واقترحوا حلف جماعة: العادل، والأفضل ، والظاهر، والمنصور، وسيف الدين المشطوب، ودلدرم ، وابن المقدم، صاحب شيزر، وكل مجاور لبلادهم، وحلف صاحب انطاكية وطرابلس، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين.

قال: ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبدي الطاعة والموافقة، وتسيير العسكر، وحضررسول الكرج وذكر فصلا في معنى الديارات التي لهم في القدس، وعمارتهاوشكوا من أنها أخذت من أيديهم، ويسأل ردها إلى أيدي نوابهم، وورد رسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية.قال العماد: وعقدت هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر، وجعل لهم من يافا الى قيسارية إلى عكا الى صور، وادخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، اولها مبتدأ أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان.

قال: وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والاسلحة والأقوات ليتقووا بها على فتح القدس، لتكون لهم ظهرا وعونا لقربها من البيت المقدس.

قلت : ومن الألفاظ الفاضلية:«وقد فعلت الاقدار في رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة، وكيف تشنع ملك انكلتيز بالغدر وهو لعنه الله قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه في أهل عكا نهارا

جهـارا، وشهد بخـزيه وفضيحتـه المسلمـون والنصارى ، وغـدر الفرنـج معلوم:

إذا غـــدرت حسنـــاء أوفـــت بعهـــدهـــا
ومـــن عهـــدهـــا أن لا يـــدوم لها عهـــد

القـوم هادنـوا لما ضعفوا، ويفسخـون اذا قووا، ونحـن ننتظر في ملـك الانكلتيز ماتفصـح عنه المقادير في أمره إمـا الهلاك ، ولا بأس بها، فيلقى الأحبة المركيس، والدوك،وملك الالمان ، ويؤنـس في النار غربتهم، ويكثر عدتهم، وإمـا أن يعافى ،فهـو بين أمرين إمـا أن يرجـع إلى لعنة الله وإلى مروءة البحـر في تغريقـه وإما أن يقيـم، فهناك قـد أبدى الشر نـاجذيـه، ونكـص الملعون مـن الوفـاء على عقبيه، وانتظـر الفرصـة لينتهز، والعـورة ليثب».

ومماقيـل في هذه الهدنـة أبيات مـن قصيدة نجـم الديـن يوسـف بن الحسين بن المجاور، والتي تقدّمت في فتح البيت المقدس وهي:

يـــاصـــاح قـــل لـــلانكلتيـــز الكلـــب دع
عنـــك الجنـــون وخـــذ مقـــالـــة منصـــف

القـــدس مـــا فيـــه لسرجـــك مطمـــع
كـــلا ولا نـــور الالـــه بمنطفـــي

والمسجـــد الأقصـــى فعنـــه تقـــص مـــن
وقـــع الـــدبـــابيـــس الأليمـــة تعـــرف

واستفـــت نفســـك فهـــي أخبـــث نـــاصـــح
واتـــرك متـــابعـــة اللجـــاج المتلـــف

واعجـــب لـــرمـــح بـــالـــرؤوس معمـــم
واطـــرب لسيـــف بـــالـــدمـــاء مغلـــف

قـــد قلـــت لما قيـــل صلـــح قـــد جـــرى
هـــــذا حـــــديـــــث مخرّف ومحرّف

سلـــف تـــولى السيـــف عقـــد شروطـــه
أحبـــب بـــه مـــن مسلـــم ومسلـــف
ظنـــــوه سلـما وهـــــو في أرواحهــــم
سلـــــم إلى أجـــــل لهم متخلـــــف

وذكر أبو الحسن الساعاتي الانكلتيز هذا في قصيدة مدح بها السلطان رحمه الله يقول فيها:

منعـــت ظبـــاء المنحنـــى بـــأســـوده
وأشـــدّ مـــا أشكـــوه فتـــك ظبـــائه
فعلـــت بنـــا وهـــي الصـــديـــق لحاظهـــا
كظبـــى صـــلاح الـــديـــن في أعـــدائه
ســـل عنـــه قلـــب الانكتـــاز فـــإن في
خفقـــاتـــه مـــاشئـــت مـــن أنبـــائه
لـــولاك أم البيـــت غير مـــدافـــع
ولســـال سيـــل نـــداه في بطحـــائه
وبكـــت جفـــون القـــدس ثـــانيـــة دمـــا
لترنـــم النـــاقـــوس في أفنـــائه

فصل

فيما جرى بعد الهدنة

قال القاضي : أمر السلطان أن ينادى في الوطاقات والأسواق : ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل في بلادهم فليفعل، وأشاع رحمه الله ان طريق الحج قد فتح من الشام، ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس، وكنت حاضر ذلك جميعه، وأمر أن يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أ مير كبير، ولإخراج الفرنج منها ، ويكون معهم جماعة من الفرنج الى حين وقوع الخراب في السور خشية من استبقائه عامراً، ففعل ذلك ، وخربت،وكان يوم الصلح يوما مشهودا غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لايعلمه الاّالله تعالى، والله العالم ان الصلح لم يكن من ايثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصلح: «أخاف أن أصالح وما أدري ايش يكون مني، فيقوى هذا العدو وقد بقي لهم هذه البلاد فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قله—يعني حصنه—وقال: لا أنزل ويهلك المسلمون» فهذا كلامه،وكان كماقال رحمه الله، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسأم العسكر ومجاهرتهم بالمخالفة، وكان ذلك مصلحة علمها الله تعالى، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح،ولو كان اتفق ذلك في اثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر، فما كان الصلح إلاّتوفيقا وسعادة من الله رحمة الله عليه.

ورحل السلطان الى النطرون واختلط العسكران، وذهب جماعة من المسلمين الى يافا في طلب التجارة، ووصل خلق عظيم من العدو الى القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب في ذلك، ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم الى يافا، وكان غرض السلطان بذلك ان يقضوا

وطرهم من الـزيارة ويرجعوا الى بلادهم،فيأمـن المسلمون شرهم، ولما علم الملك كثـرة من يزور منهـم صعب عليـه ذلك وسير الى السلطان يسـأله منع الزوار، واقترح ان لايـأذن لأحد إلا بعد حضور علامة مـن جانبه او بكتابه، وعلمـت الفرنجية ذلك فعظم عليها واهتمـوا في الحج، فكان يرد في كـل يوم منهـم جموع كثيرة مقـدّمـون وأوساط وملـوك متنكـرون، وشرع السلطـان في إكـرام مـن يـرد ومدّ الطعـام لهم ومباسطتهـم ومحادثتهـم، وعـرفهم انكـار الملك ذلـك، وأذن لهم السلطان في الحج وعـرفهم انـه لم يلتفت الى منع الملك مـن ذلك ، واعتذر الى الملك بأن قومـا وصلوا من ذلك البعـد ويُسر لهم زيارة هـذا المكان الشريـف لااستحل منعهـم، ثم اشتدّ المرض بالملـك فرحل ليلة الاربعـاء التاسع والعشرين مـن شعبان، وقيل انه مات ، وسـار هو والكندهري وسائر المقدّمين الى جـانب عكا، ولم يبـق في يافـا إلاّ مريـض أو عاجـز و نفر يسير، ثـم أعطى السلطـان للناس دستـوراً، فسار عسكـر إربل والموصـل وسنجار والحصـن ،وأشاع رحمه الله أمر الحج، وقوي عزمه على براءة الذمة منه.

قال القـاضي: وكان هـذا مما وقع لي وبـدأت بالاشـارة به في يـوم تتمة الصلح ، ووقع منه رحمة الله عليه ، وقعا عظيما ، وأمـر الديوان أن كل من عزم على الحج من العسكر يثبت اسمه حتـى يحصي عدة من يدخل معنا الطريق ، وكتـب جرائد بما يحتاج إليه في الطريـق من الخلع والأزواد وغير ذلك وسيرهـا إلى البلاد ليعدوها ، ورحـل من النطرون رابع شهـر رمضان وسار حتى أتى مـار صمويل يفتقد أخاه العادل وكان مـريضا بها فوجده قد سار إلى القدس ، وكان قد انقطـع عن أخيه مدة بسبب المرض، وكان قد تماثـل فعرف بمجيء السلطان إلى مـار صمويل لعيادتـه فحمل على نفسه وسـار حتى لقّيـه بذلك المكـان ، وهو أول وصـوله ولم ينـزل بعد ، ونزل وقبـل الأرض وعاد ركب فاستـدناه وسألـه عن مزاجه، وسـارا جميعا حتى أتيا القدس بقية ذلك اليوم .

وقـال العماد: عاد السلطـان بعـد السلم إلى القـدس لتفقـد أحوالـه، وعرض رجالـه واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها، وتخليـد آثاره وتحسينها، وتعميـق خنادقـه ، وتوثيـق طرائقـه، وزاد في وقف المدرسة (١٣٢) سوقـا بدكاكينهـا وأرضا ببساتينها ، وكذلـك رتب أحوال الصوفيـة في رعايتها ، والـوقـف الكـافـل بكفـايتهـا ، وعين الكنيسـة التـي في شـارع قمامـة للبيمارستـان، ونقل إليـه العقـاقير والأدوية مـن جميـع الأنواع والألـوان ، وأدار سـور القدس على قبـة صهيـون وأضافهـا إلى المدينـة، وأمر بـادارة الخنادق على الجميع، وصمـم العزم على الحج فلم يوافقه القـدر، وتأسف على فواته بعد أن قـدم مقدماته وأقام شهر رمضـان ، وأفاض الإحسان ، وفوض ولاية القدس كعمل الخليل ، وغزة والداروم، وعسقلان.

قلت: ولما بلغ القـاضي الفاضل من قبل السلطـان أنه عازم على الحج كتب إليـه مشيرا بتبطيله:« إن الفرنج لم يخرجـوا بعد من الشـام ، ولاسلوا عن القدس، ولاوثق بعهـدهم في الصلح، فلا يؤمن مـع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا، وسفـر سلاطيننا سفراً مقدرا معلومـا مدة الغيبة فيه أن يسروا ليلـة فيصبحوا القـدس على غفلة ، فيـدخلوا إليـه ، والعياذ بالله ويفـرط من يد الإسلام ويصير الحج كبيرة من الكبـائر التي لاتغفر ومن العثرات التي لاتقال» ثم قال: « وحـاج العراق وخراسان أليس هم مائتي ألـف وثلاثمائة ألف وأكثر ، هـل يؤمن أن يقال قـد سار السلطان لطلب ثار وسفك دم وتشويش موسـم ، فاقعدوا والا فيكون تاريخ سوء، أعوذ باللـه منه، ما هذه الشناعـة ممتنعة الوقوع ، ولامستبعـدة من العقول السخيفة ، فينعم المولى بتأمـل ما أنهاه المملوك مستورا فإنه يسـأل مولانا أن لايشارك أحـدا فيما يكتبه لا مـن مهم ، ولا من غير مهـم، يا مـولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقـرب به إلى الله وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظـالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقـوع القطر، ومن تسلـط المقطعين على المتقطعين مـا لاينـادي وليـده، وفي وادي بـردى والـزبداني مـن الفتنة القـائمة والسيـف الذي يقطـر دما مـالا زاجر لـه،

وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهات إقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها ، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل، وفرع من غير أصل ،وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير ، وعرضت للمولى شواغل دونه ، ومشت الأحوال مشيا على ظلع ، فلما خلت النوب أعاذ الله من عودها ، كان خلو بيت المال أشد ما في الشدة ، وليس المملوك مطالبا بذخيرة تحصل إنما يطلب تمشية من حيث يستقر».

قلت: ولم يزل البيت المقدس شرفه الله تعالى ملحوظا بالعمارة والتحصين من عهد السلطان رحمه الله إلى سنة ست عشرة وستمائة، فإنه خرب في المحرم منها بسبب خروج الفرنج لعنهم الله وانتشارهم في البلاد، فخيف من استيلائهم عليه، وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبوبكر بن أيوب أخو السلطان وتشتت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكني به، ورثاه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب ابن محمد المجاور بقصيدة منها :

أعينيّ لا ترقي من العبرات
صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها
توقد ما في القلب من جمرات
ويا قلب اسعر نار وجدك كلما
خبت بادّكار يبعث الحسرات
ويا فم بح بالشجو منك لعله
يروّح ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذي جل قدره
على موطن الاخبات والصلوات
على منزل الاملاك والوحي والهدى
على مشهد الابدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التي
أنافت بها في الارض من صخرات

على القبلـــــة الأولى التـــــي اتجهـــــت لها
صـــــلاة البرايـــــا في اختـــــلاف جهـــــات
على خير معمـــــور وأكـــــرم عـــــامـــــر
وأشرف مبنـــــى لخير بنـــــاة
ومـــــا زال فيـــــه للنبيين معبـــــد
يـــــوالـــــون في أرجـــــائه السجـــــدات
عفـــا المسجـــد الأقصـــى المبـــارك حـــولـــه الـــ
ـــــرفيع العماد العـــــالي الشرفـــــات
عفـــا بعـــد مـــا قـــد كـــان للخير مـــوسما
وللبر والاحســـــان والقـــــربـــــات
يـــوافي اليـــه كـــل أشعـــث قـــانـــت
لمولاه بـــــر دائم الخلـــــوات
خـــلا مـــن صـــلاة لا يمـــل مقيمهـــا
تـــوشـــح بـــا لآيـــات والســـورات
خـــلا مـــن حنين التـــائبين وحـــزنهم
فمـــن بين نـــوّاح وبين بكـــاة
لتبـــك عليهـــا مكـــة فهـــي أختهـــا
وتشكـــو الـــذي لاقـــت إلى عـــرفـــات
لتبـــك على مـــا حـــل بـــالقـــدس طيبـــة
وتشرحـــه في أكـــرم الحجـــرات
لقـــد أشمتـــوا عكـــا وصـــور بهدمهـــا
ويـــاطـــا الماغـــادتها بشمات
لقـــد شتتـــوا عنهـــا جماعـــة أهلهـــا
وكـــل اجتماع مـــؤذن بشتـــات
وقـــد هـــدمـــوا مجد الصـــلاح بهدمهـــا
وقـــد كـــان مجدا بـــاذخ الغـــرفـــات
وقـــد أخمدوا صـــوتـــا وصيتـــا أثـــاره
لهم عظـــم مـــا والـــوا مـــن الغـــزوات

أمـــا علمـــــت أبنـــاء أيـــوب أنهم
بمسعـــاتـــه عـــدوا مــــن السروات
وإن افتتـــاح القـــدس زهـــرة ملكهـــم
وهـــل ثمـــر إلا مـــن الــــزهـــرات
فمــــن لي بنـــوّاح ينحـــن على الـــذي
شجـــاني بـــأصـــوات لهن شجـــاة
يـــرددن بيتـــا للخـــزاعـــي قـــالـــه
يـــؤبـــن فيــــه خيرة الخيرات
مـــدارس آيـــات خلـــت مـــن تـــلاوة
ومنـــزل وحـــي مقفـــر العـــرصـــات(١٣٣)

قلت: هذا البيت الأخير لدعبل بن علي الخزاعي في أول قصيدة يرثي بها أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه السنة التي توفي فيها العادل قبل التي خرب فيها القدس، هي السنة التي نزل فيها الفرنج خذلهم الله على ثغر دمياط حرسه الله تعالى، وهي المرة الأولى في زماننا وأقاموا عليه إلى أن استولوا بعد أن جرى لهم نحو مما جرى لهم على عكا، ثم أخذه المسلمون منهم، وقتلوا وأسروا ثم إن الفرنج استولوا عليه صلحا في سنة خمس وعشرين وستمائة وشرعوا في بناء طائفة منه، ثم أخرجوا منه عنوة مرتين أخرجهم في إحدى المرتين الملك الناصر صلاح الدين داود بن المعظم شرف الدين عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقال فيه حينئذ بعض شعراء العصر، هذا الشاعر هو الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح رحمه الله تعالى:

المسجـــد الأقصـــى لـــه عـــادة
ســـارت فصـــارت مثـــلا ســـائرا
إذا غـــدا للكفـــر مستـــوطنـــا
أن يبعـــث الله لــــه نـــاصرا
فنـــاصر طهـــــره أوّلا
ونـــاصر طهـــره آخـــرا

- ٨٨٥٩ -

ثم استولى الفرنج أيضا على طبرية وعسقلان، ثم أخذتا منهم عنوة في شهـور سنة خمس وأربعين وستمائة في دولـة الملك الصـالح نجـم الديـن أيوب بن الملك الكامل ناصر الديـن محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقـد استولـوا أيضـا على الشقيف وصفـد، والله يسهـل عودهما إلى أهـل الاسلام ، ويؤيد الدين الحنيفي على ممر الايام .

فصل

في مسير السلطان رحمه الله من القدس إلى دمشق

قال العماد: ولما استتم السلطان النظر في أحوال القدس وعمارته، وفوض القضاء والنظر في الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع ابن تميم، وعول منه على أمين كريم، آثر أن يعود إلى دمشق على الثغور عابرا، وفي أحوالها ناظرا، وكان عزم على الحج، وصمم، وكتب إلى مصر واليمن بما عليه عزم، وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات، والثياب والكسوات، فقيل له: لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك، وعرفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر أنت منه بري، ويعلم أن قصدك في المضي مضى والوقت قد ضاق، ويبلغ الخبر الآفاق، ثم هذه البلاد إذا سافرت تركتها على مابها من الشعث، وهذه المعاقل التي في الثغور حفظها من أهم الأمور، ولا تغتر بعقد الهدنة، فإن القوم على ترقب المكنة والغدر دأبهم ، فمازال به الجماعة حتى حلوا عقد عزمه على الحج فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعمارته .

ثم خرج من القدس يوم الخميس خامس شوّال وجاوز ناحية البيرة، وبات على بركة الداوية، ونزل يوم الجمعة ظاهر نابلس، وأقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالم ووظف مكارم ، وكان بها سيف الدين المشطوب، وشكا أهلها نوائب من جهته تنوب، فأزال الشكوى، وأزاح البلوى، ورحل بعد ظهر السبت وبات عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسه، ورتعنا في مروجها الأنيسة، وأصبحنا راحلين ونزلنا ضحوة على جينين، وهناك ودعنا المشطوب ، وداع الأبد فإنه انتقل بعد أيام إلى رحمة الواحد الصمد ، وجئنا ضحوة الإثنين إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية فأبصر قللها العالية ، وقال: الصواب

بناء هذه وتخريب كوكب، وصعد نظر رأيه فيها وصوّب، ورحل ضحوة الثلاثاء ونزل بطبرية وقت العشاء، وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر وتلقيناه بالبشر والبر ، ووصل مع السلطان إلى دمشق وأقام إلى أن خلص أصحابه من الأسر ، وتوجه إلى مصر وقد ضاق نفسه ببذل ماله ، وخرج من ثروته ودخل في اقلاله .

قال: وتوالت تلك الليلة الأمطار وواصلها النهار، فأقمنا يوم الأربعاء ، وسرنا بكرة الخميس ونزلنا بسفح الجبل الذي عليه قلعة صفد، وصعد إليها وكمل فيها الرجال والعدد، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة إلى قلعة تبنين، وجاز يوم الأحد على هونين، وخيمنا على عين الذهب عند نزولنا من الجبل، واجتمعنا تلك الليلة بالثقل، ثم سرنا إلى مرج عيون مرحلة، وإلى جسر كامد منزلة، وطريقنا بين عمل صيدا ووادي التيم ، وطلعنا من تلك الأودية والشعاب طلوع الأنوار من الغيم.

وقال في الفتح: على صيدا يسرة ، وعمل وادي التيم يمنة، وعرسنا على مرج تلفياثا مقابل مرج القُنعبه، ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة، ورحلنا يوم الثلاثاء إلى البقاع فخيمنا على جسر كامد ويوم الأربعاء بناحية قب الياس، ودخل يوم الخميس بيروت وبها واليها عز الدين سامه فاهتم له بالكرامه، ولما أراد عن بيروت الانفصال في الحادي والعشرين من شوّال قيل له : إن الابرنس الأنطاكي بيمند ، مع عصابة من الوفد قد وصل إلى الخدمة مستمسكا بحبل العصمة ، فثنى عنانه ونزل وأقام وما ارتحل ، وإذن للابرنس في الدخول وشرفه في حضرته بالمثول ، وقرّبه وآنسه، ورفع مجلسه وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونيا ، فوهب كلا منهم تشريفا سريا ، وأجزل له ولهم العطاء، وأبدى بهم الاعتناء، وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار ، وخص أصحابه بمبار ، وأعجبه استرساله إليه ودخوله بغير أمان عليه ، فلا جرم تلقاه بالاحسان ووافقه ، وودعه يوم

الأحـد وفارقـه، وكـانت الأثقـال قـد انتقلت مـن قـب الياس إلى مـرج قلميطيه من البقاع فبـات في المخيم ، وعبر يوم الإثنين عين الجرّ إلى مرج يبوس ، وقد زال البـوس ، وهناك توافد أعيـان دمشق وأماثلها وأفـاضلها وفواضلها ،ونزلنا يوم الثلاثاء بـالعرّاده ، وجرى الملتقون بالطرف والتحف على العاده، وأصبحنـا يوم الاربعاء إلى جنة دمُشـق داخلين بسلام آمنين، لو لا أننا غير خالـدين ، وكانت غيبة السلطان عنهـا طالت أربع سنين، فأخرجت دمشـق أثقالها ، وأبرزت نساء ها ورجالها، فكانـت يوم الزينه، وخرج كل من في المدينة، وحشر الناس ضحى وأشاعوا استبشاراً وفرحا ، وكانت غيبة السلطان في الجهاد طالت، فـاهتزت بقدومه واختالت،وقرت بفضائله الأعين وأقرت بفواضله الألسـن ، وأبدوا وجوه الاستبشار وألسن الاستغفار وأعين الاستعبـار ، ورفعوا أيـدي الابتهال بصالـح الدعـاء عن خالص الـولاء، وجاء ربيع الفضل في فصل الخريـف، واتصل تليد الجد بـالطريـف، واتسـع فضاء الفضـائل ، وارتـدع جـاه الجاهل ، وحـل في القلعة حلـول الشمس في بـرجها ، وأخـذت بحار سماحـه في موجهـا ، وجلـس في دار العدل فـأجـاب وأجار، وأنـال وأنـار ، وخـرجت السنـة والسلطان في أسنى سنائه، وأبهى جـلاله ، وأجلى بهائه والناس راتعون في ريـاض نعمائه ، ورسـل الممالك الغـربيـة الشرقيـة يخطبـونه ويطلبـونـه ، وينتظـرون عزمـه ويرقبـونه ، وهـو يعدهـم بانحسـار الشتاء وانكسـاره ، وابتسـام ثغـر الـرّبيـع وافتراره، وأقمنـا على هـذا العـزم إلى آخـر السنـة، والسلطان مشتغـل بالصيد والقنص ، منتهـز من العمر للفـرص ، وقرب العلماء وأكـرم الفضـلاء ، وفضـل الكرمـاء ، ومـا كـان أحسـن إلى الحق أصغاه ، وأشرع للباطل ألغاء.

وقـال القاضي أبـو المحاسـن: أقام السلطـان بالقـدس يقطع النـاس ويعطيهم دستـوراً، ويتأهب للمسير إلى الديـار المصرية ، وانقطع تشـوفه إلى الحج، ولم يزل كـذلك حتى صح عنـده اقلاع مركب ملـك الانكلتيز المخذول متـوجها إلى بلاده في مستهل شـوال، فعند ذلك حـرّر السلطان

عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس ويدخل دمشق يقيم بها أياما قلائل ويعود إلى القدس الشريف سائراً إلى الديار المصرية لتفقد أحوالها ، وتقرير قواعدها والنظر في مصالحها .

قال: وأمرني بالمقام بالقدس إلى حين عوده لعمارة بيمارستان انشأه فيه، وادارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده، وخرج من القدس، وودعته إلى البيرة، ونزل بها ، ثم ذكر ازالته للمظالم عن بلد نابلس. ثم رحل ونزل بسبسطيه فتفقد أحوالها، ثم أتى في طريقه إلى كوكب في عاشر شوال، وانفك بهاء الدين قراقوش من الأسر حادي عشر شوال ومثل بالخدمة السلطانية، ففرح به فرحا شديداً، وكان له حقوق كثيرة على السلطان والاسلام ، واستأذن السلطان رحمه الله في المسير إلى دمشق لتحصيل القطيعة، فأذن في ذلك وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفا.

قال: ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفدا، فبالغ في إكرامه واحترامه ومباسطته، وأنعم عليه بالعمق وارزغان ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار ، ثم سار السلطان إلى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها ، والتقدم بسد خللها واصلاح اجنادها ، وإشحانها بالرّجال فدخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشري شوّال، وفيها أولاده: الأفضل، والظاهر، والظافر ، وأولاده الصغار ، وكان يحب البلد ويؤثر فيه الاقامة على سائر البلاد ، وجلس للناس في بكرة الخميس، وحضر عنده الناس وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء ، وعم ذلك المجلس الخاص والعام ، وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب انعامه وفضله ، وكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة، واتخذ الأفضل يوم الإثنين مستهل ذي القعدة دعوة لأخيه الظاهر ، وكان الظاهر لما وصل دمشق بلغه حركة السلطان إليها فأقام بها حتى يتملى بالنظر إليه ثانيا

وكأن نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنّو أجل السلطان ، فوّدعه في تلك الدفعة مراراً متعددة وهو يعود إليه، ولما اتخذ الأفضل له الدعوة أظهر فيها من بديع التجمل وغريبه ما يليق بهمته، وكأنه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصل إلى حلب المحروسة، وحضرها أرباب الدنيا وابناء الآخرة ، وسأل السلطان رحمه الله الحضور فحضر جبراً لقلبه.

قال: وكان العادل قد استأذن السلطان في أواخر رمضان في القدس بالمضي إلى الكرك لتفقدها ، فمضى وأمر باصلاح ما قصد اصلاحه، وعاد طالبا المضي إلى البلاد الفراتيه التي أعطاه السلطان إياها، فوصل دمشق سابع عشري ذي القعدة، وخرج السلطان إلى لقائه وأقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقيه، وسارا جميعا يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق في الحادي والعشرين منه ، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبى ، وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب ، وسهر الليل ونصب النهار ،و ما كان ذلك إلّا كالوداع لأولاده ومرابع نزهه وهو لا يشعر رحمة الله عليه، ونسي عزمه المصري، وعرض له أمور أخر وعزمات غير تلك، ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني إلى خدمته ، وكان شتاء شديداً ووحلاّعظيما .

قلت: وفي عيد الأضحى من هذه السنة أنشده الرشيد النابلسي قصيدة حسنة على وزن قصيدة التهامي التي مطلعها:« حازك البين حين أصبحت بدرا» يقول فيها يعني قصيدته:

وأبيها ولا تغزل عينيها
لما قلت في التغزل شعرا

ولكانت مدائح الملك النا
صر أولى ما فيه أعمل فكرا

ملك طبق الممالك عدلا
مثل ما أوسع البرية برا

- ٨٨٦٥ -

ثم قال في آخرها :

نلـــت مـــن الـــديـــن والدنـــــ

ـــــيا فتيهـــا على الملـــوك وفخـــرا

فتمـــل الأعيـــاد صـــومـــا وفطـــرا

وتلـــق الهنـــاء فطـــرا ونحـــرا

يـــا مسر الطـــاعـــات لله ان أضـــ

ـــحى مليـــك على الهنـــاة مصرا

قـــد جمعـــت المجـــديـــن أصـــلا وفـــرعـــا

و ملكـــت الـــداريـــن دنيـــا وأخـــرى

فصل

في ذكر أمور أخر جرت في هذه السنة من وفيات وغيرها

قال العماد : في شهر ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، من أهل دمشق، قاضي العسكر ، وكانت وفاته بملطية وهو عائد من الرسالة إلى أولاد قليج أرسلان بالروم، وكان هذا القاضي لي من أصدق الاصدقاء، وأكرم الكرماء، وما فارقني من أيام الملك العادل نور الدين رحمه الله في السراء والضراء ، وكنت بأحواله شديد الاعتناء ، وتوصلت له عند السلطان في تخصيصه بالمواصلة الموصلية ، والمراسلة في المهام الخفية والجلية، ثم تولى نيابة عن السلطان في الولاية الشهرزورية ، والحكم على المقطعين بها وإنصاف الرعية ، فلما فوضت إلى مظفر الدين صاحب إربل رجع شمس الدين ودامت غيبته عن الحضرة مدة سبع سنين ، وكان تولى قضاء العسكر موضعه بهاء الدين بن شدّاد ، وكان خطب أولاد السلطان قليج أرسلان مهما عند السلطان، فاعتمد على القاضي شمس الدين في الوصول إليهم ، والحكم بتأليف ذات بينهم عليه، فمضى وعاد وأدركته المنيه بمدينة ملطيه.

قال: وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوّال توفي الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، المعروف بالمشطوب بنابلس، وقد سبق ذكر هذا الأمير وبأسه وبسالته واصابته وأصالته ، وإقدامه في الحروب ، وتقدمه في الخطوب ، وقد حضر مع أسد الدين شيركوه النوب الثلاث التي فتح في آخرها مصر ، ولازم صلاح الدين إلى منتهى العمر ، ولما احتيج إلى البدل في عكا إذ ضجر من أقام به وتشكى أجاب إلى دخوله وقابل الأمر بقبوله ، وحصل بقضاء الله في الأسر، واحتوت عليه قبضة الكفر ، وفدى نفسه بخمسين ألف دينار ونجا، وآتاه الله من نعمة خلاصه ما رجا، وأنعم السلطان عليه بنابلس وأعمالها، وخص بأموالها ،

وحين جزنـا ودّعنا عنـد جينين ، وداع الأبد إلى جنـة عليين ، وإنما سمي مشطوبا لشطبة في وجهـه من أثر طعنة في غزاة حضرها ، ولـه مواقف في الجهـاد كثيرة معهوده ، ومقـامـات مشهـورة مشهوده ، ووقـف السلطـان بعده ثلث نابلس وأعمالها على مصالح القدس، وأقطع ولده وأميرين معه الثلثين محافظة على حقه الذي التزمه التزام الدين.

وقال القـاضي ابن شـداد : وكان السلطان خلـف المشطوب بـالقدس مـن جملة العسكـر المقيمين بـه ولم يكن واليـه إنما كان واليـه عـز الديـن جرديك، وتـوفي المشطوب رحمة الله بالقدس يوم الأحد الثـالث والعشرين من شوال، و دفن في داره بعد أن صلي عليه في المسجد الأقصى .

قال العماد: وفي منتصـف شعبان تـوفي سلطان بلاد الـروم عز الـدين قليج أرسـلان بن مسعـود بن قليج أرسـلان بقونيـه، وكان أولاده لما كبروا تجبروا وتفـرد كـل منهـم بـاقليـم ،فضعـف بقـوّتهم، وعجـز بقـدرتهم ، وانخفض بـرفعتهم، فإنه فـرق بلاده على جماعتهم ، طمعا في طـاعتهم ، واختار لتدبير ملكـه اختيار الدين حسـن بن غفراس ، فخالفـه عليه من أولاده قطب الدين ملك شاه صـاحب سيواس ، فجاء وغلب على والده وأخذ عليه الأنفـاس ، وقال له: أنا بين يديك عـوض الاختيار ، ثم أخلى منه الـديار ، ثم أبعـد عن خدمـة والده خواصـه وأولياءه، وأفنى بـالقتل والاغتيال أمراءه وكبراءه ،واستخلصه لنفسـه ، وأجلسه على ملكه وهو في حبسه ، ثـم جاء به إلى قيصر يـة ليأخذهـا من أخيـه ، وأظهر أنه بـأمر أبيه، فوجـد قليج أرسلان فرصـة في خلاصه ، فساق وحـده ودخل البلد ونجا مـن الولد إلى الـولد، فعاد ملكشـاه إلى قونيه واقصرا دار ملـك أبيه فتملكهم ولم يزل قليج أرسلان يتحول مـن ولد إلى ولد ، ومن بلد إلى بلد يتردد في بلاده في ضيافة أولاده ، وكلهم يضجـر منه ، ويعرض عنه، حتى حصـل عند ولـده غيـاث الديـن كيخسرو صـاحـب برغلـو، فلما حضره

وأبصره آواه ونصره ،وجاء بـه إلى قونيـه فدخلهـا ، وحلى عطلها ، ومـات بها، فجلس مكان والده، وقوي على أخيه.

قال : وجـاء الربيع في شهر ربيـع الأول، فكتب إلي نشو الـدولة أحمد ابن نفـاذه أبياتا يدعـوني إلى دمشق في خامس جمادى الأولى، وقـد دخل أوان المشمش المعهود ، وهو موسم دمشق المشهود ، أولها :

دعــا النــاس للــذات مشمــش جلــق
فقــد أسرعــوا مــن كــل غــرب ومشرق
فقــم يــاعماد الــديــن تحظ بــأكلــه
ولاتثــن عنــه عــزمــة السير تسبــق
وقــل حين يبــدو أصفــر اللــون مشرقــا
ويــا حسنــه مــن أصفــر اللــون مشرق
لاكلــك مــا يلقــى الفــؤاد ومــا القــي
وللنــوب مــالم يبــق منــي ومــا بقــي
فليــس ســوى الحلــواء في القــدس مــأكــل
ومــا جلبــوه مــن زبيــب وفستــق

قال: فعرضت أبياته على السلطان فقال: ماقلت في جوابه ،فأنشدته:

هلمــوا نســابــق نحــو مشمــش جلــق
وثــم كما نهوى على الأكــل ننتقــي
تصفــر شــوقــا لانتظــار قــدومنــا
ومــن يتعشــق ذا الفضــائل يشتــق
إذا حضرت اطبــاقــه غــاب رشــدنــا
لما يتــلاقــى مــن مشــوق وشيــق
حكــى جمرات بــالفضــا قــد تعلقــت
فيــا عجبــي مــن جمره المتــألــق
كــانّ نجــوم الأرض فــوق غصــونــه
فيــا حيرتي مــن نجمــه المتــألــق

وجنــــاتها محمــــرة وجنــــاتها
فمـــن يـــرهـــا مثلي يحب ويعشـــق
بــــدت بين أوراق الغصــــون كـــأنها
كـــرات نضـــار في لجين مطـــرق

قال: فلما أنشدت السلطان هذا البيت، قال: تشبيه الورق باللجين غير موافق فإن الورق اخضر فقلت:

....

كـــرات نضـــار بـــالـــزمـــرد محدق
تســـاقطهـــا أشجـــارهـــا فكـــأنها
دنـــانير في أيـــدي الصيـــارف تـــرتقـــي
ومشمـــش بستـــان الـــزكـــي بشهـــده
شهـــادتـــه تقضي فـــزكّ وصـــدّق
يقـــول رفيقـــي في دمشـــق تعجبـــا
أمـــالـــك بستـــان مقـــالـــة مشفـــق
فقلـــت إلى بـــاب البريـــد وســـوقـــه
لأمثـــالنـــا تجنـــى بســـاتين جلـــق
ولـــو كـــان لي بـــالسهـــم سهـــم وجـــدت لي
منـــالي بـــأيـــام الثمار ومـــرفقـــي
إذا كنـــت مبتـــاعـــا مـــن الســـوق مشمشي
فمالي إلا الـــــــذة المتســـــــوق
ومـــالي بـــأربـــاب البســـاتين خلطـــة
فيصبـــح في حيطـــانها متسلقـــي
كـــرام وثـــوقـــي في الشتـــاء بـــودّهـــم
ولكنهـــم في الصيـــف ينســـون مـــوثقـــي
ومـــاثـــم مـــن يجدى ويقـــري ويقتنـــي
ثنـــائي ســـوى المحيـــي الكـــريـــم الموفـــق
وذلـــــك يـــــوم ليـــــس غيره
أمـــن أجـــل يـــوم واحـــد قلـــت لي اسبـــق

على أنني لو قيل بالصين دعوة
أثرت اليها لوعة المتحرق
فإن جئت قبلي جلقا فارم منعما
حديثي بنادي المنعمين وحلق
لعل كريما ينتخي لضيافتي
بمشمشة عند القدوم وينتقي
فلا تنس نشو الدين نشوة خاطري
وقل عن صبوحي كيف شثت ورقق
وهات وساعدني وخذ من قريحتي
لطيمة داري من الحمد واعبق

قال: فقال لي السلطان عن صبوح ترقق، كأنك تريد تمضي إلى دمشق وتسبق فقلت: الأهل والولد، وقد عيل عنهم الجلد، ولكن مغيبي عن الخدمة لايدور به الخلد، وظلك وهو السكن والبلد.

قال: وكتبت أيضا في جوابه، وصفة المشمش، وذكر تشبيهاته، وقد اذن لي السلطان لمهم له ايضا اتفق:

قد صح عزمي على المسير فلا
أبغي مقامي والقلب قد رحلا
امضي إلى دمية مقبلها
أرشف منه المدام والعسلا
مصوّر بل مدّور عجب
ترى به وهو جامد شعلا
ففي قلوب الأشجار منه جذي
وفي ظهور الغصون منه كلا
طلوابها النضار ظاهره
لباطن في حشاه نار طلا
يخفي إذا ما بدا العينك في
فيك وفيه النوى اذا وصلا

حلي تبر على عـــــــرائس أغصـــــــا
ن تشكـــت مـــــن قبلهـــا عطـــلا
حمر حســان الـــوجـــوه قـــد لبســت
مــــن خضر أوراقهــــا لها حلـــلا
عـــرائس مـــن خـــدورهـــا بـــرزت
تحســـب أشجـــارهـــا لها كلـــلا
حـــــلاوة لا يمـــــل أكلهـــــا
إذا الحلاوات أحـــدثـــت ملـــلا
زهـــــر كشهـــــب السماء راجمة
جـــن جنـــاة بقطفهـــا كفـــلا
عيـــونها الـــرمـــد في تـــرقبنـــا
جـــاحظـــة أبـــرزت لنـــا مقـــلا
مـــاذا التـــواني وذا التـــأخـــر والا
بطـــاء قـــدّم مسيرنـــا عجـــلا
نغـــدو خفـــافـــا إلى مـــواسمهـــا
مـــن قبـــل نبلى بصحبـــة الثقـــلا
قـــد انتظـــرنـــا مـــن الخزانـــة مـــا
نعطـــى فـــأكـــدى نـــوّابها البخـــلا
فـــإن عـــدمنـــا مـــن عنـــدهـــم ذهبـــا
فما عـــدمنـــا عنـــه بـــه بـــدلا
وكلنـــا في عـــوارف الملـــك النـــا
صر نـــرعـــى ونسلـــك السبـــلا

قال: وقلت فيه رباعية:
المشمـــش لا انتظـــارنـــا مصفـــر
والـــروض إلى لقـــائنـــا مفتر
قـــم نغتنـــم الـــوقـــت فهـــذا العمـــر
لا لبـــث لـــه فمـــن بـــه يغتر

قال: وفي هذه السنة نصرت الاساطيل في البحر مرارا، ونفذ السلطان في استدعائها ، استظهارا.

قال محمد بن القادسي: وفي مستهل رجب وكل بأمير الحاج طاشتكين، يعني الذي قتل أمير حاج الشام شمس الدين بن المقدّم بعرفات سنة ثلاث وثمانين ،ثم قبض عليه، وسببه أنه اتهم بمكاتبة السلطان صلاح الدين رحمه الله فيما يتعلق بقلب الدولة، وأظهر عليه استاذ الدار أبو المظفربن يونس كتابا قيل انه خطه وفيه :«المصلحة مهادنة الفرنج والمجيء إلى البلاد، فما يقف بين أيديكم أحد، والبلاد لكم إذا ملكتم العراق ، وهذا وقتكم إن كان لكم نيه، وأنا مشدود الوسط في الخدمة» .ثم ذكر ابن القادسي أن ذلك مستبعد في حق طاشتكين وزور وبهتان ، ونسب ذلك إلى افتعال ابن يونس عليه ، وكان طاشتكين أمير الحاج عشرين سنة يخطب له بمكة بعد الخطبة لأمير المؤمنين ،وله اقطاع بمائة ألف دينار.

قال : وفيها في ربيع الآخر توفي أبو المرهف نصر بن منصور النميري الشاعر الأديب الزاهد، سمع قاضي البيمارستان ، وروى عن ابن نبهان وكان قد ولي بالشام وخالط أهل الأدب واضر بالجدري ،وله أربع عشرة سنة ،وكان يبصر الأشياء القريبة منه ، ولايحتاج الى قائد إذا مشى ،ثم قدم العراق لمداواة عينه فأيأسه الاطباء من ذلك ، فاشتغل بالقرآن وحفظه، وصاحب المتدينين والزهاد من أهل الفقه والحديث واللغة ،وله ديوان شعر كبير وسئل عن مذهبه فأملى:

أحب عليا والبتول وولدها
ولا أجحد الشيخين فضل التقدّم
وابرأ ممن نال عثمان بالاذى
كما أتبرأ من ولاء ابن ملجم
ويعجبني أهل الحديث لصدقهم
فلست إلى قوم سواهم بمنتم

- ٨٨٧٣ -

وله أيضا في غير ذلك:

وزهـــــدني في جميـــــع الأنـــــا
م قلـــة انصـــاف مـــن تصحـــب.

هـــــم النـــــاس مـــــا لم تجربهم
وطلـــس الـــذئاب إذا جـــربـــوا

وليتـــك تسلـــم عنـــد البعـــا
د منهـــم فكيـــف اذا تقـــربـــوا

- ٨٨٧٤ -

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بدمشق في داره، وممالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه ، والضيوف في فيوض انعامة عائمون، والفقراء في رياض صدقته راتعون، ويجلس في كل يوم وليلة لاسداء الجود، وابداء السعود، وبث المكارم وكشف المظالم ، وبرّز إلى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر يوما، واستصحب معه أخاه وأبعد في البرية وظهر عن ضمير ضمير إلى الجهة الشرقية ، وطابت له الفرص ، ووافق مراده القنص، ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقي، وسعاداته في الترقي ، ولما لقي الحجاج استعبرت عيناه، كيف فاته من الحج ماتمناه، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها، وخصبها ومحلها ، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها، والفقراء والمجاورين ورواتبها وادراراتها، وسر بسلامة الحاج، ووضوح ذلك المنهاج، ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام فتلقاه بالاكرام.

قال القاضي ابن شدّاد: وخرجت من القدس الشريف يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم ،وكان الوصول إلى دمشق ثاني عشر صفر، وكان الأفضل حاضراً في الايوان الشمالي ،وفي خدمته خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان، فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وحده قبل أن يدخل إليه أحد ، فدخلت عليه رحمه الله، فقام ولقيني ملقى مارأيت أشد من بشره فيه، ولقد ضمني إليه ودمعت عينه، وفي ثالث عشر صفر طلبني فحضرت ، فسألني عمن في الايوان فأخبرته أن الملك الأفضل جالس في الخدمة والأمراء والناس في خدمته، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة اقبال، ثم استحضرني بكرة الخميس رابع صفر، وهو في صفة البستان ،وعنده أولاده الصغار ، فسأل عن الحاضرين،فقيل رسل الفرنج، وجماعة الأمراء والأكابر ، فاستحضر رسل

الفـرنج إلى ذلـك المكان فحضروا، وكـان له ولـد صغير، وكان كثير الميـل إليه يسمـى الأمير أبابكر، وكان حـاضرا وكان رحمة الله عليه يـداعبه، فلما وقع بصره على الفـرنج ورأى أشكـالهم خاف منهم وبكـى فاعتـذر اليهم وصرفهم بعد أن حضروا، ولم يسمـع كلامهم وقال لي: أكلـت اليوم شيئاً، وكـانت عـادتـه رحمه الله هذه المبـاسطة، ثـم قـال:أحضروا لنا أرزا بلبـن ومـايشبه ذلـك مـن الاطعمة الخفيفـة، فـأكـل رحمه الله، وكنت أظـن أن ماعنده شهـوة ، وكان في هذه الأيام يعتذر إلى الناس لثقـل الحركة عليه، وكان بـدنه ممتلئـا وعنده تكسل، فلما فـرغنا من الطعـام ، قال: مـاالذي عنـدك من خبر الحاج، فقلـت قد اجتمعـت بجماعة منهـم في الطريـق، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليـوم، ولكنهم في غد يدخلون فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقـائهم، وتقدّم بتنظيـف طرقاتهم من الميـاه فإنها كانـت سنة كثيرة الأنداء والأمطـار، وقد سـالت الميـاه في الطرق كـالأنهار، وانفصلت عن خـدمته، ولم أجـد عنده من النشـاط ما أعهده منـه، ثم بكـر في يوم الجمعة فركـب ثم لحقته وقد لقـي الحاج ولم أجد عليه كزاغنـده، وماكان لـه عادة يـركـب بدونـه، وكـان يـوما عظيما قـد اجتمـع فيه للقـاء الحاج والتفـرج على السلطـان معظـم مـن في البلـد ، فاذكـرتـه ذلـك، فكـأنـه استيقظ، فطلـب الكزاغند فلـم يوجـد، وأوقع الله في قلبي تطيراً بـذلك ، ثم سار رحمه الله بين البساتين يطلب جهـة المنيبع حتى أتى القلعة، فعبر على الجسر اليها وهو طريقه المعتاد ،وكانت آخر ركباته رحمه الله.

-٨٨٧٦-

فصل

في مرض السلطان ووفاته احله الله بحبوحة جناته

قال القاضي: لما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما ، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وكانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت سادس عشر صفر عليه أثر الحمى، ولم يظهر للناس ذلك ،لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولده الافضل، وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو من قلقه بالليل،وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الافضل، ولم يكن للقاضي عادة بذلك ،فانصرف ودخلت إلى الايوان القبلي وقد مدّ الطعام، وولده الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وماكان لي قوّة للجلوس استيحاشاً، وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده موضعه ، ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ، ونحن نلازم التردد في طرفي النهار، وأدخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً ويعطى الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سفراً وحضرا، ورأى الأطباء فصده ففصدوه في الرابع ، فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلبه النفس غلبة عظيمة،ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقد أجلسناه في السادس من مرضه، وأسندنا ظهره إلى مخدّة، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شراب يلين الطبع ، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شدّة حرّه ،فغير وعرض عليه ثانيا، فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله، ولم يقل سوى هذه الكلمات :سبحان الله ألا يمكن أحد تعديل الماء، فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتدّ منا البكاء، والقاضي الفاضل يقول لي: انظر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها ،والله لو أن هذا بعض الناس كان قد

ضرب بالقدح رأس من أحضره،واشتدّ مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل متزايدا ،وتغيب ذهنه ،ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتدّ الارجاف في البلد وخاف الناس ونقلوا الأقمشة من الأسواق وغشي الناس من الكآبة مالايمكن حكايته ، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة الى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم يحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقا دخلنا وشاهدنا وانصرفنا، وإلا تعرفنا احواله وانصرفنا ، وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا، حتى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا، ولما كان العاشر من يوم مرضه حقن دفعتين ، وحصل من الحقنة راحة، وحصل بعض الخفة، وتناول من ماء الشعيرمقدارا صالحاً، وفرح الناس فرحاشديدا فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع، ثم أتينا الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا ، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدّد،فدخل، ثم أنفذ الينا مع الملك المعظم تورانشاه يقول: إن العرق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله على ذلك، وانصرفنا طيبة قلوبنا، ثم أصبحنا فأخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ في الفرش، وتأثرت به الارض، وأن اليبس قد تزايد به تزايدا عظيما، وخارت القوّة واستشعر الأطباء، ولما رأى الملك الأفضل ماحل بوالده، وتحقق منه شرع في تحليف الناس، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه، واستحضر القضاة، وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدّة حياته، وله من بعد وفاته، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتدّ، ومانعلم مايكون ومانفعل هذا إلاّ احتياطيا على جاري عادة الملوك، ثم سمى القاضي ممن حلف له جماعة منهم: سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود الشحنه، وناصر الدين صاحب صهيون ،وسابق الدين صاحب شيزر،وخشترين الهكاري ،ونوشروان الزرزاري، وعلكان ومنكلان ، ثم مدّ الخوان وأكلوا، ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف، وأحضر ميمون القصري وشمس الدين سنقر المشطوب والبكي الفارس ، وأيبك

الأفطس، وأخو سياروخ ، وحسام الدين بشارة، وبعضهم اشترط في يمينه، وبعضهم لم يشترط، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم.

ولما كانت ليلة الاربعاء السابع والعشرين من صفر، وهي ليلة الثاني عشر من مرضه، اشتدّ مرضه، وضعفت قوته، ووقع في أوائل الأمر من أوائل الليل،وحال بيننا وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة ، وابن الزكي، ولم تكن عادته الحضور في ذلك الوقت، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده، فلم ير الفاضل ذلك.رأيا، فان الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة، فخاف أن لاننزل فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضا، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة،وهو رجل صالح يبيت بالقلعةحتى إن احتضر بالليل، حضر عنده ،وحال بينه وبين النساء، وذكره بالشهادة، وذكر الله تعالى، ففعل ذلك، فنزلنا وكل منا يوّد لو فداه بنفسه،وبات في تلك الله على حال المتنقلين الى الله تعالى، والشيخ أبوجعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكره بالله تعالى، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لايكاد يفيق إلا في بعض الأحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة)(١٣٤) سمعه وهو يقول: صحيح وهذه يقظة في وقت الحاجة، وعناية من الله تعالى به، فلله الحمد على ذلك، وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته، ووصلت أنا وقد مات، وانتقل إلى رضوان الله،ومحل كرامته، ولقد حكي لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: (لااله الا هو عليه توكلت)(١٣٥)تبسم و تهلل وجهه وسلمها إلى ربه، وكان يوما لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالايعلمه إلا الله تعالى، وتالله لقد كنت أسمع

من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوّز والترخيص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري، أنه لوقبل الفداء لمدي بالنفس.

ثم جلس ولده الافضل للعزاء في الايوان الشمالي، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين ، وكان يوماً عظيما قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه قصاص أو وعاظ ،فكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظهر، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما مكنا أن ندخل في تجهيزه ماقيمته حبة واحدةالا بالقرض حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين، وغسله الدولعي الفقيه، وندبت إلى الوقوف على غسله، فلم يكن لي قوّة تحمل ذلك المنظر، واخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط، وكان ذلك وجميع مااحتاج إليه من الثياب في تكفينه، قد أحضره الفاضل من وجه حل عرفه.

وارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج حتى أن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً، وغشي الناس من البكاء والعويل ماشغلهم عن الصلاة، وصلى عليه الناس أرسالا، وكان أوّل من أم بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي، ثم أعيد رحمة الله عليه إلى الدارالتي في البستان الذي كان متمرضا بها، ودفن في الصفة الغربية منها،وكان نزوله في حفرته قريبا من صلاة العصر، ثم نزل في أثناء النهار ولده الظافر، وعزى الناس فيه، وسكن قلوب الناس، وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد، فما يوجد قلب إلا حزينا، ولاعين إلا باكية إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع، ولم يعد منا أحد في تلك الليلة إلا أنا حضرنا وقرأنا، وجدّدنا

حـالا من الحزن، واشتغـل ذلك اليـوم الملك الأفضـل بكتب الكتـب إلى أخوتـه وعمه يخبرهم بهذا الحادث، وفي اليوم الثـاني جلس للعزاء جلـوسا عـاما وأطلـق باب القلعـة للفقهاء والعلماء،وتكلـم المتكلمون، ولم ينشـد شاعر، ثـم انفض المجلـس في ظهيرة ذلك اليوم واستمرّ الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه.

وقال العماد: جلـس السلطان ليلة السبـت سادس عشر صفـر ونحن عنده حتـى مضى من الليـل ثلثه، وهويحدثنا ونحـن نحدثه، ثـم صلى به وبنا امامه، وحان قيامه، وانفصلنا بـاحسانه مغتبطين، وبامتنانه مرتبطين، واصبحنـا يوم السبـت وجلسنـا في ايوانـه ننتظر خـروجـه لوضـع الخوان ووجدنـاه قد اغلق بـاغلاق بابه رهنـه، ولم نشعر بها قضاه القـدر وأجنه، وخـرج من خـدمه مـن أخبر بسقمه، وكـان من شرط الأدب أن يخلى لـه موضعا، فتطيرنا من تلك الحالة، وتكرهنـا منها سوء الدلالة، فتلاعبت فيه العيـون، وتراجمت الظنـون ، ودخلنا إليـه ليلـة الأحد للعيـادة ومرضـه في الزيـادة، وفي كل يوم تضعـف القلوب وتتضـاعف الكروب، وانتقـل من دار الفنـاء إلى دار البقـاء في سحـرة يـوم الأربعـاء، ونـابـت الظلماء عـن الضياء، ودخـل قمره ليلـة السابـع والعشرين في السرار، ودجـت مطالـع الأنـوار، ومـات بمـوتـه رجـاء الـرجـال، وأظلـم بغـروب شمسـه فضـاء الأفضال، وغـاضت الأيـادي، وفاضت الأعـادي، ودفن بقلعـة دمشق في مسكنه، ودفن جماع ا لكرم والفضل والدين بمدفنه.

ثم بنى الملـك الأفضل قبة شمالي الجامع في جـواره، بشباك إلى الجامع لـزوّاره، ونقله إليهـا يـوم عاشـوراء سنـة اثنتين وتسعين، واسترجعنا وقلنـا مالنا إلا أن نستعيذ بالله ونستعين به، قال :ومما قلت رباعية في المرثية:

قـــال الملـــك النــــاصر مـــن كلفنـــي
في الجرد بغير شيمتـــــــي فما أنصفنـــــــي

مـــــا يعلـــم أن ذلـــك الملـــك فنـــــي
لم يبـــــق مـــــن الجود إلا كفنـــــي

وقال العماد أيضا في رسالته الموسومة بعتبى الزمان: وكان السلطان رحمه الله لما توفي بالقلعة في منزله ، ومازال الأفضل يتروّى في موضع ينقله إليه، واستشار في ذلك فأشير عليه، في سنة تسعين بأن يبنى تربته عند مسجد القدم، ويبني عندها مدرسة للشافعية، وقالوا إذا وصل الملك العزيز استغنى بزيارتها عن الدخول إلى دمشق لأجلها، وقالوا إن السلطان رحمه الله لما مرض سنة احدى وثمانين بحرّان كان قد أوصى أن يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصا، ويكون قبره على النهج السائل، وطريق القوافل ، ليدعو له الوارد والصادر، والبادي والحاضر ، وتجوز عليه في الغزوات العساكر. قالوا: وإن تنأت هذه الأرض عن مكان الوصية فهي منه قريبة، فأمر الأفضل ببناء التربة عند مسجد القدم، وتولى عمارتها بدر الدين مودود والي دمشق، فاتفق وصول العزيز تلك السنة للحصار، وهم قد شرعوا في عمارتها، فخرّب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم استقرأ الأفضل حدود الجامع ليجعل التربة فيها، فوفق لدار كانت لبعض الصالحين وهي في حدّ المكان الذي زاده الأجل الفاضل في المسجد ، فاشتراها منه وأمر بعمارتها قبة فعمرت، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وتسعين بكرة الخميس ومشى الأفضل بين يدي تابوته، وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم التي فيها منته، فقال الافضل: كفته أدعيتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته، وحمله مماليكه وخدمه، وأولياؤه وحشمه، وأخرج من باب القلعة في البلد على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع، ووضع قدّام باب النصر، وصلى عليه القاضي محيي الدين بن محمد القرشي باذن الأفضل، ثم حمل منه على الرؤوس إلى بطن ملحده، ثم جاء الأفضل وحده، ودخل لحده، وأودعه وخرج وسدّ الباب على أبيه، وجلس هناك في الجامع ثلاثة أيام للعزاء ، وانفقت ست الشام أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً كثيرة.

قال محمد بن القادسي: وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأوّل شاعت الأخبار —يعني ببغداد— بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذكر أنه دفن معه سيفه الذي كان معه في الجهاد، وكان ذلك برأي الفاضل وقيل عنه هذا يتوكأ عليه إلى الجنة، وأن الفاضل كفنه من ماله وتولى غسله الفاضل، وخطيب دمشق.

قلت: وحكي لي أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في جماعة من الصحابة رضي الله عنهم زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله، وأنهم لما صاروا عند الشباك سجدوا.

ووجدت في بعض الكتب الفاضلية:«أن رجلا رأى ليلة وفاة السلطان كأن قائلا يقول له : قد خرج الليلة يوسف من السجن، وهو من الاثر النبوي :«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»(١٣٦)قال: وما كان يوسفنا رحمة الله عليه في الدنيا بالاضافة إلى ماصار إليه في الآخرة إلا في سجن، رضي الله عن تلك الروح، وفتح له باب الجنة فهو آخر ماكان يرجوه من الفتوح».

ومن كلام غيره في وفاة السلطان رحمه الله تعالى :« أفلت الشمس عند الصباح ، وذهبت روح الدنيا الذي ذهب بذهابها كثير من الأرواح ، وتلك ساعة ظلت لها الألباب حائرة، وتمثلت فيها السماء مائرة، والجبال سائرة، وأغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخفت الأرض من جبلها الذي كان يمنعها أن تميد، وأصبح الاسلام وقد فقدنا ناصره ثاكلا لوحيد، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد، وليس أحد من الناس إلا وقد صم عن الخبر، وأصيب في سواد القلب والبصر».وقال:« وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عمر» (١٣٧)

وختم كتابه البرق الشامي بقصيدة رثى بها السلطان رحمه الله عددها

- ٨٨٨٣ -

في ديوانه مائتان وثلاثون بيتا أوّلها:

شمل الهدى والملك عم شتاته
والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مذ لم يزل مخشية
مرجوّة رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا
مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي
لله خالصة صفت نياته
أين الذي ما زال سلطانا لنا
يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضله
وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذي عنت الفرنج لبأسه
ذلاً ومنها أدركت ثاراته
اغلال أعناق العدا أسيافه
أطواق أجياد الورى مناته
لم يجد تدبير الطبيب وكم وكم
أجدت لطب الدهر تدبيراته
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت
بالنصر حتى أغمدت صفحاته
من في صدور الكفر صدر قناته
حتى توارت بالصباح قناته
لذا المتاعب في الجهاد ولم تكن
مذ عاش قط لذاته لذاته
مسعودة غدواته محمودة
روحاته ميمونة ضحواته

في نصرة الاسلام يسهر دائما
ليطول في روض الجنان سناته
لا تحسبوه مات شخص واحد
فممات كل العالمين مماته
ملك عن الاسلام كان محاميا
أبداً إذا ما أسلمته حماته
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره
لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس ينبش بعدما
أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف
أقوت قواه وأقفرت ساحاته
جبل تضعضع من تضعضع ركنه
أركاننا وتهدّنا هدّاته
ما كنت أعلم أن طوداً شامخاً
يهوي ولا تهوي بنا مهواته
ما كنت أعلم أن بحرا طاميا
فينا يطم وتنتهي زخراته
بحر خلا من وارديه ولم تزل
محفوظة بوفوده حفاته
من لليتامى والأرامل راحم
متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت
في ذكره من ذكره آياته
فعلى صلاح الدين يوسف دائما
رضوان رب العرش بل صلواته
لضريحه سقيا السحاب فإن يغب
تحضر لرحمة ربه سقياته

وكعادة البيت المقدّس يحزن الـ
بيت الحرام عليه بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه
من للجهاد ولم تعد عاداته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت
من سبلها وركوبها غزواته
وبسيفه صداء لحزن مصابه
إذ ليس يشفى بعده صدياته
ياوحشتا للبيض في اغمادها
لا تنتضيها للوغى عزماته
يا وحشة الإسلام يوم تمكنت
في كل قلب مؤمن روعاته
ياحسرتا من بأس راحته الذي
يقضي الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فإنه
أسد وإن بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى
فكأنما سنواته ساعاته
لم أنس يوم السبت وهو لما به
يبدى السبات وقد بدت غشياته
والبشر منه تبلجت أنواره
والوجه منه تلألأت سبحاته
ويقول الله المهيمن حكمة
في مرضة حصلت بها مرضاته
وقف الملوك على انتظار ركوبه
لهم ففيم تأخرت ركباته
كانوا وقوفاً أمس تحت ركابه
واليوم هم حول السرير مشاته

وممالك الآفاق ساعية له
فمتى تجيء بفتحهن سعاته
هذه مناشير الممالك تقتضي
توقيعه فيها فأين دواته
قد كان وعدك في الربيع بجمعها
هذا الربيع وقد دنا ميقاته
والجند في الديوان جدّد عرضه
وإذا أمرت تجددت نفقاته
والقدس طامحة إليك عيونه
عجل فقد طمحت إليه عداته
والغرب منتظر طلوعك نحوه
حتى تفيء إلى هداك بغاته
والشرق يرجو غرب عزمك ماضيا
في ملكه حتى تطيع عصاته
مغرى بإسداء الجميل كأنما
فرضت عليه كالصلاة صلاته
هل للملوك مضاؤه في موقف
شدّت على أعدائه شدّاته
وإذا الملوك سعوا وقصر سعيهم
رجحت وقد نجحت به مسعاته
كم جاءه التوفيق في وقعاته
من كان بالتوفيق توقيعاته

قال: ووجد بخط العماد في حاشية ديوانه كانت علامته «الحمد لله وبه توفيقي»
يا راعيا للدين حين تمكنت
منه الذئاب وأسلمته رعاته
ما كان ضرك لو أقمت مراعيا
دينا تولى مذ رحلت ولاته

أضجـــرت منـــا أم أنفـــت فلـــم نكـــن
نصـــاب لشـــدّة ضجـــراتـــه
أرضيت تحت الأرض يامن لم يزل
فـــوق السماء عليـــة درجـــاتـــه
فـــارقـــت ملكـــا غير بـــاق متعبـــا
ووصلـــت ملكـــاً بـــاقيـــا راحـــاتـــه
اعـــزز على عينـــي بـــرؤيـــة بهجـــة الـــ
ـــدنيا يـــأبـــى مـــا الكـــرام أبـــاتـــه
لا تقتـــدوا إلاّ بسنـــــة فضلـــه
لتطيـــب في مهـــد النعيـــم سنـــاتـــه
وردوا مـــــوارد عـــدلـــه وسماحـــه
لترد عـــــن نهج الشمات شماتـــه
ولئـــن هـــوى جبـــل لقـــد بنيـــت لنـــا
ببنيـــه مـــن هضبـــاتـــه ذرواتـــه
وبفضـــل أفضلـــه وعـــزعـــزيـــزه
وظهـــور ظـــاهـــره لنـــا سرواتـــه
الأفضـــل الملـــك الـــذي ظهـــرت على الـــ
ـــدنيا بـــزهـــر جـــلالـــه جلـــواتـــه
والـــديـــن بـــالملـــك العـــزيـــز عماده
عثمان حـــاليـــة لنـــا حـــالاتـــه
والملـــك غـــازي الظـــاهـــر العـــالـــي الـــذي
صحـــت لاظهـــار العلى مغـــزاتـــه
ولنـــا بسيـــف الـــديـــن أظهـــر نصرة
بـــالعـــادل الملـــك المطهـــر ذاتـــه

وللعماد فيه قصيدة أخرى:

مـــن للعـــلا مـــن للـــذرى مـــن للهـــدى
يحميـــه مـــن للبـــأس مـــن للنـــائل

- ٨٨٨٨ -

طلـــب البقـــاء لملكـــه في آجـــل
إذ لم يثـــق ببقـــاء ملـــك العـــاجـــل

بحـــر أعـــاد البر بحـــراً بـــره
وبسيفـــه فتحـــت بـــلاد الســـاحـــل

مـــن كـــان أهـــل الحق في أيـــامـــه
وبعـــزه يـــردون أهـــل البـــاطـــل

وفتـــوحـــه والقـــدس مـــن ابكـــارهـــا
أبقـــت لـــه فضـــلا بغير مســـاجـــل

مـــا كنـــت أستسقـــي بغيرك وابـــلا
ورأيـــت جـــودك مخجـــلا للـــوابـــل

فسقـــاك رضـــوان الإلـــه لأنني
لا أرتضي سقيـــا الغمام الهاطـــل

فصل

في تركة السلطان ووصف أخلاقه رحمه الله

ذكر القاضي ابن شداد أنه لما مات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية، وديناراً واحدًا ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكا لا دارا ولاعقارا، ولا بستانا ولا مزرعة يعني في البلد، ولا مسقفا ولا ظاهرا مستغلا من أنواع الاملاك.

وقا ل العمادفي كتاب الفتح: خلف السلطان رحمه الله سبعة عشر ولدا ذكرا، وابنة صغيرة، وأبقى له مآثر أثيره، ومحاسن كثيرة، ولم يخلف في خزانته سوى دينار واحد وستة وثلاثين درهما، فإنه كان باخراج مايدخل من الأموال في المكرمات والغرامات مغرما،وكان يجود بالمال قبل الحصول، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول، وإذا عرف بوصول حمل وقع عليه بأضعافه، وخص الآحاد من ذوي الغنا في الجهاد بآلافه، ولاجبه أحدا بالرد إذا سأله، بل تلطف له كأنه استمهله، فإنه يقول ما عندنا شيء الساعة ومفهومه أنه يعطى، وإن كان يبطى ، وأنه يصيبه بالنوال ولا يخطى، وكان مشغوفا في سبيل الله بالانفاق موقوفا عزمه في الأعداء بإدناء الآجال ، وفي الأولياء بإجراء الأرزاق، وماعقر في سبيل الله فرس أوجرح إلا وعوض مالكه مثله، وزاده من فضله فضله، وحسب ماوهبه من الخيل العراب والأكاديش الجياد للحاضرين معه في صف الجهاد، مدة ثلاث سنين وشهر مذ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسلم في شعبان سنة ثمان وثمانين، فكان تقديره إثني عشر ألف رأس من حصان وحجرة واكديش ، وذلك غير ما أطلقه من المال في اثمان الخيل المصابة في القتال، ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أوموعود به، وصاحبه ملازم في طلبه، وماحضر اللقاء إلا استعار فرسا فركبه، وهجر جياده، فاذا نزل جاء

صاحبه واستعاده، فكلهم يركب خيله، ويطلب خيره، وهو يستعيرجوادا، ويستعر في الجهاد اجتهاداً.

قال في البرق: وحضرت بعده عند بعض الملوك وقد قيدت إليه عراب، فقيل له: كان السلطان يضيع هذه،وماعنده لهاحساب، ونسبوا جوده بها إلى السرف وعدوّه من معايبه، وأعرضوا عن ذكر مفاخره ومناقبه، وبمثل ذلك استتبت له الفتوح وخلصت له طاعة كتائبه.

قا ل في الفتح: وكان لايلبس إلا مايحل لبسه، وتطيب به نفسه، كالكتان والقطن والصوف، وكسوته يخرجها في اسداء المعروف ، وكانت محاضره مصونة من الخطر وخلواته مقدّسة بالطهر، ومجالسه منزهة عن الهزء والهزل، ومحافله حافلة آهلة بأهل الفضل ، وماسمعت له قط كلمةتسقط، ولا لفظة فظة تسخط، ويغلظ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين ويؤثر سماع الأحاديث بالأسانيد، ويكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ومشاركة القضاة في القضاء أعلم منهم بالأحكام الشرعية والأسباب المرضية والأدلة المرعية، وكان من جالسه لايعلم أنه مجالس السلطان بل يعتقد أنه مجالس أخ من الأخوان، وكان حليماً مقيلاً للعثرات، متجاوزا عن الهفوات، تقيا نقيا، وفيا صفيا، يغضي ولا يغضب، ويبشر ولا يتقطب، ماردّ سائلا ولا صدّ نائلا، ولا أخجل قائلاً، ولا خيب آملاً .

قال: ومن جملة مناقبه أنه تأخر عنه في بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان، فلما وصل سأله عن سبب تخلفه، فذكر دينا فأحضر غرماءه، وتقبل بالدين ، وكان اثني عشر ألف دينار مصرية وكسرا.

قال: ولما كنا بالقدس في سنة ثمان وثمانين كتب إليه سيف الدولة بن منقذ نائبه بمصر، أن واحدا ضمن معاملة بمبلغ فاستنض منها الفي

دينار، وتسحب، وربما وصل إلى الباب، فتحيل وتمحل وكذب، فجاء من أخبر السلطان أن الرجل بالباب،فقال: قل له: إن ابن منقذ يطلبك فاجهد أن لا تقع في عينه، فعجبنا من حلمه وكرمه بعد أن قلنا قدم الرجل إلى حينه بقدمه.

قال: ومما أذكره له في أول سفرتي معه إلى مصر سنة اثنتين وسبعين، أنه حوسب صاحب ديوانه عما تولاه في زمانه ، فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه، فماطلبها ولا ذكرها ، وأراه أنه ماعرفها، على أن صاحب الديوان ماأنكرها، وكان يرضى من الأعمال بما تحمل صفوا عفوا، وتحصل حلوا ، وكله يخرج في الجود والجهاد، ثم لم يرض له بالعطلة، فولاه ديوان جيشه.

قال: ولما كنا بظاهر حران عم بصدقاته الفقراء والمساكين، وكتب إلى نوّابه في الولايات بإخراج الصدقات وقال لي: اكتب إلى الصفي بن القابض بدمشق أن يتصدق بخمسة آلاف دينار صورية، فقلت :إنما الذهب الذي عنده مصري، فقال :فيتصدق بخمسة آلاف دينار مصرية ، واشفق من صرف المصري بالصوري فيكون حراما، ويرتكب في كسب الأجر آثاما، فسمح ومنح، وتاجر الله وربح،ولما عزم على الرحيل من حران أفاض بها الفضل وبث الاحسان، وقال لي يوم الرحيل: انظر كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السبيل وهذه ثلاثمائة دينار أقسمها عليهم بالقلم على أقدارهم، وكانوا عدة يسيرة لم تبلغ عشرة، فعينت لكل اسم قسما فبلغ أربعمائة دينار، فأعلمته وقلت أنقص من كل اسم ربعا، فقال اجر ما جرى القلم به.

قال: وكان رحمه الله إذا أطلق لعاف عارفة، وقلت له: هذه ماتكفيه ردّها مضاعفة.

قال: وكان يغضب للكبائر، ولا يغضي عن الصغائر، ويرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرشاد، ويسدد الأمر، ويأمر بالسداد، فكل مماليكه وخواصه بل أمراؤه وأجناده أعف من الزهاد والعباد.

قال: ورأى لي يوماً دواة محلاة بالفضة،فأنكرها، فقلت له: إن الشيخ أبا محمد والد أبي المعالي قد ذكر وجها في جوازها، ثم لم أكتب بها عنده بعدها.

وكان محافظا على الصلوات الخمس في أوائل أوقاتها، مواظبا على أداء مفروضاتها ومسنوناتها، فما رأيته صلى إلا في جماعة ، ولم يؤخر له صلاة من ساعة إلى ساعة، وكان له امام راتب ملازم مواظب، فان غاب يوما صلى به من حضره من أهل العلم، إذاعرفه متقيا متجنبا للاثم، وكان يأخذ بالشرع ويعطي به، ولم يكن إلى المنجم مصغيا، ولم يزل لقوله ملغيا،ولا يتعيف ولا يتطير، ولا يتعين ولا يتحير، بل إذا عزم توكل على الله، فلا يفضل يوما على يوم، ولازمانا على زمان إلا بتفضيل الشرع، ومازال ناصراً للتوحيد، وقامعا جميع اهل البدع بالتبديد، شافعي المذهب أصولا وفروعا، معتقلا له معقولا ومسموعا، يدني أهل التنزيه، ويقصي أهل التشبيه، ويديم استفادة فقه الفقيه،واستزادة نباهة النبيه، ووجاهة الوجيه، فالعالمون في عدله،والعاملون في فضله والبلاد في أمنه، والعباد في منه.

فصل

قال القاضي ابن شداد: كان مولد السلطان رحمه الله في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة بقلعة تكريت، وكان والده أيوب بن شادي واليا بها، وكان كريما، أريحيا حليما، حسن الأخلاق مولده بدوين، ثم اتفق له الانتقال من تكريت إلى الموصل، وانتقل ولده المذكور معه، وأقام بها إلى أن ترعرع، وكان والده محترما مقدّما، هو وأخوه أسد الدين شيركوه عند أتابك زنكي، واتفق لوالده الانتقال إلى الشام وأعطي بعلبك وأقام بها مدّة ومعه ولده المذكور، فأقام في خدمة والده يتربى تحت حجره، ويرتضع ثدي محاسن أخلاقه حتى بدت منه أمارات السعادة، ولاحت عليه لوائح التقدم والسيادة، وقدّمه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، وعوّل عليه، ونظر إليه وقربه وخصصه، ولم يزل كلما تقدم قدما يبد منه أسباب تقتضي تقديمه إلى ماهو أعلى منه، حتى اتفق لعمه أسد الدين شيركوه الحركة إلى مصر، والنهوض إليها وقد مضى ذلك.

ثم قال:

ذكر ماشاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية

مماورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:«بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله الا الله، وإقام الصلاة،وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام» فكان رحمه الله حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء، ويتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا

حسنا، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه والتعطيل، جاريةعلى نمط الاستقامة، وكان قد جمع له الشيخ الامام قطب الدين النيسابوري رحمه الله عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شدّة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده، حتى ترسخ في أذهانهم من الصغر، ورأيته وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم عليه.

وأما الصلاة فإنه كان شديد المواظبة عليها بالجماعة، وكان يواظب على السنن والرواتب، ولقد رأيته يصليها إن استيقظ بوقت الليل وإلا اتى بها قبل صلاة الصبح، وما كان يترك الصلاة مادام عقله عليه، ولقد رأيته يصلي في مرضه الذي مات فيه قائما، وماترك الصلاة إلا في الايام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه، وكان إذا أدركته الصلاة وهوسائر نزل وصلى.

وأما الزكاة فانه مات رضي الله عنه ولم يحفظ ماوجبت عليه به الزكاة، وأما صدقة النفل فانها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال.

وأما صوم رمضان فإنه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة،وكان القاضي الفاضل قدتولى ثبت تلك الأيام، وشرع رحمه الله في قضاء فوائت ذلك في القدس الشريف في السنة التي توفي فيها، وواظب على الصوم مقدارا زائدا على شهر فإنه كان عليه فوائت رمضانين، شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها، وكان الصوم لايوافق مزاجه فألهمه الله الصوم لقضاء الفوائت، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها ، فان القاضي كان غائبا، والطبيب يلومه وهو لايسمع ويقول: ماأعلم مايكون ، فكأنه كان ملهما براءة ذمته، ولم يزل حتى قضى ما عليه رحمه الله.

وأما الحج فإنه لم يـزل عازما عليه وناويا لـه لاسيما في العام الذي توفي فيه، فـإنه صمـم العزم عليه وأمـر بالتأهـب، وعملت الـزوادة ولم يبق إلا المسير، فـاعتاق عـن ذلـك بسبب ضيـق الوقـت ، وفـراغ اليد عما يليـق بأمثاله، فأخره إلى العام المستقبل، فقضى الله ماقضى.

قـال: وهـذا شيء اشترك في العلم بـه الخاص والعـام، وكـان رحمه الله يحب سماع القرآن العظيم حتى أنه كـان يستخير إمامه، ويشترط عليه أن يكون عالما بعلـوم القرآن العظيم متقنا لحفظه، وكـان يستقرىء من يحضره في الليـل، وهو في بـرجـه الحزبين والثلاثـة والأربعـة وهـو يسمع، وكـان يستقرىء في مجلسه العام مـن جرت عادته بذلك الآيـةوالعشرين والزائد على ذلـك، ولقـد اجتـاز على صغير بين يـدي أبيـه وهـو يقـرأ القـرآن، فاستحسن قراءتـه فقرّبه وجعل له حظا من خاص طعـامه، ووقف عليه، وعلى أبيه جزءا من مـزرعة،وكان رحمه الله خاشع القلب رقيـق الدمعة إذا سمع القرآن العزيز يخشع قلبه وتدمـع عينه في معظم أوقاته، وكان شديد الرغبـة في سماع الحديث،ومتـى سمع عـن شيخ ذي روايـة عاليـة وسماع كثير، فإن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمـع عليه، واسمع من يحضره في ذلـك المكان مـن أولاده ومماليكـه والمختصين بـه، وكان يـأمر النـاس بالجلـوس عند سماع الحديـث اجلالًا له، وإن كـان الشيخ ممـن لايطرق أبواب السـلاطين ويتحامـى عن الحضور في مجالسهـم سعى إليـه وسمع عليه، تـردد إلى الحافظ السلفي بالاسكنـدرية وروى عنه أحـاديث كثيرة، وكان يحب أن يقـرأ الحديث بنفسـه، فكان يستحضرني في خلـوته ويحضر شيئامـن كتب الحديـث، ويقرأ هـو فإذا مـر بحديـث فيه عبرة رق قلبـه ودمعت عينـه، وكان كثير التعظيـم لشعائر الديـن قائلا ببعـث الأجسام ونشورها ، ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بـالنار، مصدقا بجميع ماوردت بـه الشرائع منشرحـا بـذلـك صـدره، مبغضـا للفـلاسفـةوالمعطلـة والدهريـة،ومن يعاند الشريعة المطهـرة ، ولقد أمر ولده الظاهـر صاحب حلب بقتل شاب كان نشأ يقال له السهـروردي، قيل عنه أنه كان معانداً

للشرائع مبطلا، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره، وعرّف السلطان به فأمر بقتله وصلبه أياما فقتله، وكان حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الانابة إليه، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه، فحكى التجاءه إلى الله تعالى عند خوفه من قصد الفرنج بيت المقدس،وامتناع أصحابه من دخوله للحصر، فصلى ودعا فكفي ذلك، وقد تقدّم ذكره.

ثم قال: وكان رحمه الله عادلا رؤوفا رحيما ناصرا للضعيف على القوي، وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير، وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً، على أنه كان في جميع زمانه قابلا لمايعرض عليه من القصص، كاشفا لما ينهى إليه من المظالم، وكان يجمع القصص في كل يوم، ثم يجلس مع الكاتب ساعة في الليل أو في النهار، ويوقع على كل قصة بما يطلق اللهعلى قلبه، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع ظلامته،وأخذ قصته، وكشف قضيته، ولقد ر أيته وقد استغاث إليه انسان من أهل دمشق، يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه، وأنفذ إليه ليحضره في مجلس الحكم، فما خلصه إلا أن أشهد عليه شاهدين أنه وكل القاضي أمين الدين أبا القاسم قاضي حماه في المخاصمة، فأقاما الشهادة عندي في مجلسه، فأمرت أبا القاسم بمساواة الخصم فساواه،وكان من خواص جلساء السلطان، ثم جرت المحاكمة بينهماواتجهت اليمين على تقي الدين، وكان تقي الدين من أعز الناس عليه،وأعظمهم عنده ، ولم يحابه في الحق.

قال: وكنت يوما في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل عليّ شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي، ومعه كتاب حكمي سأل فتحه، وقال: خصمي السلطان، وهذا بساط الشرع، وقد سمعنا

انـك لاتحابي، فقلـت : وفي أي قضيـة هـو خصمـك، فقـال: إن سنقـر الخلاطـي كان مملـوكـي، ولم يزل على ملكـي إلى أن مـات، وكان في يـده أموال عظيمة كلها لي، ومات عنها، واستـولى عليها السلطان وأنا مطالبه، فقلت: يـاشيخ وما الـذي أقعدك إلى هذه الغـاية فقال: الحقـوق لاتبطل بالتـأخير، وهذا الكتاب الحكمـي ينطق بأنه قـد اشتراه من فلان التـاجر بأرجيش في اليوم الفلاني من شهر كـذا من سنة كذا، وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا، وماعـرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكـه بوجـه وتمم الشرط إلى آخره، فتعجبـت من هـذه القصة،وأعلمـت السلطـان بذلـك، فأحضره واستـدنـاه حتى جلس بين يدي، وكنـت إلى جانبه ثم انفـرك من طرّاحته حتى ساواه رحمه الله تعالى، ثـم ادّعى الرجل وفتح كتابه وقرىء تاريخه، فقـال السلطان :إن لي من يشهد أن سنقر هذا كان في ملكـي وفي يدي بمصر، وأني اشتريته مـع ثمانية أنفس في تـاريخ متقدم على هذا التـاريخ بسنة وأنه لم يزل في يـدي وملكي إلى أن اعتقته، ثم استحضر جماعة مـن أعيان الأمراء المجاهـدين فشهدوا بذلـك وحكوا القضية كماذكـرها، وذكـروا التاريخ كما ادّعـاه، فأبلس الـرجل فقلـت له: يامولانـا هذا الرجل مـا فعل ذلك الا طلبا لمراحـم السلطان، وقد حضر بين يدي المولى ومايحسـن أن يرجع خائب القصد، فقال: هـذا باب آخر، وتقدّم له بخلعة ونفقة بالغة.

قال: فانظر إلى ما في طي هذه القضيـة من المعاني الغريبة العجيبة من التواضـع والانقياد إلى الحق وإرغـام النفس، والكـرم في موضـع المؤاخذة مع القدرة التامة رحمة الله عليه.

قال: وكرمه كان أظهر مـن أن يسطر، كان رحمه الله يهب الأقاليم وفتح آمد فطلبها منـه ابن قرا أرسلان فأعطـاه إياها، ورأيته وقـد اجتمع عنده وفود بـالقدس ولم يكـن في الخزانة مانعطيهـم، فباع قـرية مـن بيت المال وفضضنا ثمنها عليهـم ولم يفضل منه درهم واحد، وكـان يعطي في وقت

الضائقة كما يعطى في حال السعة، وكان نواب خزانته يخفون عنه شيئا من المال حذر أن يفجأهم لعلمهم أنه متى علم به أخرجه، وسمعته يوما يقول: يمكن في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب، فكأنه أراد بذلك نفسه، وكان يعطي فوق مايؤمل الطالب،وماسمعته يقول: أعطينا لفلان، وكان يعطي الكثير، ويبسط وجهه للمعطى بسط من لم يعط شيئا، وكان الناس يستزيدونه في كل وقت، وماسمعته قط يقول: قد زدت مرارا فكم أزيد؟ وأكثر الرسائل في ذلك كان يكون على لساني ويدي وكنت أخجل من كثرة مايطلبون، ولا أخجل منه لعلمي بعدم مؤاخذته بذلك، وماخدمه قط أحد الاّ وأغناه عن سؤال غيره.

وأما تعدد عطاياه فقال: حصرنا عدد ماوهب من الخيل بمرج عكا لاغير فكان عشرة آلاف رأس، ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر، اللهم إنك ألهمته الكرم، وأنت أكرم الأكرمين فتكرّم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

قال: وكان رحمه اللهمن عظماء الشجعان،قوي النفس شديد البأس،عظيم الثبات لايهوله أمر، ولقد رأيته مرابطا في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج، ونجدهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لايزداد إلا قوة نفس، وصبرا، ولقد وصل في ليلة واحدة منهم نيف وسبعون مركبا على عكا، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، وهو لايزداد إلا قوة نفس، ولقد كان يعطي دستورا في أوائل الشتاء، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدّتهم الكثيرة، ولقد سألت باليان بن بارزان،وهو من كبار ملوك الساحل، وهو جالس بين يديه يوم انعقاد الصلح عن عدتهم الكثيرة، فقال الترجمان عنه أنه يقول كنت أنا وصاحب صيدا وكان أيضا من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تحاورنا فحزره هو بخمسمائة ألف، وحزرته أنا بستمائة ألف، أوقال عكس ذلك، فقلت: كم هلك منهم؟ فقال: أما بالقتل فقريب

مائة ألـف، وأما بـالموت والغرق فـلا يعلم، ومـارجع مـن هذا العـالم إلا الأقل.

قال: وكـان لابدّ له مـن أن يطوف حول العـدو كل يوم مـرة أو مرتين إذا كنا قريبا منهم، وكان إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحـد، وعلى يده جنيـب، ويخرق العساكـر من الميمنـة إلى الميسرة يرتـب الأطلاب ويأمرهم بالتقدّم والوقـوف في مواضع يراها،وكان يشارف العدو ويجاوره، ولقد قرىء عليه جزء مـن الحديث بين الصفين، وذلك أني قلت لـه قدسمـع الحديث في جميـع المواطن الشريفـة، ومانقـل أنه سمـع بين الصفين، فـإن رأى المولى أن يؤثـر عنه ذلـك كان حسنـا، فأذن في ذلـك فـأحضر جـزءا هناك مـن لـه بـه سماع، فقـرىء عليه ونحـن على ظهـور الدواب بين الصفين يمشي تـارة ويقف أخرى، ومـا رأيته استكثـر العدو أصـلا، ولا استعظـم أمـرهـم قـط، وكـان مـع ذلـك في حـال الفكـر والتدبيريذكر بين يـديه الأقسام كلها، ويرتب على كـل قسم مقتضاه من غير حدّة ولا غضب يعتريه، ولقـد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله، ووقـع الكوس والعلم وهوثابت القدم في نفـر يسير، وقد انحـاز إلى الجبل يجمـع النـاس ويردّهـم ويخجلهم حتـى يرجعوا، ولم يـزل كذلك حتى عكس المسلمون على العـدو في ذلك اليوم، وقتل منهـم زهاء سبعـة آلاف مابين راجـل وفارس، ولم يـزل مصابـرا لهم وهم في العدة الوافرة إلى أن ظهر لـه ضعف المسلمين فصالح وهومسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهـم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة، ونحن لانتوقعها، وكانت المصلحة في الصلح.

وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريـه أحوال مهولة وهوصابـر مرابط وتتراءى النـاران ونسمع منهـم صـوت الناقـوس، ويسمعـون منا صـوت الآذان إلى أن قضي الأمر.

قال: وكان رحمه الله شديد المواظبة على الجهاد عظيم الاهتمام به ولو حلف حالف أنه ماأنفق بعد خروجه إلى الجهاد دينارا ولا درهما إلا في الجهاد، وفي الارفاد، لصدق وبر في يمينه، ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما، بحيث ماكان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آلته، ولا اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنةويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحة على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماما.

قلت: وشواهد ماذكر القاضي من ذلك كثيرة، وقد سبقت مفرقةفي وقعاته رحمه الله، منها ماقاساه على حصار كوكب من الأمطار والأوحال، وقال الرشيد بن النابلسي من قصيدة له:

ما أبهج الدين والدنيا بها لكها الصـ … ـديق يوسف لا لاذت به الغير

ملك تساوى جمادى في الجهاد وتمـ … ـموز لديه وضاهى ناجراً صفر

فليس يثنيه حران توقد عن … رضى الاله ولا إن اغدق المطر

ولا ينهنهه عما يكابده … ضجّ أعيذ معاليه ولا ضجر

ولا يرى الروح إلا ظهر سلهبة … في بطن معركة مركوبها وعر

صبر جميل كطعم الشهد في فمه … وعند كل مليك طعمه الصبر

قال القاضي: وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على

الجهاد،أويذكر شيئا من أخبار الجهاد،ولقد ألف له كتب عدّة في الجهاد،وأنا ممن جمع له فيه كتابا جمعت به آدابه، وكل آية وردت فيه، وكل حديث روي فيه، وشرحت غريبها، وكان رحمه الله كثيراً مايطالعه حتى أخذه منه ولده الأفضل.

قال: ولأحكين عنه ماسمعت منه في ذلك، وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين، وأعطى العساكر دستورا وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر، وكان مقدمه أخاه العادل، فسار معه ليودعه، ويحظى بصلاة العيد في القدس ففعل ووقع له أنه يمضي معهم إلى عسقلان ويودعهم، ثم يعود على طريق الساحل ويتفقد البلاد الساحلية إلى عكا، ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن لايفعل فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة ، والفرنج كلهم بصور، وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت وودع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا على الساحل طالبي عكا، وكان الزمان شتاء عظيما، والبحر هائجا هيجاناعظيما، وموجه كالجبال ، كماقال الله تعالى، وكنت حديث عهد برؤية البحر، فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي قادر: لو جزت في البحر ميلا واحدا ملكتك الدنيا، لما كنت أفعل، واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كسب دينار أو درهم واستخففت رأي من لايقبل شهادة راكب البحر، هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر وتموجه، فبينا أنا في ذلك اذ التفت اليّ وقال: في نفسي انه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لاأبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت، فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ماكان يخطر لي، وقلت له ليس في الأرض أشجع نفسا من المولى، ولا أقوى نية منه في نصرة دين الله، وحكيت له ماخطر لي، ثم قلت ما هذه إلاّنية جميلة، ولكن المولى يسير في البحر العساكر، وهو سور الاسلام ولاينبغي أن يخاطر بنفسه، فقال:

أنا أستفتيك ماأشرف الميتات؟ فقلت: الموت في سبيل الله، فقال:غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات، قال: انظر الى هـذه الطوية ماأطهرها، وإلى هذه النفس مـاأشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أنـه بذل جهده في نصرة دينك رجاء رحمتك فارحمه.

قال: وأما صبره فلقد رأيته بمرج عكـا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثـرة دماميـل، كانـت ظهرت عليـه من وسطـه إلى ركبته بحيـث لايستطيـع الجلوس، وإنما يكـون متكئـا على جـانبه إذا كـان في الخيمـة، وامتنع من مد ألطعـام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكـان يأمر أن يفرق على الناس، وكان مـع ذلك كله يركـب من بكرة النهار إلى صـلاة الظهر يطوف على الأطـلاب، ومن صلاة العصر إلى صـلاة المغرب وهو صـابر على شدّة الألم وقوّة ضربـان الدمامل، وكان يعجب مـن ذلك فيقول رحمه الله: إذا ركبـت يزول عنـي ألمها حتـى أنزل، وهـذه عنـاية ربـانية، ولقـد مرض ونحن على الخروبـة،وكان قد تأخـر عن تل الحجل بسبـب مرضه، فبلغ الفرنـج ذلك فخرجوا طمعـا في أن ينالوا من المسلمين شيئـا بسبب مرضه، وهي نوبة النهر فخرجـوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التل، ثم رحـل العدو في اليـوم التالي يطلبنـا، فركـب رحمه الله على مضض ورتـب العسـاكر للحـرب وجعل أولاده في القلـب، ونزل هـو وراء القوم بطلبـه، وكلما سـار إلى العدو يطلـب رأس النهـر سار هـو يستـدير إلى ورائهـم، حتـى يقطع بينهـم وبين خيـامهم، وهـو رحمه الله يسير سـاعـة ثم ينـزل يستريح ويظلل بمنديل على رأسه مـن شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لايـرى العدو ضعفا، ولم يزل كـذلك حتى نزل العـدو برأس النهر ونزل هـو على تل قبالتهم مطـل عليهم إلى أن دخل الليل، ثـم أمر العساكر أن تعود إلى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح، وتأخر هو إلى قمة الجبل، وضربت له خيمة لطيفة، وبات تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغلـه، وهوينام تارة ويستيقظ تارة أخـرى حتى لاح الصباح، ثـم ضرب البوق وركـب رحمه الله، وركبت العسـاكـر، وأحدقـت بالعـدو

ورحل العدو عائدا إلى خيمه من الجانب الغربي للنهر، وضايقه المسلمون مضايقة شديدة، وفي ذلك اليوم قدّم أولاده بين يديه احتسابا: الأفضل والظاهر، والظافر، وجميع من حضره منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا وطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لاغير فيظن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقا كثيرا، وليس تحتها إلا واحد يعد بخلق عظيم رحمه الله، وبقي في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ماباتوا عليه بارحتهم، وبتنا على مابتنا عليه إلى الصباح، وعاد العسكر إلى ماكان عليه بالأمس من مضايقة العدو.

قال: ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها، وقال :لاننام الليلة حتى ينصب لنا خمسة مجانيق، ورتب لكل منجنيق قوما يتولون نصبه وكنا طول الليل في خدمته في ألذ فكاهة وأرغد عيشة والرسل تتواصل مخبرة بأنه نصب من المنجنيق الفلاني كذا، ومن الآخر كذا حتى أتى الصباح وقد فرغ منها، وكانت من أطول الليالي وأشدّها برداً ومطراً.

قال :ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ أو مراهق يسمى اسماعيل، فوقف على الكتاب، ولم يعرف أحد ولم نعرف حتى سمعناه من غيره، ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه رحمه الله.

قال: ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة تقي الدين، ونحن في مقابلة الفرنج جريدة على الرملة، وفي كل ليلة تقع الصيحة فتقلع الخيام،ويقف الناس على ظهر إلى الصباح والعدو بيازور بيننا وبينه شوط فرس لاغيرها، فأحضر العادل وابن جندر وابن المقدم وابن الداية سابق الدين، وأمر بالناس فأبعدوا عن الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد عن غلوة سهم، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاء شديدا حتى أبكانا

من غير أن نعلم السبب، ثم قال رحمه الله والعبرة تخنقه: توفي تقي الدين، فاشتد بكاؤه وبكاء الجماعة، ثم عدت إلى نفسي فقلت: أستغفر الله من هذه الحالة وانظروا أين أنتم، وأعرضوا عما سواه، فقال رحمه الله: نعم أستغفر الله، وأخذ يكررها ثم قال: لايعلم هذا أحد.

قال: وكان رحمه الله شديد الشوق والشغف بأولاده الصغار، وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم عنه، وكان صابرا على مر العيش وخشونته مع القدرة التامة على غير ذلك احتسابا لله تعالى، اللهم إنه ترك ذلك كله ابتغاء لمرضاتك فارض عنه.

قال: ولقد كان رحمه الله حليما متجاوزا قليل الغضب، ولقد كنت بخدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج إلى عكا، يسر الله فتحها، وكان من عادته أنه يركب في وقت الركوب، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها ثم يستيقظ من منامه ويصلي ويجلس خلوة، وأنا في خدمته يقرأ شيئا من الحديث أوشيئا من الفقه ولقد قرأ عليّ كتابا مختصرا لسلم الرازي يشتمل على الأرباع الأربعة من الفقه، فنزل يوما على عادته ومدّ الطعام بين يديه ثم عزم على النهوض فقيل له: إن وقت الصلاة قد قرب، فعاد إلى الجلوس وقال: نصلي وننام، ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلي المكان إلا عمن لزم، فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضجر أخرها ساعة، فلم يفعل وقدّمها إلى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرؤها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه وقال :رجل مستحق، فقال يوقع له المولى فقال: ليست الدواة حاضرة الآن، وكان رحمه الله جالسا في باب الخركاة بحيث لايستطيع أحد الدخول إليها والدواة في صدز الخركاه والخركاة كبيرة، فقال له المخاطب هاهي الدواة في صدر الخركاه، قال القاضي :فليس لهذا معنى إلاأمره إياه بإحضار الدواة لاغير، فالتفت رحمه الله فرأى

الدواة، فقال: والله صدق، ثم استند على يده اليسرى، ومد يده اليمنى، واحضرها، ووقع له، فقلت: قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم:(وانك لعلى خلق عظيم)(١٣٨) وماأرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق، فقال: ماضرنا شيء قضينا حاجته، وحصل الثواب، قال القاضي: ولو وقعت هذه الواقعة لآحاد الناس لقام وقعد، ومن الذي يقدر أن يخاطب أحدا هو تحت حكمه بمثل ذلك، وهذا غاية الاحسان والحلم، (والله لايضيع أجر المحسنين)(١٣٩).

قال: ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص وهو لايتأثر لذلك، ولقد نفرت يوما بغلتي من الجمال وأنا راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته وهو يتبسم، ولقد دخلت بين يديه في يوم ريح مطير إلى القدس،كثير الوحل، فنضحت البغلة عليه من الطين حتى أهلكت جميع ماكان عليه، وهو يتبسم،وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني ، ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر و القبول.

ثم قال القاضي: وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها، فذكر ماتقدم من امتناع عسكره من الهجوم على ملك الانكلتيز، وهو في جمع يسير من اصحابه بعد أن أطافوا بهم، وواجه الجناح السلطان بذلك الكلام الخشن، فرجع السلطان مغضبا وظن أنه ربما صلب وقتل في ذلك اليوم، فنزل بيازور، وقد وصله من دمشق فاكهة كثيرة فطلب الأمراء ليأكلوا،فحضروا فرأوا من بشره وانبساطه ماأحدث لهم الطمانينة والأمن والسرور.

قال: وكان رحمه الله كثير المروءة، ندي الوجه كثير الحياء منبسطا لمن يرد عليه من الضيوف، يكرم الوافد عليه،وإن كان كافرا، ولقد وفد عليه البرنس صاحب أنطاكية فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته،

بعـد وقوع الصلـح في شوّال عنـد منصرفـه من القـدس الى دمشق، وقـد تقدم ذلك وعرض لـه في الطريق، وطلب منه شيئا، فـأعطاه العمق وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح السـاحل سنة أربع وثمانين، ولقد رأيته وقد دخـل إليه صـاحب صيـدا فـاحترمه واكـرمـه وأكل معـه، وعرض عليـه الاسلام وذكـر له طرفا مـن محاسنه وحثه عليـه، وكان يكرم من يـرد عليه

من المشـايخ وأربـاب العلم والفضـل وذوي الأقدار، وكـان يوصينـا لئلا نغفل عمـن يجتاز بالخيـم من المشايـخ المعروفين ، حتى نحضرهـم عنده وينالهم من احسـانه، ولقد مر بنا سنة أربـع وثمانين رجل جمع بين العلم والتصوف وكـان من ذوي الأقـدار، وكان أبوه صـاحب تـوريز، فـأعرض هـوعن فـن أبيه واشتغـل بالعلـم والعمل، وحـج ووصل زائرا لبيـت الله المقدس، ولما قضـى لبانتـه منه ورأى اثار السلطـان فيه، وقـع له زيـارته فوصـل إلينا إلى العسكـر، فلقيته ورحبـت به، وعـرفت السلطـان وصولـه فاستحضره وشكره عن الاسلام وحثه على الخير، وانصرف وبات عندي في الخيمة ،فلما صلينـا الصبح أخـذ يودّعنـي، فقبحت لـه المسير بدون وداع السلطـان فلـم يلتفـت ولم يلـو على ذلك وقـال: قضيـت حـاجتـي منـه ولاغرض لي فيما عـدا رؤيته وزيارته، ثـم انصرف من ساعتـه ومضى على ذلك ليـال، فسأل السلطان عنـه فأخبرته بفعلـه،فظهر عليه اثـار العتب كيف لم اخبره برواحه، وقـال: كيف يطرقنا مثل هذا الـرجل وينصرف عنا من غير احسان يمسه منا، وشـدّد النكير عليّ في ذلك، فماوجدت بدا من أن أكتب كتابا إلى محيي الدين قاضي دمشق، كلفته فيه السؤال عن حال الرجل، وايصال رقعـة كتبتها اليه طي كتابي أخبرته فيهـا بانكار السلطان رواحـه مـن غير اجتماع به، وحسنـت لـه فيهـا العـود وكان بينـي وبينـه صداقـة تقتضي مثل ذلـك فعاد واجتمع بـالسلطان، فـرحب بـه وانبسط معه واستـوحش له، وأمسكـه أياما ثم خلـع عليه خلعة حسنـة،و أعطاه مركـوبا لائقـا وثيابا كثيرة ليحملهـا إلى أهل بيته وأتبـاعه وجيرانـه، ونفقة يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر الناس له وأخلصهم دعاء لأيامه.

قال: ولقد ر أيته رحمه الله وقد مثل بين يديه أسير فرنجي ، وقد هابه بحيث ظهر عليه أمارات الخوف والجزع ، فقال له الترجمان : من أي شيء تخاف فأجرى الله على لسانه أن قال: كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه، فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أني ماأرى إلا خيرا فمنّ عليه وأطلقه، ورق له.

قال: وكنت راكبا في خدمته في بعض الأيام قبالة الفرنج ووصل بعض اليزكيةومعه امرأة شديدة التحرق، كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها، فذكر قصة أم الرضيع الذي سرق وقد مضت.

قال: وكان رحمه الله لايرى الاساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الجناية، ولقد بدل في خزانته كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب شيئا سوى أنه صرفهم من عملهم لاغير، وكان رحمه الله حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة، حافظا لأنساب العرب ووقائعهم، عارفا بسيرهم وأحوالهم ، حافظا لأنساب خيلهم، عالما بعجائب الدنيا ونوادرها، بحيث كان يستفيد محاضره منه مالايسمعه من غيره، وكان يسأل الواحد مناعن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه، وتقلبات أحواله ، وكان طاهر المجلس لايذكر بين يديه أحد إلا بالخير، وطاهر السمع فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا بالخير، وطاهر اللسان فما رأيته أولع بشتم قط، وطاهر القلم فما كتب بقلمه أذى لمسلم قط، وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفه، وجبر قلبه وأعطاه خبز مخلفه، إن كان له من أهله كبير يعتمد عليه وسلمه إليه، وإلا أبقى له من الخبز مايكفي حاجته، وسلمه إلى من يكفله ويعتني بتربيته، وكان مايرى شيخا إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله عز وجل إلى مقر رحمته، ومحل رضوانه.

قلت: ولجعفر بن شمس الخلافة من قصيدة رثاه بها:

ألست ترى كيف انبرى الخطب ثائرا
ومدّ يداً منه إلى دافع الخطب
إلى الناصر الملك الذي ملئت به
قلوب البرايا من رجاء ومن رعب
كريم أتاه الموت ضيفا فلم يكن
لينزله إلا على السهل والرحب
ولو خاب منه قبل ذلك سائل
لخاب وليس البخل من شيم السحب
قضى فقضى المعروف وانقرض الندى
وحطت رحال الوفد في الشرق والغرب
أفاض على الدنيا سجال نواله
فغاضت عليه أعين العجم والعرب
ولو أنه يبكى على قدر حقه
أسال دموع المزن من أعين الشهب
جزاه عن الاسلام خير إلهه
فما مل عنه من دفاع ومن ذب
تداركه بعد ابتذال فقد غدا
وكان شديد الخوف من مقارنة الصلب
أذل الله العدا مذ أطاعه
وسهل منهم كل ممتنع صعب
سقى الخلد عند الله دار مقره
يمتع منه بالجوار وبالقرب

فصل

في انقسام ممالكه بين أولاده وأخوته وبعض ماجرى بعد وفاته

قال العماد في كتاب البرق: خلف السلطان سبعة عشر ولداً.

أكبرهم الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس وستين وخمسمائة، وتولى بعده دمشق إلى أن خرج منها إلى صرخد، وتولاها عمه العادل في شعبان سنة اثنتين وتسعين مضافة إلى ممالكه بالبلاد الشرقية والجزيرة وديار بكر.

ثم الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان، ومولده بمصر ثامن من جمادى الاولى سنة سبع وستين، وتوفي بها في ملكه ليلة الاحد العشرين من محرم سنة خمس وتسعين، وتولى بعده احد اولاده الصغار.

ثم الملك الظاهر غياث الدين غازي، ومولده بمصر منتصف شهر رمضان سنة ثمان وستين، وتولى حلب واعمالها.

قال :ولقد أنشأت الرسالة الموسومة بالعتبى والعقبى فيما طرأ بعد السلطان إلى آخر سنة اثنتين وتسعين.

وقال في كتاب الفتح :تولى الملك الأفضل دمشق والساحل ومايجري مع ذلك من البلاد، وهو الذي حضر وفاة والده، وقام بسنة العزاء، وفرض الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء وإدناء الاولياء، وخلع على الاماثل والامراء والافاضل والعلماء وآوى اليه اخوته، وضم جماعته، وجهز اخاه الظافر خضرا مظفر الدين وانهضه لانجاد عمه العادل، كما سنذكره، وكانت حمص والمناظر والرحبة وبعلبك ومايجري معها في المملكة

الافضلية داخله، وقدم عليه سلطاناهما الملكان المجاهد والامجد الى دمشق، فتأكدت بينهم القرابة والالفة، ولما استقر الافضل بدمشق في مقام والده قدّم الى الديوان العزيز نجابين بانهاء الحال، ثم ندب ضياء الدين بن الشهرزوري في الرسالة، واصحبه عّدة والده في الغزاة وسيفه، ودرعه وحصانه، واضاف الى ذلك من الهدايا والتحف والخيل العراب ما استنفد وسعه وامكانه، فما تهيأ مسير الرسول إلا في اواخر جمادى الآخرة، حتى حصل كل ما أراد من الهدايا الفاخرة، وحتى كاتب مصر وحلب واعلم بمسير رسوله، حتى لايظن انه انفرد بسوله، وقصد مداراة اخوته، وفضل بفضل نخوته، وذلك بعد ان جدّد نقش الدينار والدرهم بسمتي امير المؤمنين وولي العهد عدّة الدين.

وقال ابن القادسي: وفي يوم الثلاثاء مستهل رمضان حمل ابن الشهرزوري ماكان أصحبه الافضل من حمل الشام الى الديوان العزيز، وهو صليب الصلبوت الذي كان قد أخذه والده، وذكر أنه ذهب يزيد على العشرين رطلا مرصعا بالجواهر، ومعه خادم مختص بخدمته، وحمل فرس أبيه وزرديته وخوذته وكانت صفراء مذهبة، ودبوس حديد وسيف وأربع زرديات، وقالوا هذه تركته وبها كان يقاتل، وتحفا جمة من الثياب، وحمل في جملة التحف أربع جوار من بنات ملوك الروم فيهن ابنة بارزان، وبنت صاحب جبلة.

قال العماد: وأمرني بانشاء الكتب وتحريرها، وتقريب المقاصد وتقريرها، منها :«اصدر العبد هذه الخدمة وصدره مشروح بالولاء، وقلبه معمور بالصفاء، ويده مرفوعة الى السماء للابتهال بالدعاء، ولسانه ناطق بشكر النعماء، وجنانه ثابت من المهابة والمحبة على الخوف والرجاء، وطرفه مغض من الحياء، وهو للارض مقبل، وللفرض متقبل، وهو يمت بما قدمه واسلفه من الخدمات وذخره ذخر الأقوات لهذه الأوقات، وقد أحاطت العلوم الشريفة بأن الوالد السعيد الشهيد الشديد السديد المبير

للشرك المبيد، لم يزل أيام حياته، وإلى ساعة وفاته مستقيما على جدد الجدّ، مستقيما في صون فريضة الجهاد إلى بذل الجهد، ومصر بل الامصار باجتهاده في ا لجهاد شاهده، والأنجاد والأغوار في نظره واحدة، والبيت المقدس من فتوحاته، والملك العقيم من نتائج عزماته، وهو الذي ملك ملوك الشرق وغل اعناقها، وأسر طواغيت الكفر وشدّ خناقها، وقمع عبدة الصلبان وقطع اصلابها، وجمع كلمة الايمان وعصم جنابها، ونظم أسبابها، وسدّ الثغور وسدد الأمور، وقبض وعدله مبسوط وامره محوط، ووزره محطوط، وعمله بالصلاح منوط، وماخرج من الدنيا الا وهو في حكم الطاعة الإمامية داخل، وبمتجرها الرابح الى دار المقامة راحل، ولم تكن له وصية الا بالاستمرار على جادتها والاستكثار من مادتها، وان مضى الوالد على طاعة إمامه، فالمماليك أولاده وأخواه في مقامه».

قال: وتولى ولده الملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع اعمالها، وأبقاها على اعتدالها، ونقاها من شوائب اختلالها واعتلالها، واحيى سنتي الجود والباس، وثبت القواعد من حسن السياسة على الاساس، واطلق كل ماكان يؤخذ من التجار وغيرهم باسم الزكاة، وضاعف ماكان يطلق برسم العفاة، وقدّم أمر بيت الله المقدس وعجل له عشرة آلاف دينار مصرية لتصرف في وجوه ضرورية، ثم أمده بالحمل، وأفاض عليه من الفضل، وقرر واليه عز الدين جرديك على ولايته، وأقوى يده برعايته، ووالى حمل الغلات من مصر إلى القدس، وابدل وحشته بوفاة السلطان من وفائه بالانس، ثم أشفق من غدر الفرنج في فسخ الهدنة، فأتى من تجهيز العساكر الى البيت المقدس بكل ما في المكنة، ثم سمع بحركة المواصلة ومن تابعهم، وبايعهم وشايعهم، وقد خرجوا في ايمانهم حانثين، فخيم ببركة الجب واستشار امراءه أهل الرأي واللب، وجهز جيشا فوصلوا إلى دمشق وقد فرغ العادل من حرب القوم وسلمهم،وهز منهم أعطاف الاستكانة له بعد هزمهم، فرأى ان الحمد اعود.

قال :وتـولى حلب وأعمالها وحصونهاومعاقلهـا وكرائم البلاد وعقـائلها الملـك الظـاهر غـازي، وهـو بـرجـاحته وسماحتـه الطـود والجود الموازن الموازي، وملـك مملكـة أقطـارهـا واسعة، وأمصـارهـا شـاسعـة، فحماهـا وحواها، وبماء العدل رواها وقـوّاها، وأقر البيرة وأعمالهاومايجري معها على أخيه الملك الزاهر مجير الدين داود، ودخل في امره صاحب حماه ابن تقي الدين فأعزه وحماه.

قلت :وهو مأوى ذرّية والده، وبقـي الملك منهم في عقبه، وانحاز كل من أخـوته وأولادهم إليـه، وعوّلوا في تمشية أمـورهم عليه، والأمـر مستمر على ذلك في عقبه إلى الآن، والله تعالى ولي الاحسان.

ثـم زال ملك هـذا البيت في صفـر سنة ثمان وخمسين وستمائة بسبـب غلبة التتار الكفرة على ا لبلاد، والله بصير بالعباد.

ومـن كـلام القـاضي الفـاضل في جـواب ورد عليـه منـه بعـد مـوت السلطان:«متـى رأى المملوك خـط مولانا طـالعا في كتـاب، وطليعة على خطاب،تمثـل ذلك الشخـص الكريـم، وذلك السلطـان العظيم، وذلـك الخلق الكريم، وذلـك العهد القديم، فحيي بعد موتـه، وسبح من(يحيي العظـام وهي رميـم)(١٤٠) ،ورفـع يـده بها الله رافعه، ودعـا بصـالـح الله سامعه».

قال العماد: وكـان الملك العـادل مع السلطـان في الصيد قبـل وفاتـه، وكان مـوافقه ومرافقـه في مقتضياتـه، فلما عاد السلطان إلى دمشـق ودّعه ومضى إلى حصنـه بالكرك، فنـابه النائب، ولم يحضر وقـت احتضاره الاخ الغـائب، فلما عرف وصـل الى دمشـق بعد أيـام، ولم يطـل المقام ورحـل طالبا لبلاده بالجزيرة، حذراعليهـا من أهل الجريرة، وكان السلطان جعل له كل ماهو شرقي الفرات مـن البلاد والولايات، فلما وصل إلى الفرات

وجـد مماخـافـه دلائل الفترات، فأقـام بقلعـة جعبر، وسير إلى الولايـات الولاة، ووصى برعـاياه الرعاة، واستناب في ميافـارقين وحاني وسميساط وحـرّان والـرّها، وشحنهـا بـالشحـن وعلـم العـدا انه في خـف، فخفـوا وعرضـوا وصفوا، وكان سيـف الدين بكتمـر صاحب خـلاط قد استبشر بمـوت السلطان، وتلقـب بالملـك الناصر، وحـدّث أمله بجـر العساكـر، وراسل صاحبـي الموصل وسنجار، وطير إليهم كتب الاستنفـار، وضم إليه من مـاردين مـاردين، وطار وطـاش، وارتاش وانتـاش، فبينا هـو في أثناء ذلك قتلته الاسماعيلية بخـلاط رابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وثمانين، وأوّل من بـدا أمره بـالخروج على بلاد السلطان متـولى مارديـن، ونزل على حصن الموزر، وهذا الحصن كان السلطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين صالح أهلها، وأضافه إلى نائبه بالرهـا، ثم تحرك عز الدين أتابك صاحب الموصل وأخوه عماد الـدين زنكي صاحـب نصيبين، وأرسلوا إلى العادل: تخرج من بـلادنا أو تـدخل في مرادنـا، فكتب إلى بنـي أخيه يستنجـدهم ويستنفـرهم فـأنجـدوه، وكـان إنجاد حلـب أقـرب، وتقـدّم ذكر نجـدة الأفضل مـع أخيه الظاهـر، ونجدة العزيز الـواصلة إلى دمشق بعـد نجاز الأمـر،ووصلـت المواصلـة الى رأس عين ، والعـادل بحـران، وتقـارب العسكران حتـى ان الطلائع تتواجـه وتتجابـه، فمرض صاحـب الموصل ولم يطـق الاقـامـة، فغـادر ورجع عماد الـديـن أخـوه، وتضرع صـاحـب ماردين، وتشفع الأمـراء الأكابر فرضي العادل عنه وبلغـه قدوم ابن أخيه الظافـر إلى الفرات، فكتب إليـه بمنازلـة سروج وهي من أعمال مـاردين، وأمدّه بابـن تقي الدين، وابـن المقدّم، فنزلوا عليهـا ثامن رجب وفتحـوها تاسعـه، ورحل العادل منتصـف رجب إلى الرّقـة وتسلمها، ثم تملـك بلد الخابور جميعه، وجـاء الى نصيبين فنزل بظاهرها، وشرع في ضـم ذخائرها، فجاءت الـرّسل العماديـةفي طلب الصلـح، فرحـل ونزل دارا، وأتـاه خبر وفاة صـاحب الموصـل وتسليم بلـده إلى ولده نـور الديـن أرسلان شـاه، وجرى بينهـم وبينه صلـح، ثم كاتبـه أهل خلاط،فـرحل إليهـا فرأى أن

البرد يشتـد وأمـد الحصار يمتـد، فعـاد إلى حـران والـرها، وأعـرض عـن مخالطة خلاط، وتأخر إلى الربيع أمرها.

قال: واقليم اليمن مستقر للملك ظهير الدين سيف الاسلام طغتكين ابن أيوب أخي السلطان، وهو هنـاك سلطان عظيم الشان، مستول على جميع البلـدان، وكان قـدوصل ولده مـع الحاج قبل وفـاة السلطان بـأيام، فلما استقر الملك الأفضل على سرير أبيه كاتب عمه سيف الاسلام.

فصل

في وفاة صاحب الموصل وتتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشرق

قال عز الدين أبو الحسن علي بن الأثير: لما وصل خبر وفاة صلاح الدين إلى صاحب الموصل عز الدين استشار في الذي يفعله، فأشار عليه أخي مجد الدين أبو السعادات بالاسراع في الحركة، وقصد البلاد الجزرية فإنها لامانع لهامنه. وقال مجاهد الدين قايماز: ليس هذا برأي فإنا نترك وراءنا مثل المولى عماد الدين صاحب سنجار، ومعز الدين صاحب الجزيرة، ومظفر الدين صاحب إربل ونسير، وانما الرأي أنا نراسلهم ونستميلهم ونأخذ برأيهم وننظرمايقولون. فقال أخي: إن كنتم تفعلون مايشيرون به ويرونه فاقعدوا فانهم لايرون إلا هذا لأنهم لايؤثرون حركتكم ولا قوتكم، انما الرأي ان يبرز هذا السلطان ويكاتبهم ويراسلهم، ويستميلهم ويبذل لهم اليمين على مابأيديهم، ويعلمهم انه على الحركة، فليس فيهم من يمكنه أن يخالف خوفا من قصد ولايته لاسيما اذا رأوا جده وخلو البلاد الجزرية من مانع وحام، فهم لايشكون انه يملكها سريعا فيحملهم ذلك على موافقته، ومتى أراد الانسان أن يفعل فعلا لا تتطرق إليه الاحتمالات بطلت أفعاله، انما اذا كانت المصلحة أكثر من المضرة أقدم، وان كان العكس أحجم، فظهرت أمارات الغيظ على مجاهد الدين، فسكت أخي لأنه هو كان مخدوم الجميع على الحقيقة، والحاكم فيهم، واتبع المرحوم —يعني صاحب الموصل— قول مجاهد الدين، وأقام بالموصل عدّة شهور يراسل المذكورين فلم ينتظم بينه وبين أحد منهم حال، غير أخيه عماد الدين فإنهما اتفقا على قواعد استقرت بينهما، فإلى أن انفصل الحال وصل الملك العادل أبوبكر بن أيوب من الشام إلى حران وأقام هناك، وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماه وحلب، وامتنعت البلاد به، وسار عز

الدين عن الموصل إلى نصيبين وقد ابتدأ به اسهال بنزيف، واجتمع فيها بأخيه عماد الدين، وسارا في عساكرهما إلى تل موزن من شبختان لقصد الرها، فأرسل العادل حينئذ يطلب الصلح، وأن تكون البلاد الجزرية: الرها،وحران، والرّقة وما معها بيده على سبيل الاقطاع من عز الدين، فلم يجبه إلى ذلك وقوي المرض به واشتد إلى أن عجز عن الحركة، فعاد إلى الموصل في طائفة يسيرة من العسكر، فلما وصل دنيسر رأى ضعفا شديداً فأحضر أخي، وكتب وصية، ثم سار إلى الموصل فوصلها مريضا بالاسهال، وبقي كذلك إلى أن توفي في السابع والعشرين من شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

قال: ولم أسمع عن أحد من الناس بمثل حاله في مرضه، فإنه كان لايزال ذاكراً الله تعالى حتى أنه كان إذا تحدث مع إنسان يقطع حديثه مراراً، ويقول أشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لايموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله، وأشهد أن الموت حق، وعذاب القبر حق، وسؤال منكر ونكير حق، والصراط حق، والميزان حق، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، ويقول لمن عنده يخاطبه: إشهد لي بهذا عند الله تعالى، ثم يعود إلى حديثه، وأحضر عنده من يقرأ القرآن، فلم يزل كذلك إلى أن توفي رحمه الله ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن الموصل، مقابل دار المملكة، وهي للفريقين الشافعية والحنفية، وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة اشهر، وكان أسمر مليح الوجه حسن اللحية،خفيف العارضين، وحكى لي والدي قال: هو أشبه الناس بجده الشهيد قدس الله روحه، قال: وكان رحمه الله ديِّناً خيراً قد ابتنى في داره مسجدا يخرج إليه في الليل، ويصلي فيه أوراداً كانت له، ويلبس فرجية كان قد اخذها من الشيخ عمر النسائي الصوفي، ويصلي فيها، وكان قد حج ولبس بمكة حرسها الله خرقة التصوف من الشيخ عمر النسائي المذكور، وكان من

الصـالحين، وأوصى بـا لملـك لابنه نـور الديـن أرسـلان شاه، وأراد اخـوه شرف الدين بن مودود بن زنكي أن يوليه فلم يفعل، وبقي نور الدين إلى سنـة سبـع وستمائة، فتوفي في شهـر رجـب منهـا، ودفـن با لمدرسـة التـي أنشأها بباطن الموصل حذاء دار السلطنة، وكان عهد با لملك لابنه القاهر عز الدين مسعود، وجعل الامير بدر الديـن لؤلؤا القائم بأمر دولته، وولاه إمـارة الجيوش والعسـاكر ، وسيـاسة القبـائل والعشائر، ثـم توفي الملـك القاهـر في ربيع الاول مـن سنة خمس عشـرة وستمائة فجـأة وخلف ثـلاثة بنين صغارا.

قال: وأمـا عماد ا لدين زنكـي بن مودود بن زنكـي، صهر نور الـدين رحمه الله، وهو صـاحب سنجار، فإنـه توفي في المحرم سنـة أربع وتسعين، وكـانت ولايتـه ثلاثين سنـة، وكان عـدله قـد عم البـلاد، وغمر العبـاد، وأريقت الخمور وحـدّ شاربها، وكانت صـدقاته تصل إلى أقـاصي البلاد، وتولى بعـده ولده الأكبر قطب الـدين محمد بـن زنكي، وكان متـولي أمره مجاهد الدين يرنقش العمادي.

قال: وحاصر الملك العادل أبو بكـر بن أيوب ماردين في سنة خمس وتسعين، فبقي محاصراً لها أحـد عشر شهراً، ولم يبق إلا الاستيـلاء عليها، فبينما العـادل يحاصرها إذ تـوفي ابن أخيـه ا لملـك العزيـز صاحـب مصر، وكان عسكره مـع عمه العادل على ماردين، فلما توفي ملـك أخوه الأفضل مصر، وكـان بينـه وبين عمـه العــادل نفـرة، فلما ملـك مصر أرسـل إلى العسكر المصري الـذي مع عمـه يأمرهـم بمفارقتـه، ففارقـوه، وعادوا إلى مصر فقل جمعـه وعسكره، ثم خـرج الأفضل عن مصر عـازما على حصر دمشق واستعادتها من عمـه، فسار العادل عن ماردين جـريدة إلى دمشق ليحفظها بعدما كـان قد طلع سنجقه إلى قلعة ماردين، وترك ولده ا لملك الكـامـل محمـداً محاصراً لها إلى أن اجتمـع صاحـب سنجـار، وصـاحـب الموصل على ترحيله عنها، فرحل.

- ٨٩١٨ -

قال: وفي سنة ست وستمائة سار الملك العادل بن أيوب من الشام إلى سنجار في العساكر الشامية والمصرية، والجزرية والدياربكرية، فحصرها ونزل عليها من كل جانب، ونصب أحد عشر منجنيقا ثلاثة أشهر، وانتخى صاحب الموصل وصاحب إربل لصاحب سنجار، وأنفذ الخليفة رسله فأصلح الأمر، وانتظم الصلح ولله الحمد.

- ٨٩١٩ -

فصل

وأما رسالة العماد: الكاتب المعروفةبالعتبى والعقبى التي أشار إليها في آخر كتاب البرق، فيما جرى بعد وفاة السلطان إلى سنة اثنتين وتسعين، فقد وقفت عليها، وحاصل مافيها أن قال: لما توفي السلطان رحمه الله، وملكت أولاده كان العزيز بمصر يقرّب أصحاب أبيه، ويكرمهم، والأفضل بدمشق يفعل ضد ذلك يقرّب الأجانب ويبعد الاقارب، وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزيرالجزري الذي استوزره.

قلت: هو الضياء ابن الأثير أخو عز الدين المؤرخ ومجد الدين وفيه يقول الشهاب فتيان الشاغوري :

متى أرى وزيركم ... وما له من وزر
يقلعه الله فذا ... أوان قلع الجزر

قال العماد:لما طلب من الأمراء أن يحلفوا له ، أظهروا له أيماناً وهم قد أضمروا الحنث فيها ، ولم يخف ذلك عليه ، ولما رأى الفاضل أمور الأفضل مختلة، تركه وسار إلى مصر ، وشرع الوزير الجزري في تفريق العصبة الناصرية، وما منهم إلا من فارق إلى الديار المصرية ، وكان قد أشير على الأفضل بإخلاء البيت المقدس لنواب العزيز بأعماله، حذراً من تكاليفه وأثقاله، فأجاب إلى ذلك، وقد كانت نابلس وأعمالها قد وقف السلطان ثلثها على مصالح القدس، وباقيها على ابن الأمير علي ابن أحمد المشطوب فشاركه أحد الأمراء الأكراد فيه، فمدوا أيديهم إلى الوقف، وساءت سيرتهم وتخوفوا من إنكار الملك العزيز عليهم، فلجأوا إلى الأفضل، فأفضل عليهم وسكن إليهم، فتأثر الملك العزيز بذلك، وأقوى الأسباب فيما حدث من النفار، نفار الأمراء الناصرية الكبار، ومفارقتهم دمشق إلى مصر على سبيل الإضطراب والإضطرار، فأعزهم

العزيـز، ورفعهم فـاتفقوا على أن تكون كلمـة الإسلام مجتمعـة على الملك العزيـز لإحياء سنـة والده في الجود والبأس والكـرم، ومن جملـة الأسباب الباعثة تسلم الفـرنج ثغر جبيل من بعض مستحفظيـه، وضعف الأفضل عن استخـلاصه، فقيل للعـزيز: إن توانيت استـولت الفرنـج على البلاد، فخرج العـزيز بعساكـره، وبلغ الأفضـل فضاق صدره، واجتمـع بمن في خدمتـه من الأمراء بـرأس الماء، وأراد أن يستعطف قايماز النجمـي وكان في اقطاعـه بالسواد، وكـان بينه وبين الأفضل شقـاق وعناد، فأرسـل إليه فلـم يقبل ورحـل إلى عسكر العـزيز، ورأى الأفضـل أن يكتب إلى أخيـه بكـل مـا يجب من إعـلاء كلمتـه والإجتماع عليـه، ويكون الأفضـل مـن بعض القـائمين بين يديه، طلبـاً لتسكين الفتن، ورغبة في ذهـاب الاحن، فـأشير عليـه بغير الصـواب ، وقيل أنـت الكبير وإليـك التـدبير، فجـدّ واجتهـد ولايعلـم أصحـابك بهذا الخور الـذي داخلـك، والجبـن الـذي نازلك، ونحن بين يـديك، وكلنا عاقدون بـالخنـاصر عليك، ووصل رسول الملك الظـاهر والكتب مـن الملوك الأكابـر بالانجـاد المتظاهر لـلأفضل، وسير الأفضل إلى عمـه العادل وهـو بحران والـرها كتبـاً ورسلاً، لما أبطـأ عليـه مسير عز الـدين عثمان الـزنجيلي على نجيب ليسرع ويـأتي به عـن قـريـب، وكتبـه واصلـة بعزمـه على نصره ونجـدتـه، وذلـك أوائل جمادى الآخرة من شهور سنة تسعين، ولم يشعر الأفضـل إلا والعزيز بعساكره قد وصلوا إلى الفوّار، فعجل الرحيل وقد خالطت عساكر العزيز ساقه جيش الأفضل، فـأسرع ودخل دمشق يوم الجمعـة خامس جمادى، ونزل العـزيز يوم السبت بالكسوة، ونزل على دمشق يـوم الأحد، فلم يزل الأفضل يمانع ويـدافع حتـى وصـل عمـه العادل، فكتـب إلى العـزيـز يسألـه الإجتماع فتواعدا واجتمعا راكبين بصحراء المزة، فعذلـه في أخيه، واستنزله عما كان فيه، فقال: على رضاك واتباع هواك، وقـال: نفس عن البلد الخناق، وكان قـد بلي البلد منهـم بمالا يطـاق، من قطـع الأنهار، وقطـف الثمار، فتأخـر العـزيز إلى صـوب داريا، والأعـوج، وكان قـد اجتمع عنـد الأفضل مـن

الملوك: عمه العادل، والمجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد ابن شيركوه صاحب حمص، والأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك، والمنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماه، ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين ابن السلطان، فاتفقوا على عقد يؤكد، وعهد يمهد، ورحل العزيز إلى مرج الصفر لكون المقام به أرفق، فمرض حتى أيس منه، ثم أفاق وأرسل من جانبه الأمير فخر الدين جركس، واعتمد عليه في هذه النوبة، فوصل إلى العادل في تعديل الأمور، فتقرر بينهم الصلح، وتزوج العزيز ابنة عمه العادل، وخرج الملوك لتوديع الملك العزيز في أول شعبان واحداً بعد واحد، فخرج الظاهر أولاً، والتقيا ونزلا بمرج الصفر، وبات عنده ليلة، ثم رجع وخرج العادل، ثم الأفضل، فلما اجتمع بأخيه فارقه وما ثوى، ورجع كل إلى بلده، ولما استقر الأفضل بدمشق قضى حقوق الجماعة وشكرهم، ورحل الظاهر صوب حلب رابع عشر شعبان، وأقام العادل إلى تاسع شهر رمضان، ورحل إلى بلده الرها وحران، ثم إن الأفضل نظم أبياتاً يكتبها إلى أخيه العزيز في استعطافه واستمالته، وقال: كنت فارقت أخي مذ تسع سنين، وما التقينا إلا في هذه السنة فقلت:

نظرتك نظرة من بعد تسع
تقضت بالتفرّق من سنين

وغض الدهر عنها طرف غدر
مسافة قرب عين من جبين

وعاد إلى سجيته فأجرى
بفرقتنا العيون من العيون

فريح الدهر لم يسمح بوصل
يعود به الهجوع إلى الجفون

فراقاً ثم يعقبه ببين
يعيد إلى الحشا عدم السكون

ولا يبدي جيوش القرب حتى
يرتب جيش بعد في الكمين
ولا يدني محلي منك الا
إذا دارت رحى الحرب الزبون
فليت الدهر يسمح لي بأخرى
ولو أمضى بها حكم المنون

قال: ثم كثر الشر ممن حول الأفضل في حق الأمراء الكبار ذوي الأقدار، فأنفوا من ذلك، وازمعوا على الإنفصال لسوء تلك الحال، فممن سار إلى مصر عز الدين سامة، وحرض العزيز على القيام لنصرة الدولة الناصرية، وعرفه أن أخاه الأفضل مسلوب الإختيار، مع من حوله من الأشرار، وممن سار إلى مصر القاضي محيي الدين محمد بن أبي عصرون، وتولى بعد أشهر قضاء القضاة بمصر وأعمالها، وذلك سنة إحدى وتسعين فاستمرت ولايته إلى أن عاد العزيز من الشام، وتبعه العادل فصرفه وأعاد القضاء إلى زين الدين علي بن شرف الدين يوسف الدمشقي، وكان نائباً لصدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس، ثم استقل ثم عزل بابن أبي عصرون ثم أعيد إليه، وكان الأفضل قد اشتغل بعد انصراف أخيه باللذات، وتشاغل عن أمور الناس بإدمان الشراب، مع من حوله من الأصحاب، ثم أقلع عن ذلك وتاب وجدّ في الذكر والزهد وأناب، وشرع في كتب مصحف بخطه، وحسنت طريقته، وظهرت حقيقته، وذلك في أوائل سنة إحدى وتسعين.

وفي هذه السنة في ربيع الآخر وصل الخبر بأن العزيز قادم يحصر دمشق مرة ثانية، فاشتدّ غم الأفضل، فأشير عليه بأن يرحل إلى عمه العادل، ويأتي به لدفع هذا القضاء النازل، فرحل رابع عشر جمادى الأولى والتقى بعمه بصفين، وطلب منه الرجوع معه إلى دمشق ففعل، ووصل العادل إليها تاسع جمادى الآخرة، وتخلف عنه الأفضل، وقصد

حلب للاستظهار بـأخيه الظاهر، فوثق معه الإيمان على مـا كان عليه من الصفا، وكذلك فعل بابن تقـي الدين بحماه، ووصل إلى دمشق واجتمع مع عمه العادل، وكان العادل أبـداً يشير بصرف الوزير الجزري، وكان قد استولى على الأفضـل، فلم يقبل، فكـان العادل أبـداً مغتماً لذلك، فبـالغ الأفضل في إكرام عمه، وإزالة غمه حتى تـرك له سنجقه وصار يركب في خدمـة عمه، وضاق أخوه الظـافر من هـذه الحال، وكان الظاهر قـد نفر عليه جماعـة من الملوك والأمـراء ممن هم في طاعتـه من جملتهم صـاحب حماه، وعز الدين بـن المقدّم صاحب بارين، فـراسلا العادل في الاعتصام بـه، وكان مـن جماعتهـم بدر الـديـن دلـدرم بن بهاء الـدولـة بن يـاروق صاحب تل باشر فاعتقله الظاهـر وبني عمه، وطلب منه تسليم حصنه، فشفع العادل فيهم، وكفل أنه يكفهم ويكفيهم، واستصحبهم إلى دمشق فطلب منـه الظاهـر الوفاء بضمانـه فتعذر عليـه ردّهم، وتيسر لـه ودّهم، فغضب الظاهر لـذلك وراسل العزيز يحثه على الإسراع في القـدوم فأقبل العزيز وخيم بالفوّار .

وشرع العادل في تـدبير أمور الأفضـل، فكاتـب الأمراء الأسـدية مـن أصحاب العزيـز يحثهم على تركه، والانقطاع إلى حـزب الأفضل وسلكه، وكانت الأسـدية أبداً في عناء مـن تقدّم الناصرية عليهـا، وراسل العادل أيضاً العزيـز يخوفه من قبل الأسديـة، ويعرفه ماانطوت عليـه قلوبهم من الغل، فكانوا إذا لقيهـم عرفوا في وجهه التغير عليهم فرغبـوا عنه وحسنوا للأكراد مرافقتهم في الإنصراف عنه، ففعلـوا، وكان أمير أمراء الأكراد أبو الهيجـاء السمين، فـدارت الأكـراد حـولـه وقالـوا: لانـأمـن عليـك مـن الناصريـة فأبرمـواأمرهم، وعجلـوا رحيلهم، فرحـل أبو الهيجاء والمهـرانية والأسديـة عشية.الإثنين رابع شـوّال، وكانوا أكثـر العسكر، واعلم العـزيز بهم فما بالى بـانصرافهم، وقـال: صفونـا من أكـدارهم ولم يـأمر أصحـابه باتباعهم وردّهـم ،وبقي في خواصه مقيماً تلك الليلة، ثـم رحل عائداً إلى مصر فجاء رسـول أبي الهيجاء السمين إلى العـادل يعلمه بـرحيل العـزيز

خائفاً، ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويـأخذوه ويتسلموا ملك الديار المصرية، فتحـالـف العـادل والأفضـل على ملـك مصر أن يكـون للعـادل الثلـث وللأفضل الثلثان.

وخـرجـا يوم الأربعـاء في الجيـوش واستنـاب الأفضـل بدمشـق أخـاه الأصغر قطب الـدين موسى، وأما العزيـز فإنه سار وأخذ طـريق اللجون والرملة وفرق من الأسدية الذين بالقاهرة أن يفعلوا فعل إخوانهم فيمنعوه مـن دخول البلـد، وكان مقـدّمهم الأمير بهاء الـدين قـراقوش وهـو أكبر الأمراء الأسدية قد استنابه العزيز بالديار المصرية فهو مقيم على الصفاء، والمودّة والاخـاء، فلما وصل العـزيز تلقـوه، وإلى ذروة سلطنتـه رقوه، وأمـا العادل والأفضل فـاجتمعا بالمتخلفين عن العـزيز وحرصت الأسـدية أن يسبقوا العزيز فلم يقدروا، واجتهدوا أن يدركـوه ويتقدّموا فتأخروا فأمرهم العادل بـالثبات، وتسلـم القدس وأعماله ومـا يجاوره من أعمال السـاحل أبو الهيجـاء السمين بأمـر الأفضل والعادل فـرتب فيهـا نوابـه، وأسكنها أصحـابـه، وصحبهـم إلى الـديـار المصريـة لمحـالفـة الأسـديـة ومخالفـة الناصريـة، فنزل بهم العادل على بلبيس، وكان أوان أخذ زيـادة النيل في الإنتهـاء والسعر غـال، وظهـرت نـدامة الأسـديـة، وضعفـت معونتهـم، وضوعفت مؤونتهم، فخاف من مكـرهم والعدول إلى مستقرهم،فأرسل إلى القـاضي الفاضـل يستوفـده للإستـزاره، ويسترشده بـالإستشارة، فـألزمـه العزيز بإجـابة سؤاله فخرج إليه واستبشر الناس بخـروجه رجاء الصلح، وركـب العـادل وتلقاه على فراسـخ واجتمعا وأصلحا الأمـور على ما يجب الفـريقان، وعفـا العزيـز عن الأسـديـة، وأقام العـادل عند العـزيز وأمـا الأفضل فإن العزيز خرج إليـه وودّعه فانصرف، ومعه أبو الهيجاء السمين وتولى القدس، ووصل الأفضل إلى دمشق غرة المحرم سنة إثنتين وتسعين.

ثـم إن الأفضل لازم صيـامـه وقيامـه، وقلل شرابـه وطعـامه، وحسـن شعـاره، واستوى ليلـه ونهاره، ووزيـره الجزري قد بلي النـاس منـه ببلايـا،

وهو في غفلة عن تلك القضايا، وكان يدخل إليه ويوهمه من قبل أقوام أنهم عليه، وأنهم يميلون إلى أخيه فيصدّقه الأفضل فيما يدعيه، فصار يبلغ العادل عنه أحوال ما تعجبه بل تغضبه، وصار يتصل به كل من هاجر من الشام إلى مصر، وما منهم إلا من يشكو من الوزير الجزري، وكان قايماز النجمي قد لصق بالعادل، وكذلك عز الدين سامة، وصاهر العادل وظاهره، وكان العادل بمصر، مستوطنا للقصر، فوعد الجماعة بإزالة يد الوزير الجزري وردّه إلى بلاده، وقرّر مع العزيز تسيير عسكره معه إلى الشام ليمهد له قاعدة الملك في سائر بلاد الإسلام، فاخرج العساكر إلى بركة الجب، وخرج العزيز لتشييعه وذلك مستهل ربيع الأوّل، ووصل الملك الزاهر مجير الدين داود من حلب إلى أخيه العزيز من جانب الظاهر لتسكين هذا الرهج الثائر، ومعه سابق الدين عثمان صاحب شيزر، والقاضي بهاء الدين بن شدّاد، ثم إن العادل أشار على العزيز بأن يوافقه على المسير ويرافقه فيه، فرآه عين التدبير، فسارا بالعساكر نحو الشام، ولما انصرفت رسل الظاهر من مصر بها طلبوا مروا بدمشق، فأعلموا الملك الأفضل بما أبرم من الأمر، فضاق صدره، وطال فكره، واستشار أصحابه فأشار عليه شيوخ الدولة بأن يستقبل أخاه وعمه، ويسلم لهما حكمه وأشار الجزري وأصحابه بالتصميم على المخالفة، وترك المجاملة والملاطفة، ثم دخل عليه أخوه الملك الظافر خضر فشجعه وصبره، وتولى أسباب التحصير، وحلفوا الأمراء والمقدّمين، وقطعوا ما فوق المصلى عند مسجد فلوس بفصيل، ورتبوا رجالا حوالي البلد يتناوبون لحفظه في البكرة والأصيل، وتفرّق الأمراء على الأسوار والأبراج، وجاءت الرسل الظاهرية لإظهار المظاهرة، وندب الأفضل فلك الدين أخا العادل إليه منه رسولا، فوصل إلى العسكر العزيزي بالداروم وغزة، ولقي عند العزيز من قوله العزة، فبقي فلك الدين هناك أياماً في إصلاح ذات البين، ولاشك أنهم اشترطوا على الأفضل شروطاً وردّ وه بها وأقاموا ينتظرون الجواب، فنفذ من ذكر أن الأفضل أبى ذلك،

فلما رأى الأكابر وشيوخ الدولة أن الأفضل لايسمع من رأيهم، وأنه عازم على المحاربة، ولا يعدل عن رأي وزيره، مع ما قد عرفه من شؤم تدبيره، شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن، فراسلوا العزيز والعادل واستظهر كل لنفسه، وأقام العسكر مذ عاشر رجب على البلد مستظهراً بالعدد والعدد، لايحدث حدثاً، ولا يعبث بالبلد إلا عبثاً، فكتب الأولياء من البلد إلى العزيز والعادل بانتهاز الفرصة، فركبوا وتأهبوا يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب، فما صدهم عن قصد البلد أحد، وما كان في طريقهم إلا الملك الظافر ومعه عسكر حلب، فقاتل على ظن قتال الجماعة، وما عنده علم بما دبروه من المخامرة، فحادوا ولم يكترثوا، ووصل العزيز إلى الميدان الأخضر، ووصل العادل إلى باب توما وكان الأمير الأمين به قداستنهضه إليه بكتبه، ففتحه له فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي، وبات العادل في الدار الأسدية، ودخل العزيز من باب الفرج، وبات في دار عمته الحسامية، وخرج إليه الأفضل ولقيه، وتجرع من هم زوال ملكه ما سقيه، فلما ملك العزيز دمشق أقام أياماً بالميدان الأخضر الكبير إلى أن انتقل الأفضل من القلعة بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره الجزري مخفياً في صناديقه، إشفاقاً عليه من قتله وتحريقه، وتحوّل الأفضل تلك الأيام إلى مسجد خاتون وما يجاوره ومعه وزيره فهرب ليلا إلى بلاده وقد ادّخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين.

قال وكان العزيز قرّر مع العادل أن يقيم العزيز بدمشق ويستنيب العادل بمصر، فلما ملك دمشق ندم على ماقرّره، ورجع عما دبره، ونفذ إلى أخيه الأفضل في السر يعتذر إليه، ويشير بما كان اشترط عليه، فأظهر الأفضل هذا السر لصحبه، والمخصوصين بقربه، فقالوا لا تنخدع بهذا القول فربما كانت خديعة، وأطلع عمك العادل على هذا السر فإنه يرى ذلك عين البر، فأرسل إلى العادل من أعلمه بذلك فعزت عليه مراسلة العزيز الأفضل واجتمع بالعزيز وعتبه ، وقرعه بماأنبيء به وأنبه، وقال

له: أبنـي وتهدم، وأوجد مصالحك وتعـدم، فأنكر الحال وأحـالها وانتقض الأمر قبـل إبرامـه، ووجه إلى الأفضـل من أزعجـه، وإلى صرخد أخـرجه، وسد طـريق الاستنصـار على أخيه الظـافر حتـى أسلم في تسليـم بصرى للظفـر بسـلامته، وبـذلها ولم يتبعهـا بنـدامتـه، ورحل إلى حلـب وأظهـر الظاهـر الاحتفال به، وأمـا الأفضل فإنـه سار إلى قلعة صرخـد وسكنها، وحوّل أهلـه وأخاه قطب الـدين إليها وتوطنهـا،وعند خروج الأفضـل من قلعة دمشـق دخل العـزيز إليهـا يوم الأربعـاء رابع شعبـان، وجلس يـوم الجمعـة في دار العدل، واعتقـد النـاس أنه يطـول مقامـه عنـدهم، فلـم يشعروا به إلا وقـد برّز للرحيل، وتقـدم إلى العادل بأن يتولى البـلاد وفارق دمشق عشية الإثنين تـاسع الشهر، ونزل بـالمخيم فوق مسجد القـدم، ثم تحوّل إلى الكسـوة وودّعـه بها يـوم السبـت رابـع عشر الشهـر، فلما عـاد العادل من وداع العزيـز قرىء بالجامع منشوره العزيـزي بالبلاد والأعمال والنظر في جميـع الأحوال، وشـاع أنه نـائب العزيـز، وهو سلطـانه،وأبقـى الخطبة بـاسم العـزيز خاليـة من اسمـه ، حالية بـرسمه، وضرب الـدينار والدرهم على سكته وأظهر أنه قوي بشـوكته وشكته، وجلس يومي الإثنين والخميس للعدل، وبسط يده لجمع الأمـوال وخزنها، لوقت عموم الحاجة إلى صرفها.

فصل

هذا آخر ما انطوت عليه «رسالة العتبى من أخبار ما جرى بعد موت السلطان رحمه الله»، وللعماد أيضاً كتاب آخر سماه« بنحلة الرحلة » ذكر فيه أيضاً نحواً من ذلك وهو أن الأحوال اختلت وتغيرت بعد موت السلطان، وأراد العماد الرحلة إلى مصر، فأصحبه الأفضل رسالة إلى أخيه العزيز فمضى إليه وعنده عمه العادل، فلم يتمكن من الرجوع إلا معهما لما خرجا بالعساكر فذكر الحديث في أخذ البلد، قال: وخرج الملك الأفضل واجتمع بالعزيز في الميدان، ودخلا من باب الفرج متصاحبين إلى الضريح الناصري، وصعد العزيز القلعة يوم الأربعاء وصلى هذه الجمعة عند ضريح والده في هيئة المودع، وأظهر بالبكاء والنحيب عنده سر القلب الموجع، ودخل دار الأمير سامة في جوار تلك القبة، وأمر القاضي محيي الدين بن الزكي بأن يبنيها مدرسة للتربة، قلت هي المدرسة المعروفة بالعزيزية، ووقفها قرية عظيمة تعرف بمحجه، فهذا قدر ما في كتاب النحلة مما يتعلق بها نحن فيه، ولم يكن ذكر مثل هذا من شرط كتابنا هذا، لأنه موضوع للدولتين النيرتين إلا أنه لا بدّ من ذكر ما يتعلق بهما مما وقع فيهما وعقبيهما، وتبعنا العماد فيما ذكر في العتبى لكونه أشار إليها في كتاب البرق، واستوفينا ما في كتاب البرق، والفتح القدسي، والتاريخ الأتابكي، وكتاب القاضي أبي المحاسن وأتينا على ما فيها من المحاسن، وانضاف إلى ذلك قطعة كبيرة من مواضع متفرقة كثيرة من عدة مصنفات، ودواوين ومراسلات، والله تعالى يوفق ملوكنا للاقتداء بسيرة سلفنا، في إقامة فرض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة، والنظر في مصالح العباد، ومن كتاب فاضلي:« أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم فما الحيلة في تشريقه وإذا بدا تخريق ثوب فمايليه إلا تمزيقه،وهيهات أن يسدّ على قدر طريقه، وإذا كان الله مع خصم على خصم فمن كان الله معه فمن يطيقه».

فصل

بعد انتهاء هذا الكتاب واسماعه مرة، وقفت على ماحسن لي الحاقه بهذا الكتاب، من ذلك أن القاضي الفاضل كتب في سنة ثلاث وتسعين إلى القاضي محيي الدين بن الزكي كتابا قال فيه: « ومما جرى في هذه المدود من المثلات الجارية، والمعضلات العادية بأس من الله طرق بياتا، ونحن نيام وظن الناس أن اليوم الموعود قد طرق في الليل الممدود فإذا هم قيام إن الله تعالى أتى بساعة كالساعة، كادت تكون للدنيا كساعة،

في الثلث الأول من ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الآخرة، وذلك أنه أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عاصفة، قوي لهوبها واشتدّ هبوبها، وارتفعت لها صعقات، وتدافعت لها أعنة مطلقات، فرجفت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعدها واعتنقت، وثار من السماء والأرض عجاج،فقيل لعل هذه على هذه قد انطبقت، وتوالت البروق من جهة المقطم على نظام، وتبع الواحدة الأخرى وتقفى الثانية على أثر الأولى، وترى البروق واقفة وهي تتعاقب، وقائمة وهي تتجاذب، ولاتحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد، وعدا منها عاد، وزاد عصف الريح إلى أن انطفأت سرج النجوم ومزقت أدم السماء، ومحت ماكان فوقه من الرقوم، ولاتزال هذه الريح تسكن سكونا خفيفا ثم تعاود عودا عنيفا، فكنا كما قال الله تعالى(يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق)(١٤١) وكما قلنا: ويردون أيديهم على أعينهم من البوارق، لاعاصم من الخطف للأبصار، ولا ملجأ من الخطب إلاّ معاقل الاستغفار، وفرّ الناس رجالا ونساء وأطفالا، ونهضوا من دورهم خفافا وثقالا، لايستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، اذ يستغيثون ربهم ويذكرون ذنبهم، لايستغربون العذاب لأنهم على موجباته مصرون، وفي وقت وقوع واقعاته باستحقاقه مقرون، معتصمين بالمساجد الجامعة، ومتلقين الآية النازلة من السماء بالاعناق الخاضعة، بوجوه عانية، ونفوس عن الأموال

والأهل سالية، ينظرون من طرف خفي، ويتوقعون أي خطب جلي، قد انقطعت من الحياة علقهم، وعميت عن النجاة طرقهم، ووقعت الفكرة فيما عليه قادمون وندموا ونحمد الله أن نفعهم بأنهم نادمون، وقاموا إلى صلواتهم وودوا أن لو كانوا من الذين عليها دائمون، ولم يزل ذلك دأبهم كلما سكنت الرياح تحركت، وكلما قيل استقلت بركت، وكلما أخذت قيل ما تركت، حتى الثلث الأخير من الليلة المذكورة، والقلوب إلى الحناجر بالغة، والأبصار عن سننها زائغة، إلى أن أذن الله في الركود، وأسعف الهاجدين بالأمر لها بالهجود، وأصبح كل يسلم على رفيقه ويهنيه بسلامة طريقه، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة، وأفاق بعد الصيحة والصرخة، وأن الله قدرد له الكرّة، وأدبه بعد أن كاد يأخذ على الغرة، وورد من الخبر أن المراكب كسرها ماكان معترضا في التحرز للعارض، والأصول العادية من الشجر عدت عليها الريح بحماها النافض، وأن في الطرق من المسافرين من كان نائما فدفنته الرياح حيا، وركب عما أغنى الفرار مما هو أمامه شيئاً، ولايحسب المجلس أني أرسلت القلم محرفا، والقول مجزفا، فالأمر أعظم ولكن اللهسلم، والخطب أشق، ومابلغت ولا قضيت بهذا التكثير بعض الحق، ونرجو أن الله سبحانه قد أيقظنا، بماوعظنا، ونبهنا بما ولهنا، فما من عباده من رأى القيامة عيانا، ولم يلتمس عليها من بعده برهانا إلا أهل بلادنا فما اقتص الأوّلون مثلها في المثلات، ولا سبقت لها سابقة في المعضلات، والحمدلله الذي من فضله أن جعلنا نخبر عنها ولانخبر عنها ولا تخبر عنا، ونسأل الله أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور إذا عنّا، وشغلت خدمته بهذا المهم، وجعلته على علم من هذا العلم، فالسعيد من وعظ بغيره، وقدكانت لنا وفينا الموعظة، وللذكرى حدود ونعوذ بالله من اقامة حدوده المغلظة».

ومن كتاب له آخر الى العادل في سنة ثلاث وتسعين أيضا:« وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته إلى جانب بيروت، وخطر البلاد ماأذهل كل مرضعة، وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعه،

ولـلاسلام اليـوم قـدم إن زلت زل، وهمة إن ملـت فـإن النصر منه مـل، وتلك القدم العـادلية، وتلك الهمة الهمـة المسايفة السيفية، فـالله الله ثبتوا ذلـك الفـؤاد، ودمثوا ذلـك المهـاد، واسهـروا في الله فليست بليلـة رقـاد، ولاتنظروا في حديث زيد ولا عمـرو، ولا أن فلانا نفع ولا ضر، ولا أن من الجماعة من جاء ولا ان فيهم من مر، انظـروا إلى انكم الاسلام كله قد برز إلى الشرك كلـه، وأنكـم ظـل الله فـان صححتـم تلـك النسبـة فـإن الله لاناسخ لظله واصبروا إن الله مع الصابـرين، ولا تهنوا وإن ذهب الناصر فإن الله خير النـاصرين، فما هي إلا غمرة وتنجلي، وهيعـة وتنقضي، وليلة وتصبح، وتجارة وتربح» .

ومن كتـاب له آخـر إلى الملك العـادل :« أدام الله ذلك الاسـم تاجـا على مفـارق المنـابـر والطـروس ، وحيـاة للـدنيـا ومـافيهـا مـن الاجسـاد والنفـوس، وعرف المملـوك ماعـرفه مـن الأمـر الذي اقتضتـه المشاهـدة، وحرست به العاقبة في بيروت، ولامزيد على تشبيه الحال بقوله:

ألم تـــــران المرءتـــــــذوي يمينــــــه
فيقطعهـــــاعمـــــداليسلـــــم ســـــائره

ولوكـان فيها تدبير لكان مـولانا قد سبـق إليه، ومن قلم مـن الاصبع ظفرا، فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعا، ودفع عنه ضرا:

وتجســـم المكـــــروه ليـــس بضـــــائر
مــــــاخلتــــه سببـــــا إلى المحمـــــود

وآخر كـل شقوه أوّل كـل غزوه، فلا يسـأم مولانا نيـة الربـاط وفعلها، وتجشـم الكلف فهـوإذا صرف وجهه إلى واحـد، وهو وجـه الله صرف الله إليـه الوجـوه كلهـا(والذيـن جـاهدوا فينـا لنهـدينهم سبلنـا وإن الله لمع المحسنين)(١٤٢)

ومـن كتـــاب آخـر لـه:« هـذه الأوقـات التـي أنتـم فيهـا عـرائس

- ٨٩٣٢ -

الأعمار،وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهور الحور في دار القرار، وماأسعد من أودع يد الله مافي يديه، فتلك نعم الله عليه، وتوفيقه الذي ماكل من طلبه وصل إليه، وسواد العجاج في هذه المواقف بياض ماسودّته الذنوب من الصحائف، فما أسعد تلك الوقعات، وما أعود بالطمأنينة تلك الرجفات».

فصل

وللعماد الكاتب رحمه الله كتاب آخر سماه «خطفة البارق وعطفة الشارق» ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين إلى أن توفي هو رحمه الله في سنة سبع وتسعين وخمسمائة، واشتمل ذلك على فوائد تتعلق بما تقدّم، فأحببت إلحاقها به، من ذلك وفاة سيف الاسلام طغتكين بن أيوب باليمن في شوال سنة ثلاث وتسعين، وتولي ابنه شمس الملوك اسماعيل، هذا والملك العادل بدمشق وقد انتقل الملك الظافر إلى حلب بعد أن أخذ عمه منه بصرى، وعزم على قصد بغداد فصرفه أخوه الظاهر عن ذلك، وذهب الأمير أبوالهيجاء السمين إلى بغداد بأصحابه فأكرم، ثم سير في جيش الى همذان، ثم بعد رجوعه مات بدقوقا.

وانقضت مدّة هدنة الفرنج التي عقدوها مع ا لملك الناصر رحمه الله، فخرجوا والتقوا مع الملك العادل برأس الماء بمرج عكا، فكسرهم وفتح يافا عنوة، وكانوا كاتبوا ملك الألمان، وكان قد ملك صقلية، فأنهوا إليه تلك البلية،وقالوا إن عظام أبيه إلى الآن في صور في تابوت مكلل بالديباج، وكأنه في الأسر، منتظر الافراج، فإنه لايقبر إلا بالبيت المقدس اذا استخلص، والآن ماكان غلا منه استرخص، فان المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض، ولهوا عن كل سنةو فرض، فتدافعت إلى عكا سفنهم، وتدفقت مزنهم، وامتلأت بهم في الساحل مدنهم، وقصدوا بيروت وبها الامير عز الدين سامة، فلما سمع بوصولهم إلى صيدا خرج بجماعته منها وسار بأهله ومال عن وعر الأمر إلى سهله، ودخلها الفرنج بعد يوم من غير مطاولة سوم، ولا مماطلةروم، وكثر فيه الحديث، وذكر الطيب والخبيث، فمن قائل تجبن ومن قبل أن ينكب تنكب، ومن قائل رجاله هابوا فغابوا، ولو أنه دعاهم ماأجابوا، واتسع القول، ووقع الهول، حتى نظم بعضهم والفرنج على تبنين:

- ٨٩٣٤ -

سلــم الحصــن مــا عليــك مــلامــه
مــا يــلام الــذي يــروم الســلامــه
فعطــاء الحصــون مــن غير حــرب
ســنــة سنهــا ببيروت ســامــه

وتصرفت الفرنج في بيروت وأعمالها الساحلية، وبقي لسامة الولاية الجبلية، ثم توجه إلى مصر.

- ٨٩٣٥ -

ودخلت سنة أربع وتسعين

فنزل الفرنج سادس عشر المحرم على تبنين، وأرسل العادل القاضي محيي الدين محمد بن علي القرشي إلى الملك العزيز بمصر فخرج بجيوشه، ووصل في الثالث والعشرين من ربيع الأوّل، فجفلت الفرنج بعد ان كانوا ضايقوا الحصن، ورحلوا وجاءهم الخبر بهلاك ملك الألمان، ثم انتقل عسكر المسلمين إلى جانب الطور، ومع العزيز أخوته: الظافر والمعز، والمؤيد، وكان الافضل قد جاء إلى عمه قبلهم، وكان معهم على تبنين المجاهد صاحب حمص، والأمجد صاحب بعلبك، وعز الدين بن المقدم، وبدر الدين دلدرم وغيرهم من الأعيان،ثم رجعوا إلى بلادهم بعد عقد الهدنة، ورجع العزيز إلى مصر بعد أن خلع على ابن عمه الملك المعظم عيسى بن العادل، وخصه بالسنجق واللواء المنشور لطي اللأواء، وعاد المعظم إلى دمشق وقد قرت به العيون، وحسنت فيه الظنون، فكان أعز أولاد العادل عنده، وأعلقهم بقلبه، وأخصهم بحبه، قد ولاه سلطنة دمشق، وأطاب فيها بنشر كرمه النشق، وأقام العادل حتى استقرت الهدنة، وظهرت في عمارة تبنين المكنه، ثم عاد إلى دمشق وأقام قليلا ثم شرق، ورقع بها من الأمر ماتخرق، ورتق ماتفتق، ورد بلاد أولاد عماد الدين زنكي إليهم لأنه توفي في هذه السنة، واستولى عليها ابن عمّهم صاحب الموصل، فأنجدهم عليه السلطان الملك العادل.

وتوفي جماعة من أمراء الموصل منهم الأمير عز الدين جرديك، وكان فارس الاسلام ومقدامه، وشجاعه وهمامه، ومابرح من أيام نور الدين إلى أيام صلاح الدين رحمهم الله ليث العرين، أشم العرنين، وهو الذي أعان صلاح الدين على القبض على شاور، وولاه صلاح الدين القدس في آخر عهده، فقام بمصالحه من بعده، ثم تسلم منه الملك الأفضل، وسلمه إلى أبي الهيجاء السمين، فلما خرج الأفضل من دمشق وصل إلى الموصل، وانتقل من حوض الكوثر إلى أعذب منهل.

قال: ونزل السلطان العادل على قلعة مـاردين في شهر رمضان، وملك ربضها ومدنها وولايـاتها وصاف عليها وشتا، وصبر وصابـر ولم يقل كيف ومتى، وماشـك أحد أن ماردين في ملكـه مضافة إلى ملكه، وقـد هنأه بها الشعراء منهم ابراهيم بن مروان من أهل رأس عين له من قصيدة:

فـــإن تـــك مصر أم ملـــك فمارد
إذا نســـب البلـــدان فحـــل الممالـــك
تقـــاعـــس عنهـــا سنجـــر وابـــن عمـــه
وقصر عنهـــا عـــزم زنكـــي الاتـــابكـــي
فـــان تـــك قـــد شـــوركـــت في فتـــح غيرهـــا
فما لـــك في أمثـــالها مـــن مشـــارك

ودخلت سنة خمس وتسعين

والملك العادل نازل على ماردين، وقد وصل إليه أصحاب الأطراف مساعدين، وقد أصلح بين صاحب الموصل وبني عمه عماد الدين،وردهم إلى سنجار، والخابور ونصيبين، وقد أذعن له الجماعه بالطاعة، ونائبه في تلك البلاد وديار بكر ولده الملك الكامل محمد.

قال: وفيها ليلة الأحد العشرين من المحرم توفي الملك العزيز بداره بالقاهرة، وكان عزم على الصيد في أعمال الفيوم فخيم تلك الليلة عند الاهرام،فقيل انه أصبح وركض خلف صيد فكبا به الفرس مرة بعد أخرى فتمت له سقطه، عمت بها على الزمان سخطه، فتفاقم ألمه وأقام يومين أوثلاثة لايستطيع له مخلوق إعانة ولا إغاثة، ثم حم حمامه ، وأظلمت بفجيعته أيامه، وقبر في داره، لينقل منها إلى دار قراره،ثم حوّل منها في الأيام الأفضلية إلى التربة المقدسة الشافعية، وورد كتاب القاضي الفاضل تعزية به للملك العادل:« أدام الله سلطان مولانا الملك العادل، وبارك في عمره، وأعلى أمره بأمره، وأعز نصر الاسلام بنصره، وفدته الأنفس الكريمة، وأصغر الله العظائم بنعمته فيه العظيمة، وأحياه الله حياة طيبة يقف هو فيها والاسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمه، ولا نقص له رجالا ولا عددا، ولا أعدمه الله ماقدر في الملك العزيز رحمه الله له ذيلا ولا يدا، ولا أسخن له قلبا ولا كبدا، ولا كدر له خاطرا ولا موردا، ولما قدّر الله في الملك العزيز رحمة الله عليه، وتحياته مكررة إليه من انقضاء مهله، وحضور أجله، كانت بديهة المصاب عظيمة، وطالعة المكروه أليمة، فرحم الله ذلك الوجه ونضره، ثم السبيل إلى الجنة يسره

وإذا محاسن أوجه بليت
فعفا الثرى عن وجهه الحسن

فـاعزز على المملـوك وعلى الأولياء، بـل على قلب مـولانا، لاسلبـه الله ثوب العز بسرعـة مصرعه، وانقلابه إلى مضجعـه، ولباسه ثوب البـلا قبل أن يبلى ثـوب الشبـاب، وزفـه إلى التراب وسريـره محفـوف بـاللـذات والأتراب، وكانـت مدّة المرض بعد العود من الفيوم أسبـوعين، وكانت في الساعـة السابعة مـن ليلة الأحد العشريـن من المحرم، والمملـوك في حال تسطيرها مجموع لـه بين مرض القلب وجسد، ووجع أطـراف وغليل كبد، وقد فجـع بهذا المولى والعهد بـوالده رحمه الله غير بعيـد، والأسى في كـل يوم عليه جديد».

ووصل قبل هـذا إلى العماد كتاب من الفاضل فيه:« وأنـا على مايعلمه المولى من العزلـة إلا أنها بلا سكون، ونحن على انتظـار البرق الشامي أن يمطر، وحـاشى ذمة الـوعد به أن تخفـر، واشتغال سيـدنا في هذا الـوقت بالدرس والتـدريس، والتصوير والتكييف، والتصانيـف التي تصرف فيها بالبـلاغة أحسـن التصاريف، نعمـة يتعين شكرهـا على العلماء، ويختص باللذة بها سادتهم من الفقهاء».

قـال العماد: ولما توفي الملـك العـزيز خلـف بنين صغـار يزيـدون على العشرة، وولده الأكبر ناصر الدين محمد قد أنافت سنوه على عشر، وكان إلى أبيه أحـب أولاده، يشيم من شيمـه مخيلة سـداده، وقد اختص لـديه، ونص عليـه، فاجتمع الامـراء الصلاحية وكبيرهـم ومقـدمهم فخر الـدين إياز سركـس ومنهم أسـد الدين سراسنقـر وزين الديـن قراجـه، وعقدوا الأمـر لولـده نـاصر الـدين، ونعتـوه بـالملـك المنصور، وأخـذوا لـه أيمان الجمهور، قـال: وكانت الأسديـة في الايام العزيـزية الناصرية مغمـورين، وبالاستيلاء عليهـم مقهورين، وكبيرهـم سيـف الدين يازكـوج، وكان عند وفاة العزيز غائبا بأسـوان، فلما بلغه ذلك حضر وجمع الأسدية، واجتمعوا هـم والصلاحيـة ظاهـر القاهـرة، فقال لهم: نعـم مارأيتمـوه من حفـظ العزيـز في ولده، لكنه صغير السـن لايحتمل ثقـل هذا الفن، ولا بـدّ من

كبير من أهل البيت يربيه ويدبر الدواوين، ويرتب القوانين، وماهاهنا إلا الملك العادل، وهو الآن ببلاد الشرق مشغول، وهاهنا من هو أقرب منه، وهو الملك الأفضل، فقال الأسدية: هذا هو الرأي الراجح، ولم يسع الصلاحية مخالفته، فاتفقوا على استدعاء الأفضل من صرخد، فخرج منها ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرية، فوصل إلى القدس يوم الخميس، وخرج إليه عسكره، وساروا معه إلى بيت جبريل، ثم أغذ السير فلما قرب منهم في تاسع ربيع الاوّل تلقوه، وإلى أعلى مراقي العلا رقوه، وسروا بقدومه، وجروا لمرسومه.

قال: وكان الناصرية كتبواإلى رفقائهم بالشام إنا أحوجنا إلى الوفاق، وتأكيد الميثاق، وقد كتب إلى نور الدين بالحضور، وضبط الأمور، وهو عندكم في صرخد، وإن توصل الينا انتظم أمره، وتمهد، فاجتهدوا في حصره وهو في حصنه، ولاتسمحوا بفك رهنه، ووصل إلى دمشق بعض الكتب يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر فخرج عسكرها إلى صرخد فوصلوا إلى بصرى يوم الأربعاء، فقيل لهم: إن الأفضل أدلج ليلا، واستصحب نجبا وخيلا فرجعوا إلى دمشق، وقيل لما عبر الأفضل بالبيت المقدّس وجد في طريقه نجابا مسرعا فأستحضره، واستكشف ورده وصدره، فقال أنا نجاب فخرالدين اياز سركس، ومعي كتبه إلى من يأنس به ويحبه، فتسلم منه الكتب،وعاد النجاب في خدمته، فلما وصل إلى القاهرة احتفل سركس له وأضاف وقدّم وغرم أموالا ثم أبصر نجابه، واقفاً ببابه، فأخبره الخبر فاستشعر من ذلك وتضور، فمضى وتبعه عسكره وزين الدين قراجه فوصلا إلى القدس وسكنا به وعرف الناصرية جلية الحال، فأخذوا في الانتقال، وتوهم الأفضل من الباقين فقبضهم وحوى جوهرهم وعرضهم، فتفرقت الكلمة المجتمعة، وتوقفت الهمم المسرعه، وأمر الأفضل بالخطبة لابن العزيز على جميع المنابر،ثم الدعاء له في الآخر، ونقشت السكة أيضاباسم الولد في البلد وغير البلد.

قـال: ولما استقر الأفضـل بمصر حملوه على قصـد دمشق، وحصرهـا، وقالـوا له: اطلـب بلدك الذي منـه أخرجت، وعـن المقام فيـه أزعجت، ومالك في مصر مايكفيك، ودمشق لك بـوصية أبيك، وجاءته رسل أخيه الظاهـر من حلب وهـداياه، وقال لـه: انتهز الفـرصة فعمنا عنـا مشغول وإلى إن يتم مـن ماردين مـراده، وينضم إلى بيـاضه سواده نخـرج دمشق عن يـده، ونعجله اليـوم فيها عـن غده، وأنـا أصل إليـك وأقدم عليـك بـالبنود والجنـود والأسـاور والأسود، فما زالـوا به حتـى خـرج بالعسكـر واستناب سيف الدين يازكوج مكانه .

قال : ووصل إلى الملـك العادل الأمير سراسنقر أحد الأمـراء الناصرية المفارقين، فـاستحثه على مفـارقة ماردين، وتواصل مـن الناصريـة جماعة بعـده، وعنـدهم مـن الإستحثـاث مـا عنـده، فحـركه القـول وتجرد عـن العسكر واستصحـب معه الأميريـن: عز الديـن بن المقـدّم وبدر الـدين دلـدرم، وسرى ليلا لخمـس بقين مـن رجب، وأوصـى ولـده الكامـل أن يسير في مضـايقة حصـن ماردين بسيرتـه، ويقتدي بعـزمته، ووصـل إلى دمشق يوم الإثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحصين البلد.

ووصلت العسـاكر المصريـة يوم الخميـس وأحاطـت بدمشـق،ودخلها جماعـة منهم مـن باب السـلامـة بلغوا إلى السـوق الكبير، وأعلنوا الفتـح بالتكبير، ولم يتبعهـم أحد على هذا التـدبير، فخرجـوا من باب الفـراديس وكرّوا على أعقابهم لمن وقـف لهم من الكراديس، وأما الأفضل فـإنه وصل إلى الميدان الأخضر، وضرب فيـه دهليز سرادقـه، وأقدم بـرواعده وبـوارقه، فأشار عليه أمراؤه بـالتأخر عن تلك المنزلة، وكانت منهـم زله،فنزلوا عند ميدان الحصا ثـم تأخروا إلى مسجد القدم، وامتلأ ذلـك الفضا بمضارب الخيـم، ففترّت الصـدمـة الأولى، وقصرت الصـدعـة الطـولى،وخمد الجمر فصـار رمادا، واستحـالت تلـك الأمواج المتـلاطمة ثمادا، ولـزموا منـازلهم أكثـر من سـتـة أشهر هنـاك، وتمت فـوارط عدمـت الاستدراك، وامتـدت

خيامهم من أقصى داريا إلى الغوطة، وظنوا أنهم آخذون بمخنق دمشق المضغوطة، وكاتب الملك العادل جماعة من أمراء العسكر المصري ففارقوه ودخلوا دمشق، فأكرمهم واحترمهم منهم طغرل المهراني، وإياز البانياسي، وابن كهدان، ومثقال الخادم، وابن أخت السلطان ابن سعد الدين كمشبه، وكثر الواصلون القاطعون لمن وراءهم، وأحسن العادل جزاءهم، فتكاثرت الأطماع وتتابعت الرؤوس والاتباع، ووصل الملك الظاهر،ومعه أخواه الظافر، والمعز، وجاءهم الملك المجاهد صاحب حمص، وعسكر حماه دون سلطانها، وحسام الدين بشارة صاحب بانياس، وهو شيخ الدولة وكبيرها، وأمينها وأميرها، وفي حمايته حصنا تبنين وهونين ومايزال أسرى من كفراء الفرنج بدين الله عنده مرهونين، فرغبهم في السلامة والسلم، والاحتمال والحلم، وأشار على كل من الجانبين بتجنب المجانبة، والتقرب بالمقاربة والمراقبة، وجاءهم أيضا سعد الدين مسعود صاحب صفد، وأخوه نور الدين مودود.

قال: ولما جبنوا عن مضايقة الحصار واصلوا قطع الاشجار، وكسر الأنهار، ومنع كل مايدخل البلد من نعمة ونعم، وغنيمة وغنم، حتى ردوا القوافل، وصدوا الفروض والنوافل.

قال: وكان الناصرية المقيمون بالقدس قد استولوا عليه، ونظفوا ممن ارتابوا به حواليه، وأخرجوا منه المغاربة، ورجاله وأجناده الراتبه، ومعهم الأمير فارس الدين ميمون صاحب نابلس، وعز الدين سامة صاحب كوكب وبيسان، ثم وصل الخبر أن سركس ومن معه واصلون إلى دمشق،فتجرد من المحاصرين عسكر إلى طريقهم، وكانوا قد وصلوا إلى طبرية، وعبروا منها الى البقاع وتمكنوا خلال تلك الضياع، وسيروا إلى بعلبك ماصحبهم من الأثقال والأحمال، وكان صاحبها الامجد في جانب الملك العادل، وتجردوا خيلا، وقطعوها ليلا، وتوقلوا الجبال حتى أشرفوا على دمشق من عقبة دمر، وقد فاتوا العسكر، فتقوى عسكر البلد فصاروا

يبكـرون ويـركبـون، ويقـربـون مـن العسكـر المصري ولايـرقبـون، وحفـر المحاصرون حولهم خندقا عميقا فصار لهم به عن الحصار شغل شاغل.

قـال: وعلى الجملة فما ظهـر منهم صنـع إلا في قطع الماء ومنـع الميره، والمضـايقـة الكثيرة، واحـراق البســاتين، وتخريـب الطـواحين، حتـى إذا انحسمت المواد، وفنيت في البلد الأزواد واضطروا إلى التسليم، واضطربوا على التـأخير والتقـديم، فتسلـط الـرعيـة على الملك العـادل وحملـوه على التسليم والاستسـلام، فتباينـت أراء الملوك المحـاصرين، بما دبـره العادل سيـف الـديـن، ولابـد للكبـار مـن الاحتيـال، إذا صمـم الصغـار على الاغتيال، وليس في ذلـك بدعة، فإن الحرب خدعة، فنفـذ الى الظاهر في الباطـن، وقال له: أنت السلطـان وحكمك على جميع الأماكـن والمواطن، وأنا أسلم إليك دمشق على أنها تكون لـك لا لغيرك، فقال الظاهر لأخيه الافضل: قلدني في الانعام بدمشق منة المتفضل، فقال له هذه لاتخلو من أقسام جـالبات لأسقـام، أجلك أن تتـولاها تـولية النـائب، وإن أخذتها دوني فمن النوائب، وإن أعطيتني عنها عوضاً مما أعرف لك فيه غرضا، فما لك مايصلـح أن تقايض به دمشق، وأنت لاتـدعي لها العشق، فتغير بهذا رأي الظـاهر، والله المطلـع على الضمائر، وقيـل أرسـل العادل وقـال: أسلـم اليكم دمشـق بعد سبعـة أشهـر، وتربـص وتصبر، فخذوا يمينـي، وكلوني إلى ديني، وظـن أنهم لايوافقون وفي الحصر يضايقـون، فلما أجابوه إلى هذا الملتمس، وقعقعـوا في الاستضاءة بهذاالقبس، عرف انهم نـادمون فيما عليـه من الحصر قـادمـون، فعاد عـن هـذا البـذل، وردّهم إلى سنـن العدل، وقيل: كان يكتب إلى الأفضل إن الأمـر انفصل مع الظاهر، وإنه يعاملـك معاملـة المبسر لا المجاهـر، فخذ لنفسـك وأبدل معـى وحشتك بأنسك، ويكتب أيضا إلى الظاهر إن الأفضـل قد صالحني، وعلى الرضى صـافحنـي، وإنـك تحصـل على المضـاغنـة، وستفضي بـك المبـاينـة إلى المغابنـه،وقيل إنـه كان يكتـب في كل يـوم أجوبـة كتب قـوم لم يكاتبـوه، ويجيبهـم عما فيه لم يخاطبـوه، وخبزت تلـك الملطفات في عجين، لـتفـرّق

-٨٩٤٣-

على من يقصد العسكر من المساكين، فإذا فتشوا عثر على تلك الملطفات، فنعت من كتب إليه ، ولاعلم له، بالآفات، وعدّوا من المخامرين، فصار أكثر العسكر من المتهمين.

- ٨٩٤٤ -

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وهم على ذلك والشتاء قدهجم، وكـل بأمره مهتم، ودهمهم أيضا خبر وصول الملك الكـامل من الشرق، وخرج من دمشـق جماعة يظهرون أنهم من النـاصحين، وتردّدوا إليهـم ومنهم غاديـن ورائحين، وأبرقـوا وأرعدوا وقالوا: غدا يكون قدوم الملك الكامل في الجحفل الحافل، ومعه من المال الصامت إلى أبيه العـادل، فيستظهر بولده والمال والرجال، فـلا يقعد عن النهوض إلى القتـال، والصواب أن نتـأخر قليلا، فـرحلوا إلى سفـح جبل العقبه، وبقيـت أسواقهـم مملوءة، وباتـوا تلك الليلة وهـم لكل مـايحتاج إليـه عادمـون، وعلى مـافرط منهـم نـادمـون، وفقدوا حتـى الماء للشرب، وكانت تلـك الحالة كسرة قبل الحرب فاضطربوا المحـل المحيل، واضطروا إلى راحة الرحيل.

ووصل الكامل تاسـع عشر صفر، وقد جمع التركـمان، واستصحب جند الرها وحران، ونزل في جوسق أبيه، فاستبشرالسلطان برحيلهم وقدوم ابنه، وقضت خشية الله بـأمنه، وأقام الكامـل حتى توجه أبـوه إلى مصر، فخرج معه أيـاما ثـم عاد ولم يؤثـر مقامـا، وانتقل إلى حران والـرها واستقـام به أمرها، وذلـك حادي عشر ربيع الأوّل، وأما المحاصرون فـإنهم انتقلوا من الكسوة إلى مـرج الصفر، وسير الملكـان الظاهر والمجـاهد بعـض الأثقال إلى بـانيـاس، وأصحبـا بقيـة الأحمال الملـك الأفضـل إلى مصر، وودّعـاه وكلاهما سـار جريـدة إلى مقره، واستمـر بعد ذلـك على أمرار أمـره، كلما رحل القـوم عن منـزل أحرقوا مـالم يظفروا له بمحمـل، وانتقلوا مـن مرج الصفر ولم يلووا على أحد، ولم يعـرجوا إلى بلد، وأخذوا في السير والسرى، وذهبت آسادهم تروم معاودة الشرى، وتبعهم الصلاحية ينزلون بعدهم في منـازلهم، ويخلفونهم في منـاهلهـم، وكان القـوم ظنـوا انهم يقدرون بمـرج الصفر على الاقامة، فلقوا من البرد ماحضهم على النجاة والسلامة، وهذا المرج بقرب جبل الثلج في تموزلايقيم به إلا لابـس فروة فكيف في كانون،

وقد عـرفوا أنهم الجانون حيـث لم يلزموا القـانون، وأرسلت الصـلاحية إلى الملك العادل يستعجلونه، ويحثونه ولا يهملـونه، فخرج يوم الخميس تاسع ربيع الأوّل، وودّع أعيـان البلد وسـار وتلا مـن تقدّمـه إلى تل العجـول، وأقام حتى اجتمع اتباعه.

وأرسل إلى الافضل العدل النجيب أبا محمـد ،وكان صلاح الدين رحمه الله يعتقد في صلاح دينه، ويمكنه من خواص حـاجاته، ويرسله في مهام الـرسائل، وكـان مـدلول الـرسـالـة: أرفق في السير، ووافـق على الخير، فما عندك اليوم من يصدّقك، وأنا لك كـالوالد وأبلغك مقصودك، وأحالفك ولا أخالفـك، وأوافقك ولا أفارقك، فـأشار على الافضل جماعته بـأن يرد جواب الرسالة: إن مقـاربتي لك بمباعدتك للصلاحية منـوطة، وموافقتي بمخـالفتهـم مشروطه، فلما سمـع ذلـك الصـلاحيـة استشاطـوا ونفـروا، واستـدلوا بـه على أنهم ظفـروا، وجدّ جـدّهم، واحتـدّ حـدّهم، فطـووا المراحـل إلى السـائح، وكـان الأفضـل على بلبيـس، وقـد تفـرّق معظـم أصحابه إلى أخبازهـم، وجماعة منهم مع العادل في الباطـن كاتبوه، وعلى الابطـاء عـاتبوه، فسـار الجمعـان بعضهـم إلى بعض، والتقـوا فـانكسر أصحاب الأفضل وانهزمـوا، فدخلوا القاهرة، وأغلقـوا الأبواب للمحاصرة وانتهـى إلى الأفضـل أن جماعـة منهـم أرسلـوا إلى العـادل في إصـلاح أحوالهم،وانجاح آمالهم ،فقـال سيف الدين يازكوج لـلأفضل: لكل زمان عمل،ولكـل أوان أمل، فاصلـح الأمر كيـف تهيأ، فلا مـلام على اللبيب بأي زي تـزيا، فشرع الافضل في اصـلاح الامر مع عمـه، وراسله على أن يكون بحكمه، ثـم سلم الأمر ومر سالما، وحصـل له من التجربـة ماعاد به بالعواقب عالماً.

قال: وخيم العادل بالبركه، واستبـدّ بملك مصر آمنا من الشركة، ونفذ المقطعين إلى اقطاعهم، ونظـر للصلاحية في صلاح ضيـاعهم، وأرسل إلى الأفضل إن وافقتني على مـا أعطيك وقبلت سعدت، فهؤلاء الـذين عندك

مامنهم إلا من كتب إليّ وتقرّب، وانتظر يومي هذا وترقب وهذه إضبارة كتبهم فتأملها، وإن لم تصدقني فتسلمها واعلم أنهم غرّوك وضرّوك، وساؤوك بما سرّوك ، وقيل: لم يبق من الأمراء من لم يكتب إليه، ولم يخامر إلا أربعة أخلصهم سيف الدين يازكوج، فلما عرف الأفضل صدق عمه سلم المسألة،وسأل المعدله، فقرر للأفضل في ديار بكر:ميافارقين وأعمالها، وجبل جور وحاني وجملين، والمعاقل والحصون المحسوبة من ميافارقين، فرضي بها مكرها، وخرج إلى الشام متوجها ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر في الليلة التي دخل العادل في بكرتها القاهرة فاستقر بدار السلطنة، وقدم سيف الدين يازكوج وحكمه، واستبقى رضى الناصرية بابقاء الخطبة لابن العزيز، ولم ينافسهم مع حصول المعنى له في التفضيل والتمييز، وأقام وهو كل يوم في ارتفاع وسياده، وقوته في نموّ وزيادة.

قال: ورد القضاء الى القاضي صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي، ولم يزل قاضي القضاة بالديار المصرية، من الأيام الناصرية وكان نائبة القاضي زين الدين على بن يوسف الدمشقي، وتعصب الامراء المتغلبون على الملك العزيز في مراتبه بصرف صدر الدين وتولية نائبه، ولم يزل صدر الدين مصروفا تارة بمحيي الدين بن أبي عصرون، وتارة بزين الدين حتى تعصب العادل له وبعث العزيز على ردّه، فلما انقضت أيام العزيز وجاء الأفضل كان أوّل ماحمل عليه أن صدر الدين يعزل، وتولى زين الدين القضاء، فلما جاءت نوبة العادل في هذه السنة ردّ صدر الدين إلى منصبه، وردّ التدريس بالمدرسة الشافعية في التربة المقدسة، وبالمشهد الشريف الحسيني الذي أجرى عليه حكم المدرسة إلى شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، وكتب إليه وهو بدمشق فاستدعاه، وقد كان قبل ذلك ولاه في ممالكه الجزرية أمور المناصب الشرعية، والامور الدينية، ومدارس الشافعية، وربط الصوفية، وهو قاضي قضاتها، ووالي هداتها، وهادي ولاتها، وله في مناصبه نوّاب، وفي مراتبه أصحاب.

قال: ولما دخل العادل القاهرة، استشعر أصحاب الدواوين مهابةالوزير صفي الدين ابن شكرالظاهرة، ونزل في الدار السلطانيةفي الحجرة الفاضلية، وتصدّر في مكان مكانته وشهر من قلمه عضب شهامته، وسيف صرامته، وقمع المتجبرين، ووضع المتكبرين، وأخذ قوس الوزارة باريها، وأجرى الله الأمورأحسن مجاريها.

قال: وندب العادل من الأسدية والصلاحية أميرين كبيرين إلى الشام لإصلاح ذات البين بحمص، وحماه وحلب وغيرها، وهماسرا سنقر، وكرجي.

قال: ولما ودّع الافضل عمه بالبركة سار إلى صرخد، وأقام بها وندب إلى البلاد التي بديار بكر من يتسلمها،ولما انفصل عن مصر وجد المواصلين له لصحبته مفارقين، وكذا الدنيا ماتقبل على أحد ولاتمدّه بمدد، إلا تواردت على حياضه الجموع، وتزاحم في رياضه الرتوع، فاذا صرفت عنه وجوهها صرف أهلها عنه الوجوه، وأحلوا به مكروه المكروه.

قال:وأما الظافر فإن عمه أحسن إليه، ووعده بعطاء جزيل، وودّعه بثناءجميل، وأقطعه بأعمال دمشق حزرما وضياع السواد، وشق عليه انه لايجد مايجود به وهو من الاجواد، ووصل إلى دمشق رابع جمادى الآخرة وسكن في جوسق بستانه بالنيرب، وسلك طريقة الاحتراز والاحتراس، واختار البعد عن مقاربة الناس، ولزم السكينة، ولم يدخل المدينة، وطلب من القاضي بجامع النيرب خطيبا شافعياً ليكون بالصلاة فيه عن حضور الجامع بالبلد غنيا، واحتاط غاية الاحتياط، وطوى بساط النشاط.

- ٨٩٤٨ -

فصل

قال العماد: واستدعى العادل ابنه الكامل إلى مصر ليستنيبه فيها وكان بحران، وهوفي تلك البلاد نائب السلطان، فسلم تلك الولاية إلى أخيه الفائز، ووصل إلى دمشق سادس عشر شعبان، ونزل بجوسق أبيه في بستانه، ومعه شمس الدين المعروف بقاضي دارا، وهو وزيره، ومستحثه على المكارم ومشيره.

قال: وخدمته بكلمة أوّلها:

أنتم تحبون بالاعراض تعذيبي
وتقصدون بخلق الصدّ تهذيبي
ساروا فيا صحتي من مهجتي ارتحلي
غابوا فيا سنتي عن مقلتي غيبي
قد كان يهضمني دهري فأدركني
محمد بن أبي بكر بن أيوب
الكامل المالك الأملاك حيث له
رق الأعاجم منهم والأعاريب
معطر عرفه عرفا ومكرمة
مخمر طينه بالطهر والطيب
لا يدعي جوده البحر عرفا ومكرمة
يلفى تأبيه في الشم الشناخيب (١٤٣)
دعتك مصر إلى سلطانها فأجب
دعاءها فهو حق غير مكذوب

قال: وعزمت على صحبته في هذه السفرة إلى مصر، فخرج في الثالث والعشرين من شعبان إلى الكسوة، وخرج سلطان دمشق الملك المعظم ليودّع سلطان مصر أخاه الكامل، وصحبه إلى رأس الماء مع عدّة من الأمراء، ثم ودعه وانصرف وتشوّش مزاج الكامل بعده وانحرف، ووصل

إلى العباسة في الحادي والعشرين من رمضان، والتقاه والده العادل وأنزله بالقصر، ثم ركب إليه بعد يومين وأستصحبه إلى الدار ورتب أحواله على الإيثار، وكان قد عقد له على ابنة عمه الملك الناصر رحمه الله، فأدخله إليها ليبني عليها.

قال: وأصبح العادل يوم الإثنين سابع عشر شوّال، وركب بالسنجق السلطاني والمركب الخسرواني، والسيوف المسلولة، والعقود المحلولة، وأمر الخطيبين بجامعي مصر والقاهرة بالخطبة له ولولده الكامل من بعده ليس بعد دعاء الخليفة إلا الدعاء لهما، وانقطعت الخطبة لابن العزيز، وكان أحضر جماعة من الفقهاء والقضاة والكبراء والولاة، وقال لهم قول المستفتي المستشير: هل تصح ولاية الصغير؟ فقالوا: هذا مولى عليه فلا يلي، وغيابات الحوادث بنظره لاتنجاب ولا تنجلي، فقال: فهل يجوز للمولى الكبير أن ينوب عنه إلى أن يكبر، ويرتب الأمور بحكم النيابة ويدبر؟ فقالوا: إذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تصح النيابة، ومن رآه صواباً أخطأ به الإصابة، لاسيما في السلطنة التي هي خلافة الخليفة، فلا حق فيه إلا للكبير الذي يعين على الحقيقة، وجرى منهم في هذا المعنى الإمعان، فلما عرف الشرع أحضر الأمراء والتمس منهم الطاعة والسمع، وخاطبهم في اليمين له والميثاق، وألزمهم بالوفاء، والوفاق، فأبوا وخاطبهم بهاراعهم، وملأ بالتقريع اسماعهم، ثم قال: قد علمتم ما هو الواجب من التظافر على حفظ ثغور الإسلام، وتدبير الممالك بمصر والشام، وما هذا أمر يناط بالصبيان، أو يحاط بغير ذي القدرة والسلطان، فأذعنوا وأطاعوا وحصل الإئتلاف، ورفع الخلاف.

قال: ولما أصبحنا يوم السبت شاهدنا الملك الكامل قد ركب مثل والده، معقوداً سنجقه بمعاقده، والمناصل مجذوبة، والصواهل مجنوبة، والأعين ناظرة، والألسن ذاكرة، ومشى في ركابه من إليه تحبب، وإلى السلطان تقرب.

قـال: وركـب يـوم الخميـس السابـع والعشريـن مـن شـوّال إلى بـرج المقسم، والمقسم مـوضع على شاطىء النيل يزار، وهنـاك مسجد يتبرك به الأبـرار، وهو المكـان الذي قسمـت فيه الغنيمـة عند استيـلاء الصحابـة رضي الله عنهـم على مصر، ولما أمر صـلاح الديـن رحمه الله بإدارة السـور على مصر والقاهرة، وتـولاها الأمير قراقوش جعل نهايته التـي تلي القاهرة عند المقسم، وبنـى فيه برجاً هو مشرف على النيـل ذو شرفات، ومعقل ذو طبقات، وثيق البناء، رفيع الفناء، وبنـى مسجداً جامعاً، واتصلت العمارة منـه إلى البلـد، متتابعـة المدد، وهـو متنـزه عـن الأكدار والأقـذار منـزه، وبالجنـات مشبه، وإلى البحـر والبر بمناظـرة الشبابيـك موجـه، فاختـار الكامـل أن يجلس فيـه يومـاً للتفرج، فجلـس في الطبقة العليـا، واجتمع الأمـراء والأعيان في الطبقـة الدنيـا، ثـم مدّ السماط في الجامـع، ثم ذكـر العماد أنه مدحه ثم بكلمة أوّلها:

مغـــــرم القلـــــب مـــــدنـــــف
وجـــــده ليـــــس يـــــوصـــــف
وعـــــدونـــــا واخلفـــــوا
ووفينـــــا ولم يفـــــوا

قال: وفي الحادي والعشريـن من شوّال قدم فلـك الدين أخـو العادل من دمشق.

قلت: هو أخـوه لأمه واسمه أبو منصور سليمان بـن شروه بن جلدك، وإليه تنسب المدرسة الفلكية بنواحي باب الفراديس بدمشق وبها قبره.

قال العماد: وفي هـذا اليوم خطـب للعادل وابنـه الكامـل، والعادل في مهـامه يستشيره ويستـدعيه، والمرء كثير بـأخيـه، ثم عـاد إلى دمشق بعـد شهور.

قـال: وفي العشريـن مـن الشهـر خـرج حـاج مصر إلى البركـة، وأمـر

عليهم نصير الدين الخضر بن بهرام، وكان والي المحلة، وهو مستمر الولاية من الأيام الصلاحية، وحج معه من معروفي الأجناد وأمرائها عدّة، وكذلك حج في هذه السنة حاج دمشق وصحبهم الأمير عز الدين سامة، وكانت السنة مباركة، والنعم متداركة، والخيرعام، والخصب تام.

قال: وانتظرنا زيادة بحر النيل في أوقاتها، فبلغ إلى احدى وعشرين أصبعا من ثلاث عشرة ذراعا، فعاد بذلك كل قلب مرتاعا، ثم أخذ في النقص وهو مرجو الزيادة مأمول الوفاء على العاده، فقنط الناس، ووقع اليأس، واشتدّ المحل، وغلا السعر، ويئس الفلاحون من الفلاح، وأجفلوا من البلاد للانتزاح، وطاروا بأجنحة النجاة في طلب النجاح، وقيل إن هذا النقص لم يعهد من عهد الصحابة، وشرعنا في الاستغفار والانابة، وصام الناس ثلاثة أيام قبل يوم التروية، وكأنما أصابهم مصيبة فهم في التعزية، ثم استسقوا ثلاثة أيام إلى العيد، وأفاض الخطيب في ذكر الوعيد، وغصت بالخلائق الأمكنة، وضجت بالأدعية والضراعات الألسنة.

قال: وفي السنة الّتي قبلها، وهي سنة خمس وتسعين، استدعي القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزوري إلى بغداد، وولي قضاء القضاة، وكان متولي القضاء بالموصل، فحرج في أواخر شعبان، فلما وصل بغداد بجل وعظم، وكان قد تردّد إلى بغداد دفعات في الأيام الصلاحية بسبب الرسالة، فهو كان المعين لها، كما تقدّم ذكره.

فصل

في وفاة جماعة من الأعيان في هذه السنةأعني سنة ست وتسعين

قال العماد: وفيها ثالث عشر جمادى الأولى توفي في داره بدمشق الأمير صارم الدين قايماز النجمي، وكان متولي أسباب صلاح الدين رحمه الله في مخيمه وبيوته، يعمل عمل أستاذ الدار، واذا فتح بلد أسلمه إليه، واستأمنه عليه، فيكون أوّل من افتض عذرته، وشام ديمته، وحصل له من بلد آمد عند فتحه، ومن ديار مصر عند موت عاضدها أموال عظيمة، وتصدّق في يوم واحد بسبعة آلاف دينار مصرية عينا، وأظهر أنه قضى من حقوق الله في ذمته دينا، وهو بالعرف معروف، وبالخير موصوف، يحب اقتناء المفاخر ببناء الربط والقناطر، ومن جملتها رباط خسفين ورباط نوى، وله مدرسة مجاورة داره، ولماكفى الله دمشق الحصر نهض وراء العادل إلى مصر، فردّه إلى دمشق ليلازم خدمة الملك المعظم ولده، ويكون من أقوى عدده وأولى عدده، وكان في خلقه زعاره، وكانت حصافته مستعارة.

قال: ولما دفن نبشت أمواله، وفتشت رحاله، وحضر أمناء القاضي، وضمناء الوالي، وأخرجوا خبايا الزوايا، وسموط النقود، وخطوط النسايا، وغيروا رسوم المنزل ومعالمه، واستنبطوا دنانيره ودراهمه، وحفروا أماكن في الدار وبركة الحمام في الجوار، فحملوا أوقارا من النضار، وظهروا على الكنوز المخفية، والدفائن الألفية، فقيل زادت على مائة ألف دينار، وهو قليل في جنب مايحرزه من كذا وكذا قنطار.واستقل ماطواه الخزن، وأخفاه الدفن، وقيل كان يكنز في صحارى ضياعه، ومغارات اقطاعه.

قلت: واتهم بعده جماعة بأن له عندهم ودائع، وتأذى بذلك المتأبي

منهم والطائع، وداره بدمشق هي التي بناها الملك الاشرف أبو الفتح موسى بن العادل داراً للحديث في سنة ثلاثين وستمائة، وأخرب الحمام الذي كان مجاورا لها، وأدخله في ربعها، وذلك في جوار قلعة دمشق بينهما الخندق والطريق، وثم مدرسته المعروفة بالقيمازية.

قال العماد: وفي جمادى الآخرة من هذه السنة توفي —يعني بمصر— الحاجب لؤلؤ وكان في الأيام الصلاحية أشجع الشجعان، وأفرس الفرسان وله مقامات في الغزاة، ومواقف مع العداة، وهو الذي نهض وراء مراكب الفرنج الناهضة في بحر إيلة إلى الحجاز، وأتى في كسرهم وأسرهم بالإعجال والإعجاز، وكانوا قطعوا الطريق في بحر عيذاب على التجار، وحصلت أموالهم تحت الاستيلاء بعد حصولهم تحت الاسار، فأنقذ واستنقذ، ومانزل حتى أخذ، وساق إلى القاهرة أولئك الكفار مقهورين واعتقلهم مأسورين.

قلت: وفيه يقول الرضى بن أبي حصينة المصري يخاطب الفرنج:

عدوكم لؤلؤ والبحر مسكنه
والدر في البحر لايخشى من الغير
فأمر حسامك أن يحظى بنحرهم
فالدر مذ كان منسوب إلى النحر

وقد قيل فيه أشعار كثيرة، تقدّم بعضها في أخبار سنة ثمان وسبعين.

قال العماد: ومن دلائل سماحه ماشاهدته بالقاهرة في سنة إحدى وتسعين من مبراته الظاهرة أنه لما حط القحط رحله، ووصل المحل محله، وتم الغلا، وعم البلا، ابتكر هذا الحاجب الكبير مكرمة لم يسبق إليها، وذلك أنه كان يخبز كل ليلة اثني عشر ألف رغيفا فإذا أصبح جلس على باب الموضع الذي فيه حشر الفقراء، ثم يفتح الباب مقدار مايخرج منه واحد بعد واحد، ويعلم أنه غير عائد فيتناول كل منه قرصه، ويرى

ذلك من خيراته فرصه، فما يزال قاعداً حتى يفرق الألوف على الألوف، وكان هذا دأبه في هذا الغلاء، حتى هب رخاء الرخاء، فحينئذ تنوعت صدقاته، واستغرقت بالصلاة أوقاته، وكان بهي الشيب نقي الجيب، قد جعل الله البركة في عمره، وخصه مدة حياته بإمرار أمره، فأنجده في أوان ضعفه بتضعيف بره، ولا شك أنه من الأولياء الأبدال، والصالحين الصالحي الأعمال.

قال: وفي يوم السبت الحادي والعشرين من ذي القعدة، وأنا بالديار المصرية، توفي الفقيه الكبير شهاب الدين الطوسي، وهو أكبر الأئمة الشافعية ورئيسها، وإليه فتياها وتدريسها، وهو من أصحاب محمد بن يحيى، وكم واجه الملوك بالحق المر، وأنكر عليهم ماينكرونه من العرف ويعرفونه من النكر، ولما وصل إلى مصر كان تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب متوليها، فأعجبه سمت المذكور، فولاه مدرسته بمصر، وهي المعروفة بمنازل العز فوليها، وأقام فيها مفيدا حتى فاز في جنة النعيم بفوزه، وخلت منازل العز من منازل عزه، وأصبح الناس حول سريره مزدحمين، وعليه متوجعين، فوصلوا به إلى القرافة، معان الرحمة والرأفة، وهناك الأصاغر والأكابر من الملوك والأمراء مشاة، وجنازته بما فيه من لباس التقوى مغشاة، ولما نفضوا أيديهم من ترابه انفضوا من أيادي بركته متربين، وبنار اللهب والتلهب عليه مضطرمين، ونمى الخبر إلى حماه وعرف ابن تقي الدين، فولى قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي بمصر وقوف أبيه، وسير نائبه لتسلم ذلك وتوليه، وكان اتفق حضوره عنده في الرسالة فاهتدى برشده إلى الضلالة.

قال: وفي العشرين من جمادى الآخرة توفي الفقيه العالم بدر الدين بن عسكر رئيس الحنفية بدمشق.

قلت: وقيل كانت وفاته في تاسع عشر جمادى الأولى، ويعرف بابن العقاده.

قال:وفي سابع عشر شعبان توفي بحلب الفقيه الكبير ظهير الدين عبد السلام الفارسي، وكان أبرع فقيه وأفقه بارع، ورد إلى اصفهان سنة تسع وأربعين، ولقى بها العلماء المبرزين، وخالط صدورها بني الخجندي، وكان تفقه بكرمان، وقرأ على فخر الدين الرازي، من أكبر تلامذة محمد ابن يحيى، وتنقل في بلاد خراسان والعراق، ولقيته بمصر سنة اثنين وسبعين في العهد الصلاحي، وسامه السلطان المقام بها ليفوّض إليه التدريس بقبر الشافعي رضي الله عنه، فعبر وماصبر، وعاد إلى البلاد، ثم وفد إلى دمشق في جمادى الأولى سنة خمس وتسعين ثم سار إلى حلب في ثاني شعبان، فكان من وفاته بها ماكان.

قال:وفي هذه السنة توفي بنيسابور الفقيه الكبير محيي الدين بن محيي الدين محمد بن يحيى.

وفيها توفي صاحب آمد قطب الدين سكمان بن نور الدين قرا أرسلان.

وفيها مات بدمشق في العشر الأوسط من شعبان الهمام العبدي، الشاعر البغدادي، وهو أبو الحسن على بن نصر بن عقيل بن أحمد بن علي بن عبد القيس من ربيعة وقدم دمشق سنة خمس وتسعين، وهو أشعر من رأيته في هذا الزمان، وسمعته ينشد الملك العادل ودمشق محصورة كلمة شاعره، وصادفته ذا سمت حسن، وفصاحة ولسن، ومعه ديوان شعره يحوي قلائد دره وفرائد سحره، وتوفر على مدح الأمجد صاحب بعلبك ومن شعره:

وما الناس الا كامل الحظ ناقص
وآخر منهم ناقص الحظ كامل

وإني لمثـــر مـــن حيـــاء وعفـــة
وإن لم يكـــن عنـــدي مـــن المال طـــائل

قال: وتـوفي في هذه السنـة قبل الفاضـل بثلاثـة أيام الأثير بـن بنان، وكان مشمولا في الدولتين بكل قبـول واحترام واحسان، وكان السلطان لما تصرف في القصر ولاه بيـع موجـوده، وبذل في نصرتـه غـاية مجهـوده، ولما فرغ مـن شغله أبقاه على رسـم انعامه كلـه، واستمر إمراره واستقـر قراره، وجلس في بيته يسح عليه رواياته العـالية، حتى أدرك أيام الملك العزيز، ولم يدرك في العـز أملا، ولم يملك عمـلا، حتى تغير خلقه، وتقلـل رزقه، وتبطل حقـه، وآل أمره إلى اعتقالـه بالديون، واحتبـاسه في الرهـون، وممن غاظـه وزير العزيز، وكـان مؤدبه في الصغر، واستـوزره في الكبر فتجهمه، واسمعه مـاكرهـه، وقال له: مـا أحسن ما أدبـت مخدومك وخـرجته، وعلى مـراتب أخـلاقك درجتـه، وقال للفـاضـل: أنا خلصتـك في أيام شـاور مـرتين، ودافعت عنـك دفعتين، وهذه قصـائدك في مدحـي، ومقاصـدك لمنحـي، وكان يعـرف لتقـادم عهده وانتقـالـه في الحالات، مبادي أربـاب المنـاصـب إلى الغايـات، فكـرهـه النـواب ودحضوه ولمعـارض النـوائب عرّضوه، وكـان بالقاهرة جـاري، وباب داره مقابل بـاب داري، وأنا أعينه في الأيام الصلاحية بأصلح إعانة، وأصونه بأرجح صيانه.

فصل

في وفاة القاضي الفاضل رحمه الله

قال العماد : وفي هذه السنة تمت الرزية الكبرى، والبلية العظمى وفجيعة أهل الفضل بالدين والدنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفنا إلى دار البقاء، في داره بالقاهرة سادس ربيع الآخر، يوم الثلاثاء وكان يعني ذلك اليوم بمصاف الأفضل يوم الكسره، وبمصاب الفاضل يوم الحسرة، وذكر أنه ليلة الثلاثاء في مدرسته صلى العشاء، وجلس مع الفقيه ابن سلامة مدرسها، وتحدث معه ماشاء وشوهد من كل ليلة أبش، وأبسم وأهش، وقد طابت المحاضره وطالت المسامرة، وانفصل إلى منزله صحيح البدن فصيح اللسن، وقال لغلامه: رتب حوائج الحمام، وعرفني حين أقضي مُنى المنام، فوافاه سحراً للاعلام، فما اكترث بصوت الغلام، ولم يدر أن كلم الحمام حمى من الكلام، وأن وثوقه بطهارته من الكوثر أغناه عن الحمام، فبادر إليه ولده فألفاه وهو ساكت باهت، فعرف أن القدر لهباغت، فلبث يومه لايسمع له إلاّ أنين خفي، علم منه أنه بعهد الله وفي، ثم قضى سعيداً، ومضى شهيدا حميدا، فوقاه الله تعالى الوصية فكانت له بسيد الأولين والآخرين أسوه، وإن تردى عن رداء العمر فله من حلل البقاء في عليين كسوه، ولأنه لم يبق في مدّة حياته عملاً صالحاً إلاّ وقدّمه، ولا عهداً في الجنة إلاّ أحكمه، ولا عقداً في البر إلاّ أبرمه، فإن صنائعه في الرقاب، وأوقافه على سبل الخيرات متجاوزة عن الخراب، لاسيما أوقافه لفكاك أسرى المسلمين إلى يوم الحساب، وأعان طلبة الشافعية والمالكية عند داره بالمدرسة والأيتام بالكتاب، والخيرات الدارة على الأيام، فكانت حياة ثانية إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام، وكان رحمه الله للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، سلطانه مطاع، والسلطان مطيع، وفضله جامع، وشمل الفضل به جميع، وهو واحد الزمان، وصاحب القرآن، قد خصه الله بالمكانة والإمكان،

والسلطان رحمه الله مـن مفتتحات فتوحـه ومختتماتها، ومبادىء أمـور دولته وغاياتها، ما افتتـح الأقاليم إلا بأقاليد آرابه وآرائه، ومقـاليد غناه وعنائه، وكنت مـن حسناته محسوبا، وإلى مناسب آلائه منسـوبا، أعرف صنـاعته ويعرف صنـاعتي، وأعـارض بضاعته الثمينـة بمزجـاة بضاعتـي، ولم يزل يجذب بضبعـي، ويجلب نفعـي، وما أوسـع درعه للخطـاب في شغلي إذا ضاق بـالخطب الشاغـل ذرعي، وكانت كتـابته كتائب النصر ، ويـراعته رائعة الدهر، وبراعته بارية للبرية، وعبارته نافثة في عقـد السحر، وكانت بلاغتـه للدولـة مجملة، وللمملكة مكملـة، وللعصر الصلاحـي على سائر الأعصار مفضلة، ومفتتحـاته في الفتوحات البـديعة بديعة، ومخترعـاته في الصنـائع المخترعـة صنيعـة، وإنما نسجـت على منـوالـه، ومـزجـت مـن جرياله، ورويت بـزلاله، وهو الذي نسخ أساليب القدمـاء بما أقدمه من الأساليب، وأغربـه من الابداع وأبدعه من الغريب، ومـا ألفيته كرر دعاء ذكره في مكاتبته، ولا ردّد لفظا في مخاطبته بل تـأتي فصوله مبتكرة، مبتدعة مبتدهة لا مفتكره، بالعـرف والعرفان معرفة لانكره، وكانت الـدولة بادالته تدال، والزلـة بازالته تزال، والكـرام في ظله يقيلون، ومن عثـرات النوائب بفضله يستقيلـون، وبعز حمى حمايته يعـزون، ولهز عطف عطفـه يهتزون ، فـإلى مـن الوفـادة بعـده، وممـن الافـادة، وفيمن السيـادة ولمن السعـادة؟ والحمد لله الـذي له الغيب والشهاده، وإنـا لله وإنا إليه راجعـون، ولأمره منقادون .

وقـد وصفـه العماد أيضافي كتـاب الخريـدة في القسـم الرابـع في ذكـر محاسـن فضلاء مصر وأعمالها، فقـال: وقبل شروعـي في ذكر أعيـان مصر وأحاسنها ومـزايا فضلائها ومـزائنها، أقدّم ذكر مـن جميع أفاضل الـدهر وأماثـل العصر ، كالقطرة في تيـار بحره بل كـالذرة في أنوار فجـره، وهو المولى القاضي الأجـل الفاضل الأسعـد أبو علي عبـد الرحيم بـن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسـن بن البيساني، صاحب القـرآن، العديم الأقـران، وواحـد الـزمـان العظيـم الشـان، رب القلـم والبيـان واللسـن

واللسان ، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة والفضل الذي ما سمع له بمماثل في الأوائل ممن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره، أو جرى في مضماره ، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصنائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار ويقلع الانوار ، ويبدع الأزهار، وهو ضابط الملك بآرائه، ورابط السلك بآلائه، إن شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعة ما لو دوّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة، أين قس في مقام حصافته، ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته، فضله بالافضال حال، ونجم قبوله في أفق الاقبال عال، لامنّ في فعله ولا مين في قوله، ولا خلف في وعده ولا بطء في رفده الصادق الشيم، السابق بالكرم، ذو الوفاء والمروّه، والصفاء والفتوّه والتقى والصلاح، والندى والسماح، منشر رفات العلم وناشر راياته ، وجالي غيابات الفضل وتالي آياته، وهو من أولياء الله الذين خصوا بكرامته، وأخلصوا لولايته قد وفقه الله للخير كله، وفضل هذا العصر على الاعصار السالفة بفضله ونبله، فهو مع ما يتولاه من أشغال المملكة الشاغلة ، ومهماته المستغرقة في العاجلة لايغفل عن الآجلة، ولا يفتر عن المواظبة على نوافل صلاته ونوافل صلاته، وحفظ أوراده ووظائفه، وبث أصفاده وعوارفه، ويختم كل يوم من القرآن المجيد، ويضيف إليه ما شاء اللهمن المزيد ، وأنا أؤثر أن أفرد لنظمه ونثره كتابا، فإنني أغار من ذكره مع الذين هم كالسها في فلك شمسه وذكائه، وكالثرى عند ثريا علمه وذكائه فإنما تبدو النجوم إذا لم تبرز الشمس حاجبها، وتحجب نور الغزالة عند إشراقها كواكبها، وإنه لايؤثر أيضا إثبات ذلك، فأنا ممتثل لأمره المطاع ملتزم له قانون الاتباع، وأضع أذني لأذنه، قابض يميني على يمنه راكن بأملي إلى ركنه، قاطن برجائي في ظل أمنه، افترض رضاه ولا أعترض على ما يحكم به ويراه، ولا أقوم إلا حيث يقيمني ، ولا أسوم إلا ما يسومني ولا أعرف يد المكتنى غير يده ، ولا أتصدّى إلا لما جعلني بصدده، وأسأل الله التوفيق للثبات على هذا

السنن وابتهاج جدده وهو أحق ممدوح بمدحي واقضاهم بحقه، وأسماهم في أفقه، وأولاهم بصدقه، وأهداهم إلى طرقه، ولي فيه مدائح منظومة ومنثوره، ومقاصد معاهدها معموره، وقصائد قلائدها على مجده موفوره.

ثم ذكر منها بعض ماتقدّم ذكره في مواضع من هذا الكتاب وله فيه من قصيدة أوّلها:

بحياتكم ماعندكم بعدي
فسوى الأسى مابعدكم عندي
ماللاجنة لاعدمتهم
رغبوا عن الاسعاد في الزهد
إن لم يفوا فلقد وفى كرما
عبد الرحيم بذمة المجد
ذو الرتبة الشماء والشرف الـ
ـعالي السنا والسؤدد العد
الناس كلهم له تبع
وفي فضله والدهر كالعبد
كم غاص بحر بنانه فغدا
درّ البيان يساق في العقد
ان سوّد البيضاء بيض من
ثوب الليالي كل مسودّ
قلم أقاليم البلاد به
وثغورها للضبط والسدّ
ملك كتيبته كتابته
فرد بجيش النصر في جند
الأسمر الخطيّ تابعه
في حكمه والأبيض الهندي
والنائبات بحدّه أبدا
مثلومة مغلولة الحد

-٨٩٦١-

وهي طويلة.

ثم قال: ولوأوردت من كلامه طرفاً لظهر عجز الأفاضل، واعترفت بالقصور ذوو الفضائل، فلايحسن ذكر البحر في الجداول، ولا العرش في المنازل، فأنا أؤثر أن أفرده بقسم لايمتزج بسواه، ولايتبهرج به من في جملته أوردناه، ولعله يأذن لي في ذلك ، فلا سبيل إليه إلاّ بإذنه، ولا نفاذ للتصرف إلا بعد الفكاك (١٤٤) من رهنه.

قلت: وقد قالت الشعراء فيه فأكثروا، وقد تقدم لأبي الحسن بن الذروي فيه أبيات حسنة عامي حجه، وللتاج أبي الفتح البلطي فيه:

لله عبـــــد رحيـــــم
يـــدعـــى بعبـــد الــرحيـــم
على صراط ســـــــوي
مـــن الهدى مستقيـــــم
ينمـــــي إلى شرف في
ذرى المعـــــالي صميـــــم
مهـــذب حـــاز ماشئـــت
ــــت مـــن تقـــى وعلـــوم
نســك ابـــن مـــريـــم عيســى
وهـــدى مـــوســى الكليـــم
يـــرى التهجـــد انســا
في جنـــح ليـــل بهيـــم
مسهـــد الطـــرف يتلـــو
آي القـــرآن العظيـــم

وللقاضي السعيد هبة الله بن سناء الملك فيه من قصيدة:

عبـــد الـــرحيـــم على البريـــة رحمة
أمنـــت بصحبتهـــا حلـــول عقـــابها

يـــاســـــائلا عنـــه وعـــن أسبــابـــه
نــــال السماء فسلـــه عـــن أسبـــابها
والـــدهـــر يعلـــم أن فيصـــل خطبـــه
بخطـــى بـــراعتـــه وفصـــل خطـــابها
ولقـــد علـــت رتـــب الأجـــل على الـــورى
بسمـــو منصبهـــا وطيـــب نصـــابها
وأتتـــه خـــاطبـــة إليـــه وزارة
ولطـــالما أعيـــت على خطـــابها
مـــا القبـــوه بها لأن بعلمهـــا
أسماءه أغنتـــه عـــن ألقـــابها
قـــال الـــزمـــان لغيره إذ رامهـــا
تـــربـــت يمينـــك لســـت مـــن أتـــرابها
اذهـــب طـــريقـــك لســـت مـــن آرائها
وارجـــع وراءك لســـت مـــن أربـــابها
وبعـــز سيـــدنـــا وسيـــد غيرنـــا
ذلـــت مـــن الأيـــام شمـــس صعـــابها
وأتـــت سعـــادتـــه إلى أبـــوابـــه
لا كـــالـــذي يسعـــى إلى أبـــوابها
تعنـــو الملـــوك لـــوجهـــه بـــوجـــوههـــا
لا بـــل تســـاق لبـــابـــه بـــرقـــابها
شغـــل الملـــوك بما يقـــول ونفســـه
مشغـــولـــة بـــالـــذكـــر في محرابها
في الصـــوم والصلـــوات أتعـــب نفســـه
وضمان راحتـــه على اتعـــابها
وتعجـــل الاقـــلاع عـــن لـــذاتـــه
ثقـــة بحســـن مـــآلها ومـــآبها
فلتفخـــر الـــدنيـــا بســـائس ملكهـــا
منـــه ودارس علمهـــا وكتـــابها

صوّامها قوّامها علامها
عمالها بذالها وهابها

وله أيضا من أخرى:

وسألت من أي المعادن ثغرها
فوجدت من عبد الرحيم المعدنا
أبصرت جوهر ثغرها وكلامه
فعلمت حقا ان هذا من هنا
ذاك الكلام من الكمال بمنزل
لا يدرك الساعي إليه سوى العنا
يدنو من الافهام إلا أنه
تلقاه أبعد ما يكون إذا دنا

قلت: كان والده تولى القضاء بعسقلان، وأنفذ ولده الفاضل إلى مصر، فاتصل بكتاب الدولة المصرية أبي الفتح بن قادوس وغيره، وفتح الله عليه في هذه الصناعة ففاق فيها أهل عصره، مضافاً إلى ما منحه الله تعالى من علو قدره، وقد سبق من ترسلاته ما يشهد لعظيم أمره، وقرأت من نظمه:

وسيف عتيق للعلاء فإن تقل
رأيت أبا بكر فقل وعتيق
فزر بابه فهو الطريق إلى الندى
ودع كل باب ما إليه طريق

وله أيضاً:

سبقتم باسداء الجميل تكرماً
وما مثلكم فيمن تحدّث أو حكى
وقد كان ظني أن أسابقكم به
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا

ودفن رحمه الله بمقبرته بالقرافة.

وقرأت في تاريخ أبي علي حسن بن محمد بن اسماعيل القليوبي الذي ذيله على تاريخ أبي القاسم السمناني قال: حدثني الملك المحسن أحمد بن السلطان صلاح الدين أن يوم موت الفاضل اتفق دخول الملك العادل إلى مصر، وأخذها من ابن أخيه الأفضل.

قال: دخل العادل من باب، وخرجنا نسرع بالجنازة من باب آخر، قال: وأكثر أهل مصر يذكرون أن كتبه التي جمعها مقدار مائة ألف مجلد، وكان يجمعها من سائر البلاد. قال: وسمعت قاضي القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزوري ببغداد أيام ولايته يحدث أن القاضي الفاضل لما سمع أن العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت، خشية أن يستدعيه وزيره صفي الدين بن شكر إليه أو يجري في حقه إهانة، وكان بينهما مقارصة فأصبح ميتاً، وكانت له معاملة حسنة مع الله تعالى، وصلاة بالليل كما ذكروا عنه رحمه الله.

قلت: وأخبرني القاضي الشهيد ضياء الدين بن أبي الحجاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله أن القاضي الفاضل بعد صلاح الدين لم يخدم أحداً من أولاده، وكانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته إلى أن توفي، قال: ولما قدم العادل مصر وملكها بات وأصبح فزار قبر الشافعي رضى الله عنه، وجاء إلى قبر الفاضل فزاره، قال ابن أبي الحجاج: وأنا حاضر ذلك.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

قال العماد: ففيها توفي الأمير عـز الدين ابراهيم بن شمـس الدين بن محمـد بن المقـدم في حصـن أفـاميه، وفيهـا أو في سنـة سـت قبلها تـوفي السلطان خوارزم شاه بـن تكش بن ايل أرسلان بن أتسـز بن محمد، وهو الذي زالت دولـة السلجوقية بملكه، واجتمـع له مع خوارزم، خـراسان، والعراق، ولما مات قام ولده علاء الدين مقامه.

قال: وفيهـا كتب السلطـان العادل لـلأمير فخر الـدين إيـاز شركس بأعمال تبنين، وهـونين، وبانيـاس، والحوله، وما يجري معهـا، وكانـت مع الأمير حسام الـدين بشـاره، فحاصره وأنجـده الملك المعظـم عيسى ابـن السلطان من دمشق، فسلم البلاد وخرج.

قال: وفيها توفي الأمير بهاء الدين قراقـوش، وهو من القدماء الكرماء، وشيوخ الدولـة الكبراء، أمير الأسدية ومقدمها، وكريمهـا ومكرمها، ولم أر غيره خصياً لم تقـاومه الفحول، ولم يؤثـر في محال مأثراته المحـول، وله في الغزوات والفتـوحات مـواقف معـروفة، ومقامـات موصـوفة، وهـو الذي احتاط على القصر، حين استتبـت على متوليـه أسباب النصر، وذلـك قبل موت العـاضد بمـدة، ولما خطب لبنـي العباس بـالديـار المصرية تسلـم القصر بما فيه، واستظهر على أقـارب العاضد وبنيه، وتـولى عمارة الأسوار المحيطـة بمصر والقاهـره، وأتـى فيها بـالعجائب الظـاهـرة، وكان معـاذ الإلتجـاء، وملاذ الإرتجاء، غير أنـه نسب إلى اللجـاج لشدة ثبـاته وفـرط جموده، ولا يكـاد يعجم لصـلابـة عـوده، ولما توفي تسلـم العـادل داره بما حوته من الذخائر، وصارت اقطاعاته للملك الكامل.

قال: وفيها نقـل إلى العادل عن غلام الأمير أيبـك الفطيس أن جماعة قد عزموا على الفتـك بالعادل حال ركوبه، وأسنـد أصل ذلك إلى الملكين

المعز اسحق والمؤيد مسعود ولدي صلاح الدين رحمه الله، فأحضر الغلام وعصره فمات ولم يقر، واعتقل المعز والمؤيد ونزع من اتهمه في ذلك من الأمراء الصلاحيه، وتكلم الناس بأحاديث في هذه القضية.

قال: وفي هذه السنة اشتد الغلاء، وامتد البلاء وتحققت المجاعة وهلك القوي، فكيف الضعيف، ونهك السمين فكيف العجيف، وخرج الناس حذر الموت من الديار، وتفرّق فرق بمصر في الأمصار، ورأيت الآرامل على تلك الرمال، والجمال باركة تحت الأحمال، ومراكب الفرنج على ساحل البحر على اللقم، تسترق الجياع باللقم، فقل من إلى الشام خلص إلاّ بعد أن قل عدد أهله ونقص.

قلت: ثم زالت تلك الشدة بعد مدة، وتوفي العماد الكاتب رحمه الله مصنف هذه الكتب: الفتح، والبرق، وهذه الرسائل الثلاث العتبى، والنحلة، والخطفة بدمشق في أوّل شهر رمضان من هذه السنة، وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة، ودفن بمقابر الصوفية بالشرف القبلي.

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الواعظ وغيره رحمهم الله.

وتوفي الملك الأفضل بسميساط في سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وحمل إلى حلب فدفن بها

وتوفي الملك الظاهر بحلب في سنة ثلاث عشرة وستمائة.

وفيها توفي بدمشق الشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي، ودفن بالجبل وغيره رحمهم الله.

وتوفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب بدمشق في سنة خمس عشرة

وستمائة، وابنه المعظم في أواخر سنة أربع وعشرين وستمائة، وأخواه الأشرف والكامل في سنة خمس وثلاثين وستمائة رحمهم الله ووفق من بقي من أهل بيتهم وأصلح ذات بينهم آمين.

***

آخر الجزء الثاني من الأصل المنقول منه، الذي هو بخط المؤلف.

والحمد لله وحده وصلى الله على من لا نبي بعده. على يد العبد الضعيف المفتقر إلى رحمة ربه اللطيف ، محمد بن أحمد البودري المغربي الأزهري.

آخر الجزء الثاني من الروضتين بأخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة رحمه الله.

حواشي الجزء الأول حسب تقسيم المؤلف

١—سورة الرعد—الآية :٩.
٢—سورة ابراهيم —الآية٣١٠.
٣—سورة الطارق —الآية :٩.
٤ — سورة هود —ا لآية: ١٢٠.
٥ —سورة القمر —الآيات :٤ـ٥.
٦ـــ **رواه الإمام الترمزي في كتاب الشمائل**
٧— انظره عن أبي داود في جامع الأصول لابن الأثير ج ٨ ص ١٩.
٨—صحيح مسلم ـ ط. دار الفكر بيروت ج٢ ص ١٣٢ ـ باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح.
٩—انظره في جامع الأصول ج١١ ص ٧٩٢.
١٠—سورة الحاقة— الآية :٨.
١١—في حاشية الأصل: «قف، كان المؤلف اختصر تاريخ ابن عساكر».
١٢—سورة الذاريات—الآية :٥٥.
١٣—في حاشية الأصل: ولد نور الدين سنة ٥١١ وتوفي سنة ٥٦٩، وولد صلاح الدين سنة ٥٣٢ وتوفي سنة ٥٨٩.
١٤—ديوان أبي تمام ـ ط. دار المعارف القاهرة ج٣ ص ١٥٢.
١٥ —في حاشية الأصل: قف على أن نور الدين كان حنفي المذهب.
١٦—في حاشية الأصل: قف على أن الزهد خلو القلب من محبة الدنيا لاخلو اليد عنها.
١٧—أي لايذكرن بقبيح ، كان يصان مجلسه عن رفث القول. النهاية لابن الأثير.
١٨ـ أي أوضحهم وعداً. القاموس.
١٩—سنا البرق الشامي للبنداري ـ .القاهرة ١٩٧٩ ص ١٦.
٢٠—في حاشية الأصل· حاشية، قال المؤلف: هو عبد المؤمن بن هبة الله بن حمزة الأصفهاني الحنفي، ولقبه شوروه ـ بشين معجمة مفتوحة ، وراء ساكنة بين واوين مفتوحتين ، وآخره هاء ، والله أعلم. كذا في الأصل المنقول من خط مؤلفه.
٢١—ليست هذه الأبيات في المطبوع من تاريخ إربل.
٢٢—في الحاشية: قف على هذه المنقبة العظيمة.
٢٣—انظر تاريخ حلب لابن الشحنة ـ ط. طوكيو ١٩٩٠ ص ١٠٥.
٢٤—سورة الفرقان— الآية: ٦٣.
٢٥—سورة النور— الآية: ٥١.
٢٦— سورة الزمر— الآية· ١٠٠.
٢٧—سورة الأنعام— الآية : ١٦٠.
٢٨— سورة البقرة — الآية: ٢٦١.
٢٩— سورة ص— الآية: ٢٩.
٣٠— سورة الانفطار— الآية: ١٩.
٣١— سورة آل عمران — الآية· ١٩٥.

٣٢— لم تصلنا ترجمة نور الدين في الأجزاء الموجودة من بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم.
٣٣— انظر الخريدة— قسم بلاد الشام - ج١ ص ١٢٣.
٣٤— تخمط : تكبر وغضب، القاموس.

٣٥—دأيت للشيء: ختلته وراوغته. القاموس.
٣٦— الشلق: الضرب بالسوط وغيره.
٣٧— الجث— القطع ، أو انتزاع الشجر من أصله، وبالضم: ما أشرف من الأرض حتى كاكمة صغيرة.
٣٨— أجن الماء إذا تغير لونه وطعمه.
٣٩— في هامش الأصل: حاشية - الجناجن - بجيمين ونونين - عظام الصدر.
٤٠— في هامش الأصل: الشرر أحكام الفتل وابرامه، والسحل دونه، أي أمضى منه في الأمور الكبار وفي الصغار، والذماء: بقية الروح في المذبوح، والله أعلم.
٤١— ليلة الهرير هي إحدى ليالي القادسية، وكذلك هي إحدى ليالي صفين.
٤٢— من أمثال العرب يعني إبطان غير المظهر.
٤٣— الابرنز: الأمير.
٤٤— وقم: قهر وأذل. القاموس.
٤٥— الكرينة: المغنية، ولا أدري إذا كان الكرين: المغني.
٤٦— تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الاصبهاني بتهذيب البنداري، - ط. القاهرة ١٩٠٠ ص ١٨٧— ١٨٨.
٤٧— القلة: أعلى مكان بالقلعة أو بالحصن.
٤٨— قبر زنكي قرب مشهد الإمام علي رضي الله عنه، ومكان هذا المشهد حيث باب بغداد في الرقة، وعلى مقربة من هذا الباب جرت حفريات رجحت مكان القبر وحددته.
٤٩— تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٨٩— ١٩٠.
٥٠— خبز مصنع من طحين معجون بالسمن والسكر.أو خبز بلا أدم (بقسماط)
٥١— صحيح مسلم— كتاب الحدود- ٥ ص ١١٧.
٥٢— بزرك: عظيم.
٥٣— سورة التوبة— الآية : ١١١.
٥٤— سورة الصافات— الآية: ٤٤.
٥٥— مرت هذه الكلمة من قبل في تاريخ ابن القلانسي، ووقتها خيل لي أنها تصحيف «حظائر» ولكن التكرار بالرسم نفسه نفى هذا الاجتهاد، ولدى السؤال تبين لي أن فطائر جمع فطيرة، والفطيرة قطعة الأرض واضحة المعالم لافرق إن كانت مزروعة أو بدون زراعة.
٥٦— حبيب النجار، ومثواه كما هو رائج في انطاكية.
٥٧— ديوان أسامة ص ١٧٠.
٥٨— سورة فاطر— الآية : ٤٣.
٥٩— جفخ : فخر وتكبر.
٦٠— سورة الأنعام— الآية: ٩٦.
٦١— سرطته: بلعته.
٦٢— الزبرج: الزينة

٦٣— يفيل: يخطيء.
٦٤— آخر صفوف الحرب.
٦٥— سدك به لزمه وتولع به.
٦٦— السرق الحرير، والشليل الثوب يلبس تحت الدرع.

٦٧— الأرين· النشيط، وسرير الميت أو تابوته، والسيف. القاموس.
٦٨— الأنب— ثمر الباذنجان، والغاصي: القليل المتفرق.
٦٩— الكسم· الحشيش الكثير، والصوار: القطيع من البقر.
٧٠— العرار: الصياح والصراخ.
٧١— الخبار: مالان من الأرض.
٧٢— العلاب— جمع علبة ـ وهي النخلة الطويلة والقدح الضخم يحلب فيها.
٧٣— الشجن· الحزن والهم، وشجنته الحاجة · حبسته.
٧٤— الضجم: عوج في الفم والشدق، وضغمه: عضه.
٧٥— ديوان أسامة ص ١٦٢.
٧٦— ديوان أسامة ص ٧٦.
٧٧— ديوان أسامة ص ٢٩٠.
٧٨— ديوان أسامة ص ٢٨٧.
٧٩— ليست في ديوانه المطبوع.
٨٠— ديوان أسامة ص ٣٠٦— ٣٠٩.
٨١— القنس· الأصل ، أعلى الرأس.
٨٢— ديوان أسامة ص ٤٠ — ٤١ (عدة أبيات).
٨٣— كتاب العصا لأسامة ـ ط . القاهرة ١٩٧٢ ضمن نوادر المخطوطات ج١ ص ٢٠٧.
٨٤— جاءت قصيدة ابن رزيك في ديوان أسامة مع رد آخر غير هذا لأسامة ص ١٣٦— ١٣٧.
٨٥— ديوان أسامة ص ٢١٣— ٢١٧.
٨٦— ديوان أسامة ص ١٤٠ —١٤١ مع فوارق.
٨٧— بط الجرح شقه.
٨٨— ديوان أسامة ص ١٧٥ — ١٧٧.
٨٩— الخريدة ـ قسم مصر ـ ط • القاهرة ١٩٥١ ج ١ ص ١٧٣ — ١٨٣.
٩٠— ليست في ديوانه المطبوع.
٩١— الخريدة ـ قسم مصر ـ ج١ ص ١٧٤.
٩٢— الخريدة ـ قسم مصر ـ ج١ ص ١٨٠.
٩٣— الخريدة ـ قسم مصر ـ ج١ ص ١٨٠.
٩٤— ديوان أسامة— ص ٢٨١ ـ ٢٨٣.
٩٥— سنا البرق الشامي ص ١٩.
٩٦— ليسا في ديوانه المطبوع.
٩٧— سورة الأعراف ـ الآية· ٩٥.
٩٨— الخريدة — قسم مصر ـ ج ١ ص ١٨٩ ـ ٢٠٠.
٩٩— الخريدة — قسم الشام ـ ج٢ ص ٣٥.

١٠٠— سنا البرق الشامي ص ٢٢— ٢٤.
١٠١— انظر سورة آل عمران - الآية: ٢٦.
١٠٢— سورة آل عمران— الآية : ٢١٦.
١٠٣— سورة البقرة— الآية: ٢١٦.
١٠٤— سورة النساء— الآية: ٥٤.
١٠٥— سورة النحل— الآية: ٩١.
١٠٦— الخريدة - قسم الشام — ج ١ ص ٢٧٧.
١٠٧— سورة الأنفال— الآية : ٤٢.
١٠٨— سورة القصص— الآية: ٨٣.
١٠٩— سورة الرعد— الآية: ٤٣.
١١٠— ديوان عرقلة الكلبي - ط. بيروت: ١٩٩٢ ص ٥٧.
١١١— ديوان عرقلة الكلبي ص ١١٠.
١١٢— ديوان عرقلة ص ٤٩.
١١٣— ديوان عرقلة ص ٦٤.
١١٤— ديوان عرقلة ص ٥٢. الخريدة - قسم الشام — ج١ ص ١٨٠.
١١٥— سورة النحل— الآية : ٥٢.
١١٦— سورة النحل— الآية: ٢٦.
١١٧ سورة الأنفال— الآية : ٤٢.
١١٨— الخريدة - قسم مصر - ج١ ص ٢٣٥— ٢٣٧.
١١٩— سورة آل عمران— الآية: ١٧٤.
١٢٠— كذا وهو وهم فقد عاشت الخلافة الفاطمية / ٢٧٠/ سنة هجرية من ٢٩٧ حتى ٥٦٧ (٩٠٩- ١١٧١) ، وكان القائد جوهر الصقلبي قد استولى على مصر سنة ٣٥٨ / ٦٦٩م، وبعد ذلك بوقت قصير انتقل الخليفة المعز إلى القاهرة المؤسسة حديثا.
١٢١— ديوان العرقلة ص ٣٧— ٣٨.
١٢٢- سورة الصف - الآية: ٨ . وحديث المصنف عن تاريخ الدولة الفاطمية ونسب أئمتها صادر عن التعصب ، ذلك أن مسألة النسب مبتوتة من حيث الصحة، أضف الى هذا أن اسم المهدي عبد الله وليس عبيد الله وكنت قد عالجت هذه المسألة بالتفصيل بكتابي الجامع بأخبار القرامطة ، ج ١ ص ٧٧— ١٠٧.
١٢٣— سورة الكهف— الآية: ١٠٤. وكنت قد نشرت مادونه القاضي عبد الجبار في تثبيت دلائل النبوة في كتابي الجامع بأخبار القرامطة ج١ ص ٢٩٥- ٣٣٠.
١٢٤— سورة الأسراء- الآية: ٥٨.
١٢٥— زرا هي أزرع الحالية وسمسكين هي الشيخ مسكين الحالية وهما على مقربة من بعضهما.
١٢٦— متح الماء: نزعه، والمقصود هنا رفع زنكي إلى القلعة.
١٢٧— الخريدة- قسم الشام ج ٣ ص ٦٤- ٦٥.
١٢٨— طمام موضع على مقربة من صنعاء، وكان سوقاً مشهوراً. معجم المدن والقبائل اليمنية لابراهيم المقحفي - ط. صنعاء ١٩٨٥.

١٢٩ــ الخريدة ــ قسم الشام ــ ج٣ ص ١٠٣ ــ ١٠٤.
١٣٠ــ سورة البروج ــ الآية: ٢٠.
١٣١ــ الخريدة ــ قسم مصر ــ ج ١ ص ١٨٦ ــ ١٨٧.
١٣٢ــ سورة الشوري ــ الآية : ٤١.
١٣٣ــ سورة البقرة ــ الآية: ١٩٤.
١٣٤ــ ديوان عرقلة ص ٧٠.

١٣٥ــ منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ــ ط. القاهرة ١٩٦٨ ص ١٤.
١٣٦ــ ديوان أسامة ص ١٥٨.
١٣٧ــ المعرفة والتاريخ للفسوي ـ ط. بيروت ١٩٨١ ج٢ ص ٣٦٧.
١٣٨ــ ليست في ديوان أسامة المطبوع.
١٣٩ــ سورة التوبة ــ الآية: ٥٨.
١٤٠ــ سورة الليل ــ الأيتان: ١٤ ــ ١٥.
١٤١ ليست في ديوانه المطبوع.
١٤٢ــ سورة النبأ ــ الآية : ٢٠.
١٤٣ــ الأعلاق الخطيرة ــ قسم الشام ـ ج٢ ص ٢٨٤ ــ ٢٨٨.
١٤٤ــ سورة الرعد ــ الآية : ٣٨.
١٤٥ــ كذا وهو وهم قائم على تجاهل زمن كل من ابن أبي حصينة والمعري المتقدم على أسامة ، ولا وجود لطائية أسامة في ترجمته في الخريدة.
١٤٦ــ أي أقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالامام علي كرم الله وجهه.
١٤٧ــ الخريدة ـ قسم الشام ــ ج١ ص ٤٠٦ ــ ٤١٩.
١٤٨ــ الخريدة ــ قسم الشام ــ ج١ ص ٤٠٢ ــ ٤٠٣.
١٤٩ــ سورة الأنعام ــ الآية : ١٦٤.
١٥٠ــ الخريدة ــ قسم الشام ــ ج٢ ص ٣٣٦ ــ ٣٣٩.
١٥١ــ الخريدة ــ قسم الشام ــ ج١ ص ٤٩١ ــ ٤٩٥.
١٥٢ــ الخريدة ــ قسم مصر ــ ج١ ص ١٠٦.
١٥٣ــ لاترجمة للعثماني في قسم مصر المطبوع من الخريدة.
١٥٤ــ الخريدة ــ قسم الشام ــ ج٢ ص ٣٦٤. وللشاتاني ترجمة جيدة في بغية الطلب لابن العديم على أساسها يقوّم نص الخريدة المنشور.
١٥٥ــ ديوان العرقلة ص ٦٥.
١٥٦ــ محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد. معجم البلدان.
١٥٧ــ سورة فصلت ــ الآية : ٤٦.
١٥٨ــ هذا بعض بيت ورد في الحماسة لأبي تمام بشرح التبريزي ـ ط. بيروت ـ دار القلم ج١ ص ٣٤١ والبيت هو:
أبى القتل إلاّ آل صمة إنهم   أبو غيره والقدر يجري إلى القدر.
١٥٩ــ سورة النساء ــ الآية : ١٠٠.

حواشي الجزء الثاني من الروضتين

١— الأمج: حر وعطش، والشديد الحر، القاموس.
٢— سورة آل عمران— الآية: ٣٤ .
٣— سورة الأنفال— الآية: ٦١ .
٤— سورة الأعراف— الآية: ٨٧ .
٥— ديوان سبط ابن التعاويذي— ط دار صادر بيروت ص ٤٢٠ —٤٢٤
٦— سورة البقرة— الآية: ٢٤ .
٧— هذه القبور في المدرسة الشامية البرانية، التي باتت الآن في موقع متوسط داخل دمشق، وقد جرى ترميمها مؤخراً.
٨— انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٧ص٤٤٤،٤٤٧ .
٩— في هذا اشارة إلى قصة الزباء والانتقام منها حين جدع قصير أنفه، فقيل في الأمثال لأمر ماجدع قصير أنفه.
١٠— سورة آل عمران— الآية: ١٩٦ .
١١— سورة المجادلة— الآية: ٢٢ .
١٢— سورة آل عمران— الآية: ١٧٤ .
١٣— سورة الفجر— الآيتان:١٣—١٤ .
١٥— هو زيد بن الحسن زيد بن زيد، من شيوخ ابن العديم، ترجم له في كتاب بغية الطلب ج ٩ ص ٤٠٠٢—٤٠١٣ .
١٦— سورة الواقعة— الآية:٦٥ .
١٧— سورة الزمر— الآية: ٧١ .
١٨— لعلها زالة التي ذكرها الحميري في الروض المعطار وقال عنها: مدينة صغيرة عامرة بينها وبين أوجلة التي بأرض برقة عشرة مراحل.
١٩— سورة طه — الآية: ٣٧ .
٢٠— الخريدة— بداية قسم شعراء الشام ص ١٣٦ .
٢١— سورة التوبة— الآية: ٣٦ .
٢٢— السها: كوكب خفي من بنات نعش الصغرى. القاموس.
٢٣— سورة آل عمران— الآية: ٢٦
٢٤— سورة الأحزاب— الآية: ٢٧ .
٢٥— سمق سموقا: علا وطال. القاموس.
٢٦— سورة الروم— الآيتان:١—٢ .
٢٧— سورة مريم— الآية: ٢٦ .
٢٨— التيوع: كل بقلة إذا قطعت سال منها لبن أبيض حار يقرح البدن. القاموس.
٢٩— سورة الرحمن— الآية: ١٣ .
٣٠— سورة التين— الآية: ١ .
٣١— انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٣ ص ٣٠٦ .
٣٢— انظر موسوعة أطراف الحديث ج ٣ ص ١٤٦ .
٣٣— سورة الفجر — الآيتان: ٧—٨ .
٣٤— موسوعة أطراف الحديث ج ٤ ص ٤٢٢ .
٣٥— سورة يوسف— الآية: ٨٤ .
٣٦— تدقق رواية العماد هذه على ماجاء لدى وليم الصوري وصاحب ذيل تاريخه.

٣٧— سورة الفتح— الآية: ٤ .
٣٨— سورة القدر— الآيتان: ٣—٤ .
٣٩— سورة آل عمران— الآية: ١٤٨ .
٤٠— سورة النبأ— الآية: ٤٠ .
٤١— سورة الروم— الآية: ٤٧ .
٤٢— سورة الفرقان— الآية: ٢٦ .
٤٣— سورة هود— الآية: ٤٣ .
٤٤— سورة فاطر— الآية: ٢ .
٤٥— سورة الأنبياء— الآية: ١٠٥ .
٤٦— سورة طه— الآية: ٣٧ .
٤٧— سورة الاسراء— الآية: ١ .
٤٨— سورة آل عمران— الآية: ٣٧ .
٤٩— سورة التوبة—الآية: ١١١ .
٥٠— سورة الشورى— الآية: ١٣ .
٥١— سورة النور— الآية: ٥٥ .
٥٢— سورة المائدة— الآية: ٢١ .
٥٣— الفتخ من العقبان اللينة الجناح. القاموس.
٥٤— سورة النحل— الآية: ٩٠ .
٥٥— سورة الأنعام— الآية: ٤٥ .
٥٦— سورة الفاتحة— الآيتان: ١—٢ .
٥٧— سورة الأنعام— الآية:١ .
٥٨— سورة الاسراء- - الآية: ١١١ .
٥٩— سورة الكهف— الآية: ١ .
٦٠— سورة النمل— الآية: ٦٠ .
٦١—سورة سبأ—الآية: ١ .
٦٢— سورة فاطر— الآية: ١ .
٦٣— سورة النجم— الآيات: ١٤—١٧ .
٦٤— انظر الآية ٣٦ من سورة النور.
٦٥— سورة النساء— الآية: ١٧٢ .
٦٦— سورة المائدة— الآية: ١٧ .
٦٧— سورة الأنفال— الآية: ١٠ .
٦٨— سورة النحل— الآية: ٩٢ .
٦٩— سورة الأعراف— الآية: ١٧٥ .
٧٠— سورة الأنفال— الآية: ٦٥ .
٧١— سورة آل عمران— الآية: ١٦٠ .
٧٢— سورة الأحقاف— الآية: ١٥ .
٧٣— سورة النمل— الآية: ١٩ .
٧٤— سورة هود— الآية: ٣٨ .
٧٥— سورة آل عمران— الآية: ١٧٥ .
٧٦— سورة الدخان— الآيات: ٢٥—٢٨ .
٧٧— سورة الفرقان— الآية: ٣٨ .
٧٨— سورة غافر— الآية: ٨٥ .
٧٩— سورة فاطر— الآية: ٣٤ .
٨٠— سورة الزمر— الآية: ٧٤ .
٨١— سورة الأعراف— الآية: ٤٣ .

٨٢— سورة يونس— الآية: ١٠ .
٨٣— سورة ابراهيم— الآية: ٣٤ .
٨٤— سورة مريم— الآية: ٨٤ .
٨٥— سورة الواقعة— الآيتان: ٢٥—٢٦
٨٦— سورة الحجر— الآية: ٤٦ .
٨٧— سورة الطلاق— الآية: ٧ .
٨٨— ليست في ديوانه المطبوع.
٨٩— سورة التوبة— الآية: ١١١ .
٩٠— سورة التوبة— الآية: ٢٦ .
٩١— سورة الأنفال— الآية: ١٧ .
٩٢— سورة آل عمران— الآية: ٣٤ .
٩٣— سورة الفرقان— الآية: ٢٦ .
٩٤— سورة الحاقة— الآية: ٧ .
٩٥— سورة يوسف— الآية: ٧٧ .
٩٦— الأسل نبات، والرماح والنبل وشوك النخل، وعيدان تنبت بلا ورق يعمل منها الحصر. القاموس.
٩٧— الخربشت بالفارسية: الخيمة— الايوان. نوع من أنواع الدروع.
٩٨— قلعتان عظيمتان من أعمال إربل. معجم البلدان.
٩٩— سورة النساء— الآية: ١٠٠ .
١٠٠— سورةطه— الآية: ١٣٢ .
١٠١— سورة الحج— الآية: ٤٠ .
١٠٢— سورة محمد— الآية: ٣٥ .
١٠٣— سورة الأحزاب— الآية: ٢١ .
١٠٤— سورة آل عمران— الآية: ١٥٩ .
١٠٥— سورة التوبة— الآية: ٤٦ .
١٠٦— سورة القمر— الآية: ٨ .
١٠٧— سورة الأنبياء— الآية: ٩٦ .
١٠٨— ديوان حاتم الطائي— ط دار صادر بيروت ص ٥١ مع فوارق.
١٠٩— سورة هود— الآية: ٤٣ .
١١٠— سورة الأنعام— الآية: ٦٤ .
١١١— سورة آل عمران— الآية: ١١٣ .
١١٢— سورة الأنعام— الآية: ٤٣ .
١١٣— سورة الأنعام— الآية: ٣٥ .
١١٤— سورة آل عمران— الآية: ٣٠ .
١١٥— سورة الانسان— الآية: ٣٠ .
١١٦— سورة الأنعام— الآية: ٩١ .
١١٧— سورة النمل— الآية: ٧٣ .
١١٨— سورة الحشر— الآية: ١٠ .
١١٩— سورة المزمل— الآية: ٦ .
١٢٠— سورة آل عمران— الآية:١٣ .
١٢١— سورة المائدة— الآية: ٦٤ .
١٢٢— سورة الحج— الآية: ٤٠ .
١٢٣— سورة يوسف— الآية: ٤١ .
١٢٤— سورة آل عمران— الآية: ١٦ .
١٢٥— سورة آل عمران— الآية: ١٠٣ .
١٢٦— يروى أن هذا قاله عبد الله بن الزبير أثناء معركة الجمل، فقد اصطرع هو والاشتر النخعي — مالك بن

الحارث، فنادى بهذا النداء.
١٢٧ — الخريدة — قسم الشام، ج ٢ ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .
١٢٨ — سورة العاديات — الآيتان: ٩ — ١٠ .
١٢٩ — سورة الأنبياء — الآية: ١٠٤ .
١٣٠ — سورة الرحمن — الآية: ٦٠ .
١٣١ — سورة التوبة — الآية: ٤٠ .
١٣٢ — المدرسة التي أسسها وحملت اسمه، حيث باتت من أهم مراكز التعليم في بلاد الشام.
١٣٣ — شعر دعبل بن علي الخزاعي — ط دمشق ١٩٦٤ ص ٧١ .
١٣٤ — سورة الحشر — الآية: ٢٢ .
١٣٥ — سورة التوبة — الآية: ١٢٩ .
١٣٦ — موسوعة أطراف الحديث ج ٥ ص ٤٠ .
١٣٧ — لعل في هذا اشارة إلى عدم تصديق عمر بن الخطاب رضي الله عنه خبر وفاة النبي ﷺ عندما سمعه للمرة الأولى فقال: «إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن ربه أرسل إليه ..... ».
انظر مغازي الزهري — تحقيقي — ط . دمشق ١٩٨١ ص ١٣٢ .
١٣٨ — سورة القلم — الآية: ٤ .
١٣٩ — سورة التوبة — الآية: ١٢٠ .
١٤٠ — سورة يس — الآية: ٧٨ .
١٤١ — سورة البقرة — الآية: ١٩ .
١٤٢ — سورة العنكبوت — الآية: ٦٩ .
١٤٣ — الشنخوب: أعلى الجبل. القاموس.
١٤٤ — الخريدة — قسم مصر — ج ١ ص ٣٥ — ٥٤ .

المحتوى